

# موال الصبا في المشيب

رواية قد تكتمل .. غداً

# موَال الصّبا في المشيب

رواية قد تكتمل .. غداً

سَمِير عَبْد الْبَاقِي



دار إيزيس للفنون والنشر

على هامش السيرة الذاتية

## موَال الصّبا في المشيب

رواية قد تكتمل .. غداً

سَمِير عَبْد الْبَاقِي



دار إيزيس للفنون والنشر

الناشر: دار إيزيس للفنون والنشر

العنوان: ٢٠ شارع طه حسين - الزمالك القاهرة.

هاتف : ٠٢٢٧٣٦١٣٦١

محمول : ٠١١٢٦٩٥١٩٥

بريد الكتروني : dar\_isyiss@yahoo.com

صورة الغلاف:

تصوير : وسام الدوياك

تصميم الغلاف :

اهداء من الفنان محمد كامل (كامل جرافيك)

التصميم الداخلي:

صالح عبدالعزيز

المدير العام :

سوزان التميمي

رقم الإيداع : ٢٠١٣/٣٠٢٦

I.S.B.N : 978-977-6367-53-1 الترقيم الدولي :

جميع الحقوق محفوظة ©

الطبعة الأولى - ٢٠١٣

عبدالباقي ، سمير

موال الصبا في المشيب: رواية قد

تكمل .. غدا / سمير عبدالباقي: - ط ١.-

دار إيزيس للفون والنشر، ٢٠١٣

٣٩٠ ص ٢٠ سم

٩٧٨ ٩٧٧ ٦٣٦٧ ٥٣ ١ تدمك

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

٢٠١٣/١/١٦ التاريخ: ٢٠١٣/٣٠٢٦ رقم الإيداع:

حين يصير المراهق طفلاً  
يجلس الشيخ بينهما وي بكى  
عائداً إلى صباحه  
لكنني لا أتذكرة غير صورة الطفل  
وقد فاجأه الجندي  
بضحكته المجلجلة ..  
ومصباحه  
الذي لم يكن غير لعبة قديمة !

(عبداللّطيف قاصر)

## وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ

○ قلقاً متواتراً كان يراقب حالته النفسية والجسدية  
منذ فترة.. أصبح يتوقع في كل لحظة أن تداهمه فجأة رغبته  
الحارقة في الإعتراف بخطاياه الخفية .. وكتابة تقريره  
الأخير والضروري ، شاملًا فاضحاً . طلباً للغفو والسامح  
.. والفهم ..

ينتابه الرعب ويزلزل طمأنيته الهشة، كلما ظن أن  
اللحظة قد أزفت، يقوم بتجهيز الأوراق الكافية والمناسبة ،  
وسرعان ما يطفئ لهيب رعبه بتمزيقها بيضاء من غير سوء.  
في كل مرة يشتري ما يكفي من أقلام الرصاص، يبروها  
بنفس طريقته الخاصة، التي تعلمها في طفولته المبكرة ..  
وفي كل مرة ينساها.. فتستخدم في أغراض أخرى ولا  
تعود تصلح للكتابة .. يورقه على الدوام إحساس عميق  
قاس بأن ما يكتبه تمت قراءته من قبل وسيكون عديم الفائد



فيسقط قلبه الصبي المنفعل في جب عميق، معصورا في قبضة ألم  
غامض مثقلًا بحزن مجهر، يمزق الأبيات التي خطتها على هامش كراسة  
الجغرافيا، أو الرسوم التي ملأ بها المساحات البيضاء في كتاب (المتنبك  
من أدب العرب).

أما أعداؤه فقد رموا طوبته من زمن بعيد ، وأحاطوا اسمه بما يكفي  
من أوامر إدارية وأمنية تشكل حائطا صعب الأخراق من أشواك وخوف  
وخبرأسود، ثم شطروا عليه وأسقطوه في مربع النسيان..

وهكذا بين مصلحة المساحة التي يديرها أصدقاؤه وصحراء التجاهل  
التي يحرسها أعداؤه .. تناشرت ، قصصه وحكاياته وأحداث أيامه الطويلة  
وعلاقاته في كتب ودفاتر مختلفة الأشكال والألوان لا تجد فرقه حقيقة  
لتقدير قيمتها أو حصرها .. أو اكتشاف أي قيمة لها .. فأصبح هو نفسه  
عاجزا عن حصر أعدادها أو إحتمال تأمل صفوتها مرصوصة مجلدة على  
الرفوف حوله .. وتجنب مع الأيام الرغبة في إحصائها خشية أن يفاجئه  
الموت وهو مشغول بالأرقام، التي عاش يكرهها طول حياته..

ـ ما العمل إذن يا صديقي؟ .. أحتاج أن تأخذ بيدي يا رفيق  
العمر.. أجرني.. الحلقة تضيق حول عنقي والمحصار يشتد .. لم تعد  
بيوت الصحاب تستقبل خطواتي المرة، ولا تنتظراها .. ولا تواجهني  
إلا وجوه القدامى منهم ترتدى أقنعة تخفى خلف بسمتها ما تكلس على  
أديم بعضها من كراهية وخوف.. وتناءت عبر العقود بينها المسافات..  
واختفت ابتسamas الحنان وشاب الزمان وتفرق الخلان..

طفرت دموع مالحة من عينيه حرقـت أحفانه ، وامتلاء برغبة معاكسة  
حارقة متحدية مشاعر اليأس.. تطالبه أن يعيد نـثر ملامح سنوات عمره

وبلا أي أهمية تقريبا .. فـما قيمة تقرير آخر كـتب مثله - بل وأفضل وأعمق  
منه - عشرات المرات من قبل ..  
هو نفسه كـتب كثيرا .. كـتب طويلا .. ولم تـظهر علامات الاهتمام  
عند أحد ما - بكل هذا الزمن المـسـفـوح على الأوراق - على أوراقه هو -  
قصائدـه وأـفـكارـه .. وـحكـاـياتـ وـمسـرـحـياتـ.

كان أـصدـقاـؤـهـ عـادـةـ ماـيـتـسـمـونـ فيـ عـطـفـ بـارـدـ وـهمـ يـتـظـاهـرـونـ  
بـعـبارـكـةـ ماـيـكـتـبـ دونـ قـرـاءـةـ .. وـتـظـلـ إـفـرـازـاتـهـ عـلـىـ الـورـقـ صـامـتـهـ لـاـ يـفـكـرـ  
أـحـدـ مـنـهـمـ فـيـ جـدـيـةـ أـوـ جـدـهـ مـاـيـكـتـبـهـ أـوـ حتـىـ جـدـواـهـ .ـ إـذـ تـعـودـ وـاعـلـىـ الثـقـةـ  
فـيـ خـصـوـعـهـ لـهـ إـلـىـ درـجـةـ يـعـتـبرـونـ مـعـهـ كـلـ مـاـيـكـتـبـهـ وـمـاـيـفـعـلـهـ صـالـحـ  
بـالـضـرـورةـ،ـ مـتـطـابـقـاـ مـعـ خـطـهـمـ السـيـاسـيـ وـالـدـعـائـيـ بـشـكـلـ أـوـ بـآـخـرـ ..  
لـقـدـ تـعـودـهـ لـاـ يـشـكـلـ أـيـ خـطـرـ مـضـادـ أـوـ مـقـلـقـ ،ـ فـهـوـ مـلـتـزـمـ التـزـامـ (ـ  
بيـورـيـاتـياـ)ـ وـلـاـ يـنـوـيـ التـمـرـدـ عـلـىـ حدـودـ التـزـامــ ..ـ حتـىـ لـوـ خـطـرـ لـهـ ذـلـكـ  
ـ عـلـىـ أـيـةـ صـورـةـ وـلـأـيـ سـبـبـ ،ـ لـذـلـكـ فـكـلـ مـارـسـاتـهـ الـعـمـلـيـةـ ..ـ أـوـ إـبـداـعـاتـهـ  
ـ الفـنـيـةـ تـكـوـنـ أـوـ تـكـادـ تـكـوـنـ مـتـوـقـعـةـ ،ـ فـيـ العـادـةـ ،ـ وـاضـحةـ وـجـلـيـهـ لـدـيـهـمـ  
ـ كـخـرـائـطـ مـصـلـحةـ مـسـاحـةـ لـاـ تـشـيرـ كـثـيرـاـ مـنـ الشـكـ أـوـ الـدـهـشـةـ.

ـ ردـودـ فعلـهـمـ تـكـوـنـ بـالـضـبـطـ كـرـدـ فعلـ أـمـهـ الطـبـيـةـ المـنـهـمـكـةـ فـيـ تـوزـعـ  
ـ وـجـبـةـ العـشـاءـ عـلـىـ دـوـاجـنـهـاـعـنـدـمـاـ ..ـ فـيـ فـرـحـ وـدـهـشـةـ ..ـ يـلـفـتـ نـظـرـهـاـ لـكـلـ  
ـ هـذـاـ الجـمـالـ الذـيـ يـغـمـرـ أـفـقـ السـمـاءـ الغـرـبـيـ ،ـ فـوـقـ سـطـحـ بـيـتـهـمـ فـتـمـصـصـ  
ـ شـفـتـيـهـاـ فـيـ إـبـتـسـامـةـ مـنـهـكـةـ بـجـامـلـهـ ..ـ وـهـيـ تـقـولـ دـونـ أـنـ تـنـظـرـ إـلـىـ حـيـثـ  
ـ يـشـيرـ فـيـ اـنـفـعـالـ:

ـ سـبـحـانـهـ يـاـ اـبـنـيـ ..ـ قـادـرـ عـلـىـ كـلـ شـيـءـ ..  
ـ ثـمـ تـعـاوـدـ الـانـهـمـاكـ فـيـ نـثـرـ الـحـبـوبـ أـوـ عـجـنـ الرـدـةـ فـيـ السـمـكـ المـسـلـوـقـ:

كان هذا ما ينتابه في الحقيقة من مشاعر وما يملأ قلبه من رعب وخوف .. وأنا أعرف كثيرين لهم ملامحه .. عاشوا حياة مثل حياته وعانوا من ظروف مشابهة .. لكنهم لا يتذمرون عذابه.. وإذا ما فكروا في تقيؤ سنوات عمرهم على الورق .. يلتجأون للكثير من المبالغة بحجة أو بأخرى .. أو لغرض أو آخر .. وفي الكتابة يصبح (الغرض مرض) أيضاً .. لكنهم لا يتذمرون ، فلهم من طول السعد ما يكفي ل يجعل المطبع على اختلاف أساليب إدارتها (عامة أو خاصة) و مختلف أشكال ملكيتها .. تنتظر ما يكتبوه في لهفة متعمدة .. لتنشره على الرصيفان كتاباً ومراجع .. ولتمتليء الأعمدة الفارغة على صفحات كل الصحف وعلى اختلاف مشارب ومذاهب كتابها وأغراضهم .. بمظاهرات الترحيب بها .. والإشادة بقيمتها .. وأعرف غيرهم لا يكفون ولا يملون من إثارة أكبر ضجة ممكنة يملأون بها الدنيا صخباً أمام الميكروفونات وعلى الشاشات .. ووراء المنصات للترويج لما تبولوه على الورق .. ويجدون الجرأة للقتال من أجل الحصول على الجوائز التي رصدتها الأعداء لشرائهم.

وقد حيرته هذه الظاهرة وأعتقد أنها هي التي جعلته يشك في قيمة ما يكتب بل وقرر أكثر من مرة الكف عن ارتكاب جريمة الكتابة، وأن يبحث لنفسه عن عمل أكثر ملاءمة لقدراته الحقيقة ومهاراته .. فهو يستخدم أدوات النجارة بحرفية متوسطة.. وعندئ ذكرة لا بأس بها عن طرق زراعة البصل البولي والتين الشوكلي .. والبرسيم الحجازي .. كما كانت له محاولات في شبابه لدق الوشم في الموالد.. وكثيراً ما قام بأعمال السباكة الصحية في بيته وفي بيوت أصدقائه.. أحياناً على سبيل التفكك ولكنها كانت ناجحة بما يكفي للحديث عنها بفخر.. وكلها مهن شريفة

على الأوراق من جديد ، للمرة الأخيرة - حروف و كلمات .. ول يكن ما يكون . لم يعد الوقت متاحاً للإنتظار أكثر من ذلك .. إن أراد تحرير روحه مما يثقلها .. ما دام قرر ألا يتحمل وزر جريمة أخرى.. لن يبحث عن منهاج فني بعينه ، فهو ليس روائياً محترفاً.. سيدرك كل ما يعن له ويدركه بالطريقة التي يتذكره بها وعلى الصورة التي يتخيل عليها دون تعمد.. لن يكتب إلا عمما يعرفه جيداً وخبره ليس اليد ورؤيا العين وحس القلب . بكل الصدق والحرية الكافية لجعل الحروف والكلمات والصور تتجسد في تلقائية . ولا تكون إلا هي ، لا زائدة ولا ناقصة عمما كانت عليه الأحداث والناس..

صادقة ظاهرة كقطرات الطل التي يخلقها جدل الليل والنهار على ورق الأشجار .. ولن يسمح أن يربت الأصدقاء على كتفه في تشجيع كاذب فلن يستطيع أن يغضب منهم أكثر من ذلك .. وسيرفض بشدة أن يتوجه له أعداؤه أو يمزقون صورته شامتين ، فلن يجد وقتاً كي يحتقرهم - بعدم الاهتمام لهم - أقل مما فعل حتى الآن..

كل ما سيسعى إليه الآن هو أن يضع حداً لهذا القلق القاتل.. وهذا الرعب الهائل الذي ينزله كلما فكر في كل ما جرى منه وما جرى له.. وما جرى عليه .. فليس هناك سبيل آخر للخروج من نفق الالتزام القاسي الذي تخبط في قيوده طوال هذه السنين ، ولا للتخلص من براثن العذاب الفادح الذي تحمل جراح أظافره منذ الصبا المبكر .. سوى الإنتحار .. أو الكتابة دون أن يقصد بذلك أي مبالغة أدبية أو تركيبة ميلودرامية لإثارة اهتمام القارئ .. فهو من يتمون لتيار الواقعية وأن وقف على ضفافها محتمياً بالمشاعر الإنسانية في صورها البدائية الفجة.. الساحرة البكر.

والرعب العادي والحزن النبيل ، الذي يعانيه ، متأكد تماما ، أن يوما سوف يأتي يتبّحّج فيه كثير من هؤلاء وأولئك ، على الملا - و(أنا) على رأسهم - صديقه ورفيق عمره وتوأم روحه اللدود ، الذي كان (جبريله) و(فيرجيله) و(خضره) - أتنا كنا قريين منه أكثر مما ظن هو بنا.

وأن كثريين منا سيندمون بشدة لأنهم لم يصروه جيدا .. وبعضاً سوف يعتذر - لأن صداقتهم له كانت أكثر نذالة مما يجب وآخرون - لأن عداوتهم كانت أقل شرفاً مما هو ضروري .. لذلك ، أتوقع منه الآن أن يعلنها واضحة صارخة على أول ناصية أو ميدان مزدحم يقابلها ، غير مبال بنظرات الرعب أو الإشفاق إلى ستحيط به وتترbusـtـ به بمائه على الورق قائلا:

-ليفهم الجميع .. وأنت بالذات يا صديقي التوأم - الآن أموت ، لأنتحول على الورق إلى حروف وصور تبدو خيالية أو غير حقيقة كما ألفتها .. لكن أنا راض تماما عن نفسي بقدر ما أنا راض عنها وعنك .. ومتمنٌ لكل ما مر بي بإرادتي أو بإيحاء منك - رضا أو غصبا - من أحداث وبشر .. وراض تماما عن تقريري هذا الذي أثقني أن يكون كما أريده ، على درجة مفزعة من الصدق والصراحة .. بالقدر الذي يليق برحلي يواجه الموت الحقيقي (الرباني) لأول مرة ، بحق - بعد حياة أرادها أو أجرر عليها - واجه فيها الموت ألف مرة .. واختار كل ما يحبه فيها وكل ما كرهه ، بمحض إرادته الحرة وأرادتك المتعسفة .. لكنه أرادها للنهاية كما هي بالرغم من حد سيفك المشهـrـ على رقبته ، يحرض عليه الأصدقاء والأعداء على حد سواء ..

يمكن أن تضمن له رغيفاً حلاً .. وكافياً يضمن الستر بعيداً عن وجع الدماغ ..

إلى أن وصلت حيرته في تفسير ترددـه في اتخاذ هذا القرار ذات مرة إلى قناعة عميقـة أنه يمارس الكتابة عمدا .. إمعاناً في التمتع المريض بشعور الإضطهاد والقهـر ..

وقد حيره أكثر من عجزه المستمر عن تنفيذ قراره بالكف عن الكتابة ، اكتشافـه أن متعته في ممارسة الشعور بالإضطهاد لن تساوي على الإطلاق عذابـه الممتع اللذيـdـ تحت وطأة الرعب من الوحـدةـ الذي يحاصرـه كلـماـ بدأـ فيـ الكتابـةـ .. ولا ذلكـ الحـزنـ النـبـيلـ الذيـ يـجـتـاحـهـ كلـماـ فـكـرـ فيـ الطـرـيـقـةـ التيـ يـسـتـقـبـلـ بـهـ أـصـدـقاـءـ وـأـعـدـاؤـهـ كتابـةـ -ـ التيـ لاـ يـمـكـنـ حـصـرـهاـ أوـ حـصـارـهـ ..ـ وـأـنـهـمـاـكـ الجـمـيعـ فيـ الـاسـتـعـدـادـ لـحـبـسـهـاـ فيـ جـدـرـانـ مـصـلـحةـ المسـاحـةـ ..ـ أوـ لـنـفـيـهـاـ عـلـىـ الفـورـ إـلـىـ صـحـرـاءـ التـجـاهـلـ ..

أرأيتـمـ؟ ..ـ يـخـالـجـنيـ شـعـورـ مـؤـكـدـ إـزـاءـ إـعـتـراـفـهـ هـذـاـ ،ـ آـنـهـ مـسـتـعـدـ لـآنـ يـمـارـسـ فيـ مـتـعـةـ بـالـغـةـ ذـلـكـ الشـعـورـ الـأـلـيـفـ مـنـ القـلـقـ وـالـرـعـبـ ،ـ لـآنـهـ فيـ هـذـهـ مـرـةـ مـصـمـمـ عـلـىـ تـحـوـيـلـ عـذـابـاتـهـ وـأـفـرـاحـهـ وـأـحـبـاطـاتـهـ وـأـحـلـامـهـ الـمـجـهـضـةـ وـأـحـدـاثـ حـيـاتـهـ -ـ ماـ خـفـيـهـ مـنـهـاـ وـمـاـ ظـهـرـهـ مـلـرـةـ وـاحـدـةـ وـأـخـيـرـةـ ..ـ إـلـىـ شـيـءـ مـاـ عـلـىـ الـوـرـقـ ..ـ وـأـنـ يـقـدـمـهـاـ بـكـلـ جـرـأـةـ لـلـجـمـيعـ أـعـدـاءـ وـأـصـدـقاـءـ ..ـ مـعـلـنـاـ لـأـصـدـقـائـهـ مـسـبـقاـ،ـ رـفـضـهـ النـهـائـىـ لـذـلـكـ التـعـالـىـ الـأـبـوـيـ الـبـغـيـضـ وـمـنـذـرـاـ أـعـدـاءـ بـأـنـهـ لـنـ يـهـمـ لـغـلـهـمـ الـمـقـيـتـ،ـ وـلـنـ يـحـاـوـلـ أـنـ يـكـونـ مـوـضـعـ رـضـاـهـمـ -ـ كـمـاـ كـانـ دـائـمـاـ ..

مـؤـكـدـاـ لـنـفـسـهـ فـيـ ذـاتـ الـوقـتـ ،ـ وـبـثـقـةـ ،ـ يـخـلـقـهـاـ اـحـتـضـانـ الـأـصـابـعـ للـقـلـمـ وـشـوـقـ الـحـرـوفـ لـلـتـحـلـقـ عـلـىـ الـوـرـقـ ،ـ آـنـهـ رـغـمـ كـلـ القـلـقـ الـمـشـرـوـعـ

أيها المراوغ يعاودك رعبك خلسة، يتجمد الدم في عروقك كلما تذكرت كيف كان يعتريك ، وأنت عائد وحدك في ساعة متاخرة من عمل أو اجتماع ما ، عبر (كاركاس) - وسط صفوف السيارات الصامتة - التي لا بد أن إحداها مفخخة بالتأكيد ، قد تنفجر فجأة سواء عند مرورك أو بعد عبورك.. يكتم أنفاسك خوف جاف يتتصق معه جلد حلقك . وتحرق جفونك دموع أثرية .. تدور حولك بعيونك مقيناً حوائط من حذر غير مرئي ، تحت جلد أنفك الذي تحرقه رائحة دخان أكواخ الزباله.. المحترقة . بالضبط كما تداعبك (الآن) روائح (جبل النرجس).. أو كما كانت نسمة العصر أمام (صخرة العاشقين) أو في (مقهي عروس البحر) الصامت . تلوك في تعب ذكريات أشعارك ونغمات عود (عدلي فخرى) وتصفيق الآلاف في العيد (الخمسين للحزب الشيوعي) حول جبل (أميون) ومتثال (فرج الله الحلو) الشامخ فوق القمة ، تغطيه حلقات وأطواق الزهر حتى الرأس .. أزهار من (الصين) و(موسكو) و(جنوب أفريقيا) .. و(كوبا) .. ياااه .. حتى (اليمن) .. و(فلسطين).. و كنت أنت نجماً أميناً بامتياز . وحدك الآن والمحصار..

(بلطيم) ليست رأس (بيروت) يا ابن (ميت سلسيل) ، البحر هناك  
لا صوت له .. لكن له رائحة الدم المتاخر الذي لا يكاد يسمح لصوت  
(فiroز) أن يصل إليك إلا مجھدا .. وسط ضجيج (لا تهزي كبوش التوته)  
يستحلفك بكل عزيز لديك ألا تسمح لمؤامرات وحيل صديقك اللدود  
أن تفسد عليك حياتك أكثر مما فعلت .. أو تعطيك صورة عن العالم اسوأ  
ما هو عليه ..

حاصرته عقب صراخة نظرات الدهشة المشفقة، ومشاعر التعاطف الساخر .. لكنها سرعان ما اختفت وتبخرت كشبورة في صباح شتوي دافئ.. وانصرف عنه كل من سمعه ، على اختلاف درجات تأثيرهم واهتمامهم وموضوا كل إلى حال سبيله مقتنعاً أن الحياة أصبحت أصعب وأعقد ، من أن يضيع لحظة منها في الاهتمام بما قاله أو ما سيقوله أو يكتبه هذا أو ذاك من هراء حتى لو كان شديد الصدق إلى حد الكذب..

اندفعوا متفرقين كلهم ، وضاعوا في الزحام الذي يصنعونه بدأب كل يوم .. مصمصت بعض السيدات شفاههن متسررات على حاله، وهن يجدبن صغارهن الضاحكين عليه في حلة.. أو وهن يغمزن جنوب أزواجهن العابسين القلقين ليبتعدن بهم عنه .. بينما صمت هو فجأة مثلما صرخ فجأة .. وتلاشى مثلهم في زحامهم وعاد كل شيء إلى سيرته المألوفة كأن شيئاً لم يكن..

وحلّك مرة أخرى - والبحر..  
بحر آخر .. لكنه نفس البحر بالتأكيد .. شاطئ آخر، لأرض أخرى  
ليست نفس الأرض التي تعرفها .. وإن كانت مثلها تبت الخيار والفوم  
والقطاء والبندوره والبطيخ - والقرع- وهي أيضاً تقتل ابناءها . لكن تحت  
شروط أخرى وبوسائل مختلفة، لأنهم يتکاثرون بنفس السرعة حتى لا  
ينقرش سلسالهم اللعين ولا يكف فيض مائدهم المهيئين ..  
محاصر أنت ما زلت على شاطئ المتوسط مثلما كنت أيام رب  
(الفهکاني) و(الروشة) و(المدينة الرياضية) و(ابن عساكر) و (باب توما)  
و (بيروت ستار) . لكن المحصار هذه المرة ليس المحصار نفسه، ولا على  
نفس الدرجة التي ييدو لك فيها مثل غيره ..

-دعني أوضح عنك ما يلتبس - في ظنك - علينا بكلامك هذا ..  
فمن الطبيعي أن يدخل حلبة السياسة من يشاء طمعاً في السلطة بعيدة المنال  
رغبة في التسلط والتحكم في رقاب البسطاء من خلق الله ، مستخدماً كل  
الاقنعة .. وكل الأحلام وجميع الوسائل.

أوَ مَنْ يَمْارِسُهَا طَمْعًا فِي عَدْلٍ مُسْتَحِيلٍ .. رَغْبَةٌ فِي التَّحْقِيقِ الْإِنْسَانِيِّ ..  
مَدْفُوعًا بِإِلَهَامٍ غَامِضٍ . أَنْ غَدًا لَابْدَ أَنْ يَكُونَ أَجْمَلُ .. وَوَهْمٌ جَمِيلٌ أَنْ  
البَشَرُ سَيَتَغَيِّرُونَ إِلَى الأَفْضَلِ .. أَنْ عَاشُوا بِطَرِيقَةٍ أَفْضَلِ ..

أَعْرَفُ أَنْكَ كُنْتَ مِنْ أُولَئِكَ الرُّومَاتِكِيِّينَ .. كَثِيرُونَ كَنْتُمْ -  
لَكُنْكُمْ عَشْتُمْ نَشَازًا يُفسِدُ اللَّحْنَ الثُّوْرِيَّ - مَعْوِقِينَ لِسِيرَةِ النَّضَالِ الَّذِي  
لَا يُساُمُ .. فَضُولِيِّينَ تَرِيدُونَ مَعْرِفَةَ كُلِّ شَيْءٍ ( وَهَذَا ضَدُّ (الانضباط)  
اللَّازِمُ .. تَشْبِيُونَ أَسْلَلَةً أَكْثَرَ مِنَ الضرُورِيِّ حَوْلَ كُلِّ شَيْءٍ .. حَتَّى تَلْكُ  
الَّتِي لَا (إِجَابَةً لَهَا) تَفْتَحُونَ الْأَبْوَابَ الْمُحظَّوَةَ فَتَبْدُو السُّوءَاتِ الَّتِي تَدْمِرُ  
الْيَقِينَ .. وَتَفْوحُ رَائِحَةِ الْعَفُونَةِ الَّتِي تَبْعُثُ الْقَرْفَ .. فَلَا تَعُودُونَ كَمَا  
ذَهَبْتُمْ .. لَا تَدْرِكُونَ حَقِيقَةَ الْانْدِحَارِ الْعَظِيمِ فِي (يُونِيُّو) .. وَلَا تَخْسُونَ  
رَوْعَةَ الْانْهِيَارِ الْعَظِيمِ وَالْهَزِيمَةِ الْمَرْوِعَةِ فِي الْعَامِ التَّسْعِينِ .. وَلَا تَقْهِمُونَ  
مَا فِي ذَلِكَ السُّقُوطِ الْهَائلِ لِأَبْنِيَةِ (سْتَالِينِ) السَّبْعَةِ الْمَحِيطَةِ (مُوسُكُو)  
وَ(الْكَرِيمَلِينِ) مِنْ رَوْعَةِ وَأَبْهَةِ .. تَؤَكِّدُ نَبْلَ الْحَلْمِ بِالْعَدْلَةِ .. وَبِرَاءَتِهِ مِنْ دَمِ  
الصَّغَارِ وَغَبَاءِ الزَّعْمَاءِ!!!

هَلْ أَوْضَحْتَ عَنْكَ مَا يَكْفِي .. أَمْ سَتَسْفَهُنِي كَعَادْتُكَ؟

الآن.. وحدك دون جيلك تجاوزن السبعين وهي ميزة ليس  
لأصدقائك فضل فيها .. بل يبدو أنها حدثت على غير رغبهم . ورغم  
أنوفهم بعد أن عجزوا عن النيل منك ، برحيلهم واحداً بعد الآخر وهم في  
الخمسين أو أكبر قليلاً..، لكنك - بدرجة ما من الغباء أو الخوف - تظن

لَكُنْكَ لَسْتَ (أَخْيَلَ) يَا وَلْدَ وَلَا (أَبُو زَيْدَ) .. وَلَا يَمْكُنُ أَنْ تَنْسِي  
أَنْكَ سَلِيلَ النَّجَارِينَ الَّذِينَ هَرَسُوهُمْ قَطَارَ الزَّمْنِ، مِنْذَ دَمَارِ (تَانِيسِ)  
وَخَلْفُهُمْ ضَحَايَا لِأَطْمَاعِهِمُ الصَّغِيرَةِ وَصَرْعَى لِقَلْلَةِ الْحِيلَةِ وَغَبَاءِ الْضَّعْفِ  
الْمَنَافِقِ الْلَّزِجِ الَّذِي يَخْلُقُهُ الصَّبَرُ الْأَعْمَى وَالْهَرُوبُ الدَّائِمُ جَيُوشُ  
الْغَزَا وَالْتَّجَارُ الْجَائِلُينَ وَالْتَّكَبُولُو جِيَا الْحَدِيثَةِ .. وَلَسْتَ (عَنْتَرَة) يَا حَفِيدَ  
الْفَلَاحِينَ الَّذِينَ انتَزَعُوا الْأَرْضَ شِيراً شِيراً مِنْ بِرَاثَنَ هَذَا الْبَحْرِ الْمَالِحِ ..  
وَصَارُوكُوا دُونَ جَدْوِيِّ كَيْ يَكُونُ لَهُمْ مَا لِلْأَسْمَاكِ مِنْ حَقُوقِ.

وَهِينَ فَشَلُوا أَنْ يَقْنِعُوا الْجَبَاهَةَ وَالْوَلَاهَةَ وَالْمَشَايِخَ بِقَدْرِهِمْ عَلَى التَّحْمِلِ  
، هَرَبُوا لِلصَّحَراءِ لِيَمْوِلُوا عَطْشَانًا فِي بَرِّيَّةِ سِينَاءِ وَتَهَامَةِ أَوْ لِيَصْبِحُوا خَدِمًا فِي  
(الْسَّعُودِيَّةِ) أَوْ رَعِيَانَ غَنْمَ فِي (الْأَرْدَنِ) .. أَوْ جَثَثًا فِي (الْعَرَاقِ) .. خَلْفَكَ  
وَحْدَكَ بِلَا حَصَانٍ خَشْبِيٍّ تَخْرُقُ بِهِ أَسْوَارَ مَدْنَكَ الْمَحَاصِرَةِ، وَكَفُورَكَ  
الْأَسْيَرَةِ وَحَصُونَكَ الْمَدَرِّمَةِ .. تَائِهًا فِي أَحْرَاشِ نَفْسِكَ الْمُسْتَبَاحَةِ لِتَلْحِقُ  
بِالْجَنَاحَاتِ الْأُخْرَيَةِ. الَّتِي سَلَبَتْ أَهْلَكَ قَدْرَتِهِمْ عَلَى الْحَلْمِ، وَأَرْهَقَتْ قِرَائِكَ  
الْمَهْزُومَةِ الْمُتَهَكَّمَةِ بِشَكْلِ دُورِيِّ كَأَوْجَهِ الْقَمَرِ وَدُورَاتِ الْفَصُولِ وَمَوَاعِيدِ  
الْزَّرْعِ وَالْحَصَادِ .. كَلِمَا حَلَ (بَوْنَة) فِي كُلِّ عَامٍ مَمْهُماً تَغْيِيرُ اسْمِهِ بِتَغْيِيرِ  
رَسَالَاتِ السَّمَاءِ وَرَأِيَاتِ الْمُغَنَّصِبِينِ ..

وَكَأَنْ كُلَّ السَّهَامِ كَانَتْ - مِنْ كُلِّ الْجَهَاتِ - مِنْ كُلِّ الْجَهَاتِ - مَوْجَهَةً إِلَيْكَ ..  
وَحْدَكَ - مِنَ الَّذِينَ ظَنَّوا فِي خَطْوَرَتِكَ الْمَرْعُومَةِ مَا يَدْعُو لِلتَّرْبُصِ بِكَ ..  
سَوَاءَ مِنَ الَّذِينَ تَأَكَّدُوا أَنَّهُ لَا لَكَ فِي الْعِيرِ وَلَا فِي النَّفِيرِ - الْعَارِفِينَ مَوَاطِنَ  
ضَعْفِكَ .. أَوْ الْخَانِفِينَ عَوَاقِبَ صَمْدُوكَ، أَعْدَاؤُكَ الْمُتَنَصِّرُونَ الَّذِينَ اعْتَرَفُوا  
بِيَهْزِيْتِهِمْ أَمَامَكَ .. أَوْ مِنْ أَصْدَقَائِكَ التَّنَوَّاقِينَ كُلَّ صَبَاحٍ لِتَحْقِيقِ اِنْتَصَارِ  
رَحِيْصِ عَلَيْكَ لِيَقْدِمُوكَ وَأَمْتَالَكَ مِنَ الْحَالِمِينَ السَّدْجَ وَالْحَمْقَى - مِنْ  
أَنْصَافِ الشَّطَارِ وَالْمَوْهُوبِينَ الَّذِينَ لَا ظَهَرَ لَهُمْ وَلَا بَطَنَ - قَرَابِينَ لِآلَهَةِ  
الْكَذْبِ وَالْحَقْدِ وَالْكَرْهِ الَّتِي يَتَبَعَّدُ فِي مَحَارِبِهَا أَهْلِ السِّيَاسَةِ ..

من الذين بذلوا ما استطاعوا من جهد و عناء مرض و نفحة ، لإلقاءي و نفيي إلى صحراء التحابل .. فقد ذهبت جهودهم عبثا.. فيها أنذا رغم كل هذا الوقت والجهد الصائع.. أتجاوز السبعين رغمما عن أنوفهم .. وابدا الكتابة من جديد كأنني قمر وليد أو برم عم يفتح في موسمه ..!  
\* \*

مضى في زحامهم معتداً بنفسه غير مهتم بالعيون الشامته أو المندھشة التي تهاصره .. إبتسם راضياً بقدر كاف عن نفسه وأخذ نفسها عميقاً ليختفي خجله .. نعم كان خجله يحاول أن يخفف من غلوائه دافعاً به إلى غابة الندم وأشواكه.. لكن الحزن النبيل الذي ملاً قلبه .. حماه من الابتئاس.. كان في أعماقه مبتهجاً سعيداً .. لم تكن تبدو عليه الفرحة، لكنه كان يحس بالسعادة التي يملأ قلبه بها وعيه بتلك السنوات الطويلة الحافلة التي عاشها .. حيا .. لا عاجزاً ولا بليداً .. فله ابن وابنة وأحفاد وبيت ، وكانت له زوجة أحبته وكان عنده قط جميل رائع وبضعأشجار زرعها بنفسه .. ومازال أحلام السفر تداعبه .. وأمامه في صفحة السماء قمر وأصدقاء قليلين .. له محبيين ومربيين كحبات المطر.. وفي قلبه انتماء عميق، لقرية وشاطئ وجدران أقامها بنفسه ومعه خلق كثيرون وقراء ومعارف، صنع لهم ، أو معهم ، حلمما من بعض أيامه.. ومن بعض دمه ، ومن الكثير من العرق والدموع ومن أيام السجن. سفنا وأفقاً باتساع المدى .. وببيوتا بسيطة لها شمسة قدحه الزيت في مغارب القرى المتبعة. ويمتلك قصيدة وأغنية طويلة لا تموت .. أفلنت بأعجوبة منالحصار.. وعلى لسانه حكايات للأطفال بلا نهاية.. لا تكف عن بعث وخلق البسمة الصعبة على وجوههم الجميلة المدهشة .. ولديه ساحة تضج بالصراعات وبالدراما وبالبشر!!

• • •

أن كثيراً من الإحباطات منذ الآن ستهاجمك وأن أسبابها الحقيقة موصولة بالأقربين إليك منهم ..  
أليست بذلك تظهر شيئاً من نكران الجميل؟

ـ لا لست ناكراً لأي جميل .. وهم لن يغضبو مني ، فالموتى لا يغضبون أحداً لأنهم عاجزون .. أنا متأكد أن كل من تكبّد بسبيبي ذرة من عناء أو قدر خردلة من عنت سوف لا يغفر لي ، وسيقتصر مني في الوقت والزمن المناسب - ومن يدينني منهم بمقتال ، لن يسامحني فيه .. وسيطالبني به أضعافاً مضاعفة .. فطمئنهم وأصرخ بقوه وأبلغهم عنـي .. أعلنها في وجوههم في الأسواق ولا تبالي بنظرات الغضب ولا همـمات الشماته التي سيحاصرـونـي بها ..

ـ أنا أقولها بكل ثقة.. أطمنـوا يا غجر .. أني لن أهرب من دين ، ولن أتهرب من ذنب أو جرم جنـيت أو ارتكـبت .. لقد ذهب أكثركم والأقـنة على الوجه لم تمس ودفن بعضـكم أسرار خيـانتـهـ معـه .. فاختلطـتـ جـثـثـ المـجـرـمـينـ بالـضـحـايا .. وامتـزـجـتـ أـشـلاءـ الجـانـينـ بالـأـبـرـيـاء.. ليـتـهـجـ منـ بـقـىـ منـ الجـنـاهـ والـكـذـبةـ عـلـىـ قـيـدـ الـحـيـاةـ حتـىـ صـدـورـ هـذـاـ التـقـرـيرـ .. فأـنـاـ لـنـ أـطـالـبـ منـ يـدـينـونـ لـيـ .. حتـىـ بـحـيـاتـهـ .. وـماـ أـكـثـرـهـ .. ولـنـ أـمـنـ عـلـىـ منـ قـدـمـتـ لـهـمـ عمرـي .. بـمحـضـ إـرـادـتـيـ زـادـتـهـ وـضـيـاءـ .. وـماـ أـغـدـرـهـ .. ولـنـ أـعـاـيـرـ منـ وـهـبـتـهـ بـعـضـاـقـلـ أوـ كـثـرـ منـ مـوـهـبـتـيـ أوـ عمرـيـ منـ شـعـريـ أوـ منـ صـحتـيـ .. فـمـاـ اـفـرـهـ ..

ـ أناـ يـاـ أـصـدـقاءـ .. وـيـاـ مـنـ لـسـتـ كـذـلـكـ .. مـمـنـ حتـىـ لـأـولـكـ الـذـينـ أـجـهـدـواـ أـنـفـسـهـمـ منـ عـرـقـلـتـيـ أوـ فـيـ تـضـلـيلـيـ .. أوـ فـيـ (ـالـوـزـ)ـ عـلـيـ .. وـلـأـولـكـ الـذـينـ اـجـتـهـدـواـ بـشـمـنـ أوـ بـدـوـنـ أـجـرـ لـيـزـرـعـواـ الأـشـوـاـكـ فيـ طـرـيـقـيـ .. مـمـنـ لـهـمـ بـنـفـسـ الـقـدـرـ الـذـيـ أـنـاـ بـهـ شـامـتـ ، أـسـخـرـ بـكـلـ جـوارـحـيـ

على بلكونة البنت (مايسة) ذات الياسمينة الطارحة ، واللبابة السارحة . وعلى زينه الخضرجية التي كانت وراء نافذتها الحديدية تنتظر زوجها عارية لينفذ فيها حق الله الشرعي .

أنت يا من فتحت عيون البنت (نجاة) على حزن وبؤس أبيها ، حين حرم منها ومن أمها ليدخلوه مستشفى المجانين .. لا لشيء إلا لأنه (يمتلك بندقية "لي انفيلد" من بقايا الحرب العالمية الأولى) ، ويحب (هتلر الذي سينصر الإسلام ويدمر أمة الإنجلiz) .. ملست شعرها المبلول لأول مرة في حياتها . وبشفايفك مسحت دموعها حتى اتفطرت من السعادة ..

ظلمت (رسمية) بنت خالتك بحسن نية ، حملتها أكثر من طاقتها حين كنت تتعمد إيقاظ شهوات (نرجس) الغافية أمامها عمدا دون مراعاة لمشاعر حرمانها .. حتى ماتت وحيدة لا أم ولا أب ولا إخوات مع إنكوا كثير تسدوا عين الشمس . ولم تجد من يغلق عينيها لآخر مرة وينطقها الشهادتين ..

شعبط أختك الكبيرة في حبال الهوا الدایية . صدقـتـ وآمنتـ بقوانينـ الجدلـ والصراعـ الطبـقـىـ . فـبـكـتـ أـمـاـمـ صـلـيـبـ (سبارتاكوس)ـ . وـحـلـمـتـ أـنـ أحـدـاـ (يـوـمـاـ ماـ)ـ سـيـذـكـرـ فـضـلـهـ عـلـىـ الثـوـرـةـ العـالـمـيـةـ منـ أـوـلـ (هوـشـيـ مـنـهـ - جـيـفـارـاـ)ـ .. إـذـ كـلـهـمـ اـنـتـصـرـواـ،ـ بـفـضـلـ قـرـوـشـ وـبـرـايـزـ درـجـ ماـكـيـنـةـ الـخـيـاطـةـ الـذـيـ لـمـ يـغـلـقـ فـيـ وـجـهـ كـلـ التـنـظـيمـاتـ (الـشـورـيـةـ)،ـ مـنـ (الـهـنـدـ)ـ لـغـاـيـةـ (دـكـرـنـسـ)ـ يـدـفعـ ثـمـنـ حـبـرـ الـمـشـورـاتـ الزـرـفـ وـأـحـرـ الـمـواـصـلـاتـ وـثـمـ عـجـيـنـةـ الـبـالـوـظـهـ وـرـسـومـ الـبـرـقـيـاتـ الـتـيـ سـجـنـتـ بـسـبـبـهاـ ..ـ مـعـ أـنـهـ لـمـ تـقـهـمـ كـيـفـ تـدـفـنـ (الـاشـتـراـكـيـةـ)ـ بـلـادـ النـوـبةـ ..ـ وـلـاـ كـيـفـ يـمـوتـ (شـعبـانـ حـافظـ)ـ بـعـدـ كـلـ هـذـاـ السـنـ فيـ غـرـبـةـ الـواـحـاتـ ..ـ وـيـمـوتـ (شـهـدـيـ)ـ بـضـرـبـةـ شـوـمـةـ مـصـرـيـةـ ،ـ وـلـاـ كـيـفـ يـصـبـحـ (رـفـعـتـ السـعـيدـ)ـ بـعـدـ كـلـ العـذـابـ هـذـاـ مـحـافـظـ بـنـكـ

## ولكن أنفسهم يظلمون ..

○ قـومـ ..ـ فـزـ اـعـتـرـفـ ..ـ حـقـ نـفـسـكـ لـلـأـفـرـاحـ الـأـوـلـىـ وـلـأـحـزـانـ الصـباـ ..ـ لـهـدـهـ (سـيـديـ مجـاهـدـ)ـ وـجـمـيـزةـ غـيـطـ السـبـاخـ وـمـرـاجـيـحـ (أـحـمـدـ هـمـامـ)ـ ..ـ لـمـشـنـةـ جـرـجـيرـ خـلـتـ (خـضـرـةـ أـمـ بـيـوـمـيـ)ـ ..ـ اـسـتـغـفـرـ خـطـاـيـاـكـ الـأـوـلـىـ -ـ مـنـدـيـلـ (مـدـيـحـةـ)ـ بـنـتـ (أـمـ نـبـرـ)ـ أـوـلـ بـوـسـةـ تـحـتـ (خـيـمـةـ الـيـاسـمـينـ)ـ .ـ طـرـحةـ خـلـتـ (مـقـبـولـةـ)ـ وـعـيـنـهاـ الـقـدـيمـةـ -ـ يـوـمـ اـتـهـمـتـهاـ بـالـكـذـبـ لـاـنـهـ كـانـتـ تـرـتـدـيـهاـ عـنـدـمـاـ رـأـتـكـ تـسـرـقـ الـفـوـلـ الـحرـاتـيـ ،ـ وـرـأـتـ صـاحـبـكـ (فـارـوقـ)ـ مـلـقـحـ فـيـ التـرـعـةـ مـرـعـوبـ ..ـ وـصـاحـبـ الـفـوـلـ يـصـرـ عـلـىـ أـنـ يـطـارـدـكـ أـنـتـ يـاـ مـنـ وـجـدـتـ لـكـ عـيـنـ جـدـيدـةـ ..ـ تـغـمضـهـاـ ،ـ مـقـسـماـ بـكـلـ عـزـيزـ أـنـكـ لـمـ تـذهبـ إـلـىـ غـيـطـ (الـعـوـاـيـضـةـ)ـ مـنـ سـنـينـ ..ـ اـعـتـذرـ عـنـ تـلـصـصـكـ



منكم بكثير ، عندما أعلن أن المغرب أقرب من الفجر .. وان الشيطان هو اللي طبخ الطبخة من يوم ما نفضلك ضهر أبوك في بطن أمك ، فوق يتحدى على سطح (سيدي مجاهد) عريان ملطف كاشفا وقابضا على عورته الضامرة ليراه الجميع - نسوان ورجال - على رأسهم ضابط الأمن الكبير ابن شيخ البلد .. ليشهدوا معه أنه ليس شيئاً .. وأنه لم يعاشر أخته في الحرام ولا في الحلال ، ولا عاشر حتى زوجته ولم يظلمها .. لأنه لا يمتلك أصلاً أي إمكانية لإسعادها .. وأنه عندما هتف من قلبه (عبد الناصر) والخلق تبكي أولادها الذين دُفعوا في هجير سيناء ، لم يكن يقصد أي احتياج ولا (تقليس) فقد عاش عمره جنب الحيط ، يا دوب يدق على الطلبة في السحور ويؤذن المغرب عند الإفطار ولا يقرأ غيرهما سورة (أهل الكهف) و (عبس وتولى).

قوم .. فز .. استغفر الكل واستسمحهم ، يمكن تلحق نصيب في أحزانهم ويعذروك .. ويسامحوك في حقهم عليك ، وذنبك يغفروه . لأنك صدقت تخاريف (الشيخ الخشان) وأحلام (ابن عبد ربه) و(فؤاد حداد) و(أبوك سليم) .. اللي دهستها بوابير الحرت التي بعث بها (الزعيم المؤمن) لتستولي على أرض (الدومين) وتدفن (طيور ابو الخضير) تحت عواميد أسمنت كوبيري (القناة الجديد) ، وجمرك (بور سعيد الحرة !!) ، محبة لليهود تنفيذاً لاتفاقية الكامب .. ويقيم على أحد ثطرق الديمقراطية، التلال منابر العجيبة اللي ح تنقد (مصر) من مصير العالم الثالث ، مرهونة بشيكات صندوق النقد الدولي .. اللي مكتتبه في لحظة صفا أن يستجيب لطلب خدمه من الكتاب المخبرين أن يضاعف منح تفرغ الأدباء والفنانيين ويعفيهم من ضرائب الكتب من أجل بناء مصر المصيرية !

• • •

التمويل الأمريكي ، ومدير عام إدارة عموم تصفيية اليسار كما (ادعى عليه أنت عيني عينك) .. فتضطر أن تعلن استسلامها و Yasheh من رجوعك .  
استسمحها وحب على إيديهما ، يمكن تغفر لك آهات مشاورير السكك الكعابي في عز نقرة الشمس إلى طلمبات السرو وعزبة أكالة العيش .. وصداع المناقشات اللي مش جايية في المندرة التي تحملت كل ماعن لزاج والدك المتقلب من تغيرات واضطررت أن تشارك في الخناقات الخاوية .. حول من سوف يدفع ثمن العمر المسروق .. وعيش الغربة المحروق ، ومصاريف عيال عقلهم زى حلقة مفتوح وأحلامهم بوسع الوطن ..

اعترف وقل مثلما قالت أمك .. (خايب بلاده خايب بلاد الناس) .. و اللي سرق عيني عينك من تحت لتحت .. أكيد يسمح لنفسه يخطف الكحل من عيون الأيتام . عيني عينك أيضاً - لكن من فوق لفوق .. بعد ما انكبت أساسينا في كشوف العملاء ، واتفرق دمنا بين (البناجوون) و(الكريملين) ونفينا (ميت سلسيل) من التاريخ ، وبعنا (بولاق) و(دقهلة) لحساب بورصة (مجموعة روما) وتجار ورق الدشت الأمريكي !!

فسر لهم لماذا مضت بك وبهم الحياة في اصرار محسوب في مسارها المحتم وللي كان مكتوب ومقدر حتمي معه أن يتتحول (كافح الشعب المصري) والطبقة العاملة - اسم الله عليك وعليها - لطبعه مسروقة ، وحزب معفن وفيلا في الهضبة الوسطي ، وقصر ف (مارينا) وعزب وزارع حديثة في الأرض البكر على امتداد الخط الثوري من (سينا) (لوادي النطرون) تشرب آخر نقطة في عرق أبوك (سليم) ، وآخر ضي في نن عيونه .. من أجل أن يرحمه زمانه فلا يرى أبناء الزعماء يعملون لحساب الشركات المتعددة الجنسية ويقبضون بالعملة الصعبة ولا يقرأ الكتب الكداة ، التي تؤكد أن الشيخ (أبو صبح) الأعمى كان أشطر

و كنتَ (أنت) فاراً بريأاً يتسلل عبر السطوح إلى الأحواش والمناور  
والأفران وقاعات الخزين وأركان حموم النساء السرية يتلصص ويداعب  
ويسرق ويعانق ويغازل .

لم تحمل هماً ، فهناك دائمًا من كان يتولى عنك حل كل مشاكلك  
ويضمن لك كل مطالبك ، مع أنك لم تكن تجرؤ على الحديث مع أبيك ،  
أو الجلوس على حجره مثلما يفعل كل الأطفال . لم تعرف جوعاً أو حاجة  
فالقرش يجري بين يديك من يديه ، حتى عندما يجف نهر المقاولات  
وتفتر حمّى الصراعات . لم تقهرك حاجة ، فيبيوت العائلة الكثيرة والكبيرة  
مفتوحة لك وإن صكت وجهك بعض أبوابها .. وغلقت دونك بعض  
قلوبها حسدًا أو قرفاً . لكن الطين لم يلوث كفيك إلا حين كنت تكوره  
لتحفظ داخله ديدان الأرض عندما تخرج للهُو بصيد السمك من  
(المسرف) أو عند (الهدار) . الذي يقوم على آخر زمام أرضكم التي لا  
تعرف ولم تهتم أن تعرف يوماً حدودها – إلا بعد أن تسرب معظمها بفعل  
الزمن والديون والتنازل الذي لا يتحكم فيه شيء – فأنت مشغول طول  
الوقت بما يشتعل داخلك من لهب (الجمر) الخفي للتفرد الذي يجعلك  
كطير بري جواب فوق سطوح القرية وفي دهاليز الحواري والسراديب  
الخفية .. لتمارس كل ما لا يخطر على بال من في سنك من حماقات  
ونزوات .

في عز الظهر وبعد الخروج من ماء البحر الصغير إلى ظل صفصاف  
(المغذي) تجمع الأجسام العارية حولك وأنت تمارس بالطين الناعم اللزج  
العادية السرية ، جهاراً نهاراً فتدفع الصبيان المبهورين ، بمارستك لجرأتك  
علانية ، لمحاولة تقليدك . ولكن هيهات وهم لا يملكون مثل هذا (الفرع)  
الداكن الذي لا يناسب لونه بياض بشرتك وكأنه عضو مضاد لجسمك

## مرج البحرين ..

○ ليتنى أستطيع أن أخمن يا صاحبى متى  
التقينا بالضبط ، ولو أتني أعتقد أن ذلك لا يهم أحداً  
سوانا ، فتحن فى الحقيقة أصدقاء منذ ما قبل الولادة  
و أصحاب عبر أيام الطفولة والصبا الحضراء في تلك  
القرية التي تمتد بين البحر القديم وجسر قطار وجه  
بحري (الفرنساوى) كالكذبة الجميلة .. ورفاق  
خلال أيام الشباب والكهولة وحيث كان الحلم  
يُخفف عنا عذابات الزنازين في كل هذه المدن  
الظلمة المحترقة التي عبرنا أمجادها المدمرة وهزائمها  
النبيلة – ظلاً وصاحبها .

كنتُ (أنا) أيام الطفولة والصبا فراشة تحوب  
الحقول .. ترتع حرة بين جسور الفول الحراري  
وأسوار التبن الشوكى وشوالي الحليب في خزانات  
الطين القديمة التي لا أقفال لها ..



(فرج) وتحول الجن في حجرهما من أرانب لأحذية قديمة ..  
وحكاياتك أنت مع المارد الذي لقيته مع (حسن العربي) أمام بيت  
(الشهابية) جحشاً مسالماً أحقر من جحشة (ظاظا) يدعوك للركوب  
بباسن فضيحة .. وبينما فرَّ (حسن) ركبتك أنت . وحين فاجأك الجحش  
بالارتفاع أعلى من نخلة (ياسين) ، أنقذتك نصاحتك ومعرفتك اللا  
محدودة بأمور العفاريت ، التي تدفعك للاحتفاظ بالسلة جاهزة دائمًا في  
جيبيك ، تخرجها بسرعة البرق وتتخذه بقوة .. (فنخَّ وقد ارتفاعه وسار  
بك طائعاً كأي جحش أليف تدور به في حواري القرية !

(تبصر من شرائعات نوافذها وفتحات مقاعدها ، خلفيات الرجال  
العارية وهي منكفة على أجسام النساء العلوى وهن يتاؤهن ويتأودن).  
لكل امرأة طعم نحسه ، صوت نسمع همسه ، لكل واحدة نغمة  
تختلف عن الأخرى (وجيدة) غير (بهية) و(زينب) المسئولة غير (زكية)  
ذات الجسم الضخم التي يبلغ حجم فردة ثديها حجم طفل صغير سمين  
، والتي (تأخذ زوجها النحيل كالسلحية بين فخديها الهائلين لينزلق فوق  
بطنهما القبة متقارفًا في هوس فوق تضاريسها كالبرغوث اللاسع) ، لكنه  
 قادر دائمًا أن يحكمها ويشكّمها . فتصدر آهاتها المسرعة المتواترة التي  
 يضحكنا من القلب تقليدك لها .. وكلهن غير (أم بهلول) التي تبوح بأغنية  
 خاصة لكل رجل يركبها . فهي (ترتل) كالشيخة (آمنة) عندما تكون في  
 حضن زوجها الكهل .. و(تلعلع) مثل بنت (دعيس) في الأفراح و(تنن)  
 تحت وطأة عنفوان الواد (بكير) العربي صديق ابنها .. و(تنفخ) مجموعة  
 مثل ناقة (الصحاصح) في أنفاس طويلة ملتذة مع الرجل الساهي ؛ جارها  
 المدرس الذي من عشر سنوات يؤجل زواجه من بنت الشيخ (أبو حامد)

النحيل . منتزع من جثة رجل لها صورة أخرى .. ليعقد لك الزعامة  
 عليهم ويجعلهم يخضعون لسلطانك ويستمعون شعوفين لحكاياتك عن  
 البنات والنساء والحيوانات ودور النوم مع الحمير في زيادة حجم آمالك ..  
 عن بنت (غانم) التي تتلوى وتتمرغ عارية تحت أقدامك في عشة فراخ  
 أمها الشلق ، التي تجلس على رأس الحارة تخانق طوب الأرض وتبيع بقايا  
 خيرات الحقول .. بينما ابنتها تمارس الجنس معك في خزانة الخبوب ..  
 وعن زوجة ابن جاركم الصبية التي تحضنك لاهثة فيما بين البرميل والزير  
 في الركن متحصنة من اللوم بحنان أمومي كاذب لا يخفى زيفه القميص  
 الشفاف المبلول ، لتعوض بحرارتكم برودة ليال طويلة من الحرمان  
 الشرعي !

وعن ذلك الأسطى الفتوة ذي الشارب المبروم والصوت العالي ،  
 الذي يتحكم في ميدان المحطة والسوق كله ، بكلمة لا ترد وهو ملقي  
 تحتك فوق كوم التبن القذر يتاؤه ككلبة لائدة .

الكل يتبعونك فجأة عندما ترتدي ملابسك وتعود جريًا إلى القرية  
 ، كأنما ضربتك نزوة مفاجئة ليتابعوا في شغف يدك الساحرة وهي ترسم  
 على الأوراق بالقلم ، وبالألوان الطباشير على الحيطان القليلة المبيضة  
 بالجير ، أشكالًا تكاد تكون حقيقة لحمير وبط وبشر.. أو تشكل من طين  
 الصلصال أشكالًا على هيئة الطير والحيوانات ، تطلقها فتكاد تمشي أو  
 تخور مرددة اسمك أو كلماتك الملحنة الملحونة .. التي تعطيها أنعامًا من  
 فمك نردها خلفك مسحورين .

وعند (خرنفحة) عيوشة في الليل تستحضر جنياتك وعفارياتك تبعث  
 في قلوبنا الساذجة الرعب الذي يضخمه في ليالي الشتاء رعد السماء  
 وخیالات ظلمة الأرض . وأنت تحاصرنا بحكايات (فريحة) وزوجها

كذباب ضخم . نسقطها بالجريدة والغاب ونظل نطاردها حتى يحول بيننا وبينها الظلام الحالك . وتحرضنا في أوقات الفراغ على صيد الدبابير أو الرعاشات تتنبّب بطنونها وتدخل خيوطاً طويلة فيها .. لتطير وهي مربوطة لأيدينا فنجزوا بها حواري القرية صالحين بأصواتها لنفرع أطفال كتاب الشيخ (محمد الأزرق) .. الذي يطاردنا ويمد الولد الذي يطوله منا في الفلكلة ، فنعود ونحاول تحريره بالطوب .. ويغضب أبي دائمًا عندما تصله (الشكاوى) وكأنني وحدى الذي يفعل كل ذلك يكون غضبه أكبر لأنه يرايني أتبعك كالمرميد وأجري وراءك كالمسحور فيشور ، وتورم الخزانة مؤخرتي ولا أتوب !

فأنت .. كنت الساحر المدهش الخلاق .. وأنا في جلبائك تحت جلدك أحاروّل اللحاق بك مثلاً بمواعظ خالي (السعيد) مرعوباً من قرصاته لأذني .. محلاً بنصائح أمي بنت (يوسف) أرزح تحت أكمام كتب بليدة ومسائل حساب معقدة وكلمات أجنبية سخيفة . بينما أنت الذي تخففت منها ، تخفف عنّي .. وتدفعني لتجاهلها أو تحديها والانتصار عليها .

تصعد بي نخل (الشهابية) لاكل من عسل بلحه النادر ، تعبّر بي البحر الصغير في نفس واحد .. فوق الماء وتحت الماء لنتر بص بطیور (ابو الخضير) التي تحفر بيوتها في سياخ التلول المallow .. نطارد الغربان التي تبني أعشاشها فوق كافورة (الشيخ علي) العملاقة ونواجه زعيقها بنعic أشد وأقوى ، فتفر من أمامنا كالغربان .

وأنت الذي علمتني تلك العادة السحرية المفعمة باللذة الغامضة حتى قبل أن أفلح في التعرّف على ذلك السائل المدهش ، الذي لم يكن

البكرية هرّباً من سطوة أمها الشعنونة التي تتلذذ بعقابه على نجاحه في امتلاك قلب بنتها الحلوة التي تعشقه لإيقانه غناء أغنية (صالح عبد الحي) (ليه يا بنفسج) بصوت ساحر مغر ومثير .

كل حكايات النساء عندك ملونة ملحنة حية . تجعلنا نعيش حالة شجن وانبهار تجعلنا . نحس نعومة ملمس الحصر والبطاطين ، وخشونة القش المهروس تحت وطأة الأجساد المحمومة .. ونشم رائحة العرق بل ورائحة المنى ونحن نخوض الليل الدامس عند خرنفحة (عيوشة) أو نخلة (ياسين) أو نعبر خلفك في تحدٌ مقررة (علي ابو حسن) .. أو نتلاصق في فتحات مقابر (أبو خشبة) الخالية إلا من بقايا عظام المحدود المتحللين لتراب ناعم ، نكبشه في انفعال ونرش به بعضنا البعض ، حين تختدم الحكايا وتحرّكنا نعومة الألحفة الحريرية على سراير العرائس.. أو تخمننا خشونة العباءات على الأفران وتلسعنا سخونة الانفعال وليونة الانحناءات وحدّة الآهات . وأنت تلقّي حولنا بعفاريتك الصغيرة . تحيط بنا همساتها الشيطانية فتتجسد لنا ولا يراها إلا أنت . ونسمعها ولا يفهمها إلا أنت .. فتملكنا أسرى الرغبة في استمرار حديثك إلى الأبد .. نترجّاك لو سكت ، نحايلك لو صمت .. ونترضاك لو غضبت .. نسلم زمامنا لك .. مسلوبـي الإرادة .. فتقودنا لغزو (توتة عبد الجليل) .. تعلمنا صيد الأسماك الكبيرة التي لا تأبه بصنابرنا الهايفـة . أو تسوقنا لسرقة صندوق نذور (سيدي مجاهد) أو (سيدي البهلوـل) وللإغارة على بستان (على ابو حسن) المليء كالجلنة بما لذ و طاب من فاكهة وأنعاب .. تدرّبنا عند قدوم المساء على حرب الوطاويط التي تنطلق مع ضجة المساء من مرابضها في سكون النهار ، تملأ سماء القرية طائرة بين البيوت

النجاة من الأسر .. يغطسون في عيون ماء لها رواح تسكر العشاق ..  
يعبرون في يُسر مياه الأنهر ، ويطلّون النار غير عابئين بلهب الجمرات  
ولا رمال الأشواك .. تحيط بهم نغمات موسيقى الإلهية سحرية تعزفها  
آلات خفية تملأ بروعتها المسافة بين ظلام القاعات الفقيرة الوهمي ونور  
الشاشات الملون .

حتى أصل معك ومعهم ، حين انتقلنا إلى (النصرة) . إلى ذلك  
الكشك العجيب الساحر المزدحم بالكتب القديمة في شارع (سيدي عبد  
القادر) . تسكري رائحة الأوراق حيث يهرك أن الكتاب متلكه بخمسة  
مليمات ليحملك عبر بوابات الخيال إلى مدن لا تنام ولصوص لا يموتون  
.. ولا تصد إراداتهم أبواب أو جدران ، بصحبة فرسان لا يكفون عن  
إنقاذ النساء وممارسة الحب والغرام فوق الشرفات أو تحت ظلال الأشجار ،  
وحيث في كرم يدعونك لمشاركتهم تعرية النساء في أسرّتهن الشرعية التي  
يمتلکها أزواج كريهين متسلطين بلهاء ذwo وクロش وعروش ، ولهم نفوذ  
وسلطات غاشمة تقهّر الناس وتعجز عن قهر القلوب ..

بشر لا يكفون عن ممارسة الحب وهم يقاتلون .. وقراصنة أفادوا لهم  
حالات مقدسة ، يدمرون المالك الفاسدة ويغرقون سفن الملوك والحكام  
الجشعين الذين في قتلهم بلا رحمة خلاص العبيد والمساكين والفقراء  
وسعادة العشاق الذين شاركتهم الرقص والقتال والغناء .

فمن يستطيع بفضلهم أن نكتب أغانيات ذات إيقاع ونغم يبعث على  
الحزن والألم أكثر مما يشي بالسرور .. تدفعنا معًا إلى عشق البنت (عزيزة)  
بنت (عباس) .. التي ربطتنا كثورين مسالمين إلى عربتها نقل لها الطمي  
للترتيب تحت البهائم في الزربية .. كي تصنع من عجيتها المخلوطة ببول

قد تكون بعد ، ليضعني على اعتاب الشباب . والذي يوم تدفق فجأة وأنا  
أحلم أنني أنا في أحضان (زهزهان) . فأرعبني وأثار دهشة لم تطفئ  
قشعريرتها حتى الآن ..

كيف يمكن إذن أن أفضلك عن كاهلي يا صديقي وأن أنزع أقنعتك  
عن وجهي ، دون أن أذكر كل التفاصيل .. كل الحكايات بالضبط . مثلما  
يطرد كهنة البدائيين الجن من أجساد الممسوين بدقائق الطبول البدائية ،  
أو تلاوة كلمات الذكر الحكيم وأدعية الإيمان القدسية .. أو بذكر لفظ  
الجلالة وأسمائه السرية والتعمود بها من الشياطين ، مثلما يفسد سحرة  
القبائل سحر الأعمال السرية بكشف شفرات رموزها وقراءتها صراحة ،  
وفضح معنى حروفها الغريبة وكلماتها التي بلا معنى ظاهر .. فتنفك عقد  
الألسنة وتُهتك أستار صانعيها ، فتصبح عادية لا قوة لها .. لا تضر بعد  
ولا تنفع . فأمليك قوة للتطاول عليك .. أطاول بهامتي هامتك . وتقوي  
قبضتي لأتخلص من قبضتك .. أنظر في عيونك دون خوف وأتحرر من  
جبروتك الذي ملکني حتى الآن منذ أطلعوني على أول كتاب انتهك  
براءة مخي .. وحشاه بخيالات ورسوم وبشر وآلهة عجيبة تشبه مخلوقاتها ،  
وعمالقة صارمين لا يعرفون الرحمة يطلقون سهام صواعقهم على خيول  
نارية لعربة تعب بالشمس من قصر الآلهة (شرق الهند) إلى حيث تنام فيما  
وراء قبة (سيدي مجاهد) بعد أن يجهدها جلد أجساد بشر لهم رؤوس  
ثيران في متأهات لا فكاك منها . وحقول مجده لا تكف عن إنجاب بشر  
يتناسلون . ولا يموتون بضربات خناجر مسمومة ولا ينزفون دماء تحت  
طعنات الرماح والسيوف ، لكنهم يستطيعون الصعود للسماء كلما شاءوا  
يقاتلون الشياطين والآلهة وهم يرتدون ملابس من ريش . عندما يريدون  
التحول إلى طيور . أو يحتمون بقرون صلبة لغزلان برية عندما يطلبون

تعانقنا نحن الثلاثة مرة أخرى حتى جفت ملابسنا .. وضحكنا من القلب عندما اعترفت لها أنها كانت تراقبنا سعيدة ونحن ننهش بعضنا. ولم تتدخل . كتمنا ضحكتنا مذهبولين ثم اندفعنا نحوها دون اتفاق غاضبين ، فارتعبت . ولم تتركها إلا بعد أن أشبعناها ضرباً .. ثم ركلتها أنت ركلة ألقتها صامتة مذهبولة في القناة حيث كنا.. ومضينا دون أن ننظر إليها ولم نبادرها كلمة واحدة ولم يقترب أحدنا منها بعد ذلك ..

وكانما هو مقدر لنا الا تختفي شمس البنات من حياتي بغيابها الدرامي المؤسف ظهرت (عزيزة) أخرى فجأة لتطلب مني طليباً غريباً - (عزيزة) بنت (رزق) تلك التي وقعت دونك في غرامها واشترطت لكي تمشي معي (مشي الناس اللي همه) أن أحضر لها زجاجة بنج صغيرة ، لأنها كانت حامل وترى إسقاط الجنين تجنياً للفضيحة.. والداية طلبت منها ذلك البنج لتقوم بالمهمة دون أخطار.

وسرقت لي زجاجة البنج من المستشفى . أعطيتها لي في كرم وإشار ، أخذتها إليها وأنا أكاد أموت من الحزن والرعب .. لأنك بخبرتك حذرتي (أن الحكاية ستكون مصيبة لو جرى للبنت حاجة وماتت أثناء العملية )، واعرفت من أحضر لها البنج . لكن الله سلم ونجحت (عزيزة) . فسخرت مني في البداية لأنها لم تنفذ وعدها لي .. لكنك أجرتها أنت تعود إلى غصبًا . بعد أن سحبتها إلى غابة (الساحل) لقاء حبتين طماطم وبيبة ورغيف أبيض . وعندما ظهرت أنا - ظلت ترفضني خوفاً من الفضيحة لأنني عيل وكثير الكلام .. ورغم إحباطي ، أعطيتها خمسة قروش كاملة جعلتها تشهمق وترمي على ظهرها ، وحين تركتنا أنت لتأخذ حريرتنا .. لم أفعل شيئاً ، سوى أن سرتها وجلست إلى جانبها أتكلم كلاماً كثيراً اعتذر لها وأواسيها وأنا أبكي بدموع حقيقة ، فقبلتني ومضت ..

الثور والبقرة سماً يُكسب أرض النيل خصوبتها على الدوام ، غسل لها جاموستها في البحر الصغير ، ونحن نتقافر كالضفادع حولها وفوقها تتحسّس أعضاءها لتشير شهوة البنت المجالسة دون تحفظ وقد كشفت أشياءها المحتقنة على الشاطئ . تصاحكنا لنرشها بالماء .. وننقل لها التبن للزريرية - خزين الموسم كله ونخش لعنزاتها البرسيم ..

وفي وقت راحتنا نخطفها لنقبلها (شركة) في مخزن الدرس والعليق ، وسط رائحة الرّوث النفاذه .. تعطي نهدًا لكل منا فنرضع كأطفال النيل .. ثم أنشغل بالغناء . بينما تستحوذ أنت على معظم أرض المعركة ، فأحاوول ململة فلول جيوشي متعرضاً عند الأطراف في الكلمات المنظومة . وأغار منك يغطيوني تمامياً حتى الغضب ، فنظل نتضارب تحت المطر في الضحى الوحشي الشتوي .. وسط الحقل الحالي الذي أنهينا (حش برسيمه) إرضاء لها ..

لأحد قريب يخلص أحننا من الآخر . ولا أحد عابر نتحكم إليه ، حتى يهدّنا الصراع والتضارب ، فترتّي إلى جوار بعضنا في القناة الغارقة في المياه نلهث ونبكي ثيابنا المدرسية التي تلطخت بالطمي والخضرة إلى أن نرتاح فنعاود الاستباك ضرباً ورفساً وعضاً ككلبين اشتباكا دون أمل في الخلاص . وانفجر باكيًا حين كفَ المطر .. وتصرخ بي نادماً (أنت السبب) لأنني قلت لها كلاماً منغماً يغطيك ، ولأنني أعرف أسماء بلدان أكثر منك .. لتصالحني وتتسح دموعي في حنان ..

يومها صالحتي وتنازلت لي عنها . بعد أن ساعدتني في غسل ملابسي ونشرها على غصون شجرة الجميز .. وبقينا نرتعش بجوار جدار الزريرية القبلي نستجدي الشمس حتى جاءت ضاحكة وأشعلت لنا راكرة نار هائلة ..

أجلس فاغرًا فمِي أرفف حول جبال خيالك . أذوب عشقاً في كلماتك وأحفظها . أنت الساحر الذي يستطيع أن يضمّ العالم في كفه ليفردك أمامي . خلفك أجوب الأفراح والموالد ، متيم أنا بتراتيلك وشعرك .. مجنود بالخيط السحري الذي لضمنا معًا في كيان واحد . أسيء لا تفك المسافات أسرى فيك .. ولا يقطعه الرحيل إلى المدن البعيدة .. أحملك تحت جلدي إلى بلاد تفصل بينها وبين أرض (عزيزة بنت عباس) (عزيزة بنت رزق) (مديحة بنت أم نمر) (نجاة بنت حمادة المصري) وعزيزات كثُر آخر وصحراري وبحار وأهواه صغيرة . تحول بينها وبيننا أحداث مهولة وهزائم أكبر حجمًا من قدرات كينونتك التي لا تكف عن التواوم والتوالل والإبداع . لتشكل ملامح كينونتي . وتعطيني ملامحي ، ولكنها تكبل روحي لفللك الذي لم يكُف أبداً حتى في عتمة الرنازين الانفرادية ، عن الدوران حول المركز ، الذي تمَّرَغنا معًا في طميء النيلى المقدس الممزوج بخضرة برسيمه الربط ، ذات نهار شتوى مطر على مرمى بصر (عزيزة بنت عباس) .

• • •

أنت لم تصدقني أبداً وتحجّجت بأنك لا تذكر شيئاً من تلك التفاهات .. فأنت كما تقول (لك دماغ واحد وذاكرة عادلة وإن كنت بـألف يد وألف عين). لك حق .. كيف يذكر مثلك هذه التفاصيل التافهة الصغيرة التي تحدث لعامة البشر ، فأنت ربّيت أسواق ، جواب آفاق ، غراس أشجار وفتوة .. وحفار ترع وصانع ومحطم أقفال ، وشرasher وفؤوس .

أنت المعني ، عازف الربابة . سحبتي خلفك إلى بلاد وعزب وكفور تسهر حتى الصباح في الليالي الباردة والأمسيات المقمرة .. على ضوء كلوبات الجاز تأسينا سهارى حتى الفجر نحارب مع (أبو زيد) ونأسى (لدياب) وتنافس على عشق (الجازية) . كنت وحدك من يحفظ كل هذه الكلمات التي بلا نهاية والتي تضج بأحداث الحروب والقتال والبارزات والجماعات التي تضطر الجوعى للهجرة والغربة.

كنت تخترع وتقول في وسط هذه الموالد ما يدهشنا ويأخذ بقلوبنا . تعزفها على أوتار الربابة أو تلوح بها على طرف عصا الموال ، المزوفة بالورق الملون وأنت تخترع صوراً مدهشة ضاحكة .. لا تتوقف الكلمات الفاضحة على لسانك :

عجبى على حداد يضرب في مرازبه

سهران طول الليل وعينه على مرازبه

لانيام ولا يهدأ إلا وفي المرة .....!

تنفجر السهرة بآهات الساهرين وترتفع صبيحة (الله أكبر) .. إعجاها بهذا الإعجاز .. أنت الذي لم يقرأ ولم يفلّ الخط مثلّي في المدارس . ولم تعرف الجغرافيا ولا الإنجليزي ، تتلقّي إعجاب الجميع بينما أنا الذي يكتب كلاماً منغماً - أغضبك ذات يوم وجعلك تصربني أمام (عزيزة) -

وينزل بالفاس على رأس الجسر ليحول المية إلى أرض الطير ويضحك  
من قلبه لأن أحداً لم ير الماليك يرقضون ويعرفون ..

- نسوان و خمرة؟! .. حلو قوي ، إحنا بقى ما شفناش إلا النسوان  
أمات عراقيب تدبّح الأرنب والمشّ ابو دوده .. يا عمي اترك الملك  
للمالك.

يقولها ويمضي ، وكأنه يخزي العين .. فقد تزوج بامرأة ذات جمال  
ملحوظ !

أجيال .. وراء أجيال استهلكوا أجيالاً بعد أجيال من تلك البيوت  
الطينية ، واستهلكتهم . وهي تراكم طبقات من الأنقاض فوق بعضها  
وفوقهم .. عضم و لحم طوب و طمى . ليتشكل ذلك الارتفاع الملحوظ  
لوسط البلد ، حيث يقع الجامع الكبير ذو المئذنة الفارهة ، التي بُنيت  
لتباهي القرية بها المجاورة .. متنصبة في منتصف شارع السوق ،  
الذي يمتد مخترقاً القرية من غربها لشرقيها ، منحنياً يتلوي كثعبان أسطوري  
طويل الذيل .. لا رأس له .. تتحدر منه الحواري والشوارع شمالاً  
نحو شط البحر القديم ، الذي يندفع جنوباً من (المغذي) عابراً (الهدار)  
منحنياً عند جنينة (علي ابو حسن) التي تفصله عن تل (أبو خشبة) الذي  
تراكمت عليه المقابر القديمة فاصلةً غرب البلد عن مقام (سيدي مجاهد أبو  
عبد الوهاب) حامي القرية ، وحارسها وجده عائلة (الشرف) ليمضى  
بعد تلك الانحناءة الفجائية مستقימה نحو الشرق حتى ترعة الجوابري حيث  
(هرى) ساقية العفاريت الممتدة ككهف مظلم طويل تحت جسره قاطعاً  
المساحة العاتمة شرق (بيت احمد ابو قصبي) حتى الساقية المهجورة  
التي تحيطها غابة من أشجار الجميز تصنع معها مكاناً سحيرياً يليق أن

## بعضهم لبعض ..

○ لا أحد من أهالي (ميت سلسيل)  
المعاصرين إهتم أن يعرف سر هذه التسمية ولا معناها  
.. لا أحد يريد . فالأقدار هي التي تختار لنا في أي  
أرض نولد وعلى أي أرض نموت .. وما الفائدة  
وراء أسئلة لن تغير من الأمر شيئاً . وماذا يفيدنا أن  
تكون (ميت) هذه الكلمة فرعونية تعنى (طريق) أو  
أن (ميت سلسيل) تعنى مكان الظرف واللهو ..  
أطلقه المالك الذين كانوا يروّحون عن أنفسهم  
على شاطئ البحيرة .. فما علاقتنا بالفراعين أو  
المالك .. والخلق تدور في طاحونة الرزق الضيق.  
سيشوح لك أي فلاح بذراعه في ضيق إذا  
ما ذكرت له شيئاً من ذلك مثلما فعل (حلمي) ابن  
عمتك (فرحة) حين قال لك :  
- الفراعنة؟! .. كان فرعون جبار كافر والعياذ  
بالله ..



نافراً تحت طربوش (عبد اللطيف افendi) الذي يكتب شعراً منظوماً مقتفياً  
منذ كان على حجر أمه في كل مناسبات القرية وأعيادها وجنائزها ..

بذل جهوداً كبيرة - لا أدرى لها سبباً أو هدفاً سوى أنك أغويتني  
- لمعرفة سر هذا الاسم ومعناه .. قبل أن أكشف ذكره في بعض الكتب  
القديمة والخطط وآثار البلدان ..

سمعت وسجلت كلاماً كثيراً من رجال ونساء عجائز .. صيّطة  
وفقيهات وخلاصات وكوديات سودانيات وغجر وحلبيات عمر بعضهم  
أو بعضهن حتى صاروا من الأعاجيب وأصبحت أقوالهم حكمًا أو الغازاً  
.. وحواديت .. كتبًا حية من لحم ودم ، مفتوحة الصفحات بلا حواجز  
لمن يريد أن يقرأ خطوط الزمن ، على جلد وجوههم وخشونة أيديهم  
وصفحات عظامهم البالية ، يؤكدون ما تطرّحه القراءة من تخمينات .  
وما تدحضه من أدلة أو ما تؤكده من حقائق .. يشكلون - وهم لا يدرّون  
- ذلك الجسر الغامض الواثق بين رؤى الحلم وحقائق الطين .

الجسر الذي بدونه لم يكن من السهل أن تستحوذ على قلبي وروحي  
أحاديث خالتني (السيدة) ، التي تأسّر لي الخيال الجامح الفذ وتضعه واقعاً  
ملموساً في قبضة يدي الصغيرة وقلبي البكر . فأوّلَنَّ أن ذلك التعلب  
الماكِر (أبو الحصين) الذي قُدر له أن يحرس جثث الموتى من الذئاب بأمر  
(فرعون) من بداية الزمان هو نفسه الذي استدرج الذئب (سرحان) وجَرَّه  
من شهوة جشعه عابرًا به جرن دار (أحمد) والمصرف إلى غيط (السباخ)  
حيث دوار (أولاد الوصيف) الذي تبيّت فيه أغنام (زكي الزروطي) بعد  
أن أقْفعَه بواسطة قطعة من الورق قال له أنها دعوة ملكية لهم لأول مرّة  
في التاريخ كي يتلهمما ما يشاء لهما جوعهما ونهمهما من جديان وخرفان

يختاره ليعمره المسحور وجنياته ويتحذه معهن سكناً و ملذاً ومكمّنا  
للهو والعربدة طول أيام الفيضان ، تفور المياه فيه و تعلو وكأنها تغلّى محدثة  
أكبر ضجة تليق بالعفاريت ، دافعة فيض المياه إلى (البركة) التي تفصل  
بين شريط السكة الحديد وبيوت واطى البلد (البركة) . التي ميزت (ميت  
سلسيل) لسنوات واحتفظت باسمها رغم تحولها بعد جفافها لجرن شاسع  
يسوّع محاصيل الدراس طوال العام بعد انقطاع مياه الفيضان وهرب  
الجنيات إلى الأبد

وكان أهل ميت سلسيل يعتقدون في غالبيتهم و يتمسكون بنسبهم  
(أبو خشبة) ولـي الله الصالح ، الذي مات وهو يقاتل الصليبيين - الذين  
هدموها (تانيس) - بخشبة طول صاري المركب ، فشتت شملهم قبل  
أن يستشهد ويدفن على شاطئ (ترعة السلطان) التي تحد القرية من  
الغرب .. وتقع على شاطئها الغربي سراية (عبد ربه) وفيلات أبنائه التي  
سوف تشيّد في قادم الأيام على الطرز الحديثة .. وحيث أمامها مباشرةً  
تقع (عزبة السلطان) تفصلهما عن جسم القرية مساحات من خضرة  
الأرض الخصبة حول جرن (دار أحمد) المرتفع ، الذي يظهر معلناً عن  
نفسه كساحة للمولد ، وملعب شتوي للصبيان والشباب العاطل والطلبة  
.. ومكاناً لدرس المحاصيل في المواسم ، حيث يكاد غبار وتبّن المداري  
يردم (المسرف) الذي يحيط به مندفعاً نحو الجنوب ، عابرًا السكة الحديد  
الفرنساوي ، مارًّا بمكّنة (البداوية) ليفصل عزبة الغجر إلى الجنوب الغربي  
الأقصى ، بعد أن يلازم الزراعية لمسافة طويلة ، ثم يتركها ليتمدّ في استقامته  
إلى الشرق ، كساق مستقيم لشجرة سرو . تبدو القرية على جانبه اليسار  
كعش (فرس النبي) أو كورم ، أو طلوع في رقبةبني آدم مثل الذي يربز

اليوم في (بحر ماهر) و(الخظرية) ، عبر المساحات الشاسعة من المياه الضحلة التي تغطيها غابات (البوص) و(الديس) و(البشنين) والتي كانت قديماً مغطاة بأصداف (اللؤلؤ) و(المرجان) ، تغسلها المياه الهدأة العذبة التي لم تقسدها بعد ملوحة البحر الذي يحيط من الأربع جهات تلك المدينة البائدة المدمرة . والتي (كلام في سرك) هي نفسها على ما كنت اعتقد (مدينة النحاس) المذكورة في الكتب القديمة . وكان حولها سور عال إذا ما صعد فوقه العشاق المساكين وأبصروا ما بداخلها .. لا يجدون مفرّاً من إلقاء أنفسهم من الحسرة .. رغبة في الحصول على بعض ما بها من نعم وعجائب تفتن العابد .. يساتين وأرائك مصفوفة وزراي مبثوثة تحت كروم العنبر والفواكه ، والنساء الحور العاريات البكارى كالجواري الساحرات . قادرات على أن يتحولن إلى طيور .. وأن يتحولن الرجال الأشرار إلى خراف أو كلاب أو حجارة . كل وقدره المكتوب حسب عمله ونيته .. ومن يذهب لا يعود ..

وهل يرجع من الجنة سوى أهبل أو مجنون .

يفرط كيف؟ فيما يهبني مع جهين من قوة تكسبه القدرة على تحريك الجمام .. و سخط الأحياء إلى حجارة لو شاء .. إذ يكشفن له أسرار (السيمياء والكيمياء) وعلم (الروكا) والشفاء بالصلادة على النبي وقراءة القرآن . والسحر الذي لا يدركه سوى الموعدين .

كنت متأكداً ، بل مؤمناً أن خالي - ( وإن أنكرت ) - واحدة من يتلكون بعض هذه القدرات السحرية والمزايا الخفية . فهي ترى بصعوبة شديدة في النهار ، الشمس تغشى عينيها ولكنها في الليل ترى لمسافات طويلة مثلها مثل القلط و الثعالب وغيرها (من طواطم أجداد أجدادها

أوزى بلا مقابل أو تعب احتفالاً بسلام مزعوم بين الكلاب والذئاب . وأن ذلك الرجل القليل الجرم المحنى الظاهر .. الذي يسكن بجوار الجامع الكبير كان بالأمس بعيد عترة وأبهة .. وأن زوجته (زقمانة) هي نفسها المرأة التي اشتهرت اسم (فاطمة النبوية) بشمن الجاموسية اليتيمة التي يملكانها .. وهو الذي فُجع حين حدث ذلك ؛ وإن صعبت عليه غباوتها وحالوتها فلم يطلقها لأنه كان يحبها .. لكنه قرر أن يطفيش ويسيح في الدنيا ، فإن وجد من هو (أعيب) منها عاد إليها .. وغفر لها لكنه يقع - لمشيئة ربنا - على زوجة الطبيب (حبيب) قاطن ذلك البيت الذي يلوح منفصلًا عن قرية (الجمالية) في تعالٍ وأنفة .. فتعطيه مالاً وطعاماً لأبيها المتوفى حين أقنعتها لما سأله عن أحواله عن الدار الآخره أنه رآه بعينيه يسوق القطار الذي يزود (جهنم) بالفحيم اللازم لإشعال نارها العظيمة ، التي وقودها الناس والحجارة ..

فيتبار إلى أن هذا هو بعض المكتوب والمسجل على حجارة الشيخ (المسييد) ، بحروف تشبه نيش الفراخ - التي هي في الحقيقة كتابات سريانية كما خمنت . يستطيع أن يقرأها العارفون والواصلون من مريديه الذين يؤكدون في كل مناسبة ، أنه جاء طائراً من أرض الرسول ليرابط ، وليحمي قريتنا من الصليبيين الغزاة هو (وابن سلام) و(القعقاع) وبافي الأولياء الأربعين ، الذين يحيطون المنطقة ويحمون شواطئ البحيرة التي رابطا عليها وليرضوا نفوذهم وحمايتهم على كل أرض (السبخاية) و(التلول) و(الهيش) المحيط بالأرض حتى بحر الظلمات . حيث مَرَج البحرين يلتقيان ، وحيث كانت تقع (تانيس) التي كانوا يعبرون إليها في (الصوالى) المقطرنة المسحوبة الأطراف التي تشبه ما يستخدمه صيادو

الربابة أو الأراغيل مواجههم ومواجعهم ، عبرة لمن يريد أن يعتبر . هي قرأت لي ما جاء في الكتب : أن الله أراد خيراً بأهل هذه القرى التي تواجهه (تانيس) بعد إسلامهم .. فأعاد الخصوبة إلى الأرض المالحة التي حرقتها غضباً عليها في الماضي .. فعادت أكثر عطاء وأوفر ثماراً مما كانت .. وأعطتها من وسَع ، فرُوِّد عقول أهلها بالعلم وأيديهم بالمهارة .. فصار تجَارُهم أشطر التجار وفلاحُهم أمهر الفلاحين ، وأسطوا لهم أحرف من يصنع السفن والراكيب . ونفح في صور طلاب العلم من أولادها فصاروا من أذكى خلق الله .. (مثـل خالك إبراهيم) .

لكنه لحكمة لا يعرفها إلا هو – ترك بعض هذه القرى من قديم الزمن مستمرة على كفرها.. تأبى الخضوع لسلطان أو ملك .. وهي القرى الهاـلـكـ أـهـلـهـاـ ،ـ التيـ كـانـتـ تـمـدـ (ـتـانـيـسـ)ـ بـالـطـعـامـ وـالـمـيـاهـ ..ـ وـلـكـنـ ذـلـكـ كانـ إـلـىـ حـيـنـ .ـ إـذـ عـادـ فـسـلـطـ عـلـيـهـاـ مـنـ خـرـبـ مـصـدرـ قـوـتـهـ وـافـتـائـهـ ..ـ وـحـوـلـهـاـ إـلـىـ أـنـقـاضـ وـسـبـخـ لـتـكـونـ عـبـرـةـ لـمـنـ يـعـتـبـرـ ..ـ وـلـأـحـدـ يـعـتـبـرـ ..ـ

كان الخليفة بنفسه ، ينزل إليها من (بغداد) متخفياً في زي التجار . أو في ثياب الهاـئـمـينـ فيـ حـبـ اللهـ –ـ لـيـعـرـفـ أحـوـالـ الرـعـيـةـ وـيـنـعـ ظـلـمـ عـمـالـهـ القـسـاـةـ ،ـ الـذـيـنـ اـمـتـصـواـ دـمـهـاـ عـلـىـ مـدارـ السـنـينـ ،ـ وـلـيـرـفـعـ عـنـ الغـلـابةـ الـمـساـكـينـ الـظـلـمـ وـيـقـيمـ الـعـدـلـ ..ـ خـوـفـاـ أـنـ يـصـبـ اللهـ عـلـيـهـاـ غـضـبـهـ مـرـأـةـ أـخـرىـ كماـ حدـثـ ..ـ لـبـنـيـ (ـسـلـسـلـيـلـ)ـ نـعـ ..ـ (ـسـلـسـلـيـلـ)ـ هـذـاـ كـانـ مـلـكـاـ عـظـيـماـ ..ـ مـارـداـ ..ـ (ـكـالـفـرـعـونـ)ـ رـأـسـهـ يـطـولـ السـحـابـ ..ـ وـقـدـمـهـ حـافـيـةـ أـكـبـرـ مـنـ الـجـامـوسـ ،ـ وـكـانـ عـنـدـهـ أـبـنـاءـ كـثـيـرـونـ لـسانـهـمـ طـوـيـلـ ..ـ مـاـ شـاءـ اللهـ مـثـلـكـ ،ـ وـمـلـكـ لـاـ مـلـكـ مـثـلـهـ ..ـ كـانـتـ بـلـدـكـ هـذـهـ تـسـمـيـ (ـمـنـيـةـ بـنـيـ سـلـسـلـيـلـ)ـ أـرـأـيـتـ ..ـ ؟ـ سـمـيـتـ باـسـمـ أـبـنـائـهـ مـاـ شـاءـ اللهـ ..ـ وـلـكـنـ كـانـ لـهـ اـبـنـانـ هـمـاـ الـمـقـدـمـانـ لـدـيـهـ دونـ إـخـوـتـهـمـ دونـ إـخـوـتـهـمـ أـجـمـعـيـنـ .ـ

الغابرين) . أو على الأقل هي من المكشف عنهم الحجاب . فما تصنـعـهـ منـ العـجـائبـ –ـ أـقـلـهـاـ قـدـرـتـهـاـ عـلـىـ قـرـاءـةـ الـلـغـةـ السـرـيـانـيـةـ ..ـ فـهـيـ أـحـضـرـتـ لهاـ بـعـضـاـ مـنـ حـرـوفـهاـ المـنـقـوـشـةـ عـلـىـ ذـلـكـ الـحـجـرـ مـنـ بـقـايـاـ (ـالـمـسـيدـ)ـ قـرـأـتـهـاـ وـفـرـرـتـ لـيـ مـعـانـيـهـاـ ،ـ لـكـنـهاـ عـنـدـمـاـ عـرـفـتـ كـيـفـ وـمـنـ أـيـنـ جـهـتـ بـهـاـ ،ـ فـيـ مـنـتـصـفـ لـيـلـةـ كـحـلـ مـضـلـمـةـ –ـ فـزـعـتـ وـاسـتـعـاذـتـ بـالـلـهـ وـرـقـتـيـ وـبـخـرـتـيـ .ـ وـظـلـتـ طـوـالـ الـلـيـلـ تـتـلـوـ تـعـاوـيـذـ غـامـضـةـ وـرـقـيـ ،ـ لـكـيـ تـنـعـ العـفـارـيـتـ مـنـ التـمـكـنـ مـنـ جـتـتـيـ ،ـ وـقـدـ فـعـلـتـهـاـ ..ـ نـعـمـ كـانـتـ تـسـتـطـعـ ذـلـكـ ..ـ هـذـاـ مـؤـكـدـ ،ـ هـيـ تـعـرـفـ كـلـ ذـلـكـ ..ـ وـإـلـاـ مـنـ أـيـنـ عـرـفـتـ أـخـبـارـ كـلـ هـؤـلـاءـ الـذـينـ تـحـكـيـ عـنـهـمـ ..ـ أـوـلـئـكـ الـذـينـ تـأـكـدـ لـيـ مـعـاـشـرـتـهـاـ لـهـمـ ،ـ وـقـرـبـهـاـ الـحـمـيمـ مـنـهـمـ لـدـرـجـةـ أـنـهـاـ رـأـيـ الـعـيـنـ وـلـسـتـهـمـ ..ـ وـصـاحـبـهـمـ وـهـمـ يـرـكـبـونـ الـرـيـحـ وـيـصـعدـونـ إـلـىـ السـمـاءـ لـيـسـتـرـقـوـ الـسـمـعـ لـتـسـبـيـحـ الـمـلـائـكـةـ –ـ مـعـ أـنـهـمـ كـفـرـةـ لـاـ يـعـرـفـونـ اللـهـ وـلـاـ يـرـكـعـونـهـاـ ..ـ

لـذـاـ تـرـمـيـهـ الـمـلـائـكـةـ بـالـشـهـبـ لـيـسـقـطـوـاـ مـحـترـقـينـ .ـ لـكـنـهـمـ يـعـاـدـونـ .ـ فـقـدـ كـتـبـ عـلـيـهـمـ أـلـاـ يـفـلـتـوـ أـبـدـاـ مـنـ هـذـهـ اللـعـنـةـ الـرـبـانـيـةـ ،ـ فـلـاـ يـكـفـؤـنـ عـنـ مـحاـوـلـةـ الصـعـودـ ،ـ بـأـجـنـحةـ خـفـيـةـ تـبـتـ لـهـمـ كـلـمـاـ حـرـقـ الـمـلـائـكـةـ رـيشـ أـجـنـحـتـهـمـ الـقـدـيمـةـ ..ـ

نعمـ هـيـ مـنـهـمـ وـتـعـرـفـ سـرـ تـحـكـمـهـمـ فـيـ طـاقـاتـ السـرـ الـأـعـظـمـ وـحـقـ (ـكـنـ فـيـكـونـ)ـ ..ـ وـإـلـاـ مـاـ سـمـعـتـهـاـ تـحـدـثـ النـسـاءـ الـخـفـيـاتـ ،ـ الـلـائـيـ يـظـهـرـنـ فـقـطـ لـمـ يـحـبـنـ .ـ وـيـخـتـفـيـنـ عـمـنـ يـرـدـنـ سـلـبـ عـقـلـهـمـ ،ـ بـعـدـ إـشـعـالـ مـوـاجـدـ الـقـلـوبـ ،ـ فـيـتـرـكـونـ الـدـنـيـاـ وـمـاـ فـيـهـاـ وـيـهـيـمـونـ عـلـىـ وـجـوـهـهـمـ يـنـشـدـونـ الـشـعـرـ زـاهـدـيـنـ فـيـ مـتـعـ الـجـسـدـ ..ـ أـوـ مـلـجـئـيـنـ إـلـىـ حـمـاـيـةـ الـأـوـلـيـاءـ .ـ هـائـمـيـنـ فـيـ مـدـحـ أـهـلـ (ـبـيـتـ النـبـيـ)ـ اـعـتـذـارـاـ وـتـوـبـةـ وـذـوـبـاـنـاـ فـيـ حـبـ الرـسـوـلـ يـحـكـونـ عـلـىـ

.. هو مجرد حارس عليها فقط . نعم ، خالتي أكدت أنها (جنيّة) ورفقتي وعوّذتني بالله من شر سحرها .. فهي من سلالة الذين تزوجوا جنيات البحيرة .. وتعلموا على أيديهن صناعة الحرير الذي اشتهرت به (تانيسي) . مثله كذلك ، (نعميمة العامية) التي كُشف عنها الحجاب فكانت ترى (عزراًيل) .. وتبصره حين يحوم حول القرية في نصاص الليالي ، ليقبض أرواح الصبايا العذارى فتصرخ مخنثة .. ليسود القرية صمت غامض . تنسّل معه حركة العذارى البكارى في فراشهن . إلا تلك التي وقع عليها الاختيار .. تتسلل خارجة إلى الخلاء خفية ، ليجدوها في الصباح جثة هامدة في البحر غريبة ، أو على التل مذبوحة أو محروقة صعدت منها الروح إلى السماء لحكمة لا يعلمها إلا عالم الغيب !!

زهقت من الإلحاح على كل من لهم في تواريix البلدان والقرى .. لكن أحداً لم يؤكّد كلام خالتي ولا وافق على ما تقول كتب خالي .. فلا أحد يذكر بالضبط متى بدأت هذه الخرافات . ويُدعون أنه لا أحد يذكرها إلا أنا .. لغرض في نفسي .

الشيخ (علي أبو دسوقي) حذرني أن أخوض فيما لا أعرف ، فأكفر أكثر مما أنا فيه .. وطلب أن أنتبه لدروسي أحسن وأفضل .. اترك الخلق للخالق .. فالناس ما خلقت إلا لتعبد الله وتتأمل في عظمة خلقه لا أن تسأل عما وراء الحجب وتخوض بلا علم فيما لا قبل للبشر بفهمه .. (الجدل يفتح الباب لموت القلب) .. والدنيا على ما هي عليه منذ أرسى رواسيها ملك الملوك ، على هذه الأرض . وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون) فكن في حالك واتق الله . لكنني لم أرعو . وكت أحاديله وأصر

كان لكل منهما (جنة) . فيها ما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر .. كانت الأولى اسمها .. (منية بدر بن سلسيل) والثانية (منية مرجا بن سلسيل) وما زالت حتى الآن اسمها (ميت مرجا سلسيل) . أما (منية بدر) فقد حرقتها لعنة الله .. نعم .. مذكور ذلك في القرآن (جتنان عن يمين وشمال) .. مثل جنة ربنا الأولى . هكذا شاءت إرادته .. نعم .. (إذ قال لصاحبها وهو يحاوره) ! .. وارجع بنفسك إلى المصحف الشريف تعرف كل شيء .. كان (بدر) يمشي مختالاً .. وكأنه هو الذي خضر وأثمر .. فتخطى حدوده . وسأل في كبر وتجرب أرأيت مثل هذا؟ .. قيل له لو قلت (ما شاء الله) لكنه ضحك وسخر منه .. وربّك لا يقبل السخرية .. صبح لقاها بلقعاً !

- ندم .. ولكن هل ينفع الندم؟ .. كل ده مكتوب .. ومسجل في الكتب .. وسائل حalk (إبراهيم) .. والكتاب أهله ..

أشارت لي . فألقت بي في خضم صاحب من الصفحات والحكايات .. تكاد كل منها أن تتجسد أمامي وحولي واقعاً مادياً كدت أمسه في الجدران والشجر والحجر .. بيوت وأماكن لا ثمة .. و كأنما عاينت بنفسها (تانيسي) القديمة تتحدث إلى بليسانهم .. تبعث لي بإشارات وصور .. رأيتم مثلها - رأي العين - نعم .. فأنا لا يمكن أن أحمن متى ولد هذا الشيخ الذي يقولون إنه وعي على البلد وهي أعشاش . ولا يدخل أحد بيته ولا يرى مخلوق أهله .. ولا ينظر أحد أخته الساحرة (زهرهان) التي ليست من دمه كما يدعى ، فهي لا تشبهه بل ولا تشبه أحداً من الإنس

نظام ولاوعي حتى تتلاشى في تلك الساحة أمام الجامع . أو تندفع هابطة كمجاري مياه المطر نحو الأطراف الأربع للقرية كشريين باهته تضج بالأولاد والحمير والبنات والكلاب .. ترك فيما بينها بلا نظام وسعيات وخربات كالأورام تختلف مساحتها حسب حاجات أصحاب الدور حولها لتكون فيها بقايا روث المواشى وما يطرح تحتها من تراب أرض النيل عندما ترك لتجف ثم تنتقل إلى الأرض متخرمة بين حين وحين حسب حاجة المحاصيل والمواسم .

تجمع وتتفرق هذه الشوارع والحوارى والخرابات حول (سيدي مجاهد) ومكنته (البداوية) وجرن دار (أحمد) والشادر و(عزبة الغجر) و(ابو خشبة) و(المسيد) أو عبر ساحة (ابو الرايات) ومنزل كتاب (ابو عبد الله) وحارة (الصياغ) والسبيل ودكان (زينب) ومصطبة (حضره) وقهوة (أحمد النادي) ودكان (شطا) .. دار (حبيب) و(زنثور الصلبية) و(البركة) ومدرسة (الشيخة) و(الجامع الصغير) وبيوت (القدادحة) (والطاحونة) والشيخ (البهلوان) وحارة (المعطة) و(ابو قصبي) في شبكة عنكبوتية خرافية ، لعنكبوب عجوز . جفت عروقه ونبت حولها - بالصدفة أو قصدًا - بيوت لا عدد لها ولا حصر ولا شكل . يفتح بعضها على بعض ، ويركب بعضها فوق بعض . ويتكالب بعضها ليسد منافذ النور على البعض . فيتحجر القلب والسطح والعتبة وتنشرخ الحيطان والدهاليز بفعل الرطوبة والقهر .

ويكُفُ الجميع عن التململ ، تعينا من جهد أزلي لا تبدو له نهاية ولا طائل وراءه .. توالي على بذلك السابقون من البشر حكمة ريانة .. تصر على أن يولد الخلق كالضفادع - من الماء المهين - مهياًين للتآلف مع

على أنني قرأت أنها (إلا ليعرفون) وبعضهم تجاهل ذلك لغرض في نفس يعقوب .

ولأني عشت هذه الأرض ودفعني عشقى أن أبحث عن خرافاتها وتاريخ أهلها الطويل ؛ حيث ظلت الأجيال تنجذب للأجيال من الفلاحين والصيادين ورعاة الغنم والنجارين وصانعى الفؤوس والشباك والعبيد والمساخيط والمجاذيب والجواري وأصحاب الحرف من القزارين ناسجى القماش والزعابيط والبشوتوت والعبى والفواخرية من صانعى القلل والدوارق والمحالب والقدور والبلالischs والمناقد وصانعى القفف والمقطاف والفرد والأطباق والابراش والزنابيل والمرجونات والاسمطة من الخوص والحلفا والسمار . وغيرهم من حلاقين وبحارين وسروجة وقصاصين الحمير وغيرهم من عطارين وقبانية وفعلة وبنائين وحمامارين وخياطين وفوالين وصناع طشوط وحلل النحاس إلى جانب المشايخ والفقهاء وأصحاب العاهات والفقراء والملاّك والغفر والدايات وأبناء السبيل وأقرانهم من الجنّيات والعفاريت .

وإن كنا لم نشاهد جنّيات ولا شياطين .. فذلك لأنه لا أحد من العقلاء يخوض في مثل هذا أو يحكى عنه حتى لو كان قد حدث .. لأن من أوئم على السر لا يوح به .. والله أعلم ..

أجيال تركب ضهر أجيال .. كما ركبت البيوت أنقاض ما هدم منها .. كل جيل يلعن سلسيل الجيل الذي رماه عن ظهره .. ومن دفنه في التراب لأنهم لم يورثوه إلا الغُلُب .. الفقر والنكد .. والالتقاض بالطين الرطب في الحقول أو في هذه الدروب والماراثن الشعرية التي تتفرع وتنقسم وتتوالد وتستدق وتستعرض ، بين كتل البيوت الطينية بلا

رِبَّاً مع التيار في كل المواسم ما بين نوبات الري والتحاريق ، تخنقنا رؤائجها الكريهة .. ويسعننا ذبابها الأزرق المخلوق من أرواح الأطفال الموتى والصبايا العذارى المغتالات .. يطئن ويزن ولا يكفر عن نهش لحمها البنفسجي المائل للسواد .. يحررنا غيظنا منه أن نرجمها بالحجارة ونحن نتشهد كما علمنا في الكتاب . ونستعيد - كما أوصلانا آباءنا - دون حقد جدي . ونحن نسد أنوفنا مفتعين التقرز والقرف .. دون رغبة حقيقة أو أمل في انقطاع ورودها المقدّر .. حتى لا تلحق بنا لعنتها ، إن أثروا غيظ أو غضب من يرسلها كالمسائب على روؤسنا بإصرار ، يليق بإصرار الأحياء ، على موافقة رحلة التعب والنكد والكدح وراء لقمة العيش ، وهـَّ الحيل المهدود ..

جيل يسلم جيلاً - منذ كانت أعشاشاً في خدمة (تانيس) المخربة وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .. حتى وإن ظلت تورقها وتؤرقهم كما أرقتنا شهوة التساؤل عن سر هذا التناكب والتکالب والتناكح والتواحد والعذاب . منذ صرخة المولود الأولى حتى آهة طلوع الروح والنفس الأخير .. دون إجابة .. إلا أن (الحكيم العلي القدير) يدفعنا إلى ذلك دفعاً ويجبرنا عليه قهراً ، كي نظل تتکاثر وتنناسل لنسد عين الشمس ، ونملا وجه الأرض ، إلى أن يحين نفح الصور يوم قيام الجثث ، كي يياهي سيدنا ومولانا رسول الله بنا الأم - كافية - يوم القيمة !!

• • •

المياه الراكدة ، متعايشين مع ضحالتها وأسانتها .. لا يعرف الواحد منهم أبعد مما يراه منها .. ولا تعني ذاكرته أكثر مما مر به ؛ دون محاولة تفسير سر تخر حبها في عروقه . ولا يلفت نظره تكاؤها المريب فوق بعضها هلعاً ورغباً من المجهول والمعروف ، ولا يعرف الضرورة الحتمية .. لتکالبها وتراحمها على تلك البقعة الرطبة من الأرض القديمة البالية الممتدة من باطن (البحر القديم) حتى (ترعة الجوارب) ؛ حيث ينبعج مجراه ويتسع فاتحًا شطه لذیول الفئران المتトوية على هيئة حواري بين البيوت . تصبُّ فيه أناسًا ونفايات وحيوانات نافقة وأطفالاً عراة ونسوة كائفات السيقان ..

ليندفع بعد (مدرسة الشيخة) القديمة محروماً من أنس البشر وحسهم، وسط غابة من البوص الصامت المريب . وأكمات من أشجار شعر البنت والنخيل غير المقبض ، وأشجار الصفصاف القزمية والبرنوف والحلفاء، تتشابك قممها فوق المجرى الضيق المحصور بين شاطئين كثيفين غامضين يحجبان الرؤية عما يجري في الليل والنهار فوق سطح مياهه العكرة الملؤنة المزدحمة بالجنيّات وبنات المسحور ..

مثيراً في قلوبنا الغصة آلاف الأسئلة .. بلا إجابة تشفي الغليل وترويح القلوب البكر من قهر تحذيرات (الشيخ علي أبو دقن) التي لا تترك في قلوبنا أو فوق رموزنا غير مخلفات حيرتنا وشكّنا ، في ماهية الجهة الخفية التي يسّيل إليها الماء المندفع شرقاً خارج قريتنا بعد أن غسلنا فيه أجسادنا وأجساد الحيوانات والبهائم وحلل الطبيخ ودسوت الأرز المفلفل ، وصواني الموالد وقدور الفول النابت وخشب نعش الجنائز وخرق الرضع والعرق والصدأ والبراز وجثث الحمير بعد موتها لأسباب مجهولة . بينما نحن مازال يؤرقنا جهنلنا بمصدرها . ولماذا تظل تأتي إلينا الجثث

- في غضب حقيقي - فكيف يؤجل ليوم واحد قيد ابنه البكري . الذي جاءه بعد البت الأولى (أختي آمال) حتى لو كانت الدنيا بترّخ زلط ! ثم إنّه كانت هناك علاوة ، تُمنح للمستخدمين في الحكومة أو في مجالس المديريات ، للمواليد . وكان حريصاً على الحصول عليها .. خاصة والدنيا كانت نار وال الحرب على وشك أن تقوم .. إن لم تكن قد قامت فعلاً .. منذ بدأت جيوش (هلتر) في احتياج أوروبا وقضم الأرضي من حوله دولة وراء الأخرى ..

أصبحت البيضة بتعريفة بعد ما كانت العشرين بيضة تعني (نص تعريفة) وهي قطعة نقود مسددة كانت تساوي ملبيين ونص .. لذا كان من الضروري قيدي فوراً حتى ولو كان الموت يهددني .. فالأمل في الحصول على العلاوة .. أكثر أهمية بالطبع من انقطاع الطريق بسبب (الربط) الذي لا يمنع سير الحمير إن استحال على العجل !!

لست أغير هذا الأمر كبير أهمية .. بالعكس . إنه شيء طبيعي ، فكل (العظماء) ليس لهم تاريخ ميلاد محدد بالضبط . وراجع سيرة حياة أي عظيم يطرأ اسمه على بالك .. ستتجد ذلك شيئاً عادياً .. فـ(محمد بن حبيب) ثلاثة تواريخ ميلاد .. وأيضاً (نابليون) هناك شك كبير حول تاريخ ميلاده بالضبط ..

وسيدنا (محمد) (ص) نفسه لو وضعنا في حساباتنا الفروق بين التقويمات المختلفة بين الميلادي (بكل حساباته) والهجري ( بما حول بداياته من شكوك ) .. فما بالك بالتاريخ والتقويم (القذافي) الحديث ..!! السيد المسيح كذلك .. حسب المذهب الذي كنت سأكون من رعایاه لو ظلت مصر مسيحية !

وبالمقابلة .. عندما عاد بعد قيد اسمى (سمير) احتجَ بعض زملائه

## إذا أعطيناك ..

○ شُكِّكت أمي في تاريخ ميلادي ، عندما أخبرتني - في وقت لاحق - أنني ولدت ضعيف البنية لدرجة أنهم لم يتوقعوا لي أن أعيش .. لذلك أَجَّلَ والدي قيدي في دفتر المواليد عدة أسابيع .. مفضلاً الانتظار ليتأكد من إرادة السماء .. خاصة وأن الدنيا كانت (شاتية) والطريق إلى المنزلة (مزبطة) وشبه مقطوعة بسبب المطر !

طبقاً لهذه الرواية التي يؤكددها (زبطة) الشتا وانقطاع الطريق إلى المركز ، فأنا لست من مواليد ١٥ مارس كما أدعى ..

وإنما أصبح في هذه الحالة من مواليد أحد أيام شهر فبراير ، وهذا يلقي ظللاً من الشك كبيرة على ما قرأته أو سمعته عن البرج والحظ وحظك اليوم - هذا لو صح كلام أمي . أبي نفى هذه الواقعية تماماً



لاماح طفولي .. والظروف التي أحاطت بنشأتي الأولى .. يقولون إن هذا مهم جداً وضروري للحكم على حياتي ، وضروري لتقدير هذه الرحلة الطويلة .. إذ يؤكد البعض أن شيخوخة المرأة هي بعض من طفولته الأولى .. وبدون الإمام بها .. لا يمكن تفسير إحباطاته وطموحاته .. أو تبرير نزواته .. وشطحاته ، أو اكتشاف نوع ودرجة جنونه أو حكمته .. لكنني لم أكتب أبداً مذكرات ، ولا احتفظت بكراسات أو أحندات .. ناهيك أن ذلك لم يكن متاحاً .. كل ما أذكره بشدة هو أن هوماشكتبي كانت تمتلئ مع نهاية كل سنة .. بأشكال وصور لرسوم غير سائنة .. وجوه وبيوت وأشجار وحيوانات ، أرانب وحمير .. ومؤخرات جواميس تحت شجر جميز وطيور وأزهار . وكان هذا يسبب لي مشاكل كثيرة مع المدرسين ، الذين كان بعضهم يصر على نظافة الكتب من هذه الخزعبلات .

كان (محمد أفندي شاكر) .. يضربني بحرف المسطرة على ظهر كفي ، إذا ما شردت مني الحروف خارج هامش الصفحة الأحمر .. ولم تنسع الكلمات (الثمانية) التي كان لابد أن (تحشر) بدقة وحرفة بين الهاشمين .. كان الأمر عنده مقدساً ، يصل لمরتبة الكفر والإيمان.. فالخروج على الهاشم فوضى ، وعدم قدرة على الفهم وعجز عن الاستيعاب ، إنه شيء هام جداً ، أشد أهمية من أخطاء الإملاء والهمزات ، وتواتر الحروف الملغزة في الكلمات المهلولة ، التي تظهر المهارة من الحيبة – كاللؤلؤ والسموع والسجنجل وغيرها – والتي تعتبر كتابتها صحيحة من دلائل التفوق والمقدرة والعبقرية المبكرة ..

كنت أيامها أدرس مع أخي (البكرية) (آمال) في مدرسة (الشيخة) /

وأصدقائه من مدرسي (الإن) – (وكان الإخوان المسلمين في صعود) – قائلين إن اسمًا كهذا سيشكك في دينه ، سيظلمه الكثيرون قبطياً .. واقتنع أبي وقرر العودة في اليوم التالي ، ولكن ربكم سلم .. ذلك لأن تغيير الاسم إلى (محمد سمير) كان سيتكلف على الأقل ثلاثة جنيهات ؛ ضع في حسابك حكاية (الزبط) والحمير .. وهكذا أنقذت من مشاكل الاسم المركب رغم إيحاءاته الأستقرائية المؤكدة !

لكن أمي تعود لتأكيد روايتها . بدليل أن خالتني (السيدة) هي التي تولت رعايتها في السنوات الأولى منذ البداية . لأن أمي كانت (نفسها) وليس عندها خبرة برعاية الأطفال المعلولين !

لكن هذه الشكوك كلها لم تغير من الأمر شيئاً .. فأنا مقتنع أنني ولدت في (١٥ مارس) . وأكتب ذلك على صفحات كل كتبني وأقوله في كل أحاديثي الصحفية والإذاعية . وأصر على أنني من مواليد برج (الحوت) فلست أميل كثيراً لحكاية (الدلـو) هذه التي تعني بفجاجة (جردل) !

لاماح (الحوت) أكثر احتراماً وأبهة .. ويحمل مواليده الكثير من ملامح ذاتي وصفاتي .. التي أفخر بها على العالمين ! ثم إن (١٥ مارس) حدث فيه حدث من أهم الأحداث الدرامية والتاريخية .. ألم يقل (شيكسبير) على لسان الرجل (بتاع ربنا) الذي قابل (قيصر) . وصرخ فيه بدون مناسبة أو متنبئاً – الله أعلم .

– حذار من منتصف (مارس) !!  
فلم يعره انتباها .. وكان أن ذبح (وهو أهم) (قيصر) متسلط في التاريخ ، في ذات نفس يوم ميلادي !!  
لذا يدو الأمر لي غامضاً وغائماً كلما أوغلت في الذاكرة؛ بحثاً عن

يدي من الضرب .. وضاقت نفسي بالدنيا وما فيها .. حتى إنني افترحت أن أذهب للكتاب أفضل .. لكنه قرص ودني ، ورفض الاستماع إلى بل وأوصى (شاكر أفندي) أن (يتوصى بي) شوية لأنني لعبي .. !

وحدث .. كانت حصة إملاء . وكان الموضوع هو (شجرة القطن وشجرة البرتقال) وهو موضوع سخيف عن المفاضلة بين الشجرتين . واحدة تباها بجمالها والأخرى بقيمتها للأوطان ! وكان لابد أن نلتزم بالهامشين وبعد الكلمات في السطر الواحد.. وكانت الواقعة، لم نكن نكتب بالرصاص .. ولم نكن قد عرفنا بعد الأقلام الحافة .. ولا حتى أقلام الحبر الأبنوس . كنا نكتب بالحبر السائل ، بالسن المركب على عود من الخشب ، كنا نسميه الريشة .. ولاستعمال الريشة والدواية أصول .

كيف تغمس الريشة في الدواية، وكيف تحفظ بالدواية المليئة بالحبر على (قطر) ضيق ، يكاد يتسع للكراس . ومن كان حظه جيداً ، كان لقطره ثقب ، تسقط فيه دواة خاصة ، تشبه فنجاناً له حافة مستديرة ، تحفظ به في مستوى سطح (القطر) .. أما من كان حظه نيلة زي حالاتي .. وزائد عن العدد ؛ ولد وسط عشرات البناء . كان لي (قطر) لا يتمتع بهذه الميزة . ولذا كان علىي أن أسير على الحبل ، موازناً بين المساحة التي تختلها الكراهة - مع وضع حركتها العصبية تحت يدي في الاعتبار- وبين الركن الضيق الذي تكاد الدواية الزجاجية العادية تختله .. بالمللي !!

أخذ الأستاذ (شاكر أفندي) يعلي علينا ، وهو رائح غادي يلوح بالعصا الخيزران ، مزيحاً طربوشة إلى الوراء تارة .. وإلى الأمام تارة .. فيضيف إلى المحاذير المتعلقة بالهامش ، وعدد الكلمات ، وتوازن المسافات فوق القطر محظوظاً آخر شديد الوطأة ، وهو أن تمنع نفسك من الضحك .. خاصية عندما يعجبه رنين صوته وسط الصمت الفادح الذي نكتم به

بنات .. لم أكن قد بلغت سن الازام بعد ، لكن أبي كان مدرساً بها .. وهي مدرسة تقع في الطرف الآخر (الشرقي) من بلدتنا بجوار ساقية العفاريت أي في (واطي البلد ..) بينما تقع مدرسة البنين في (علوها) .. وألحقني أبي مع أخي بفصل (شاكر أفندي) وليس بفصله هو .. كان يقول إن ذلك أجدى .. حتى لا نتطلع عليه.. لكنني أظن أنه فضل ألا تحكم على كفاءاته وهو أمر - أقصد الحكم على (شطاره) المدرسین - كان موضوع حديثنا المفضل . وكثيراً ما تشارجرت بسببه مع بنات طويلاً اللسان كن لا يقدرن أبي حق قدره .

لكتنا جميعاً - بنات فصل (شاكر أفندي) وبنات فصل أبي وأنا - كنا نحسد بنات فصل (محمد أفندي سالم) .. ذلك الأستاذ السكرة الملئ الجسم ، ذو الوجه المدور الذي يضاهي وجه (ست أم حسني) زوجته بياضاً وجمالاً .. علاوة على طيبة قلبها وحنانه . الذي يجعل البنات يتلقفن حوله وعلى حجره وكفيه طول الوقت حتى فيما بين الحصن ؛ وهو يوزع ابتسامته الحنون على الجميع ..

كم طلبنا وألحنا أنا وأخي أن يلحقنا أبي بفصل (محمد أفندي) لكنه رفض بشدة .. فقد كان صديقاً له وكانت (ست أم سمير) صديقة وحبيبة زوجته (ست أم حسني) وبالتالي هناك أسباب منطقية لرفض ذلك، أقوى بكثير من أسباب رفض إلحاقنا بفصله هو .. وكان رأيه أن الذي يريد أن يتعلم بجد لابد أن يكون في فصل (شاكر أفندي) !

كان لابد من فعل شيء .. فأنا لست تلميذًا رسميًا .. إنني أدرس بالمجاملة كنوع من الأبهة أو الاستعجال ، إذ كنت مازلت صغيراً على وجع الدماغ هذا .. ومع ذلك كان لابد من الاحتجاج .. فقد ورمت

رفضت بكل شدة .. واستعنت (أم حسني) . خاصة وقد تحول الكف الذي رزعه لي – حسب روایتي و تأكيدات (أختي) التي كانت تطمع في عدم العودة – إلى عشرات الكفوف شمال و مين و رفص و رزع في الحائط .. كنت أصور (شاكر أفندي) في صورة الوحش عديم القلب والرحمة ، يكرهني لأنه يكره أبي .. وأنني كدت أموت في يده .. وأشهد أنني كنت كذباً ، لكنني لم أرد أن أهزم ، أو أعود صاغراً بعد أن أدى اكتشافي لموهبي في التمثيل والمبالغة دوره .. وعلى كل حال لم أكن تلميذاً (رسمياً) مقيداً بالمدرسة .. لكنني خسرت (شاكر أفندي الدغدي) إلى الأبد . وهو صاحب الفضل الأول في جمال خطى ، وقدرتني على وضع كل همزة في موقعها الصحيح على الواو أو الياء أو على الأرض !!

بعدها بقليل فقدت أول بنت خفق لها قلبي .. وأنا الآن أعطي لمشاعري اسمًا . لكن أيامها لم أكن أعرف معنى لما يحدث لي عندما أكون معها .. كانت عينيَّ ويدِيَ ورجلِي تتواتر جمیعها متعلقة بها . تنتظر إشارة من يدها ، أو لفتة من عينها أو همسة من شفتيها ، لأنفذه لها آية نزوة ، وأتحقق لها آية رغبة .. ونحن معًا نلعب ألعاب البنات .. (الأولى) أو (الطلة) أو لعبة الفرج ؛ حيث كنت العريس الأوحد دائمًا .. لم نكن وحدنا طبعًا بل كان معنا بنات آخريات منها (أختي آمال) التي كانت في سنها وفصلها .. وكانت صديقة لها كما كانت (أمي) صديقة لأمها .. وأبي) صديقاً لأبيها (أبو نضارة) وهو اسم أطلقناه عليه نحن الصغار . وتبناه كل أهل البلد ، لأنه كان يرتدي نظارة سميكه مميزة جداً ، لا تفارق وجهه المستدير المليء ، و تستقر في أبهة و ثبات فوق أنفه الشديد الحضور .. كنت أعتقد أنه لا يخلعها أبداً .. حتى وقت النوم .

الأنفاس ، فيؤكِّد مخارج الحروف بحركات وإيقاعات كوميدية .. صحيح أن الرعب كان كفياً بإذ امنا حدود الجد والجهة .. لكن المحظوظ كان لابد أن يقع .. فقد فشلت في حشر الكلمات الشهانی على السطر ، قبل الوصول للهامش الأخير .. ونسقت فأخذت أمسح .. والخبر لا يمسح بسهولة .. فكشت الورقة وأنا مرعوب ، أرافق حذراً أن يراني ..

في نفس الوقت كان عليَّ أن ألا حقه حتى لا تقوتي الكلمات ، إذ أن له هو الآخر إيقاعه المحسوب بكل دقة .. التفت نحوي كأنما جذبه صوت اضطرابي .. فانفجرت باكيًا رغم رغبتي الشديدة في الضحك لأنه التفت في صورة مفاجئة والطربوش فوق حاجبيه تماماً كطرطور (شكوكو) .. وما أن حملق فيَّ حتى أسرعت ووقفت منظوراً فسقطت الدواية .. مطرطة الخبر على كل شيء .. هاجت الدنيا .. ما أن شاهد الصفحة المنشورة حتى لطشني قلماً جعلني أصرخ بشكل مبالغ فيه ، ففوجئ بصراخي وأسرع يمسك بي ، محاولاً إسكاتي .. صرخت أعلى فصرخت (آمال) وبعض الفتيات . واندفعت التلميذات على الصراخ من الفصول الأخرى .. ووجد (شاكر أفندي) نفسه في مواجهة أبي ، الذي جاء مسرعاً وقد تعرف على الصراخ .. ليشاهد الكراريس الملقاة على الأرض والخبر المطرطش وخدي المحمر ، فلم يتمالك نفسه ولم ينتظر شرح (شاكر أفندي) الهائح .. واشتبك الاثنان معًا .. (شاكر أفندي) محاولاً الشرح ، وأبي مندفعاً للدفاع عن فلذة كبده .. وكانت موقعة تاريخية .. ظلت لها نتائجها السلبية والإيجابية على علاقات كل الأطراف المعنية لعقود طويلة لاحقة !

نُقلت أنا وأختي طبعًا إلى فصل (محمود أفندي سالم) .. الخنون الجميل . ولكن إلى حين .. فقد كان لابد أن يتصالحاً – (شاكر أفندي) وأبي) – وأن تتصفح أبعاد الموقف فعادت (أختي) إلى فصله ولكنني

سُكِّرَتِيرًا له بالمجلس لولائه الشديد (حسين بك) وبسبب العلاقة الخفية والمتنية بينهما ، استطاعا احتكار إدارة الجمعية لحساب (حسين بك) طبعاً ، وهو بدوره أطلق يد (أبو نضارة) في الشئون الإدارية والمالية دون حسيب أو رقيب (ولهذا حديث طويل آت عندما تتشَّبَّه المعركة التاريخية الكبرى بسبب الجمعية في منتصف الخمسينيات والتي سيظل فشل القرية في كسبها لصالح الفلاحين عالمة فارقة على فشل المسار الديمقراطي للثورة المصرية) المباركة !!

• • •

كان (أبي) صديقاً له ولأخيه (ياسين أفندى) صاحب النخلة الشهيرة التي ذكرتها في أشعاري فيما بعد كثيراً .. وعندما ساءت العلاقة بين الأخوين ، فترت الصداقه بينه وبين (أبي) ، وانتهت إلى ما يشبه حرباً باردة تحكمت فيها الزوجتان (أمى) وأم حبيبي بما عُرف عنهما من حكمة وحنكة في مسارها السري ومؤامراتها الهدائة ، ولم يشع خبرها بين أهل البلد كما حدث لمعركة أبي مع الشيخ (محمد أبو نبراوى) التي انقلبت - بسبب خادمة شبه عبيطة من عزبة (النصاصرة) أغرت أمى منها أن تلحقها بخدمة خال (فتوح أفندى) في المنصورة حيث تعيش في البندر بدلاً من بهدلتها في (زرية) أبو نبراوى وأغرى أبي أباها بإهدائه منبه ساعة ذات جرسين كان تحفة نادرة في أوانها وكان ذلك كافياً لإعلان حرب بين العائلتين تحولت إلى صراع طويل دام .. كانت وقائعه وحوادثه ونواتره حديث القرية كلها . وبالطبع سندكره بالتفصيل في حينه لأهميته التاريخية .

المهم أن ثلاثتهم (أبي وأبو نضارة وأبو نبراوى) كانواأعضاء وزملاء في مجلس إدارة جمعية (ميت سلسيل) الزراعية الذي انتخب مع تأسيسها الأول قبل الحرب . برئاسة (حسين بك عاشور) أغنى رجل في قريتنا ، والذي كان يملك عزبة خارج زمام القرية تبلغ حوالي مائتي فدان قطعة واحدة .. ولم يسقط ذلك المجلس إلا عندما جاء (الوفد) إلى الحكم عام ١٩٥٠ . وإن كان (أبي) والشيخ (محمد أبو نبراوى) قد أخرجاه منه مع بقية الأعضاء الوفديين المنتسين إلى (علو البلد) ، عندما تولى النقراشي الوزارة بعد الحرب ؛ حيث اقتصرت العضوية على الأعضاء من (وطاطي البلد) .. وكان (أبو نضارة) هو الوحيد من (علو البلد) الذي ظل كتاباً أو

لا أستطيع الآن أن أصف وجهها .. لا لأنني لا أجده الكلمات بعد هذا  
العمر الطويل .. فما أسهل أن أخترع لأرسم صورة مثالية تبهر السامعين .  
لكن الحقيقة سوف تبقى أجمل . وأنا لا أستطيع أن أغامر . كانت مختلفة ..  
نظيفة لاثر لغبار القرية على وجهها أو ملابسها أو شعرها ، كبقية البنات .  
كانت قطعة من ضوء الشمس مغسولة بالحليب .. نموج مصغر من أمها  
الرائعة الجمال ، الرائقة البشرة التي يحسد أهل القرية (أبو نضارة) عليها ..  
ويلوكون سيرته حقداً لأنه يحوز كل هذا الجمال الصافي ..

كانت أمها من (طنطا) .. كيف عثر عليها (أبو نضارة) وكيف  
تزوجته من دون رجال الدنيا .. لغر ليس عندي له حل .. ولكنني كنت  
أحبه وأحب زوجته .. لأنها ابنتهما .. كانت عيني تظل شاخصة مسحورة  
بحركة ضفيرتها الوحيدة ، التي تتنفس أمها في غزلها مع الشريط الأصفر  
، تراقص على ظهر الملعطف الأحمر الذي كان يميزها عن سائر البنات ..  
(أمي) أصرت على أن يشتري (أبي) (الأختي) معلطفاً مثله تماماً لكن لونه  
كان مختلفاً - كان أخضر.

كنا أنا وأختي نذهب كل صباح - أختي في معطفها الأخضر ، وأنا  
في بنطلون يصل إلى تحت صابونة ركبتي مصنوع من قماش بدلة قديمة  
لأبي ، وقميص في لون مرايل البنات ومن نفس القماش - لنصحبها  
إلى المدرسة التي تقع في أقصى الشرق من (ميت سلسيل) . وفي الطريق  
يلحق بنا أو نلحق ببعض البنات . كانت (هي) وأختي تتميزان بالمعطفين ،  
وتتميزان بنظافة خاصة ، بسبب تنافس الأمهات (البنديرات) . وكانت  
أسيير خلفهما وعيناي معلقتان بالشريط والضفيرة .. في انتظار أن أظهر  
مهاراتي لها .. وأن أكون عند أول بادرة في خدمتها .

## وإசبر نفسك ..

○ ليس هذا حديث خرافه .. ولست أبالغ .. لا .. هذا حديث جد الجد .. أوروه .. أخذتنا  
السياسة بعيداً . وكاد الكلام الضخم عن سخافات  
الكتار يطمس الحديث الجميل الساحر الرقيق عن  
أول قصة (حب .. وقدان) تحدث لي ، وأنا في  
ذلك السن الرهيف الغض ، والتي كسرت قلبي  
لأول مرة . وهو الأمر الذي تكرر كثيراً حتى آمنت  
أخيراً أن فقدان كان دائمًا قدرني ..

لست أستجدي دموع الضعفاء . فانا لا أحكي  
قصة رومانسية ، ولكنني أحكي عن قرية ووطن ..  
عفواً .. اسمحوا لي أن أتماسك وأكمل .. لا تحدث  
عن حبيتي الأولى وأنا لم أدخل بعد المدرسة  
الابتدائية ولم يصل عمري إلى سن الإلزام .



كنت أفعل كل ما يرسم طيف ابتسامة عل ثغرها .. قلبي يقفر إلى حلقى .. حتى لأكاد أختنق كلما ابتسمت ، حين أحلى لها المسائل الصعبة . أو أكتب لها واجب الأستاذ (شاكر) .. الذي كثيراً ما تشکك في قدرتها على ذلك .. وكيف كنت أتفادى نظراته المتهمة حتى لا أنهار، فأليكي وأعترف .. كان رأيه أن مخها (كالجذمة) ، وأنها لا تفهم لأنها مشغولة بتضيير ضفائرتها أكثر من انشغالها بالورقة والقلم ..

حزنت عندما نقلت لفصل الأستاذ (محمود سالم) بناء على تدخل والدها .. فقد حرمت من تأملها طول اليوم .. ولكن ذلك كان أفضل لأنمادى في خدمتها دون خوف من عقاب .. كنت أعتقد وقتها أنها الدنيا وما فيها .. وكانت (أختي) تراقبني في غيظ . ولو لا أنها تحبها هي الأخرى وتعتبرها أهم صديقة لها .. لما ساحتني . ولكن ذلك لم يمنعها أن تلقي بكلام في البيت عنها . وعن تصرفاتي ؛ مما جعلني هدفاً لسخرية (أمي)، خاصة عندما أتردد في تلبية طلب لها .. كإنجاز مشوار إلى البقال .. أو الصعود إلى السطح لإحضار بعض المخلل والمش من البلايص المخصصة لذلك ، والتي أتقن التعامل معها في حرص وحرفة .. ! حتى كان ذلك الصيف اللعين .. الذي اشتدت فيه الحرارة . فكادت تحرق الحقول التي لم يصل إليها لهيب الحرب .

يومها عدنا من المدرسة محتمين بظلالي البيوت هاربين من الشمس قدر الإمكان .. كان وجهها أشد احمراراً وعيانها الفيروزيتان تلمعان أكثر مما تعودت عليه .. وكانت أحمرص كلما فاجأنا لسان من لهب الشمس أن أرفع كراستي لأظللها .. حتى وصلنا إلى بيتها .. وعدنا إلى بيتنا .. وأختي تنحسني بالقلم الرصاص وهي تسخر من اهتمامي

كنا نسلك في كل مرة طريقاً مختلفاً .. نخترق القرية عبر الشارع الرئيسي ، أو نلف من طريق المحطة ، نتقافز فوق شريط السكة الحديد الفرنساوي .. وكان هذا يعرضنا للتقرير واللوم، فكنت أسارع بتحمل الوزر قبل أن يتتطور الأمر ، أو كنت أصحبهن عبر البحر .. ليس (بحراً بالضبط) ولكننا كنا نطلق عليه البحر ؟ ما دام يتفرع من البحر الصغير أو الجديد ..

وما أكثر ما كنت أقترح أن نذهب عبر الشاطئ الآخر الذي كان يمر أمام عزبة (الدقون) ، خلال غابة من أشجار التوت ؛ لأنني كنت حينئذ أظهر لها مهاراتي الموسمية وألبي رغبتها .. مبالغًا في الحصول لها على ألد ثمار التوت ، من فوق أعلى الأغصان .. وكان هذا يثير غيرة وغضب أخي أحياناً .. ويسن السنة الآخريات علىي .. ولكنها كانت تبتسم .. فتشرق شمس بين أضلاعى .. تجعلني أسامح الجميع ..

حينئذ ، كنا نعبر إلى المدرسة فوق جذع نخلة ممدود بين الشاطئين .. كلهن كن يعبرن كالأرانب أو الععزات الجامحات ، حتى أختي كانت تفعل ذلك بكل خفة وبساطة .. إلا هي .. وحدها كان يتابها الرعب .. ف تكون فرصتي ، التي خططت لها دون أى قصد سى عندهما أغرتنهن بسلوك ذلك الطريق .. فلم تكن تعبر دون مساعدتي .. هل يمكن أن يتصور أي إنسان ، حتى ولو كان قد تخطى سن الستين ، ماهية المشاعر التي تفور في عروقها ساعتها .. وأنا أمسك بكفها كعصفور مرتعش بين يدي .. وأشجعها بكل ما في عيوني من حنان على أن تنقل أقدامها خطوة خطوة .. حتى نهاية جذع النخلة فأتلقاها - في قمة إحساسها بالتوتر وقد امتلأت عيناهما بنوبة الانتصار على الخوف ، لتتفجر الخطوة الأخيرة - بين أحضاني ، ووسط خليط من مشاعر الخوف والفرح والغيرة تضج صاحبة في تعليقات وتصرفات البنات .

أحدق في الفراغ .. قالوا إبني لم أحس لهب الشمس التي كانت تكوي  
بلاط السلم ..

حين انتبهت (أمي) لحالى حملتني حثة سائية المفاصل إلى الكتبة ،  
تحت شباك البلكونة البحرية .. وقد انتابها رعب شديد أن يكون شيء  
رهيب قد حدث لي . رشت وجهي بملاء وأخذت تقرأ القرآن وهي  
تحتضنني في جنون .. وهي تتأكد من تردد أنفاسي ، ثم تعاود تأمل حالى  
وتصرخ في أن أرد عليها .. ولما لم يحدث زعقت ..  
- يا (عبد الباقي) .. الحق .. الحق (سمير) !

وصحا أبي من قيلولته مذعوراً على الصرخة ، متصوراً أني وقعت  
من على السطح ، أو دهستني جاموسه .. فلم تكن لجسدي أي استجابة..

- وقع من طوله أول ما سمع الخبر ..  
- خبر إيه؟

خبر ایہ -

— ماتت .. (منيرة) بنت (أبو نضارة) بيقولوا ماتت ..

كاد أبي أن يسقط إلى جانبي .. لو لا أن تناول القلة الباردة من الصينية  
- كما قالوا لي فيما بعد - وصبعها على رأسه ..

— إِزَّايِ؟ .. دِي كَانَتِ النَّهَارَدَةِ فِي الْمَدْرَسَةِ زِيَ الْوَرَدَةِ .. لَمَا خَدَتْ شَهَادَةَ بُنَاحَهَا.

صمت لحظة وقد اتسعت عيناه رعباً ..

– كانت ممزرودة .. ووشها زي الكبدة ح ييك منه الدم .. الحر .. أنا  
كبت حاسس ان النها، ده بهم ما هاش فابت .

الرائد، وتخرج لي لسانها غضباً أحياناً، وأحياناً على سبيل الإغاظة ، وتعاريرني لقلة اعتزازي بكرامتى قدام البنات ..

بعد ساعات شقت الصرخة الملتاعة قلب القرية . صرخة حادة طولية باكية مستغيثة ، تدق باب الرب محتاجة ، تمزق الصمت الذي خلفته الشمس الحارقة في الحواري فقطع الأرجل ، وأجبر الخلق على التكؤم في حماق ، الأحذش ، مفتق ، الضاح ، والزمان ، الماء ، طرة

هرع الخلق ملهوفين مذعورين كأن حريقاً شبّ في رؤوس البيوت  
التي حمصتها الحرارة..

حملت الإجابة حسرةً وحزناً وألماً هد حيل الجميع .. وأنا خنقتني  
الدموع وشححتبني شهقات حارقة وانخرطت في بكاء حقيقي لا يليق  
بسني - ليس وقتها ولكن الآن - وأنا أحاول أن أتذكر ، وأن أجدد  
الكلمات لأكتب عما حدث .. نعم بكيت (الآن) لأول مرة عليها ..  
يومها لم أبك .. ولم أصدق .. وشتمت الحالة (حضره) التي اندفعت إلى  
بيتنا منكوشة الشعر ملهوفة تشلشل بطرحتها الكالحة . وهي تتعثر منكفة  
ملهية تخمش وجهها ، وتضع على رأسها تراب الأرض المحروقة ..  
شتمتها ولم أصدق وهي تقول إنها ماتت .

- مش ممکن .. إِزَايْ؟ . العيال ما بيموتوش كده . انتي قصدك تغيظيني ..

لماذا هي وماذا حدث؟.. نزل على سهم الله، بينما ولدت (أمي) وبكت (آمال) وهي تندفع صارخة متعلقة بأذیال (حضره) التي اندفعت..

أنا خرست .. مع عوّبًا تكومت في ركن بسطة السلم بلا حركة .

عندما كانت أسرار تلك الفتنة وسحرها الخفي ينكشف من ثغرات ثوبها  
الذي تمزق خلال صراعها مع النساء الحزانى الباكيات .

- لا حول ولا قوة إلا بالله ..

لم يتم أي شيء في هدوء .. كل شيء تم رغم أنها .. الدنيا حر ..  
.. وإكرام الميتة دفنه بسرعة .. فلا يمكن في ظل هذه الشمس القاسية  
الانتظار ..

(أبو نضارة) .. انهار .. بهت عيناه تحت نظارته السميكه ، ولم يجد  
عليه أنه فهم ما حدث .. كل ما كان يتمتم به .. ذاهلاً ..

- ليه؟ ..

والكل يجيئه ..

- أمر الله .. إنت مومن ..

- ليه؟ .. ده كفر .. ليه؟ ..

- لا حول ولا قوة إلا بالله ..

يسمعها فتخرج من صدره وحلقه آهة خشنة كخوار ثور مذبوح ..  
.. ثم يصمت كحجر .. غسلتها زوجة المخنوتى وكفنتها بعيداً عن أنظار  
أمها الهائجة .. ودون أن يراها أبوها المذبوح .. كانت الشمس تسوقهم  
بسياط لهبها ليصلوا عليها بسرعة .. وخرجت البلد كلها وراءها إلى  
القبور .. حتى ستات البيوت والمكسجين والعجزة إلا من يشلون حركة  
أمها .. ومن عجزوا عن القيام من حول أبيها المذهول الذي لا ينطق إلا  
خواراً خشنًا عميقًا مجروحًا في آهة طويلة ، تعلو وتتصمت فجأة ..  
حتى الأطفال والبنات وأختي ذهبوا إلى المقابر .. إلا أنا .. تحرستني  
أمي عاجزاً عن الحركة أو التصديق أو الفهم ..

لشهر طويلة بعد ذلك ، ومنذ الليلة الأولى ، كانت الأم تهـب

- لا حول ولا قوة إلا بالله .. ليه؟ .. طب وده بقى إيه اللي جرى  
له؟ شرب ميه؟!

هزني بعنف متصوراً أن ما حصل لها يتكرر معي .

- حلمك ع الواد .. احنا ناقصين؟ الواد ما استحملش الخبر .. مش  
كانت صاحبته ..

- هاتي كده أمّا افوهه ..

حمنتي أمي من عصبية أبي واحتضنتني ، ثم حملتني إلى السرير في  
الأوضة البحرية وفتحت الشباك على وسعه .. واطمأنـت عندما رمشت  
عيونـي لأول مرة .. وسمعتـني أحرك شفتـي وأهمـس عندما لـطـشتـني  
النسـمة ..

- لا .. ما ماتتش !!

لم يستطـع أحد من القرية كباراً وصغاراً ، ونسـاء ورجالاً أن يمنعـ  
نفسـه من البـكـاء .. المرأة التي حـسـدتـها النـسـاء ، وبـسبـبـها حـسـدـ الرجالـ  
زوجـها .. كانت تصـعبـ علىـ الكـافـرـ ، وهي تـمـرغـ نفسـهاـ فيـ التـرابـ ،  
وتـلـقـيـ بنـفـسـهاـ كـالمـجـنـونـةـ عـلـىـ السـلـامـ ، وـتـنـخـبـتـ بـيـنـ الجـدـرانـ وـقـدـ أحـاطـتـ  
بـهـاـ أـذـرـعـ النـسـوةـ مـحاـولـاتـ تـهـدـيـتها .. لـكـنـهاـ كـانـتـ تـسـجـمـعـ عـافـيـتهاـ بـقـوـةـ  
عـشـرـةـ وـتـبـعـرـهـنـ وـتـجـهـدـهـنـ ، فـيـعـاـوـدـ حـسـارـهـاـ وـإـجـارـهـاـ عـلـىـ الـجـلوـسـ ،  
فـلـاـ تـلـبـثـ أـنـ تـدـفـعـهـنـ وـتـبـعـرـهـنـ لـتـعـاـوـدـ الـقـفـزـ وـالـمـهـابـرـةـ مـحـتـجـةـ عـلـىـ السـمـاءـ  
لـاعـنـةـ الـأـرـضـ وـمـنـ عـلـيـهاـ .. رـافـضـةـ أـنـ تـعـرـفـ بـمـوـتـ اـبـنـتهاـ الـوـحـيدـةـ ..  
محاـولـةـ فـيـ كـلـ مـرـةـ الـوـصـولـ إـلـيـهـاـ كـأـنـهـ سـتـعـيـدـ إـلـيـهـاـ الـحـيـاةـ ..

كتـلةـ الفتـنةـ الجـميـلةـ التيـ كـانـتـ تـشـيرـ حـسـدـ وـجـشـعـ الجـمـيعـ نـسـاءـ وـرـجـالـ  
.. تـبـعـرـتـ عـلـىـ الـأـرـضـ وـتـمـرغـتـ فـيـ التـرابـ .. الحـسـرةـ شـلـتـ الـأـحـاسـيسـ  
الـشـبـقـةـ الـخـفـيـةـ فـمـاتـ .. قـتـلـهاـ الـحـزـنـ الطـافـحـ مـنـ عـيـونـ الرـجـالـ ، حـتـىـ

كانوا يتتصورون أن ذلك بسبب سهري في الخراية ، وعفترتي طول الليل مع الأولاد في الحواري الضلعة .. أحد المشايخ أكد أنني ممسوس. وعمل أبي لأهل الله ليلة ولسيدي (مجاهد) عدة ليال .. وزار(السيد البدوي) بناء على نصيحة أحدهم .. وخالي (السعيد) العاقل قاس لي الآخر، أما خالي (إبراهيم) .. فقال ..

ـ هذا الولد مكتوب ألا تهدأ له حركة . طول الليل والنهر كالنحلة لا يكف عن الدوران . وما يحدث له بسبب أن عقله لا يستوعب ولا يتحمل عنف جسده . هذه هلاوس التعب.. ارحموه من نفسه .. اشغلوه بالدراسة .

وقرر أبي أن يلحقني بالمدرسة الابتدائية وإن لم يبلغ سن الإلزام ، مع أنك لم تكن ظهرت ياصديقى بهذه الحدة في حياتي ولم أكن وقعت بعد تحت تأثيرك وسيطرتك . ولم يصدق أحد أنني كنت أنزل لها تحت الأرض .. لكنى متتأكد أن الدنيا لم تعد كما كانت .. ثم تأكدت أنها ماتت بالفعل ، لأن شيئاً ما في داخلي كان يصارع كى لايموت

• • •

فرعنة في منتصف الليل . وترجح صارخة عارية الرأس حافية القدمين ، يلاحقها زوجها في الظلام محاولاً سترها بشال أو ملاءة .. كانت تسمع ابنته تستغيث بها ، أن تخرجها من القبر .. ولا يستطيع أيا كان أن يمنعها من الوصول إلى المقابر أو نبش الأرض حتى يقوض لها الله من يقرأ على رأسها آيات الله البينات .. فتهداً وتستقر عيونها الزائفة المدمدة .. لنعود بها النساء اللائي تعود بعضهن بعد ذلك القيام بما كان يعجز (أبو نصارة) عنه وقد ازداد ضعفاً وهننا ..

(حضره أم بيومي) (فاطمة أم دغديدي) وأرملة أخرى لا ذكر اسمها .. كن يتظرنها كل ليلة .. ليصحبها إلى المقابر في انصاص الليلي .. شيئاً فشيئاً كانت الرحلة الليلية تصبح أهداً . و شيئاً فشيئاً .. أصبحت هي أضعف .. أصبحت تتحدث في هدوء عن ابنتها التي مازالت في القبر صاحبة ترجوها أن تخرج لها .. لم تعد تخمش أو تنبش . كانت مستسلمة . تجلس أمام القبر تحدثها في ود وحنان .. كانت تأخذ معها فاكهة وفطائر . وذات ليلة أخذت معها البالطو الأحمر .. والمشط والشريط لكي تصفر لها ضفائرها قبل الذهاب للمدرسة .. كانت (حضره) تحكي لأمي الباكية .. ولم أكن أصدقها .. لأنني لم أصدق أصلاً أنها ماتت .. وأنهم دفونها حية ..

للان .. لم يستطع المشايخ أو الأطباء أن يعرفوا سر صرافي في نصاص الليلي لفترة طويلة وأنا نائم .. و سر انتفاضي المذعور مرعوباً مما يحدث تحت الأرض .. وأنا أصف لهم ما أقابله هناك من عفاريت وبغال لها قرون وكباب متوجحة .. ومردة بعين واحدة ..

## قل : أعود ..

كسر الخبز من الصينية أو من على الطبلية .. تفعل ذلك ضاحكة :  
– اللي يلم سبع لقمات ، يبقى لي في الجنة قيراط ..

لم أكن أعرف عنم أخذت هذا النشيد العالى الهدف .. المحكم الإيقاع .. زمان .. كانت بنت النجارين التي جاءت لتعمر المعددين الحديثين فوق الدار القديمة تعني :  
– أنا المعددين وأملك وسط الدار ..

أصبحت لا تكف لحظة عن عمل شيء يحتاج البيت له .. فهي تكتنس وتغسل وتطبخ .. وترفو وترقع وتطبق وتنظم وتنقي الغلة وتسفح الرز وترتق القطوع والتمزقات وما أكثرها في ثياب من لا يكفون عن الحركة . وتروق الماء .. لكنها لم تخرج لتجلبة فهـي ست البيت يأتي إليها دائماً من يساعدـها .. إذا ما أحـتاج الأمر . كانت تعتبر البيت مملكتـها ، لذلك نـشـأـناـ أناـ وإـخـوـتـيـ الصـبـيـانـ قـبـلـ الـبـنـاتـ نـقـدـسـ الـبـيـتـ . وـنـدـفـعـ مـنـ أـرـواـحـاـنـاـ وـأـنـفـسـنـاـ وـأـمـزـجـتـنـاـ بـلـ وـحـتـىـ طـمـوـحـاتـنـاـ وـنـزـوـاتـنـاـ فـيـ سـبـيلـ تـدـعـيمـ أـسـسـ الـبـيـوـتـ الـتـيـ صـنـعـنـاـهـاـ بـإـرـادـتـنـاـ الـحـرـةـ ..ـ أوـ بـإـرـادـتـنـاـ الـمـهـتـزـةـ الـمـضـطـرـةـ .ـ تـحـتـ ضـغـطـ ظـرـوفـ أـوـ عـوـاطـفـ أـوـ تـطـورـاتـ جـبـرـيةـ فـيـ مـسـارـاتـ حـيـاتـنـاـ الـقـدـرـيةـ .ـ

ـ شـوـفـ يـاـ اـبـنـيـ أـنـاـ اللـيـ عـمـلـتـ بـإـرـادـتـيـ ،ـ لـاـ يـمـكـنـ اـتـنـكـرـ لـهـ أـوـ أـرـجـعـ عـنـهـ ..ـ وـعـشـانـ كـدـهـ اـطـمـنـ فـيـ حـاجـتـيـ مـسـتـحـيلـ لـوـ عـلـىـ رـقـبـتـيـ أـرـجـعـ عـنـهـمـ ..ـ أـنـاـ خـلـفـتـكـوـ بـعـدـ مـاـ اـتـحـوزـتـ أـمـكـ بـإـرـادـتـيـ الـحـرـةـ ..ـ وـمـاـ حـدـشـ جـنـدـنـيـ لـلـشـيـوعـيـةـ ..ـ أـنـاـ رـحـتـ لـهـ بـرـجـلـيـهـ أـوـ هـيـ اللـيـ اـتـعـرـفـ فـيـ عـلـىـ رـاجـلـهـ ..ـ عـشـانـ كـدـهـ مـاـ تـقـلـقـشـ دـهـ قـدـرـ وـمـصـيرـ .ـ

ـ كـنـتـ أـقـولـ هـذـاـ عـلـىـ طـرـيقـةـ أـمـيـ السـاخـرـةـ الضـاحـكـةـ ..ـ حـتـىـ لـوـ كـانـتـ

ـ الـمـنـاسـبـةـ لـاـسـاخـرـةـ وـلـاـ ضـاحـكـةـ !!

○ كانت أمي تقول لنا وجهها يضحك بعد كل أكلة :  
– يستغفر الإناء للاعقة وهو قول يكاد يرتقي لديها إلى درجة الحديث القدسـيـ الشـرـيفـ ..ـ وـانـ لمـ تـقـلـ لـنـاـ أـبـداـ مـنـ هوـ قـائـلـهـ أوـ نـاقـلـهـ ..ـ تـرـكـتـنـاـ نـفـهـمـ إـنـ مـثـلـ هـذـاـ القـوـلـ النـاصـحـ الفـصـيـحـ ،ـ لـابـدـ أـنـ تـكـوـنـ لـهـ عـلـاقـةـ مـاـ بـالـقـيـمـ الـنـبـيـةـ .ـ تـعـلـمـنـاـ –ـ كـلـنـاـ بـنـاتـ وـأـوـلـادـ –ـ الـحرـصـ عـلـىـ عـدـمـ إـلـقاءـ بـقـاـيـاـ الـطـعـامـ أـوـ إـهـمـالـهـ ..ـ لـمـ يـكـنـ بـخـلـاـ أوـ حـرـصـاـ وـلـكـنـ إـحـتـرـاماـ وـتـقـدـيرـاـ لـلـنـعـمـةـ وـلـلـقـيـمـةـ ..ـ قـيـمـةـ الـعـلـمـ الـإـنـسـانـيـ الـمـتـجـسـدـ فـيـ الـلـقـمـةـ وـالـكـسـرـةـ ،ـ وـقـيـمـةـ الـشـكـرـ الـضـرـوريـ لـلـسـمـاءـ وـلـعـبـدـ الـبـاقـيـ عـلـىـ الرـزـقـ الـحـلـالـ ..ـ كـانـتـ تـجـعـلـنـاـ –ـ وـتـدـفـعـنـاـ لـأـنـ بـجـمـعـ



أبدا .. الكشك مرصوصة فيه بطرمانات وبلايص وزلع المش والجبنه والزيتون الأخضر واللفت كل في موسمه ..

- طبق مخلل ياست (أم سمير) ..

لم يكن ينقطع العطاء . و كنت أعرف أن طبق المخلل هذا قد يكون الغذاء الوحيد المتاح للعائلة التي أرسلت رسولها (أم سمير) .. وأحياناً لم يكن الأمر بحاجة إلى رسول أو مرسال .. فكم أرسلتنا أنا أو إخوتي .. بأطباق مغطاة مستوررة بقطع القماش إلى بيوت عديدة كلما كان القلب عمران والإيد طالية والخير فايض ..

وأنا أو أي من إخواتي .. كلهم يشهادون وكلهن يشهدن .. أنتا في ظل (عليه) و (عبد الباقي) أو (عبده أفندي) لم نشعر بال الحاجة للأشياء المادية على الإطلاق . فقد كان أبي رغم محدودية الحال .. قادرًا على توفير كل ما هو ضروري ، بل واكثر بفضل (أم يوسف) وتدبرها الذي جعلنا جميعاً نبحث عن حاجات أخرى غير ضرورات الحياة .. حاجات أكثر روحية . جعلتنا أحراجاً لنا أحلام اسمي قليلاً من الواقع المر المادي - كنا بسببيها مختلفين ، غير محبوسين في مطالبنا أو احتياجاتنا المادية الذاتية ..

كنا نحس وكأننا مسئولين عن الدنيا وما فيها . وهو شعور يعرف عذاباته كل من أحب الإنسان في تجلياته . أو اهتم بهموم الآخرين .. لم يكن أبي يدخل البيت وإيده فاضية على الإطلاق .. حتى لو كان ما يحمله مجرد حزمة فجل أو كرات ..

عودنا أن نأكل الخضار الطازج مع كل طعام ، صباحاً وظهراً ومساءً .. عودنا أن نأكل معاً أو هي عودتنا .. أخضعت الظروف لكي تنتظم طقوس اجتماعنا معاً على الأكل .. كانت تري لذلك أهمية الحياة نفسها ..

ما الذي جاء بهذا السياق ليقطع حديثي عن (الفقدان) .. ؟  
بالمامس أغرتني شوربة الأرنبي أن أصنع ملوخية .. فتحججت لنفسي بأخذ التلفزيون المعطل إلى (الضبعة) وكان يوم السوق .. وعدت وهي بطيخة وعرق ملوخية خضرا .. قطفت وغسلت ونشرت وخرطت وفصصت توم وطشيت الملوخية .. وأنا أتذكر طول الوقت أمي .. وأكلت ، وأنا أستحضر ذكرها وفضلها على قدرتي صنع اللذ طبق ملوخية - بلا فخر .

هي التي علمتني ما جعلني أتحمل الغربية والسجن والوحدة ، وأستخدم يدي في مهارة في صنع عشرات الأشياء . لاستطيع وأطيق الحياة لمدة تلاتين شهراً في زنزانة انفرادية . وقدهم وسط زحمة الآخرين . لكنني أستطيع أن أقيم أودي وأعتمد على نفسي .. ولا أحتاج أحداً وأن أعطيت معظم وقتي وقوتي وقوتي للآخرين ..  
دخلنا في الأننا .. آسف ، لكن طرأ على ذهني فجأة نوع من المقارنة .

الشاعر (فلان) ما كانش يعرف بنته ف سنة إيه !  
الشاعر الكبير اللي (على الحجر) من صغره ، عمره ماغسل مواعين .  
حتى في السجن كان بيتحانق للهرب منها .

لذلك أح مدتها واشكر فضلها (الست أم يوسف) فقد ربتني فأحسنت تربيتي . عندما أعود من الخارج وأكون قد أكلت مع أصحابي ..  
- يا ابني كل .. (قوت البيوت ما يقوت)

أو تنضاحك ظناً منها أتنبي أعااف الأكل .. دلعاً أو بطراء :  
- يا (قيس) كل ممّا .. الأم يا (قيس) .. لا تطبع السُّما ..  
فأجاملها وآكل على شيء وأمرني لله ..

كانت ست مدبرة أو (دبأة) تدبأً وتدبـر .. البيت لا يخلو من (حوان)

أحدنا من شرب الشّربة . كان بعضنا يختفي في الكشك العلوي أو تحت السرير أو يحتاج بحاجة عند فلان أو ترتان .. لكن الحذر لم يكن يمنع القدر.. كانت شربة زيت الخروع أو السلفات (الملح الإنجليزي) قدر لا مفر منه.. لصحة الأبدان ..

في نفس الوقت الذي كان البرميل المزفت جيداً ، يرتفع فوق بيتنا معلناً أنه يوجد هنا أسلوب حياة مختلف ، وثقافة غير الثقافة السائدة .. كان (عبده أفندي) حريصاً على أن يهسي لبنت (المعلم يوسف) ولنفسه حياة حديثة .. فمن البرميل تتد ماسورة مدھونة بالسليقون إلى الحمام .. ويملاً (ظاظاً) أو (حمادة المصري) البرميل بانتظام من الترعة وكانت عندما أذهب لبيوت أعمامي أو أدخل بيوت بعض زملائي .. فأراهم على الصبح وهم يطسون وجوهم بكوز ميه من البلاص .. أو يمارسون حياتهم معنا دون غسل وجوهم .. تاركين للذباب فرصة دائمة للخلاص من الجماعة التي تسببها النظافة - عادي !!

ولكن غير العادي هو أن هذه المميزات كانت تشعرني أنني أقل من الآخرين .. فلم يكن بالي يستريح إلا أن أعود كل يوم آخر النهار ممزق الجلباب أو مطين البيجامة أو مضيع الحذاء .. في مكان ما .. مخموشا مجروحا .. كأي طفل (لاتهدأ له حركة) لأواجه قرصات أمي ، وهي تعيد صياغة هيئتي وتعاتب الزمن على بختها في ..

كنت أفضل عتابها وعقابها علي أن يعرف أبي شيئاً .. لذا كنت أعمل على تجنب لقائه قدر الإمكان . فإن كان لا يزال في البيت ، أخرت عودتي حتى ينام أو يخرج لسهرته المعتادة أمام دكان (محمود شطا) .. فإن جاء وأنا في الداخل ، سرعان ما أتعجل النوم وأتظاهر بالاستغراق فيه . كانت أمي - في الغالب - تساعدي على الإسراع إلى الفراش ، عندما تسمع ما ينبيء بعودة أبي .. وكم كان هذا يؤثر في ويسعدني .. فهي سوف توقطبني بعد قليل .. فأقوم ، متظاهراً بالغرق في النوم كي أشاركم طعام

ولن أدخل في تفاصيل .. الخبز والخزين والطبيخ والحموم والغسيل .. ولكن الأهم أن نتعود على ذلك الطقس الدوري وهو يوم (الشرب) كان أبي يجبرنا ، وعلى فترات شبه منتظمة . أن تتناول جميعنا (شربة الزيت) أو (الخروع) .. الكل بلا استثناء .. ولم أعرف قيمة هذا إلا بعد أن كبرت وتأكدت أن - المعدة بيت الداء ..

أما الطقس السنوي الروتيني كل صيف .. لدرجة أصبح معها أحد هموم الإجازة . هو (تحليل المستشفى) .. لتناول شربة (الكربون) ملن يثبت أن عنده ديدان - وحقن (الطرطير) القاسية لمن تظهر لديه آثار البليهارسيا ..

لماذا كان يفعل ذلك ؟ .. وبإصرار وانتظام .. سؤال ؟ .. لم أكن أطرحه وقتها طلباً للإجابة ولكن لأحتاج عليه ولكن الفعل استقر في القلب . وغفرت له بسببه أنه لم يقل لي - أو لأي منا مرة .. واحدة ..  
(أنا بحبك) !!

كان على الدوام جهماً جاداً .. رغم أنه لا يملك أي من مقومات الجحامة أو القسوة .. لهلبني أحياناً بعضاً رفيعة لأنه ضبطني أستحمد في الترعة - وكان هذا مزاجي الملح والدائم .. لدرجة كان يوقع توقعه المعقد، باسمه فوق فخذلي بالكتيبة ، ليعرف إن كنت قد قعتها أم لا .. وطبعاً كم تحايلت وابتكرت من الوسائل ما يحفظ التوقيع سليماً . لكي أمارس هوایتي الصيفية .. وإن لم تسلم الجرة في كل مرة ..

ولكن البليهارسيا وغيرها لم تستطع أن تندد علينا مستقبلنا ، كما تفعل عادة للمصريين الذين عاشوا في القرى ، ولم يتع لهم أب وأم (كعبده أفندي) والست (أم سمير).

لم تكن أي حجة أو وسيلة للهرب أو التمنع بقدرة على إفلات

- الله أرسل الوحي وحده بما سيكون ، ولذا أمره ببناء السفينة ليلاجأ إليها مع المؤمنين ، عندما يكون الطوفان ويحل غضب الله ..  
 - وهل كان الوحي ينزل للناس .. ويكلمهم هكذا عيني عينك .  
 - يتحدث للأنبياء والرسل فقط يا ثرثار .  
 - وكيف يعرفون أن هذا كلام الله .. وليس وزة شيطان .. هل الأنبياء يعرفون أنهم أنبياء ..؟  
 - الأنبياء يعرفون عندما تحدثهم أنفسهم بما أوحى به الله إليها ..  
 - وكيف أعرف أنا أن ما تحدثني به نفسي وزة شيطان . وليس كلاماً من عند الله ..؟  
 - قالت خالتى ..  
 - نفسك لا تحدثك إلا بكل شر . ولذلك ملأ قلبك وسوسات الشياطين .. إسكت خلينا نسمع ونتعظ .  
 - ليس كل ما تحدثني به نفسي شر ياخالتي . أنت بالذات تعرفي أنني عملت خير كثير يجعلك تدعين لي بأن يخليني ربنا .. ويحميني من كل شيطان  
 توثر الجو ، وتبادرت خالي النظر المتوجس . فلساينى على ما بدا سوف يفلت كالعادة ، وستسوء العاقبة بالتأكيد .. ولكن ضحكات الخال الشيخ غطت على كل الوساوس .. عندما أخذنى في حضنه .. وهو يتمتم ويتوسل وقال :  
 - يا إبني وسوسة الشيطان لا تكون إلا بالشر .. ووحي الله لا ينزل إلا على الأنبياء والرسل والمصطفين ..  
 - إذن أنا (مصنف) يا خال ..  
 شهقت خالي في وقت واحد رعباً ..  
 خالي الشيخ نظر إلى في دهشة ، الحقها بسمة حانية غمرتني بالأمان  
 فقلت :

العشاء .. وأتحمل الزغرة أو الشخطة المؤكدة أو الوعيد المنتظر ، عقاباً على شيء ما من نوع مؤكد إنني فعلته ، أو ذنب ارتكبته . وأبلغ عنه أحد (أولاد الحلال) .. وكان والدي غالباً ما يؤجل ما تؤجله أمي من عقاب .. لينسى بعدها أو ليتناهى التنكيد على أو التنكيل بي .. فالأكل له حرمة ولا يجوز الضرب على الطعام .. وكان لهذا في قلبي عرفان كبير لفضل تعاليم السماء التي تطبقها أمي ، والتي تميل إلى جانب الرحمة لا العذاب !  
 وتفضل الغفران على العقاب !!  
 تلك السماحة ، بالتأكيد ، هي التي كانت وراء جرأتي يوم ضحكت من أعماق قلبي عندما قال خالي الشيخ (إبراهيم) (إن الله أمر سيدنا (نوح) أن يبني سفينته في الصحراء لا على شاطئ البحر !)..  
 قلت ببراءة :

- هل لهذا سموا الجمل سفيننة الصحراء !  
 قرصتني أمي قرصنة موجعة .. بينما زغررت خالي (سميرة) زغرة حادة بعينها الوحيدة ، وهي تكاد تتبتسم . فبدت مضحكة ، ولكنني كتمت ضحكتي لأن الشيخ (إبراهيم) على عكسهم ابتسם في وجهي باسمة حانية وملس على شعري الناعم يده المرتعشة وهو يقول :  
 - ما شاء الله .. طول عمرك مسحوب من لسانك .. على كل حال لقد سخر منه قومه مثلث ، وقالوا (هل ستجعلها تعود في بحر الرمال يا نوح) لكن نوح طبعاً كان يعرف ما أوحى به الله إليه . ويعرف أن سيلعنه بها البحر عندما يريد الله ..  
 - كيف خمن نوح أمر الله ..  
 - الله أوحى به إليه .. الأنبياء لا يخمنون يا شقي ..  
 - كيف ؟ ألم نسميهم أنبياء لأنهم يتبنّون .. يخمنون !!

أفذه بالطوب وأعن أبوه أو أقتله .. ولكنني لم أستجب للشيطان فلو تنبه لي لقتلني هو .

أخذت أبكي وقلبي يتقطع حزناً عليها ، وحسرة على ضعفي وجنبي . عندما تعب من ضربها .. ترکها لاعنا .. وهو يصرخ مهدداً أنه سيعود لها . فإذاً العصر قد حان وعليه أن يسرع ليمتطي مئذنة الجامع لكي يؤذن ويؤمّن الناس للصلوة .. سوف يفعل ذلك بأسرع ما يمكن ، ليطين عيشهما ويضلم مساهما ويسود ليلها ..

كاد يصرني عندما استدار ، لكنه انهمك في إعادة الكرباج إلى الجدار . فأبتعدت عن مدي بصره واحتسبت خلف إشولة الرز الشعير التي يجمعها لقاء خدماته للجامع .. إلى أن خرج ..

أصبحت الحكاية سيدة الموقف .. صمتوا ، حتى خالي التي عادت بعد أن اطمأنّت على أحوال ما على النار .. بطرف عيني لمحتها واقفة تنصت لما أقول في شغف ، وقد نسيت خوفها من أن تؤدي ثرثري إلى كشف بعض ما بيني وبينها من أمور وأسرار . ولما تأكدت أن حكايتها عن واحدة أخرى اطمأنّت قليلاً .. بينما استمرّ خالي يتمتم وهو يحرك حبات المسبحة في عصبية ..

– لا حول ولا قوّة إلا بالله .. الله لا إله إلا هو

– ولما أخوها خرج وأغلق الباب بالمفتاح علينا .. تسللت إليها . كانت مكومة في ركن الحوش الداخلي المظلم لدرجة أنني لم اتبين ضياء جسدها المكشوف في الظلام الذي شمل المكان . فركت عيني وأنأ أنا داديه .. فأرتعبت .. غطت فخذيها المرمر ولما لم يفلح المزق في سترها لم تقبه قميصها المشقوق بين كفيها وصرخت (مين؟..) وكأنها تسال (إنس والا جن؟) .. طمنتها أنه أنا ..

– أنا أسمع الله يأمرني كثيراً أن أفعل أشياء كثيرة . أحس أنه يكلمني ويوصيني بفعل أشياء لا أعرف هل هي طيبة أو شريرة ..  
ساد الصمت يأساً من إيقافي عن الكلام دون تعكير صفو القدمة .. خالي (سميرة) قالت :  
– سأقوم لأرى ما على النار .

وظلت خالي (بدر) تنظر في عيني مباشرة في حدة وعتاب راجية مني الصمت حتى لا أتورط في مناطق محمرة لكنني كنت مدفوعاً كمن تجبره قوة قاهرة على الكلام ..

– لقد أمرني أن أطيب خاطر (زهرهان) وأمسح دموعها بشفتي ، عندما ضربها أخوها أمس بالكرجاج وبهدلها ..

فوجئوا . فسكتوا جميعاً مشدوهين .. وأنا أواصل كان أحداً غيري يتحدث بلسانني ..

– أنا رأيته . كان يشدّها من شعرها .. ويسبحها على الأرض . كانت تتلوي بين يديه الناشفة كطفلة صغيرة . مع أنها كجنيات الحواديت . كانت ترجموه أن يتركها دون جدوى .. وهو يلعنها ويركلها ، ويصرخ فيها لأنها خالفت أمره ووقفت خلف الباب الموارب ، كعادتها تنظر إلى الشارع . هذه المرة فاجأها ، فلم تجد فرصة للهرب أو لإغلاق الباب .. جرها على طول أرض الحوش حتى عراها . وكشف نصفها الأسفل كله . وهو يضرب ويزعّد ثم ينحني ليوقفها ويعود يدفعها لتنكفي على وجهها ..

أخذت أبكي . وأنا أشاهده من بعيد . كوحش هائج تناول الكرجاج الذي يعلقه على الجدار . والذي لا يجرؤ أحد على لمسه حتى في غيابه . هو فقط ، عندما يريد أن يؤكد سلطانه .. كان الشيطان ساعتها يوزّني أن

قال الشيخ إبراهيم فرعاً :

- هذا الولد مسوس .. وعلينا أن نرقيه باسم الله الأعظم ..

سرعه أحضرت خالاتي - وكانت صديقتين حميمتين لزهزان -  
البخور . وذهبت التي تراقب ما على النار فأحضرت المنقد ، وبه جمر من  
خشب التوت المتوجه .. ألقى خالي ببخور مبروك لديه ففاحت رائحة  
ساحرة ، وغامت الحجرة بالدخان .. وهو يتمتم ويربت ويسمح على  
رأسه وجسدي باسم الله الأعظم .. حتى نمت وسندتني خالي الكبرى ،  
وأرقدتني في الفراش .. وهي تبتسم لأنني لم أحلك حكايات أخرى كانت  
هي طرفاً فيها . وسمعت صدى صوتها من بعيد ، كأنه يسري بين جدران  
كهف سحيق تدعوه الله أن يسترها معه - دنيا وآخرة ..

• • •

فانفجرت في البكاء .. بينما جسمها يتنفس من الألم والخزي .. مددت  
يدي خائفاً مبهوراً أربت عليها . شعرت بقشعريرة تغمرني عندما  
أحسست ارتعاش جسدها تحت يدي . أخذت أبكي وأنا أقول لها .. (ما  
ترعليش .. حقلك عليّ أنا .. ما أقدرتش أحوشة) كانت دموعها تسيل  
على خديها الوردين في صمت ، وهي تنظر لي في دهشة .. ربنا قال  
لي ، إن أتقدم منها وأحضنها ، ثم أشرب دموعها كطفل يرضع حليب الأم  
لأول مرة .. ووجدتني أفعلاها وأعتذر لها وأنا ألهث ، كأنني أنا الذي  
ضربها .. غمرتني عيونها بنظرة حنان وعرفان حزينة . ثم مالت برأسها  
عليّ واستكانت في حجري . وهي تستعيد أنفاسها اللاهثة وتهداً كطفلة  
صغيرة . ثم بدأت تهدئ حزني وتواسيني .. وهي تقول ..

- شفت شفت بيعمل في إيه؟  
وأنا أقول لها ..

- حقلك عليّ .. حقلك عليّ .. أنا ح اقتله ..  
وأخذت أهنتها كطفلة وأهددها حتى نامت .. أي والله العظيم  
، نامت على صدري ، ولم أجرو على إيقاظها .. صعبت عليّ .. كنت  
مسحوراً مأخوذاً ولما شمنت لشعرها رائحة العنبر بكيت . وخفت أن  
يطلع على العفريت ، ويفاجئني معها فيقتلني دفاعاً عن شرفه .. وماذا  
سيفعل أخوها لو أنه عاد فجأة الآن من صلاته ليجدتها نائمة شبه عارية في  
حجرني .. وهو الذي جلدتها لأنها بصت من فرجة الباب .

ولما تعبت من التفكير والخوف نمت أنا الآخر محضنا جسدها ولم أدر  
 شيئاً .. ولا أعرف حتى الآن كيف نجااني الله من هذا الموقف .. لكنه فعل  
 فهو قادر كل شيء .. هو بالتأكيد الذي أمرني أن أمسح دموعها بشفتي ..  
وأمرني أن أخرج في الوقت المناسب .. نعم ! لابد أن الله أوحى لي ودلني  
على سبيل للخروج ، ووجد طريقة لإنقاذي !

## في عين حِمَةٍ ..

من مختلف الأجناس ، ستنقض فوق رأسه ما بين لحظة وأخرى .. هذا أن لم يخرج عليه بعضهم فجأة يرشقه بالحصي .. أو يملاً عينيه بتراب النار الحامي .. فيسرع الخطو ويقرأ في سره آيه (الكرسي) ، لو كان لا يزال يتذكرها أو يكتفي بالبسملة .. ولا يفتح عينيه إلا عندما يعبر تلك الكثافة المحسوسة .. التي ينفتح المدى بعدها حتى الأفق ، مطلقاً الأعين المحروقة من بلل الخوف إلى رحابة الأمان عبر الجرن الكبير الذي يمتد شمالاً على عينيه حتى كرمة العنب البز المتبقية من بستان العز القديم الذي خربته الأيام .. كرمة عجوز مستندة في وهن إلى جدار وحيد تبقي من الدوار ، مصلوب معها على بضعة أشجار كافور عالية . وشجرة توت حبس وحيدة اتخذتها قبائل لا حصر لها من الحدادي والغربان وعصافير الدوري الثرثارة مرتعًا .. فلم تترك لأحد من الأطفال فرصة أن يتتأكد إن كانت تلك الكرمة الهائلة المسيحية يمكن أن تشرب حبة عنب واحدة ..

وبعيد مقام الشيخ القديم المنهاج والدوار ، ينتهي الدغل مباشرة . وينقطع عرق الخوف ، لتملاً العين على طول الأفق الغربي وفيما وراء التل ، بحيرة الحضرة النضرة تشكل كتلة هائلة من اللون الفضي والأخضر بكل ألوانه ، ومن الظل الطري الغامض الذي يأسر العين .. يدفع المنحدر من التل للإندفاع عبر معبر ومدار ساقية (زيدان) في مرح ، ليغرق نفسه في الأحضان الغضة لعشرات من شجرات التوت الأسود والحبشي وذكورها الضخمة وعدد من أشجار الجميز الهائلة والصفصاف شعر البنت المتدرلي على الماء ، تخللها أشجار النخيل الباسقة من (حيّاني) و (بنت عيش) تكون في مجموعها .. ما كان يعرفه الطفل في تلك الأيام الخواجي (بغيط السباح) ..

هناك ينحني البحر القديم في أكثر أجزائه اتساعاً ، نحو بستان

○ في الغرب من (ميت سلسيل) وإذا يمْتَ وجهاً شطر مغرب الشمس ، لابد أن تمر على تل (أبو مجاهد) هناك كانت تنمو على سفحه أدغال كثيفة من البوص ، على امتداد البحر القديم ، أطلق عليها اسم (غابة أبو مجاهد) حيث تنحدر الأرض انحداراً شديداً نحو الماء الضحل ، فلا تترك فرصة للعبرين سوي (مدق) رصفته آلاف الأقدام العارية المشقة والمرتدية البُلُغ القديمة ، والأحذية . وحوافر حمير السباح والبقر وجواميس الحرش ..

يخيل للطفل السائر وسط الغابة إذا رفع رأسه للسماء من بين شواشي البوص العالية ، التي تشبه ذيول ثعالب تعابثها الريح .. أن بقايا جدران المقبرة القديمة المهدمة ، التي يسكنها شيخ مجھول النسب من الأولياء القدماء ، تشاركة فيها جنيات وعفاريت



(طوبه فضة وطوبه دهب) .. أما (ميت سلسيل) نفسها .. فسوف أمر خدم الخاتم ببنائها وغرسها كما الجنة الأولى ، التي كانت بها قبل أن يتبرأ أحد (الأخوين) ويكره بالنعمه فلا يقول (ما شاء الله لا إله إلا الله) وهو يدخل جنته فخسف الله بها الأرض .. كما ورد في الكتب عن سالف الأزمان . ساعيدها .. نعم ! ولن أنسى أن اتعوذ وأسمى باسم الله لتنظر جنة كلها ورد وتوت .. وكثيري .. وسوف تكون عملاً كبيرة جداً .. يضطرون لكتابتها باسمي في كتب المدارس ..

يسخر الاولاد مني كلما حكى ذلك .. ولكنهم لا يملون السماع لي بلهفة وشغف .. إلى أن انفعل بسبب غيرتهم وجهلهم بالتاريخ وبالأساطير التي تملأ الكتب التي درست وقرأت .. ويتغير صوتي وأنا أصف لهم ما رأيته تحت الماء من أسماك ملونة .. وحيتان تتحدث بلغات البشر .. وقصور من المرجان الملون فيرشني (حسن العربي) بالطين الروبة .. وتدفعني (أنعام) ناحية الغرق وهي تضغط بكل ثقلها على أكتافى لتعطس بي تحت الماء .. لكنهم بعدها كانوا - في كثير من الأحوال - يطلبون مني الاستمرار في الحكاية .. أو يملون . فنخرج عراة بحرى ، إلى حيث مربضنا وملابسنا في ظل جدار دوار الغنم الغربي ، ففترتهاها بعد أن نجفف أنفسنا في الشمس . ونتفرق جائعين تحت النخيل ، (حسن العربي) و (صلاح) يتسللان إلى البستان في غموض و(أنعام) ترافق الطريق لهما ولنا .. تسلل أنا و (أوطان) لنسرق علينا كيزان الذرة الخضراء من حقولنا .. بينما ينهمك بقية الأولاد والبنات في جمع البلح المتتساقط على الجسور وفي بطن المراوي ..

نقفر في مهارة القروود والشياطين عبر الجدار ، إلى دوار الغنم الخالي

الفاكهة الذي تبكي من ثلاثة بساتين كانت قائمة ، تشكل سمة هذه المنطقة التي تعرف (بالزنورة) التي كان اعتقاده المؤكد - عندما يصعد فوق سطوح بيتهم قبيل المغرب في رمضان - أن صوت (حمادة) حين يرتفع بالأذان ، كان يصرخ للشمس أن تعطس في هذا المكان بالضبط ، وبياركها .. ويحميها من (المحمور) ، الذي يسكن المنطقة هو وزوجته (جنية البلح الأحمر) التي طالما شاهد طيفها المراوغ أثناء بحثه عن ثمار الجوافة المتتساقطة في الليل بين أعواد الملوخية والخندقوق ..

تلك الجنية التي كان يتتظرها بالساعات أيام الفيضان - كي تظهر له أصابعها المصبوغة بالدم الأحمر كالبلح على سطح الماء لتغريمه بوهم الحصول عليها ، ثم تشده معها إلى القرار العميق . وتأخذه إلى قصرها تحت الماء - دون جدوى .

كانوا يخدعوننا بقولهم أنها غاصلت إلى الأبد في بئر الطنبوشة التي تروي أرض الطير ، ولم تعد تظهر إلا للموعود .. ثم قالوا .. لا إنها لم تعد تأتي بسبب السدود والكباري الأسمانية التي حبسها .. ولذا لم تعد تظهر في أي مكان ..

لكنني كنت أحلم أنها ستتجدد في أن تخدعني .. وسائلن إليها بكل إرادتي حين أبصرها ، رغم أنني متأكد أن تلك الأصابع ليست بلحا .. سأذهب إليها وأجعلها تشدني لأغوص إلى حيث تشاء .. سيقولون خطفته الجنية . وسأكون أنا الذي حرضتها ، وسيكفي أبي ، وقد ثُمُوت أمي حزنا علي .. ولكنني ، بعد أن أعيش سعيداً معها متمنغاً في العز والحرير ، بين أحضان بنات الحور والجيّات ، سأعود بالتأكيد ، ومعي كنوز الملك (الشمردل) ساعتها يكشف أبي دموعه .. ويعود إليه بصره .. وتزغرد أمي وهي تقرش ليمونة الحياة التي أحضرتها معي .. وابني لها قصرا

الكيزان على النار الناضجة .. وأشارت كلنا جمِيعاً في تقلييْها مستمتعين بلسع النار لأطراف أصابعنا ونحن نتبادل الوحوحه والتاؤه ..  
 حين اقتربت الكيزان من النضج زغرت (عزيزة) لنا وحدرتنا ، وهي ترفع عصا يحرق طرفها ويتوهج ، مهددة بضرب كل من تسول له نفسه خطف أي منها .. سوف توزع الذرة بالقسطاس .. (بعدل ربنا ..) فهي التي بقيت لنسد بها جوعنا المتزايد . وافقنا ورضينا جمِيعاً .. لكن رائحة وصوت نضجها ، كاد يغرينا بتحمل لسوعة العصا الملتَهبة لولا أن (حسن العربي) انحاز لرأيها .. وحدرنا وهو يدعونا نحن (الرجال) للصبر وانتحى جانبًا فأسرعنا معه تاركين البنات لاستكمال إعداد الغذاء ..  
 أخرج (حسن) كيسًا به عدة أوراق بفرة وأخذ ، بحرفته ، يلف سجائره بالدخان المصنوع من شواشي كيزان الذرة الجافة ، التي كان يتقدّم بها وتدخينها بحذق ومهارة نحسده عليها .. رغم أنها قتلته فيما بعد مبكراً بدأء السل ..  
 كنا نراقبه بإعجاب وانبهار . وهو يشعل طرف السيجارة المبروم ، ويشد الأنفاس باقتدار مطلقاً سحباً كثيفة من الدخان .. يصنع حلقات منه في إعجاز .. بينما نحن نسعل وننكح ونكاد نفطس من أول شفطة وتحمر وجوهنا وتزداد وتسيل دموعنا .. ندوخ ونفشل في تكرارها .. بينما هو يعايرنا ويسخر منا ، نحن الذين نستند في ضعف إلى الجدار غائبين عن الوعي أو نكاد تأتي (عزيزة) في غيامة الدخان والدموع توزع علينا نصيّبنا من

الآن تماماً ، حتى ساعة الغروب موعد عودة الرعاه بالقطيع . هناك نضمن الأمان الكامل لنفعل ما نشاء دون تدخل أي من الكبار .. حتى لو غلبنا النوم ونحن نلعب عرسان وعرابيس . لأنهم حين يعودون فسوف ننتبه لهم ، ونستيقظ على ضجة علب الصفيح والأجراس المعلقة في رقاب الماعز .. أو على هوهوة الكلاب المتعبة من المطاردة فنهرب في لحظات عبر نفس الجدار ..  
 جمعنا حصيلة السطو والتعب ..

أفرغ (حسن العربي) عبه المنتفخ ، حبتان ناضجتان من الرمان العسل .. عشر حبات جوافة من ذوات القلب الأحمر ثمرة كمثري نية خضراء . (عزيزة) أخرجت ست كيزان دره . حين قشرتها فرحاً وصحتنا لأنها كانت ناضجة مرصوصة فيها صفوف الحبات في انتظام معجز .. طرية وعز الطلب . وعلى ورقة موز خضراء أحضرها (عبد السلام) ، أفرغ الباقون ما في جيوبهم وحجورهم من البلح ..  
 كانت حصيلة هائلة ..

تخاطفنا الشمار حتى تدخلت (أوطان) ونهرتنا ، وهي تقسمها بالعدل .. أكلنا بشهية ولهفة .. تعرّفنا بتراب الدوار المختلط بزبل الغنم ذي الرائحة النفاذة ، حين تصارعنا حول قطعة من الجوافة تبقيت مع أحدنا .. وما زلنا جائعين ، أحضرت (نوال) حزمة من حطب القطن القديم من فوق عريشة البهائم . وأخرج (حسن العربي) كبريته الذي لا يفارقه كمدخن (أراري) . أشعل حزمة من القش الجاف ، دقت النار فأخذنا نهوي عليها حتى صهرجت واستوت واحتلّت طقطقتها بكركة ضحكاتنا ، وتأوهاتنا من لسع الشر والدخان .. رصت (عزيزة) بحرفه

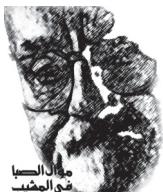
الدرة ، بعد أن قسمت الكيزان بالعدل والقسطاس ، لنجترها على مهل .. ثم ننام دائرين حيث نحن ، فوق بقايا الغنم الرطبة سكارى بطراوة النسيم في الظلال الغائمة !

• • •

## ونفس وما سواها ..

○ ساحني يا توأم روحي أن تدرعت بالكتابة عنك .. أخاف أن أكفى بنفسي فأكذب أو أجمل تلك السنين العجيبة والأفعال الغريبة والحوادث ذات الأوجة المريبة التي مرت بنا معًا منذ صرخت أمي ولقطتي إلى هذا الوجود الذي لم أفهم حتى الآن جدواه مع كل المحاولات الدوّوبة والفاشلة لفهم معناه ..

المديث عنك سيسهل الأمر عليَّ كثيراً فأننا أراك أكثر مما أرى نفسي ، وهذا سيجعل الأمر أكثر صدقًا وواقعية . سأختفي خلف قناعك كما تعودت أن أفعل دائمًا لأحسن التصرف ولا تكون أكثر جرأة



الشيء الخشبي الجميل الوحيد ذي القيمة في منزل جدي بختار السواقي .. حيث يحتفظ خالي (ابراهيم) بكتبه العجيبة وأوراقه السرية الخاصة . أوحيت لي أن هناك مفتاحاً ، بعد محاولاتي الكثيرة لفتحه عنوة .. وأن المفتاح يخفيه تحت مخدة أخيه الكبيرة التي لا تعرف القراءة والتي تساعده على الانتقال من مكان لمكان وتساعده على النوم وعلى الوضوء وعلى الأكل منذ سقط مسلولاً ..

حضرتني على تجاوز كتب خالي ، إلى تلك الكراسة السرية التي تحتوي على مذكراته القليلة .. والتي يعادل ما بها كل ما في هذه الكتب من حكايات وأساطير .. لأن فيها كشف المستور عن السر الغامض وراء عودته مسلولاً مع أخيه الكبير الذي كان قد سافر للعودة به فخوراً بنجاحه الساحق وحصوله على شهادة العالمية بتفوق ؟ معلينا أن زمن الفقر وال الحاجة قد ولّ . ذلك الزمن الذي داهم الأسرة كلها بعد موت الجد الم serif المتلاط ، عاشق النساء (بالحلال) والذي ترك في كل مديرية امرأة وأولاداً لم نعرف معظمهم .. وفترت علاقتنا بمن نعرفهم بعد ضياع الشادر ومغلق الخشب كله ساداً للديون ..

كانت سعادة الأخ الكبير في الأجزاء تفوق كل سعادة .. فها هو شقيقه يتشكل شيئاً جليلاً من العلماء تفاخر به الأسرة البلد كلها وتباهي به العائلات التي لهفت ما عليها من ديون بلا وثائق .. فنجر بها الجد في ثقة على الجميع فكشفت بعد موته عن حديدة عريضة جلس عليها الجميع . فكانت بعرض أقوفيتهم جميعاً .. رجالاً ونساء وأطفالاً قادمين ..

وما كان أشد تعاسته وهو ينزل به من القطار ، حاماً إياه على كتفه كطفل صغير صريح المرض .. وقد تهدمت كل قصور الوهم على رأسه (هو) بالذات . فالكل معلق في رقبته (هو) . ولا خلاص يجدو في

في التعامل مع الآخرين محتمياً بظللك ، مقتفيآ آثارك ، تشجعني كلما ترددت ، وتنصحني إن أسأت التصرف أو أخطأت .. وتدفعني للأمام كلما رغبت في النكوص ، وتنطقني إذا ما فكرت في الصمت .. أحياناً بإرادتي وأحياناً رغم أنفي . وفي كل الأحوال ، لم يكن تخطر لي مطلقاً في وجودك فكرة الاعتراض ..

لا تسخر مني . فقد تحملت الحرام ؛ لأنك علمتني بلسان أمري (أن الغني هو القادر دائمًا على الاستغناء) ، وصمدت في السجن ؛ لأنك أقنعني بقدرة الإنسان الأسطورية على تحمل صفاقة الآخرين وصلابة الجدران .. وقصوة الانتظار ، كنت تؤكّد لي بصوت (فؤاد حداد) (أن أصغر ما في الدنيا هو أكبر ما فيها .. البذرة إذا ما رويتها بالعرق) .. فتتفجر حضرة وأزهاراً وشماراً وزودتني بحكمة ثوري لم تذكر لي اسمه أبداً (أن أجمل ما في الحلم هو الإيمان بإمكانية تحقيقه (حتى لو كان مستحيلاً) ؛ رغم أنني سمعتها كثيراً صرخة ملتاعة متعددة يطلقها سجناء كثيرون في ليل سجن المنصورة (ييلى الحديد واحنا البشر لم بلينا) .. ساعتها كنت دائمًا أستحضر صوتك ووجهك خاصة كلما كانوا يجهزووني للصلب على العروسة.. أو يلقون بي في الزنزانة الانفرادية .. كنت أرتدي جلدك فلا أحس تمزيق السياط بجلدي .. وكان المجلود شخص آخر يمتلك صلابة بلا حدود ..

استحضرك فتوئنس وحدة الرنزة . وأتذكر وأنا أتمثل ابتسامتك الواثقة عندما تتطاير روحني هلعاً من طول الليل وبطء الوقت .. أنت الذي أخذت بيدي إلى عالم الأساطير فعرفت (أخيل) و(أبوللو) وطررت بعريبة الشمس ، وغضت في بحار الجنينات .. أنت الذي دفعتني إلى سرقة مفتاح ذلك الدولاب البوريه الغامض المصنوع من خشب الصندل الذي كان

هي حمته من الوحش وهو الأمير الطيب . أطعنته وغسلت همومه  
وهدوهه وبالحلال يا معلم .. لم تقد قميصه من دبر .. ولكنها كسته  
بالمحرير . القديس كان بحاجة للدخول في تجربة ، وهي منحته الفرصة كي  
(يتدفق) ويتفوق .. الولي الشاطر الذي كنت تعدد كي يحمل سلسلة  
مفاتيح أبواب الجنة لأهل (الكفر) البسطاء .. وجد باباً وحيداً دافئاً أحضر  
العتبات ، فدخل ..

ما أن طالع الوجه الصبور ل (زليخا) عطفة (أبو جبة) حتى انهار  
وطار للسماء السابعة على نغمات نفس هذه الضحكة التي جعلتك يا معلم  
(مسعد) ترتعش .. وهي ترد عليك حين سألكها أول مرّة عنه ، وردت هي  
عليك بصوت كسلال الذهب من خلف بابه - بنت الشيطان الجميلة  
الساحرة .. والمشوفة الكتفين والذراعين على الآخر .. والتي لم تسلم  
من مقارنة عابرة بينها وبين عروسك العانس المسكينة التي لا يدلو لعرسها  
أفق في المستقبل المنظور .. انقبض قلبك يا معلم وتفتت هلعاً ورعباً حين  
انهار بين يديك نبيك الجميل النبيل ، حتى قبل أن ينطق كلمة تطفئ لهيب  
غضبك أو تبدد غمام شكل الثقيل أو تفسر كل الذي حدث مما ليس له  
أي تفسير ..

كدت أطن - بعد أن قرأت المذكرات التي تحكي عن الفترة السابقة  
من حياته في الغربة .. وانطباعاته عندما داخ السبع دوخات ليجد لنفسه  
مكاناً رخيصاً وقريباً من الأزهر . وكيف دله أولاد الحال على المصير  
الذي لم يكن منه مفر .. وكيف شافها لأول مرة .. وكيف كان يظل ساهراً  
طول الليل يقرأ آية الكرسي مئات المرات ليطرد صوتها .. وكيف بكى بين  
يدي شيخه طالباً النصح . وكيف لم ينتصر أبداً .. وظل يستعبد رويتها

المستقبل القريب بعد اليوم من مصير طابور البناء والعوانس والعجائز  
بكل أرصادتهم من الأمراض والقهر ..  
أصبح الحزن والفقر - مثلك - واحداً من الأسرة ، له حضور مر  
على كل الشفاه .. خاصة تلك التي لم تذق طعم القبلات إلا خلسة .  
إذ هدم الشلل حائط الدفاع الأخير .. وأصبح الاستسلام للمرض  
هو المخرج الوحيد للهروب من عاصفة اللوم ، والفرار من قسوة نظرات  
العتاب والتجريم ..

فكيف للولي الطاهر حافظ كلام ربنا ، والذي كانت البلدة تبكي  
هلعاً وخشية من غضب الله عندما كان يأتي في الأجازات ليخطب ، مجرّباً  
قدراته البلاغية والعقلية وليعود للبيت في موكب من الراغبين في الوصول  
والتبوية ، كيف له أن يعشق امرأة تكشف عن بياض كتفيها ولا تخشى أن  
 تستقبل الأخ الكبير وهي تلوك اللبناني وهي تفتح له الباب ، تفاجئه دون أن  
يرف لها جفن ، بل وتجادله بالعين والحادج وتسأله دون خجل :  
عايز مين يا حضرة ..؟

هذه حجرة الشيخ إبراهيم ..؟  
طبعاً .. وسيد المشايخ كمان .  
أكدت له وهي تحاول إذابة جليد عينيه وجحيم نظره المندهشة ..  
أنه لا أحد غريب وأن لها على أخيه الشيخ حقوقاً لا ترد بالغضب ولا  
بالقصمة .. ففي حضنها ذوب سني الغربة وكروب الفلس والحرمان ..  
نزعت عنه ثياب الوحدة ونقعتها في الصابون الفنيك ..  
مصر يا معلم (مسعد) ، وانت راجل حدق ومبر، لا تحب الغرباء ..  
 خاصة المفلسين .. تكرههم .. وتدوسهم بفعال من قسوة الجوع والليالي  
الطوبلة الساحرة التي لا تنام .

ترتعش .. وهو يتحدث عن فطاعة ذنبه الرهيب الذي يخفيه عن الجميع وهو يعرف أن أمثاله من يعدهم أهلهم ليحملوا الأمانة .. وحمل مفاتيح أبواب الغفران للتعساء بحمل القرآن ، مبشرين بقصور النعيم في الآخرة .. لا يحق لهم إطلاقاً أن يرشفوا قطرة واحدة من عسل الدنيا الزائف .. ولا يجوز لهم لحظة سقوط واحدة في أسر أي سحر لذيد أو جمال شيطاني ..

لم يكن من حقي أن أطلع على هذا . ولكنك أنت الذي دفعوني لذلك .. لأنقتنع بضرورة الدفاع عن حقه وحق خالي (مسعد) وحق العوانس والأرامل من أخواته وبنات أخواته ، وكل أهل الكفر وخاصة (بنت حيدر) التعيسة، حقهم في السقوط ، ولو لمرة كي يتذوقوا فاكهة الدنيا دون الإحساس بالذنب ، ودون تأجيل ..

دفعوني لسرقة مفتاح الدولاب فعرفت فداحة المدى الذي أغويتني بارتياده ، وأتعستي بفك سر الحروف لأشاهد مصير الرجل الوحيد الذي تجرا فوطأت قدماه جنة حقيقة لوهلة قصيرة جداً ، قادته لجحيم دائم لا خروج ولا فكاك منه .. لم يستطع أن يستر خطئته حين هبت الريح صدفة فأطافت جذوة شمعته وأقعدته مشلولاً حتى الموت ، لأنه فشل أن يخفي عورته عن أخيه الكبير ، الذي قيل عنه فيما قيل إنه ولد بالملقب ..

صرخت الداية يومها ..

أنا ما شفتش كده ف حياتي !

ولكن الأمر تم بحمد الله ورضا الأولياء الصالحين من (أبو خشبة) حتى (ابن سلام) وبالذات رضا (سيدي مجاهد أبو عبد الوهاب) .. ومنذ ذلك الحين ، وكل ما فعله في حياته تم بحمد الله وقوة الأولياء – ولكن بالملقب ..

والسهر متتابلاً لطرد شبحها من فوق صفحة جفونه .. مأساة حقيقة يا صديقي عندما يحبولي من أولياء الله السُّدُّج بنتاً من بنات الشيطان العالمات بكوامن النفس المطهرة وخبائها ..

كدت أطن يا صديقي – وأنا أقرأ الكراسة التي حرّضتني للحصول عليها – أنك أنت الذي قدمته إلى هذه العطفة وهذا البيت وتلك الحجرة .. أنت أستاذ في ترتيب المصائر . وأيضاً لأنني وجدت تشابهاً كبيراً بين هذه وأحداث أخرى سيأتي ذكرها ، يكاد ترتيبك للأمور فيها يقترب من هذا الترتيب الذي انتهى . مأساة ..

الأسرة كلها قالت (أمر الله) الذي لا يمكن كشف أسرار حكمته أو الوصول إلى غاياته .. ويصبح الاستسلام له في صبر وإيمان هو سبيل الأمان الوحيد ..

زاد عدد المعلقين في رقبتك يا حال (مسعد) واحداً .. لكنه ليس بوحد عادي .. إن الأجر والثواب فيه سيكون مضاعفاً .. فهو حامل لكتاب الله ولعلومه . والله حكمة أن يحفظها في قلبه ولا ييدها مع خلق لا قيمة لهم ولا هم يفقهون .. فقط (بنت حيدر) التي طال صبرها والتي تذبل في بيت أبيها يوماً بعد يوم والتي ترفض أن تنتقل لبيتك المزدحم بطابور العوانس من الأخوات وبالأم التي لا تتحرك .. وكل من تحملهم على ضهرك الجمل – الذين ستتضمن بهم قصراً في الجنة – يتململون .

هذا ما قاله لي الولي – في مذكراته. إذ كانت في معظمها عنه .. وعن أحقيته عند الله في نعيم الخلود، الذي أعد للمؤمنين الصابرين من أمثاله المحصنين من الخطايا .. كان يكتب هذه السطور الأخيرة بخط صعب القراءة .. كانت كفه

النجراء المقدسة بحججة أنها صنعة الأنبياء والقديسين وهو من الآثمين .  
وكذلك الأخ المشلول المقعد مخيب الآمال ..  
ترك الجميع إلى شقة حضرية وزوجة من أهل المدينة ، هاجراً ذلك  
البيت الكثيـر السـاحة لـكـل من يـراـه الآـن من الـخارـج والـذـي كان باـبـه (في  
زـمانـه) لا يـغلـق أبداً . ولا تـكـف أصـوـات النـشـر والـدقـعـ عن الإـعلـان أـنـه مـركـز  
الـكون .. لم يكن كـثـيـراً ولا مـغلـقاًـ لـبـابـ . كانت مـائـدة الغـذـاء تمـدـ لـلنـجـارـين  
والـنـشـارـين بعد الصـلاـة فيـ المـنـدـرة التيـ تـفـتـحـ عـلـىـ الشـارـعـ تـسـتـقـبـلـ فيـ كـرـمـ  
كلـ منـ يـمـرـ عـابـراًـ لـيـشارـكـ وـيـارـكـ .

الأمر اختلف الآـن . لكنـ الحـوشـ ظـلـ رـطـباًـ (وـبـرـحـ وـسـتاـرـ) عـلـىـ ماـ فـيهـ  
منـ هـمـومـ .. يـمـتـدـ إـلـىـ جـوـارـ المـنـدـرةـ حـوشـ نـصـفـ مـسـقـوفـ بـخـشـبـ سـوـدـاـ  
الـدـخـانـ وـأـفـعـالـ الزـمـانـ .. يـؤـديـ إـلـىـ دـهـليـزـ دـاخـلـيـ يـسـمـونـهـ (الـحـضـيرـ)ـ حيثـ  
حـجـرـتـانـ رـطـبـتـانـ فـوـقـهـمـاـ مـقـعـدـانـ يـؤـديـ إـلـيـهـمـاـ سـلـمـ عـجـيبـ الشـأـنـ لـاـ  
يـعـكـنـ وـصـفـ اـنـحـنـائـهـ العـقـريـ .. ضـاعـتـ مـلـامـحةـ وـحدـودـهـ مـنـ زـمـنـ طـوـيلـ  
لـكـنهـ ظـلـ يـعـمـلـ بـكـفـاءـةـ لـمـ يـقـدـرـ عـلـيـهـاـ الـبـشـرـ . يـوـصـلـ الصـاعـدـينـ لـلـمـقـاعـدـ  
وـلـلـسـطـحـ الـمـلـيـءـ بـأـكـوـامـ مـنـ أـحـمـالـ قـشـ أـرـزـ قـدـيمـ تـرـابـيـ اللـوـنـ مـغـطـىـ وـمـشـبـعـ  
بـزـبـلـ الـحـمـامـ وـالـفـرـاخـ ، حـوـلـهـ سـورـ قـدـيمـ مـنـ الـبـوـصـ المـمـزـقـ بـفـعـلـ الـرـياـحـ  
وـالـشـمـسـ وـالـمـطـرـ ، تـسـنـدـهـ سـدـايـبـ مـنـ خـشـبـ مـسـوـسـ تـأـكـلـتـ أـجزاءـ كـثـيـرـةـ  
مـنـهـ وـمـنـهـ .. وـلـكـنهـ بـقـيـ مـتـمـاسـكـاـ رـغـمـ مـيـلـهـ الـحـادـ فـيـ الـفـرـاغـ ، بـفـضـلـ سـرـ  
مـجـهـولـ لـاـ سـبـيلـ لـإـدـرـاكـهـ سـوـىـ لـلـوـاصـلـيـنـ وـالـمـؤـمـنـيـنـ بـرـحـمـةـ الـمـوـلـىـ . فـفـيـ  
أـقـصـىـ طـرـفـهـ وـعـنـدـ أـقـصـىـ مـيـلـ يـوـجـدـ عـشـ ضـبـاـيـرـ مـنـ نـوـعـ زـنـبـورـ الـبـلـحـ ..  
الـمـتـوـحـشـ .. وـلـكـنـ رـحـمـةـ الـلـهـ الـتـيـ وـسـعـتـ كـلـ شـيـءـ لـاـ تـقـبـلـ تـشـرـيدـهـ ..  
سـبـحـانـهـ ..  
سـخـرـتـ مـنـيـ يـاـ صـدـيقـيـ يـوـمـ قـلـتـ لـكـ ذـلـكـ فـلـمـ أـغـضـ .

لمـ يـتـسـمـ الـحـظـ لـهـ أـبـداـ . فـعـنـدـمـاـ مـاتـ الـمـلـمـ الـكـبـيرـ وـتـبـدـدـتـ الـثـرـوـةـ الـتـيـ  
كـانـتـ تـسـتـرـهـ وـتـجـعـلـهـ مـسـئـولـيـنـ عـنـ سـوـاقـيـ الـكـفـرـ وـالـمـرـكـبـ الـمـدـيـرـيـةـ  
غـيـرـ سـوـاقـيـ فـيـ الـشـرـقـيـةـ وـالـغـرـبـيـةـ .. طـارـتـ نـقـودـهـ عـنـدـ النـاسـ وـلـمـ يـرـحـمـهـ  
مـنـ لـهـمـ نـقـودـ طـرـفـ الـمـرـحـومـ .. وـتـعـلـقـ بـرـقـبـتـهـ جـيـشـ الـعـوـانـسـ وـطـاـبـورـ  
الـيـاتـامـيـ ..

الـلـيلـ فـوـقـ الـكـفـرـ لـلـلـيـلـ كـكـلـ لـلـيلـ فـوـقـ كـلـ قـرـىـ خـلـقـ اللـهـ حـتـىـ سـابـعـ مـدـيـرـيـةـ  
وـلـكـنـهـ رـأـيـ فـيـ صـفـحـةـ السـمـاءـ نـجـومـاـ وـعـفـارـيـتـ لـمـ يـرـهـ أـحـدـغـيـرـهـ مـنـ خـلـقـ اللـهـ ..  
الـكـفـرـ مـشـلـ غـيـرـهـ .. (أـحـمدـ) شـبـهـ (اـزـدـحـمـ) مـحـطةـ وـسـوقـ وـسـاحـةـ  
وـمـزـلـقـانـ وـدـبـانـ وـرـوـثـ وـتـرـابـ أـكـوـامـ أـكـوـامـ وـوـرـمـ وـاـسـتـسـقـاءـ ، وـحـمـيرـ  
عـنـيـدـةـ تـسـيـرـ ذـلـيـلـةـ كـالـبـشـرـ ، أـوـ تـبـرـطـعـ كـالـمـجـانـيـنـ مـنـهـ .. وـكـانـ نـصـيـبـهـ فـتـقـ  
مـزـمـنـ لـاـ عـلـاجـ لـهـ إـلـاـ بـذـلـكـ الـحـزـامـ الـعـجـيبـ الـذـيـ سـافـرـ لـإـحـضـارـهـ مـنـ مـصـرـ  
خـصـيـصـاـ وـكـانـتـ أـوـلـ مـرـةـ يـذـهـبـ لـلـقـاهـرـةـ .. وـلـمـ يـذـهـبـ بـعـدـهـ إـلـاـ لـيـعـودـ  
بـأـخـيـهـ مـحـمـولاـًـ فـيـ تـلـكـ الـمـرـةـ الـدـرـامـيـةـ .

لـكـنـ الـقـرـيـةـ مـعـ ذـلـكـ كـانـتـ عـنـدـهـ الـدـنـيـاـ وـمـاـ فـيهـ .. لـاـ لـأـنـ زـهـدـ  
فـيـ غـيـرـهـ ، لـكـنـ لـأـنـهـ مـاـ غـادـرـهـ يـوـمـاـ إـلـاـ لـمـلـهـاـ .. وـلـمـ يـرـ مـصـرـ أـمـ الدـنـيـاـ إـلـاـ  
لـلـبـحـثـ عـنـ شـيـءـ يـصـلـبـ طـولـهـ مـعـ الـفـتـقـ ، أـوـ لـيـعـودـ بـالـشـيـخـ الطـاهـرـ مـحـمـولاـًـ  
إـلـاـ أـبـدـ ..

يـشـبـعـ بـهـاـ وـيـشـبـعـ بـهـمـ ..  
قـالـهـ أـخـوـهـ الـأـوـسـطـ الـمـتـعـلـمـ وـسـافـرـ إـلـىـ (الـمـنـصـورـةـ)ـ الـتـيـ لـاـ تـهـدـأـ ،  
بـسـبـبـ مـرـورـ الـمـرـاكـبـ الـكـبـيرـةـ عـلـيـهـاـ فـيـ رـأـيـهـ .. وـتـرـكـ فـيـ رـقـبـتـهـ الـأـمـ الـمـقـعـدـةـ  
وـالـأـخـيـنـ الـعـانـسـيـنـ وـالـأـخـ الـبـاـيـظـ الـذـيـ رـفـضـ أـنـ يـكـونـ عـبـدـ لـصـنـعـةـ

الذى لم يعد يطاق والذى لا يصرح به إلا عندما يكون هو في الخارج ..  
فإذا ما سمعت نحننـة ، تحرى الأخـة الخـالية لـترـد بـاب الـكـيف ويـكـفـي  
الـجـمـيع عـن الزـرـبـنة والنـقـار ..

وقد تكون الأمـ في تلك اللـحظـة تعـانـى ، وهـي تقـضـي حاجـتها  
كـالـعـادـة فـي مـكـانـها بـمسـاعـدة الأـخـة المـتـخـصـصة (قـمر) .. عـنـدهـا تكونـ  
قد اضـطـرـت لـكـشـف نـصـفـهـا الأـسـفـل . فـاضـحة اللـحـم الأـيـضـ الـهـائـل الـذـي  
يشـي بـشـبابـ كـان ، وـغـنـجـ قـدـيم لـحـس عـقـلـ المـعـلـمـ الكـبـيرـ الذـوـاـقةـ زـمـانـ ، قـبـلـ  
أـنـ يـفـعـلـ الزـمـانـ أـفـاعـلـيـهـ فـيـمـاـلـثـنـيـاهـ بـخـضـرـةـ وـعـفـونـةـ وـيـفـرـشـ أـديـمـ الـبـضـ  
الـنـاعـمـ بـبـثـورـ مـتـقـيـحةـ لـاـ عـلاـجـ لـهـ .. فـتـسـرـعـ عـنـدـهـاـ تـسـمـعـ نـحـنـنـةـ فـتـسـتـرـ  
الـبـنـتـ أـمـهـاـ ، بـأـيـ خـرـقـةـ مـتـاحـةـ إـلـىـ أـنـ يـعـبـرـهـاـ إـلـىـ الـمـقـدـيـنـ ، لـائـدـاـ بـالـسـلـمـ  
مـغمـضـ الـعـيـنـيـنـ مـكـلـومـ الـفـوـادـ .

وـماـ دـامـ أـصـبـحـ فـيـ الـبـيـتـ يـصـبـحـ الصـمـتـ أـشـدـ ثـقاـلاـ وـكـثـافـةـ منـ  
الـرـطـوبـةـ .. وـتـحـلـ لـغـةـ الـإـشـارـةـ وـالـغـمـزـ وـالـهـمـسـ وـالـهـمـمـةـ الـمـكـتـوـمـةـ محلـ  
الـكـلـمـاتـ وـالـشـتـائـمـ .. نـظـرـتـهـ المـقطـبـةـ دـائـمـاـ تـشـيرـ الـبـرـودـةـ فـيـ الـأـجـسـادـ وـزـعـقـتـهـ  
إـنـ خـرـجـتـ ، تـجـمـدـ الـدـمـ فـيـ الـعـروـقـ .. وـلـأـنـ دـائـمـاـ مـاـ يـكـوـنـ هـنـاكـ مـاـ سـيـغـضـبـهـ  
أـوـ يـشـيرـ حـنـقـهـ ، فـكـانـواـ يـكـتـفـونـ شـرـهـ .. وـيـكـفـونـ عـنـ تـبـادـلـ الـحـدـيـثـ بـالـلـغـةـ  
الـعـادـيـةـ كـمـاـ يـفـعـلـونـ فـيـ غـيـابـهـ ..

الـاخـ الأـصـغـرـ (الـخـمـيـسيـ) وـحـدهـ هوـ الـذـيـ بـحـاجـةـ عـنـدـهـ تـحـطـمـتـ  
الـمـرـكـبـ بـهـ عـلـىـ صـخـورـ جـبـلـ الـمـغـنـطـيـسـ ، وـإـيـاكـ أـنـ تـظـنـ أـنـ كـانـ هـارـبـاـ  
أـوـ أـنـائـاـ .. لـا .. الـأـمـرـ أـكـبـرـ مـنـ ذـلـكـ كـثـيـرـاـ ، كـانـ يـعـرـفـ أـنـ سـيـكـونـ سـبـبـاـ  
إـضـافـيـاـ لـتـعـاسـتـهـمـ لـوـ أـنـهـ ظـلـ بـيـنـهـمـ فـيـ مـوـاجـهـةـ دـائـمـةـ مـعـ الـأـخـ الـكـبـيرـ ..  
سـيـعـلـوـ صـوتـهـمـ يـوـمـيـاـ .. وـتـصـبـحـ سـيـرـهـمـ عـلـىـ كـلـ لـسانـ - النـارـ لـاـ تـعـاـيـشـ  
مـعـ المـاءـ - وـالـمـاءـ سـيـظـلـ يـغـلـيـ لـوـ أـجـبـرـ عـلـىـ الـبـقاءـ فـوـقـ النـارـ حـتـىـ يـنـسـكـ أوـ

وـلـكـ حـينـ سـخـرـتـ مـنـهـ ، غـضـبـتـ مـنـكـ بـشـدـةـ فـلـيـسـ لـمـلـكـ أـنـ  
يـسـخـرـ مـنـ إـيمـانـ أـمـالـهـ .. هـكـذـاـ كـنـتـ تـعـلـمـيـ .. فـكـيـفـ نـسـيـتـ .. أـمـ أـنـهـ  
كـانـ نـصـيـحةـ لـلـاستـهـلـاكـ ، وـأـنـاـ لـمـ أـعـهـدـ فـيـكـ الـخـدـاعـ فـيـ الـمـسـائـلـ الـمـتـعـلـقـةـ  
بـالـعـقـائـدـ .. فـقـدـ كـتـ تـصـرـ فـيـ عـزـ اـجـتمـاعـاتـنـاـ الـخـزـيـبةـ أـنـ تـسـمـحـ لـلـمـعـلـمـ  
(تـوفـيقـ) وـلـعـمـ (الـصـدـيقـ) وـ(أـبـوـ سـلامـةـ) أـنـ يـقـومـواـ لـصـلـةـ الـمـغـرـبـ قـبـلـ أـنـ  
بـرـوحـ عـلـيـهـمـ عـنـدـهـاـ تـحـلـ الـعـشـاءـ ، وـنـحـنـ فـيـ غـمـرـةـ الـنـقـاشـ حـولـ فـائـضـ  
الـقـيـمةـ وـقـوـانـينـ الـاسـتـغـلـالـ !

عـلـىـ كـلـ حـالـ حـتـىـ أـنـتـ كـانـتـ لـكـ هـفـوـاتـكـ وـكـانـ لـيـ فـيـ أـحـيـانـ كـثـيـرةـ  
فـضـلـ تـحـذـيرـكـ وـتـبـيـهـكـ .. وـهـذـاـ وـحـدـهـ الـذـيـ سـمـحـ لـعـلـاقـتـنـاـ أـنـ تـسـتـمـرـ  
تـبـادـلـ فـيـهـاـ الـأـدـوارـ .. وـالـمـشـاعـرـ .. حـتـىـ مـشـاعـرـ الـكـراـهـيـةـ .. مـاـ عـلـيـنـاـ ..

بـرـجـعـ مـرـجـوـعـنـاـ إـلـىـ الـأـخـ الـتـعـيـسـ (الـمـسـعـدـ) .. الـذـيـ كـانـ لـابـدـ أـنـ  
يـدـقـ الـبـابـ .. بـابـ بـيـتـهـ فـيـ كـلـ مـرـةـ ، كـأنـهـ يـسـتأـذـنـ فـيـ الدـخـولـ .. وـكـانـ  
ذـلـكـ يـشـيرـ إـعـجـابـ الـمـارـةـ وـيـضـيـفـ لـرـصـيـدـهـ الـمـشـيرـ لـلـشـفـقـةـ إـعـجـابـاـ مـاـ بـعـدـهـ  
إـعـجـابـ ، حـينـ يـصـلـ الـكـلـامـ إـلـىـ بـنـتـ (حـيدـرـ) إـذـ كـانـ يـرـيـحـهـاـ قـلـيلـاـ مـنـ  
عـذـابـ الـانتـظـارـ لـأـنـهـ لـيـسـ اـنتـظـارـاـ بـدـونـ جـدـوـىـ ..

كـانـ يـكـحـ قـبـلـ أـنـ يـزـقـ الـبـابـ لـيـدـخـلـ زـاعـقاـ - (يـاـ سـتـارـ) .. فـيـتـبـهـ أـهـلـ  
الـبـيـتـ .. وـيـعـدـلـونـ مـنـ أـوـضـاعـهـمـ ، فـقـدـ تـكـوـنـ أـخـتـهـ (سـعـيـدـةـ) فـيـ الـكـيـفـ  
تـقـضـيـ حـاجـتهاـ كـعـادـتـهاـ دـوـنـ أـنـ تـرـدـ الـبـابـ ، لـكـيـ تـسـتـمـرـ فـيـ النـقـارـ أـخـذـاـ  
وـعـطـاءـ مـعـ أـخـتـهـ (قـمرـ) أـوـ مـعـ الـأـمـ الـمـقـعـدـةـ ، عـلـىـ الـمـرـتـبـةـ الـقـدـيـمةـ وـالـحـصـيـرـةـ  
الـكـالـمـةـ الـمـتـاـكـلـةـ الـأـطـرـافـ ، فـيـ أـوـلـ الـحـضـيـرـ أـمـامـ الـكـيـفـ تـمـاـمـاـ .. حـيـثـ أـصـبـحـ  
رـكـنـهـاـ وـمـقـامـهـاـ الـدـائـمـ ، مـنـذـ قـبـلـ أـنـ يـتـحـمـلـهـ دـوـنـ غـيـرـهـ مـنـ أـرـكـانـ الـكـرـةـ  
الـأـرـضـيـةـ - نـائـمـةـ أـوـ قـاعـدـةـ .. إـلـىـ أـنـ يـفـعـلـ اللـهـ شـيـئـاـ فـيـ الـغـيـبـ كـانـ مـقـدـورـاـ .  
اسـتـجـابـةـ لـدـعـوـاتـ بـنـاتـهـاـ أـنـ يـرـحـمـهـاـ مـنـ آـلـمـهـاـ طـبـعـاـ .. وـيـرـحـمـهـمـ مـنـ قـرـفـهـاـ

لم يكن يطيق وجوده ، كان كل منهما لا يطيق الآخر وكأنه يشاركه البردة والطاقة .. ويحقد عليه . يلعنه خوفاً من أخيته (جنات) و(قمر) اللتين تسبّب إعازز أبيهما لهما في وقف سوقيهما . إذ كانت له شروط ومطالب لا تقل عن تلك التي زوج بها أختهما الصغرى للمدرس ابن الفلاحين.. كان تمسكه بهذه الشروط نوعاً من التكفير عن ذنب تزويجها قبل أخيتها الأكبر سنًا مخالفًا بذلك الأصول .. وبعد أن دهم البيت الإفلاس . بعذت الطيور الحوامة ، جارحة كانت أم داجنة .. حاملة تحت أحجنتها فلول العرسان ..

لكن وجود (الخميسى) الغلبان العارض والمفاجئ كلما عاد \_ كان يضفي عليهم سعادة من نوع خاص ترطب جفاف الليالي الطويلة في غيابه .. تعزق الأرض الثرة وترويها بالعواطف والملاغية والقصص والملائعة والمداعبة والهدايا . كان يأسر القلوب بقصصه الشيطانية و מגامراته في بلاد الترك والروم والزنخ ؛ قصص لو سمعها (مسعد) لقتله .. فواحدة من نوعيتها سرقت منه الأخ الأصغر .. وحولت (النبي الطيب) إلى جثة نصفها من خشب وأطفأت شموع مشيخته المأموله ومكانته الحلم - وسط الكفر والمديريه بما بالك (الخميسى) يعرف من نوع تلك التي أغوتة ، عشرات . وإن لم تتمكن منه واحدة منهن أو تتحكم فيه .. أو تصب لعنتها عليه .

هو لسنه معقدتها ؟ .. ما تسييهه (البنت حيدر) .. والأسلطوها عليه .. هي البنت دي مش مرة ..  
اتلم يا (خميسى) ..  
جري أيه انتي وهي ؟ .. على أنا .. إوعوا تكونوا بتغيروا منها ..  
فشرت ..

حتى انت يا (خميسى) لا تعرف أن هاتين المسكينتين تحفظان

يتلاشى .. ينتهي .. أو ينتحر بإطفاء النار مضحياً بنفسه .. كان شاطراً حالمًا لا يرضى بما هو فيه . حياة أخرى تناديه . لأن ؟ .. لا يهم .. إنه يرفض القعود في انتظار أن تمن الحياة عليه بالسعادة أو اللذة أو الطعام .. الحياة خارج هذه التعasse تناديه كي يختار سعادته بنفسه .. لقد ظل منذ وعي الدنيا وطوال حياة أبيه ، يتململ ويغلي ، ولو طال الأمر أكثر لفعلها وتبخر ولكنه صبر وتحمل في وجود والده ، حيث كان نفوذ أخوته الكبار بعيداً عن حدود ملكته .. وهو الشاطر الألعان والفتى البهلوان.. وستفهم السر إذا ما بحثت خلف قدرته على إخفاء عالمه السري عن الجميع ، خلف ابتسameه وضحكة ولعبه .. لم يسمح لأحد أن يراه عارياً أو معوجاً .. وحين أطلق ساقيه للريح لم يفعلها كالمتعلم ، الذي هرب إلى بيت آخر وقيود أخرى أخف دمًا ولكتها أكثر وطأة .

(الخميسى) فرَّ إلى الأفق الحر .. إلى حيث متع الحياة الحارقة والملتهبة . التي تكمن على حدود الخطر .. فيما وراء الدائرة التي تحيط بعش العوانس .. التي جعلها بفطنة يدركها كل الشطار - منطقة محمرة على أنشطته الحرية ..

يدخلها فقط حين تضطر مراكبه للرسو متيبة على أقرب أرض ، للتزود (بالميره) والزاد والماء ..

يرتدى ثياب العشاق المساكين الذين يستلقون على القفا ضاحكين لأى مداعبة .. أو ي يكون حتى تقاد أرواحهم تنشق إشفاقاً وحزناً - مشاركة لكل مكلوم مظلوم .. (اسم الله) عز وجل لا يفارق شفتيه و(صلوة النبي) فوق لسانه في كل خطوة ومع كل نظرة .. أو كلمة .. (اسم الله عليه صلاة النبي أحسن) تتناثر حوله على شفاه إخوته والأقارب والجيران ..

أخوه المعلم الأكبر ولـي عهد مملكة السوقـي المهزـومة ، وـحدـه الـذـي

التي ألقت بطشت الماء فوق رأس (المراة العفريتة) فذوبتها وأطفأت شرها .  
وهما معًا قاما بتمر يضه بالفعل لأسبوعين كاملين .

تضحكان لسذاجتي المنبرة . وتوكدان أنها حكاية حقيقة . مثلما  
أكدت أنت لي في أول اجتماع حزبي لنا أنها بالفعل كذلك وأن أمثالها  
يحدث يومياً إذ نقابل أصحاب الأرجل المعizi في كل مكان حتى  
في المسجد .. ولا يراها إلا أصحاب البصيرة الذين يخترقون مسافات  
المكان والزمان بحرية ، حيث تذوب الحدود بين عالمنا وعالم الجن وعوالم  
الملائكة ..

أنت أكدت لي حتى آمنت أن هناك بشرًا لهم هذه القدرة . وحلمت  
دائماً أن أكون منهم ، مثلك .. فلك يا صديقي تلك القدرة العامضة على  
تجاوز هذه الحدود التي أرساها الله ليحفظ توازن العالم وليمضي كل في  
فلكه المعهود بالشارة . ولو لا رحمته بنا لسدت تلك المسارب والمسالك  
بين العوالم المختلفة في ملكه وجفت حياة البشر .. ولا كان هناك أنبياء أو  
فنانيين أو أبناء ليل أو أولياء وأولاد موت . يثرون الحياة ويحركون سواكن  
مائتها حتى لا نیاس ..

- خالك (إبراهيم) لم يتحمل ما حل به . عندما اخترق حدود عالمه  
المألف .. ونفذ إلى نعيم شاطئ جهنم .. فاندلع مع أول نظرة حارقة  
بالعقاب وانسحب من عالمنا .. ليجوس بأحلامه في صمت كل العوالم  
الأخرى دون لوم .

وخلالك (الخميسى) هذا واحد منهم .. صدقني يا صديقي .. هو  
ابن ليل وابن موت وله معرفة بالخفايا . له صداقات مع العفاريت والنساء  
الساحرات ولا خوف عليه .. سحره يفتح له الأبواب .. وأنت ستكون  
منهم أيضاً .

كنت تؤكدى لي ذلك ، وانت تفسرى (البرنامج) أو تشرح لي الفرق

حكايات (تودد الجارية) عن ظهر قلب .. وأنهما تذوبان حين كنت أقرأ  
لهمَا حكاية (أنيس الجليس) .. وتكتمان الضحكات الخبيثة وتدعيان  
المجهل بالمعاني الصريحة - كمراهقات ساذجات - وأنا أقرأ عليهمَا حكاية  
(الحِمَال والبنات) .. ويسألن في خبث إن كنت أنا قد فهمت معنى (البلغ  
الهصور) الذي يأكل (السمسم المقشور) وبيت في (خان أبو منصور) ..  
تلك الحكايا ، التي حرضتني يا صديقي على سرقتها من دواب (الحال  
إبراهيم) .. مع الكراسة التي كشفت المستور وفضحت المستخبى ..

هل تعرف .. كنت أرى ملامحك في وجه (الخميسى) وكانت هي  
مفاتها إلى قلبي .. وكأنه أنت - خاصة عندما يحتل مكان الرواوى ويأخذ  
في سرد أخبار رحلاته و מגامراته التي فاقت حكايات السندياد عدداً ..  
ورواية أحد ث مشاويه المرعبة في (البلط) و(النصرة) .. و(فلسطين) ..  
ولقاءه مع السيدة (عنزيه الرجل) والرجل ذي (الشفطورة الخنازيري) ..  
والمرأة (أم بزار ورا وبزار قدام) ..

كنت أنت الذي توّزّني أن أطلب منه إعادة قصّ حكاية المرأة  
المحتشمة التي طلبت منه في حارة (الهوارية) توصيلها وحمل سلطتها  
إلى القصر الكبير . وأتابع وقد تقطعت أنفاسى ودقّ الطبل البلدى في  
صدرى وأنا أتمثل شعوره الذي يشكل ملامحه وحركاته بالقلق المتزايد ،  
مع رنين كعب حذائتها فوق بلاط (قاعة رنانة) غير موجودة ، فالشارع  
طين وتراب مفروض أن يمتص الصدى والرنين الأسطوري .. وأنصور  
تزاييد ثقل السلة ، حتى تعجزه عن المشي وأتخيل ، حين تكشف السيدة له  
عن ساقيها .. ليراهما ساقى عنزة مشعرة وسوداء فيجري زاعقاً وأجري أنا  
معه لاهتاً إلى البيت تطارده وتطاردني وطاويط وعصافير سوداء جارحة .  
وتومن الآختان على كلامه . (جنات) هي التي فتحت الباب بنفسها وهي

بين (التكليك والاستراتيجية) وان لم تعطني أبدا سبيلا للفهم الواضح .

لكن ابتسامة العارف المتأكد التي كانت ترتاح على وجهك يوم حكيت لك حكاياتي مع (زهزان).. ذات يوم ونحن أسرى الأعيب (عزيزه) .. أو عندما دققت معي في تفاصيل مغامرتي مع (نرجس) وتأكيدك لي أنها هي أيضاً من قبيلتنا ..

وصدقتك عندما انتهى الزمن بها آخر العمر أن تكون ميناء (الخميسى) الأخير حينما عاد بعد رحلاته الألوف متعباً مرهقاً . يجر حبال سفنه القديمة المهرئة . على كتفيه تلات بنات مثل القمر ، من زوجات أو عشيقات سابقات .. فتفتح له أحضانها مسامحة وغافرة . تغمره كشقيقة من أم وأب .. بكل الحنان الذي يستحقه بعد رحلة الوالصلين تلك ..

غاظني هذا منك ، فقد كنت تعرفه أكثر مني كأنك تقرأ الغيب . وأخفيته عامداً عنى ، لتجعلني أظل طوال العمر ألهث خلفك . محاولاً إثبات جدارتي بتجاوزك .. معنا في كشف أسرارك لأعرف ما ينقصني .. وألوذ بطلسم الحروف والشعر ، لاكتشاف كيف كنت تقرأ صمتى .. وترى غياهبي وتدرك ما لم أدركه حتى عن نفسي ..

لأظل في حاجة إليك دائماً ، أعود بك من الآخرين . والوذ بظللك وأنا أحلم أن تأخذ بيدي عبر عوالم الجن والإنس والملائكة ، لأرى مارأيته أنت ورآه خالي (الخميسى) عبر نوافذ العشق وخرائط النسوان – فقط أسكنها حروف كلماتي .. لأننصر عليك ..

## تلك عصاي أهش بها ..

○ كان خالي (الخميسى) يصر على التأكيد – في كل مناسبة ، أن (المناوية) أهل (ميت سلسيل) (غم ابيض) وكان بهذا يستفز مشاعري (القومية) فأدافع بشدة عن عشيرتي راداً المسيبة إلى أهل الكفر الجديد ، إنهم (الغم) و(الأسود) وكان ردي يشير ضحكاً لا أدرى له سبباً ، إلا انحياز أهل . (الكفر) لابن جلدتهم ، فكان ضاحكاً يضمني معذراً ليطفي جمر غيرتي على سمعة أهل بلدي ليبدأ لعبة أحبها إذ يأخذ في تقليد قطيع من (الغم الأبيض) مستعرضاً موهنته في المأمة صانعاً غاغة ، تجسد بصورة ضاحكة متقنة (ظيفة) خرفان ونعامج ومعيز وجديان من مختلف الأحجام والأعمار . عازفاً بفمه وحجرته وأنفه زفة مأمأة مركبة ومتناجمة ، تتراوح بين السرعة والبطء وبين الغلطة والنعومة والتدخل



ميت سلسيل  
في المثلث

وفي واطيها . رغم أن مولد (سيدي مجاهد) ظل لعشرات السنين مهمة خالصة لعيلة الشرفا والأهل علو البلد إلا أنه بعد أن أصبح العمدة من واطي البلد منذ الإطاحة بعمدتها الوفدي حتى صاروا يدسون أنفههم في كل شيء ، ما بالك والإذن بإقامة المولد مرهون بموافقة وبرضاء العمدة بصفته حارس الأمن العام .

بدأ الأمر بخناقة لرب السما بين اثنين من علو البلد أمام دكان (محمد النحاس) الخياط والذي يقع بجوار قهوة (حسن مصطفى) في قلب ميت سلسيل . حين سمع (أبو كلام) وهو الاسم المستعار (لمحمد) شقيق (عبد الرحمن) (الكلين فارمر) إبني عمي (عبد الحليم) ، حين سمع الواد الكبير (للشيخ) (محمد ابو نيراوي) الذي رجع من مصر دون أن يحصل على شهادة الأزهر . ويقال أنه قضى في السنة الأخيرة أربع سنوات كاملة .. والبعض يؤكّد أنه قضى تلکم الأربع سنوات وما قبلها في السنة الأولى فقط .. ومع ذلك عندما رجع إلى البلد ظل محتفظاً في المناسبات والمواسم الدينية والدنيوية بلباسه الأزهري . ومن هنا احتفظ بلقب (الشيخ) . وإن كان من ينطقها يضفي عليها سخرية خفية واضحة .. المهم أن ابنه الكبير سمعه (أبو كلام) يزعق على الأسطى (محمد النحاس) في لهجة استعراضية مستفزة أن يستعد لتفصيل (جبة وقططان) جديدين . لوالده استعداداً لتنصيبه خليفة (سيدي مجاهد) . فقد وصله خطاب رسمي من الأوقاف ليشرف على إقامة المولد في الشهر القادم .

فانتفض (أبو الكلام) كمن فرchte عقربة وشخر شخرة عريضة زاعقاً :

– وانت مالك ومال أبوك بسيدي مجاهد يا ابو دلو !

– أبويا سافر يجيب لك القماش من (سمعان الصيدناوي) يا اسطى محمد عايزينها كده تكيد العزال وتليق على الشيخ الخليفة .

والتوالي والتنافر ، هارمونية مأمأة فنية تعلو وتنخفض وتندمج وتنفرط لتحاصرك من كل الاتجاهات ، مجسدة جلسة مؤتمر لقطيع نهم ونشط من الأغنام ، يقاطعها من حين آخر نهيق جحش أو حمار ، إذ لابد لكل قطيع من قائد ، طيب وأليف وجاهز لركوب الراعي الذي يقودهم ، يتبعه ويتبعهم عدد من الكلاب الحراس تختلط هو هوتهم بضجيج المأمأة والزعيق والنهيق ، حتى تزول غضبتي لأهل قريتي . ساعتها يبتسم هو قائلاً في تشف :

– سمعت؟ أهم؟ ! ولا خروف واحد يسمع للثاني ، كلهم غنم يبزعوا في وقت واحد ويماؤوا بألف لسان وكأن ما لهمش ودن واحدة . أهة؟ ! زيهم زي (المناوية) الغنم الأبيض أول ما يتوارب باب الكلام .. قول يا رحمن يا رحيم لا حد يسد حلق ولا حد يمسك لسان .. ولم أكن أسكّت له إلى أن تأكّد لي ذلك الشبه ، ورأيته وسمعته بأمي عيني وأذني في سن مبكرة ، فأصبحت أطلب منه كلما اجتمعنا في أي أرض أن يعزف لي مقطوعة (الغنم الأبيض) .

عقب إعلان قرار الحكومة الملكية المصرية بإعادة النظر في قرار منع المولد بسبب الحرب .. حفاظاً على الأمن العام ، عادت فسمحت بإقامتها بعد الحرب مع تنظيمها ومراقبتها مع تحويل العمد مسؤولية الأمن فيها حسب تقديرهم لظروف كل قرية أو مدينة بها (ولي) من أولياء الله الصالحين .

انفجرت الغاغة في (ميت سلسيل) وفاض نهر الكلام مختلطاً فيه الزعيق بالهمس والخناق بالسخرية والسباب ليغرق المصاطب والقهاوي والساحات . يشارك فيه الكبار والصغار والنساء والأطفال، في علو البلد

- وامك ان شاء الله ح يعيشوها أمين لصندوق المقام يا فالح ..  
 - (النباروة) مالهم ومال (سيدي مجاهد) .. إيه؟ بيحسبوه من غنائم  
 الحرب ما كفاية عليه زيت الجمعية والشيخة الكداية !  
 - أما عجيبة والله .. طب (عبد الهادي ابو عوض) اللي هالك  
 نفسه في خدمة (سيدي مجاهد) هوّ واولاده .. مش هوّ اللي دق الطربمة  
 للميضة؟ كان فين (ابو نبراوي) لما وقع جدارها، وانفتح بطنها على صحن  
 الجامع؟ اشمعنى يعني لما رجع المولد شرعى .

وانتقل الأمر من مركز الحدث في وسط شارع السوق .. وانتشر  
 من قهوة (حسن مصطفى) إلى قهوة (ابو راشد) وقهوة (حمزة) .. حتى  
 غرزة (منشاوي) ومن محل (محمد النحاس) إلى دكان (جاد ابو عبد النبي)  
 ودكان (محمود وشطا) .. ومن مصطبة (الصحاصحة) لمصطبة (أبو سيد)  
 ومن مندرة (النباروة) لمندرة (يوسف عبد ربه) ! لم يكن أحد يسمع لأحد  
 . أو يتوقف لحظة ليفكر في حقيقة الأمر أو التأكد من صحته .. فلا أحد  
 علم بأمر الخطاب الرسمي من الأوقاف الذي عرفت به زوجة الشيخ  
 (محمد) قريبة العمدة . حتى العمدة نفسه لم يتكلم ولم يعلن لأحد أنه تلقى  
 أية خطابات بهذا الخصوص .. فقد اعتبر الأمر سراً لا يجوز إعلانه لأنه  
 باختصار ضد إعادة المولد .. وما يترتب عليه من وجع دماغ .. خاصة  
 والإخوان المسلمين كانوا في البلد أقوىاء ولهم جوالة تضم ما يقرب من  
 أربعين جوال من الحرفين والصناعية والعاطلين يهزوون شوارع البلد  
 بأقدام عسكرية في المناسبات الدينية وبملابس شبه عسكرية .. يستعرضون  
 قوتهم صباح كل جمعة أمام مبنى الجمعية الذي يطمع أن يحوله إلى مندرة

- عزال؟ في عينيك يا ابو دلق .. الخليفة هو عمي (عبد الهادي) يا  
 اهطل .  
 وتدخل الكل للنفخ في الشرارة التي تحولت إلى اشتباك ، بطرح فيه  
 كل منها الآخر .

الحقيقة أن (الشيخ محمد البراوي) لم يكن يدرى حين سال دم ابنه  
 في الخناقة أي شيء عن الخلافة ، ولا عن ترشيحه لها ، ولم تصله عنها  
 أية أخبار أو خطابات . لكن زوجته قريبة العمدة داعبتها الآمال أن تمد  
 نفوذها ليشمل مقام وصندوق ندور (سيدي مجاهد) نكاية وانتقاماً من  
 (زيدة) مرة عمي لخلاف نسيت أسبابه فأرسلت ابنها بتلك الرسالة إلى  
 (محمد النحاس) ، متعمدة أن تطرح الأمر على الرأي العام .. وأن تسبق  
 الأحداث فكل الميزات التي يتطلبها منصب الخليفة يتلوكها زوجها .. فمن  
 مثله درس في الأزهر؟ كما أنه أيضاً من أحفاد (سيدي مجاهد) .. ويحمل  
 كتاب الله وكان عضواً في مجلس إدارة الجمعية مع (حسين بك عاشور)  
 شخصياً . كما أنه يضع يده على مساحة من الأرض من ميراثه وميراث  
 أخواته البنات ، تليق نصاباً شرعاً لعمدة وليس مجرد خليفة يستبدل كل  
 مولد .

نجحت زوجة (ابو نبراوي) في طرح الأمر على الملا .. ولم يعترض  
 الشيخ على ما حدث . غضبه الشديدة كانت لبطح ابنه وسخرية (محمد  
 النحاس) الذي رد عليه معرضاً :

- يا ابني أنا ما بفضلش جب وفقطاين . أنا ترزى افنجي . تحب  
 نزف ابوك في بيجمامة لكرسي الخلافة .  
 كذلك كان غضبه للسخرية التي اتسم بها كلام ورأي كل من هب  
 ودب في أمر الخلافة

قيل إن الملك يعتمد عليهم في تنصيبه خليفة للإسلام من بر مصر .. لكن الأمر انتهى بعد ما استنفد قوة الجميع واستهلك غرامهم بالنقار والشجار حتى في صحن الجامع بعد كل صلاة إلى أن تصالح العقلاء والحكماء من الوفدين المنكسرتين بخروجهم من الوزارة والسعديين الصاعد بنجهم بتولي زعيهم الحكم برعاية ملكية . وخاصة بعد أن اتضح أن زوجة (محمد ابو نبراوي) كانت وراء إثارة الفتنة وأن (محمد ابو نبراوي) لم يطمح إلى الخلافة إلا لبضع لحظات ، قبل أن يكتشف إفلاس صندوق النذور وأن (عبد الهادي) كان يصرف على المقام من قوت عياله ..

ولأن العمدة أخفى رأيه في عدم إقامة الموالد ، لأنها مفسدة مراعاة لفرحة عارمة أظهرها أهل البلد فجراها ، وفك في أن إعادة المولد قد تقربه منهم . وتبقى ضربة لنفوذ (الإخوان) الذين أضفوا مزاجاً قاتماً على ليالي البلد طوال فترة الحرب باستهجانهم الدائم لإقامة الأفراح واعتراضهم على ليالي السهر البريء حول ربابة (عطاط الشاعر) لأن في خرافاته ما يفتن المسلمين عن دينهم..!!

•••

ومقر للعمودية . كما أنهم يعارضون الاحتفال بالأولياء ، فهي بدعة وهو ليس من أهل البدع ورأيه أن الموالد ما هي إلا مفاسد . احتدمت المناقشات والمناوشتات ولم تتوقف . اتخذت طابعاً مختلفاً في كل مكان انفجرت فيه حسب طبيعة المتنافرين وأغراضهم .. لكن خالي (الخمسي) جاء يزورنا ومجدد أن تلاقت عيوننا انفجرنا ضاحكين ووجدتني أطلب منه على الفور أن يعرف لنا سيمفونية (الغم الأبيض) التي أصبحت أعشق سماعها .

صار أمر خلافة (سيدي مجاهد) الشغل الشاغل لأهل البلد ، وكان (سيدي مجاهد) نفسه قد غاب عن بالهم طوال فترة الحرب وحتى قبل قرار منع الموالد .. الناس كان همها تقيل إذ ارتفعت أسعار كل شيء ، وشح القرش حتى في أيدي الموسرين . وصار الحصول على كوبونات الجاز أهم من زيارة المقام .. وأفلس صندوق النذور ، لم يكن يهتم بالمقام ونظافته إلا عم (عبد الهادي) وزوجته ، وانقطعت الرجل عن زيارته وفعل الزمن أفاعيله في إزالة الرهبة والاحترام عنه . تجرأ الأولاد والبنات على مقامه فصار مرتعاً للعبهم ولدهم ، واتخذوا من السبيل عشاً للعبة العروسة والعريس . مطمئنين إلى وجود الخراة حائلاً بين عيون عيلة (عبد الهادي) وبينهم إذ في ارتفاعها واتساعها ما يعطيهم الفرصة للكف عن لعبهم وبعثهم حين يلوح أحدهم أو يظهر خيال زوجته قادمة لكتنس ورش المقام بين الحين والآخر ..

وظلت غاغة الخلاف حول الخلافة تحوم في سماء (ميت سلسيل) مثل مأمة الغم الأبيض ، تغطي حتى على أخبار إقالة حكومة الوفد بأمر من الملك وما صاحب ذلك من زيادة قوة (الإخوان المسلمين) الذين

وعربتيه ذاتي البرمليين واللتين كتب عليه أن يجرهما حتى الممات -  
بروح ويجيء بين البحر والمقام يساعدته (حنيدق) (العيداروس) في رش  
الماء لإجبار تراب الخراة الناعم المكون من رفات الجثث وبقايا القبور  
على الاستكانة وعصيان الريح مشاركة في مجاملة ولهم الراحل الصالح .

ثلاثة بنائين عظام تحت قيادة (عبد الباقى البيومى) تولوا ترميم  
الجدران وإعادة صياغة المصطبة والمسجد والمقام بعد أن خربهم وهدمهم  
الإهمال والرطوبة وشقاؤه العيال طوال سنوات الحرب التي احتفى  
وتوارى فيها (سيدي مجاهد) نفسه وانقطع فيها ندره وقتلت مكانته ليعود  
اليوم ليكون دافعاً لتقديم اعتذارهم إصراراً أن يرجع بهياً كما كان قبل  
الحرب . ييرق بياضه ويشع نور الهدایة حوله ، ليغيب أهل الكفر والعزب  
كلهم .

كنا نحن (العيال) طوال الحرب قد استخدمنا طوب المقام المتساقط  
في كافة الأغراض لخدمة ألعابنا القروية .. (خشب) للأجوان .. وزوايا  
لتحديد المساحات للملعب (الكرة الشراب) .. (أمه) (وخموجة) للكرة  
والمضرب (قدائف وصدر) للعبة (ركبتوا خيولها) وكم نزعنا شقف  
بياضه لتكون بعد رصّها فوق بعضها (برجاً) نحاول إسقاطه بالكرة في  
لعبة (أول سنو) وضربونا يا أمونا أو (يا ضمنضاح) أو لتحديد خطوط  
لعبة (الأولى) و(ركبة ونص) وجعلنا من سبيله الخرب مهرباً للاختفاء  
في (الاستغامية) .. وحوائطه الملساء سبورة لا حدود لها لكتابه وحل  
مسائل الحساب أو تحسين الخطوط .. جردها للخير الذي كان يعم في مولده ..  
اكتسبها من اهتمام البلد السابق به طلباً للخير الذي كان يعم في مولده ..  
فلما توقف المولد صار ضحية لنا . ولذا رحنا نكفر نحن أيضاً عن ذنبنا

## يحيى العظام ..

○ بعد اتفاق أعيان البلد على موعد مولد  
سيدي مجاهد وأن يكون الخليفة هو (عبد الهادي  
أبو عوض) استمراراً للوضع الطبيعي عاد المقام  
لمركز الاهتمام . وانهمك كثير من طالبي الشواب -  
نسوان ورجاله - في ترميم وتجديد وتنظيف المقام  
والمسجد . والساحة الممتدة حتى حضن خراة (أبو  
خشبة) و(قمينة الجير) القائمة ما بين الترعة والسور  
المحيط بالجنينة مهدت وكنت ورشت وأرسل  
(أحمد القصبي) جراره - الذي كان أعجوبة -  
ليسوي المساحة أمام المقام ولذلك جوانب (أبو  
خشبة) نفسه حتى لا ينهار ترابه (الكافري) على  
الزوار . وكرّس (حماده المصري) صفوحاته وتفرغ  
متطوعاً متبرغاً - لرش الماء بعد الكنس والتسوية ..  
بينماراح (عم ظاظا) الكبير بحماره الشهير العجوز



- بس يأشر ..

كان يبهرنا بشخصيته وعمله .. و كان من قبل يدهشنا أكثر بقدرته على النشان بالنبلة يصيد بها العصافير واليمام .. بل والزرزور والقنبر - الذي لا يسمح لأحد باى فرصة للتصوير عليه - في حينها تأكدت أن المهارة والطيبة وحسن العشرة قد يجتمعون معاً في شخص ويمكن أن تفتح القلوب البرية وتأسرها وهي تبني وتصنع الجمال .

(السبيل) الذي كان خرابه .. ودمرت أزياره الأربعه وتحولت إلى حفر للاختباء أو لقضاء الحاجة .. وباشت جدرانه وأغطيته وكشف الزمن حجارته المملحة وكشط بياض قبته فصارت قراءة كثيبة تسكنها العناكب والسحالي ، عاد فأصبح كالعروض .. وصنعت أربع أغطية تحفة خشبية لأزياره الأربعه الجديدة .. وأعيد طلاء القبة ونقشت بخطوط مربعة متداخلة لفت حوله في دوائر مزخرفة وبنية ، أبرزت أكثر لونه الأصفر الجديد وكتب (إبراهيم فرج) بحروف الخط الكوفي الذي يتقدنه آية قرآنية ترحب بالقادمين إليه ”وسقاهم ربهم شرابة طهوراً“ صدق الله العظيم .. وقامت (لواحظ) بتنظيف الأزيار الجديدة وشطفها وطلبت من (حمادة) أن يملاها ماء نظيفاً . و(حمادة) دائمًا ما يطيع أمر الحسنوات والعذارى الجميلات اللائى يخطفن قلبها الخفيف منذ أجبر على تطليق المرأة الوحيدة التي أحبها فسمح بعدها لكل البنات بامتلاكه .. واستعباده لحين يتزوجن - من غيره طبعاً - وكن كلهن في مرح يداعبه ويتعمدن استغلال ضعفه للجمال .

وبعد ملء الأزيار تولت ترويق الماء بالشبه ونقى الممشى ليصبح رائقاً سلسيلاً . أعيد دهان أعمدة المقام وجدرانه وجليت حلياته النحاسية الواحد منها سيلبي ما يريده ولو طلب لبن العصفور ..

حياله . فشمرنا جلالينا عن سيقان (البوص) المغضعة وأرجل (المعيز) المخربة المسلوحة والأقدام المشوهة الملطخة بالأوساخ والغار المطين واضعين ذيولنا في أسناننا . أنا طبعاً رحت أفلدهم فشمرت رجلي بنطلون بيجامتي رغم معروفي بما ينتظري من عقاب صارم يومي ، لكن (علقه تقوقت ولا حد يوم) باحثاً لنفسي عن دور في تلك الهوجة المرحة .. نساعد هنا قليلاً أو نعطل هناك كثيراً ، ونتعرض للضرب والتقرير دائمًا . رغم نوايانا الحسنة .. يهشوننا مثل الذباب الرخم الذي يصر على الالتصاق والحضور الرزل . وفي الوقت نفسه ، كانوا بأنفسهم يبحشون عنا بل يطلبوننا ، حين يحتاجون لمن يأمرونه بشيء تافه .. ثم لا يلبثوا أن يطروننا ويحرمونا حتى من الفرجة على ما يجري عندما يستغون عنـا ، فيما عدا المعلم الأسطى (عبد الباقى البيومي) ذو الوجه الأسمـر الشرـوحـ والعـودـ الفـارـعـ والمـلامـحـ الضـاحـكـةـ الـباـشـةـ التـيـ تـرـحـبـ بـالـجـمـيـعـ . فـكانـ يـجـدـ لـكـلـ مـنـاـ فـيـ كـلـ وـقـتـ مـهـمـةـ مـاـ تـشـغـلـهـ أـوـ عـمـلـاـ يـثـبـتـ بـهـ أـنـهـ مـهـمـ ،ـ وـلـيـسـ زـائـداـ عـنـ الـحـاجـةـ طـالـبـاـ مـاـ يـرـيدـ فـيـ مـرـحـ وـبـشـاشـةـ :

- نـاـولـنـيـ الطـوـبـيـةـ دـيـ يـاـ رـاجـلـ يـاـ عـجـوزـ .

- تـقـيـلـةـ عـلـيـكـ ؟ـ لـاـ .. لـاـ أـمـالـ المـرـجـلـةـ رـاحـتـ فـيـنـ ؟

- هـاتـ شـوـيـةـ مـيـهـ فـيـ الـكـوـزـ دـهـ يـاـ مـعـلـمـ ..

- رـشـ حـبـةـ عـ الجـبـسـ دـهـ قـبـلـ مـاـ يـرـدـ .ـ وـشـوـفـ أـخـبـارـ الجـيـرـ إـيـهـ ؟

- هـمـ شـوـيـةـ يـاـ بـطـلـ .ـ دـوـلـ طـوبـتـيـنـ ،ـ يـعـنيـ لـوـ فـرـخـينـ حـمـرـيـنـ مشـ كـنـتـ قـرـقـشـتـهـمـ ..ـ هـمـ ..ـ هـمـ -ـ خـدـ بـالـكـ مـنـ الجـيـرـ لـيـسـلـقـ رـجـلـ ..

- هـاتـ يـاـ رـاجـلـ عـيـبـ تـنـهـجـ كـدـهـ ..ـ دـيـ خـفـ الرـيـشـةـ ..

نـضـحـكـ وـنـسـتـجـيـبـ لـكـلـ مـاـ يـطـلـبـ وـنـحـنـ سـعـدـاءـ ..ـ مـقـتـعـيـنـ أـنـ الـواـحـدـ مـنـاـ سـيـلـيـ ماـ يـرـيدـهـ وـلـوـ طـلـبـ لـبـنـ العـصـفـورـ ..

وحتى عندما كانوا يطربوننا لم نعد نغضب منهم بل نروح نطارد (حمادة المصري) ونحايله ونرجوه أن يقلد لنا طائرات صديقه وحليفه (هلتر) الذي يتظره حين يظهر صاعداً في الوقت المناسب من مخبئه السري .. ليهزم الإنجليز ويعيدهم لعقر ديارهم بعد أن يكسر أنوفهم . وبهاودنا (حمادة) ، فيقف وقوفته العسكرية الجادة ثم يضم شفتنه بطريقة خاصة ويبدأ النفح في الصفيحة بقوّة مخدّنا صوتاً وأزيزاً يصاحبها بفرقعات وقعات وقعات فتحيط بنا وبالمكان أسراب من طائرات حقيقة تلقي حموله قنابلها على رؤوسنا .. نحسها ونشعر بها، إلى أن يبدأ في تجسيد دوي المدفع المضاد .. فيترعب الواد (يونس) العبيط وينهار صارخا باكيا مستنجداً بأمه التي ماتت بالصدفة في (بور سعيد) أثناء غارة وكانت تبع هناك البيض الذي تجمعته من القرية . ومع ذلك يجعلنا رعبه ثواب من الضحك عليه .. وخاصة حين يفلسح صارخا وهو يقفز آخذنا ذيله في

أسنانه كاشفاً عن مؤخرته الحمراء كطيط القرد .. صائحاً :

ـ غارة يا أمّه .. غاره يا أمّه .. اقفلني بباب الزربية !

(هرتل) جاي يا أمّه (هرتل) جاي ..

•••

ومصابيحه .. وكسي بقمash خاص .. جاءوا به خصيصاً من (طنطا) . باركه (السيد البدوي) بنفسه كما يؤكّد في ثقة عم الشیخ (شطا) وهو يقسم بالشیخ وبكل اهل الله .. وفرض المقام داير ما يدور بسجادة عجمي صنع يدقيل أن الشیخ (على أبو حسن) أحضرها بنفسه من أرض الحجاز .. وعرف صندوق التدور من جديد خشخشه القروش والبرائز الفضة والملايم .

رم سطح المقام والمسجد وكنست أوراق الشجر الذي أسقطتها الريح خلال سنوات الحرب ، كما جمعت كور التيل والكور الشراب التي فقدناها ، أعيدت إلينا وسط فرحة غامرة مكافأةً لمن عمل هنا بجد فأصبح لكل منا كرّة أو أكثر حسب شطارتنا في تنظيف المكان .. وإن كان علينا - لقاء ذلك - أن نشارك أيضاً في نزح الكنيف والترنش .. وترميم الميضة ، مش مهم !!

قالت (خلت حضرة) وهي تزغرد أن (سيدي مجاهد) بقى أحلا من عروس نهار جلوتها.. وأشارت زغروتها المميزة شهية النساء العابرات لمجاراتها في الزغرة فرحاً بما حدث (للشيخ) الذي سيعيد البركة للبلد بعد طول حرمان . وطمأنّت المنهمكات في العمل على نصيبيهن من الثواب المؤكّد الذي هو جزء كل من أحسن عملاً .. واختلطت تعليقاتهن الفرحة - وأيضاً شتائمهن المرحة التي يتباولنها فيما بينهن أو مع المعلم الأسطى (عبد الباقى) وفيق العمل الذي يصاحبه من الشباب .. وخلقت روحًا من الرضا حرضتنا أن نهیص ونصبح في الغدو والرواح كأسراب الإوز المرحة الملهوفة لماء الترعه هربا من ذباب وفاش الزرائب والأحواش .. وكآبة وتحكم النساء الكسالي في البيوت .

## كلِّي فلَلِ ..

ضيافة (سيدي مجاهد) والذين يتبعون الموالد من مكان لمكان ، وأعدت أرض الصيوان الكبير شرق الجامع في المساحة التي سيكون فيها حلقة الذكر الأساسية .. وترك المساحة التي في الغرب والحقول المجاور خالية وبرحة ومستعدة لتقام فيها المراجيح وأماكن التسلية الأخرى من مقاهي وملاهي وسوق ..

وجاءت طلائع الجماعات من أصحاب الطرق والعهد يدورون في القرية بالدفوف والطبول .. يمدحون الرسول (سيدي مجاهد) ويطلبون القبول قبل المثال إلى رحاب المقام والحصول على بركة المكان .. وفعل مثلهم كثيرون من أهل الله والطرب فدار الأراجوز في الحواري يعلن عن نفسه . ووصل قرداطي بقرد ومعزة .. وفرقة من المغنين بالدفوف .. وتنقل الناس في سعادة أخبار المشايخ والشیخات الذين واللاتي سيحضرون لإحياء الليالي والجهاد في حب (سيدي مجاهد) وكل أولياء الله الصالحين وتحقق نظرية (على أبو عابدين) أنه كلما أسرعت البلد في إقامة المولد ستكون الفائدة أكبر . وسينافس (السيد البدوي) لأن الناس شرقانة للفرح بعد الحرب .

وقييل أسبوع المولد بدأ أناس من بلاد كثيرة يتواجدون ، وحدثت معركة ضارية بين مجموعة من شباب ورجال عزبة (النصاصرة) الذين تعودوا التجارأ على إفساد الأفراح في (ميت سلسيل) باعتبارها أهلها (غمم أبيض) لكن عدداً من شباب البلد بقيادة (محمد أبو ذكي) تصدوا لهم وأجبروهم على الفرار . وقال (يوسف عبد ربه) .. كوييس ده درس للإخوان ما يعملوه اش . وأقيم السوق في موعده وكان سوقاً كبيراً لم يعقد مثله من قبل ، استبشر بتنتائج أهل البلد . وتوقع الجميع أن تكون

○ قبل أسبوع المولد والذي سينتهي بالزلة والليلة الكبيرة أو الأخيرة ، بدأت الفرق من جماعات المریدین وأهل الطريقة والتجار وأصحاب الألعاب المختلفة يأتون من كل فج عميق . أجرت لهم مساحات الأرض كل حسب ما يتوقع أن يكسبه ، ونصبت خيام ملونة وأخرى جربانة باهتة في حضن (أبو خشبة) .. ودقت أعمدة طويلة وأخرى قصيرة من الخشب نشرت فوقها (شقق) من القماش المزخرف بمختلف أشكاله وألوانه .. وخصصت أماكن كافية بجوار الحوائط القرية ، مأوى للزوار من مریدي الشيخ وأهل الله وأتباع الطرق الذين سيقيمون حتى انقضاض المولد في



مِيَالُ الْأَسْبَا  
فِي الْمُثَبِّبِ

وكلّف البعض أنفسهم لتنظيم الأمور والحراسة ليلاً ونهاراً . فخفّت حدة التوتر وخاصة وقدرأى بعض الإخوان أن مقاطعتهم للمولد ستعزلهم عن الناس فاندجووا في الأنشطة خاصة التجارية منها ، وجذبهم هذا إلى كثير من الممارسات الأخرى ، لم تفهم من التعرض لألسنة الساخرين الحادة . الحجرة القائمة خلف المقام نقلت إليها زوجة عمي (عبد الهادي) أربع بوابير حاز كبيرة وصفائح حاز وعشرات من أقماع السكر تبرع بها الكثيرون . وظهرت فيها أربع حلل كبيرة تتسع الواحدة لحروف كامل . – دي قازانات يا اهبل مش حلل . لغلي اللبن وطبعاً لطبع اللحم للضيوف ولنا .

هكذا شرحت(عواطف) ونحن ندخل على زوجة عمي لشرب اللبن بركة (سيدي مجاهد) ولم يمنع هذا أن تطردنا شر طردة عندما ضبطت (الواد بكر) سارقاً قمع سكر بحاله ، محاولاً الخروج به تحت جلابيته ففضحه . منظره المثير متضخماً تحت بطنه مما كشفه وأثار غضب النسوة، فصفعته (زبيدة) زوجة الخليفة المتظاهر وهي تصرخ مستنجدة بالرجال .. ولو لا أنه أحس بالذنب لأن هذا سكر (سيدي مجاهد) كان رد عليها بقسوة وأمطرها بالحجارة والأوساخ فهو ولد قليل الأدب جداً .. لكننا طيننا خاطره ولمناه .

– أنا لا كنت عايز سكر ولا زفت ، لكن عندهم كتير . منظر الأقماع مرصوصة ومالية الأودة يهبل .. قلت ناخد واحد نبيعه (حسني النملة) بكم قرش نتمرجع بيهم والا نأكل دندرمة . كان ح يجري إيه ؟ ردت عليه (أوطان) :

– يا واد يا اهبل ده سكر حرام ده كله ندر وصدقة . حرام .

أيام المولد في مثل روعة السوق ، وأن يعود على البلد خير كثير ، وأن يقبل زوار أكثر .

وطبعاً أجرت الأرض لحساب صندوق النذور وتسامح (عبد الهادي) كثيراً في الإيجارات . كان يريد أن يبدأ خلافه بجذب أكبر عدد ممكن من أهل البلاد المجاورة إلى جانب الرواد والمربيين الطبيعين للمولد . ففي هذا نجاح حقيقي ودخل أكبر ، ليكون الصرف على الرواد وأهل الله أكبر . ويقى فائض للصرف على المسجد والمقام فالنذور التي انقطعت لا يمكن التنبؤ بقيمتها أو حتى بعودتها والناس خارجة من قفا الحرب . لم يتوقف الإخوان المسلمون عن تنعيم الفرحة على أهل البلد الذين

سالت دماء الذبايح في أحواشهم ، وفاحت رائحة اللحم عبر سماء القرية من بيوت المتصدقين منهم ، وجرت الملائم والقروش في أيديهم – فكانوا يقصدون الزوار من مريدي الولي الصالح ويدورون عليهم ويخطبون فيهم مهددين بعقاب الله وانتقامه بسبب ارتكاب الذنوب التي أخلفها اختلاط الرجال بالنساء وعدم احترام حرمانية الأموات .. لكن الكلام لم يأت بنتيجة إذ تصدى لهم بالتعليقات الساخرة خفاف الظل ذوو الألسنة الأطول ، فلجماؤا إلى التسلل ليلاً لهدم الحيام على رؤوس من فيها .. وكاد الأمر في كثير من الأحوال أن يتطور إلى اشتباكات في أماكن عديدة ، مما جعل العمدة يهدد بإلغاء المولد . وجعل هذا معظم أهل البلد وخاصة عائلات الشرفا والمجاهدية وأقاربهما يتصدون لهذا . وتناول شبابهم حراسة الساحة طول الليل ورُنوا بعض قادة (الإخوان) علقة جعلتهم يتراجعون . وعمل (الخليفة) القادر وخدم المقام على إعداد الحوش الكبير المحيط بالمقام وتجهيزه ليكون مسجداً يعمره المؤمنون . أقيمت حلقات دروس دينية بين الصلوات كما نشطت به حلقة ذكر جذبت الكثيرين .

الأطفال والعاجيز ظلوا سهارين على السطوح وعلى المصاطب طول الليل.. الشوارع كانت بتتشغى قدام القهاوي والدكاكين والكلوبات حول (سيدي مجاهد) وفي الساحة وعلى السكة الزراعية والمحطة قلبت الليل نهار.. وأمام دكان (محمد شطا) لمحني أبي وسط العيال الذين لم يكن يطيق علاقتي بهم ويعاقبني بسببيها (لأنني صايع ولا أتلهم إلا على الخاينين) الذين ليسوا من مقام تلميذ ابتدائي متوفّق مثلّي ، لكنه يا للعجب لم ينهرني ولم يأمرني بالعودة للبيت وكانت أحراول التخفي لكنه لمحني كالصقر واكتفى بنظرة مستنكرة فقط . يا بركة كلام أمي (أنها ليلة مفترجة تنام فيها عفاريت الغضب والشياطين) ولا بد أنها أوصته بذلك إكراماً (لسيدي مجاهد)..

أمام شادر (أبو سيد) رُصّت عدة دكك وانتشر الشباب على عيدان الخشب الفلاري والسويدي يثثرون ويعلقون في سخرية على كل من يعبر أمامهم .

وأمام بيت عمي (عبد الهادي) ذُبحت بقرة . وزع لحمها على بيوت كثيرة عُهد إليها بتجهيز صوانى الغداء والعشاء للجميع غالباً .. (محمد أبو نبراوي) نفسه ذبح خروفًا ليظهر أنه لم يعد في نفسه شيء من ناحية منصب الخليفة .

تجمعت النساء أمام البيوت يثثرن . وفاحت رائحة اللحم من بيوت كثيرة تبشر بعد عامر بالهبر اللذيد . لم تتعجب من الجري واللف ولم يتعب (حسن العربي) من وضع خطط لخطف اللحم . رغم أن أحداً لم يدخل علينا به لكنه كان يؤمن أن اللحم المخطوف أذكثيراً . ولما تعينا من اللف تجمعنا على مصطبة (السيد مطاوع) (الموزايكو) الناعمة الباردة لدرجة تغرينا بلصق خدوتنا بأديمها البارد الرطيب الذي يبغ طراوته في الجلد . بعضنا نام من التعب وبعضنا ظل يقاوم النوم دون جدوى.. وقرب الفجر

تحسس هو مكان اللطمة التي صفعته إياها (زبيدة) مرات (عبد الهادي).. وهي تدعوه عليه :  
- يخص عليك ! إلهي يفضحك يا بعيد . وشايله بين رجالك كده  
ليه يا مفوضح يا ابن (عتيقية).. جاتك نيلة على أمك القحبة .  
غرغرت عينه بالدموع لأنها سبت أمه :  
- لكن تشتم أمي ليه ؟ والله لأخر شم ابنها العلق على الشتمة دي .  
لكنه نسي غضبه مجرد أن نادى عليه الأسطى (عبد الباقي) وأعطاه كبšeة فول سوداني ويطلب منها أن ننصف ونروق المصطبة التي كان قد انتهي من تبليطها .

وأخذتنا موجة الحماس أولاد وبنات . واختلط ضجيجنا ونحن نتخاصف حبات الفول السوداني .. بأصوات دق الخشب ونداءات النساء والرجال وأزيز طائرات (حمادة المصري) وزغاريد كل من تشاهد المنظر - المفرح فعلاً - من النساء العابرات إلى الترعة.. كل ذلك مختلطًا بنھيق الحمير ونعيق البقر والجحوميس العائد من الحقول .. مع ضجة تريقة (الصديق بن عبد الله) .. في ضجة (أمأة) أخرى ضاحكة فرحة هذه المرة تماماً الساحة التي ظلت مهجورة صامتة لا تقل عن وحشة خرابه (أبو خشبة) كلها مع انحسار مكانة (سيدي مجاهد) لسنين طويلة طوال الحرب وبأمر الحكومة .

لكنها هي ضجة المریدين والبسطاء تعود للساحة مرة أخرى .. بالفرح والبهجة مع احتضان ضيوف الولي الذي بدأ يستعيد مكانته في قلوب البلد أهل (ميت سلسيل) .

واستعداداً ليوم الزفة التي ستصاحب في ختام المولد موكب الخليفة الذي لم يعد هناك اختلاف على (تتويجه) خليفة (سيدي مجاهد) .. عمي (عبد الهادي) ولا أحد غيره ، خادم المقام الذي عقد له العهد هذا العام . ليتها لم ينم أحد في (ميت سلسيل) .. لا الزوار ولا أهل البلد حتى

## من كل فج ..

○ تجمعت عربات الكارو في الساحة فيما بين (أبو خشبة) ومقام (سيدي مجاهد) وعادت ضجة الزعيق والنهيق والصهيل تملأ الفضاء منافسة الغبار الكفرى الذي تشيره الحوافر والأقدام، وأجررت الضجة الجمال المشاركة في (المأمأة) بإخراج قللها والبقللة في عصبية . وتجمعنا نتفرج على ما يحدث في انهار . فلم يسبق أبداً أن رأى معظمنا قلة الجمل التي لا يخرجها إلا في حالات غضبه النادرة .. كانت تبقبق وتقلل ناثرة زيداً أبيض كثيفاً خيفاً ومقرفاً ..

قال (حسن العربي) :  
- الجمال خايفة .

- أنا لا أصدق أن الجمال يمكن أن تخاف ..



ومع أول تكيرة أسرعنا وأيقظنا من ظل غارقاً في النوم . وأسرعنا إلى ميضة (سيدي مجاهد) نغسل وجوهنا ورؤوسنا بالماء المعين البارد المالح . وتطوع بعضنا لمساعدة (سيد أبو نعمة) في إدارة الطلمية لتعويض الماء الذي استهلكناه . ولم يسمح للخزان أن يخلو من مائه أبداً ..

وكانت كل الأدشاش شغاله ومشغولة وكأن العالم كله كان يستحم.

- مما أضحك (السيد أبو نعمة) وهو يصرخ في المستحمين:

- إيه يا بلد! .. إيه يا جدعان؟ كل الناس سهرانة للصبح؟ وكل دول بيستحمو؟ إزاي ومنين؟ أمال لو كنتوا اتخدتوا في حضن نسوانكم من المغرب زي العادة كتو عملتوا إيه؟ البلد شرقانة يا جدعان ، الله يرحمك يا (هتلر)!

جاوبه (محمد الازرق) :

- وانت يا (أبو نعمة) قادر تدور الطرمبة زي الطور؟ ما انا شايفك يعني دي أول واحد استحми الليلة.. بربش (أبو نعمة) يعنيه المظلمتين .

- إلهي تنطس في نظرك.. يا نحس . أنا استحmitt تحسباً من نجاستك لما شفتك راكب ع البقرة مراتك فوق السطح منك للسماء يا ازرق الكلب . خبيك الله دا انت ازرق القلب كمان.. طب استتروا في ليلة فضيلة زي دي .

صاحبهم الشيخ (مسعد) غاضباً :

- ما تصروا يا جماعة على النبي وبلاش لغو . وتعجلوا شوية ..  
الفجر لاح . والوقت أزف !

• • •

أول ما خد حبابة كرملة من الأسطى (محمد) استحلى الموضوع . (عوضين) المنجد أخذ يحرب العصا في كومة القطن . ولما اطمأن على بقية أدواته ، جلس يتفرج على الناس التي تتفرج عليه.. (أبو سلامه) وجدع كبير من الخشب مع المناشير والشواكيش والقواديم في أيدي عياله .. ووضع أصغرهم قلماً وراء أذنه ولا أجدع المعلمين . وأخذ ينظر إلينا متباها ، الواد (عبد السلام) ناحه شقة بطيخ لم يكن قد انتهى من نحتها جعله يكثي صارحاً وشخط فيه أبوه وصفعه دون أن يسأله عن سر بكائه ..

كان الضجيج شديداً . والكل يزعق محاولاً تنظيم غيره .. الكل يصارع ليفوز بمكان متقدم قبل غيره ويزعق أعلى من غيره . الكل يحاول إسكات غيره . الكل يحاول أن يتميز عن غيره ولا أحد أبداً يسمع لغيره . وأضحكني هذا وافتقدت خالي (الخميسى) وتنبأت أن يكون موجوداً ليعرف لنا على شرف الغنم الأبيض مقطوعة (المأمأة) مضيقاً إليها الصهليل وبالقللة.

فلم تكن الحمير ولا الجمال ولا الأحصنة أقل تنافساً ولا أقل ضجيجاً من البشر فلم تكن مثلهم راضية ولا ساكتة ..

حمار (ابن همام) عض حماره الولد (محفوظ) السمك ، فاشتكى معه في عنف بينما رفع أحد أحصنة (البراءة) قائمته الأماميتين مبعراً ما على عريش العربية التي يجرها وكان عليها (زيدان هنومة) بتاع الطعمية الوحيد في (ميت سلسيل) فدلق الرriet على العجينة وقدف بها إلى التراب . وغضب (زيدان) وكان قليطاً يرى أن اشتراكه لا يليق بقنزنته وكرياته . كان لا يستغل إلا ساعتين كل صباح ليجلس بقية اليوم في جلباه الأبيض يدخن الشيشة في غاية القيافة . ولم ينضم إلى الزفة إلا بعد محابية كبيرة ..

ومع أننا كنا تتفرج من بعيد ودون مشاكل كان يحلو لكل الكبار طردنا دون داعي . ليه؟ مع أن معظمنا كان يسرع للمساعدة ، فهذا يتناول أحدهم حبلاً وقع منه أو يعيد لآخر بعض أدوات نثرت على الأرض من على عربة حرن حصانها أو هاج وانفلت . كنا إن لم تnel منا عصيهم نالنا طول لسانهم أو زعدهم وزعيمهم فيينا . قالت البنت (وطنية) بنت (أبو بيومي) :

– دول ناقص يلكتشونا زي لكش المحجوش ..  
ولكتنا لم نكن نبتعد ولا ننطرد .

– ساعدنا (العوضي) مبيّض النحاس على تجهيز عربته . ناولناه كيريتاً ليشعل نار الكانون تحت الحلال وملأتاه الجردن من ميضة (سيدي مجاهد) ..

وسألنا عن رأينا فيه وفي منظره وهو يجرب وقوفه في الحلة المصدية يترقص يميناً وشمالاً محركاً مؤخرته في إيقاع منغم مثيراً للضحكات . وما علق بعضاً على ذلك تعليقات بذيئة ساخرة ، رشنا بالماء الذي لو ثته قدماه القدرتان ..

(محمد النحاس) أجلس أحد صبيانه ليحتل مع ماكينة الخياطة ضهر عربة أخرى بينما أعد لنفسه عليها ترابيزه عليها قطع من القماش مقطعة . وأخذ يتظاهر مجرباً أخذ المقاسات وبالقص . ولما أخذ يتلفت ويسير لمن حوله أسرع (حسن العربي) :

– عايز حد يعمل زبون تقيس عليه ..  
فضحك (محمد النحاس) وقال له :

– ناصح يا وله .. تعالى انت اركب معانا .  
لكن (حسن) مصمص بشفتيه رافضاً وقال :  
– أنا مش فاضي أنا ح اتفرج .. لكن اطلع يا واد يا (يونس) يا اهبل .. ياللاح تركب وما تخافش ما فيش قنابل ولا رصاص النهارده .  
ولما تردد (يونس) حمله بالقوة ورفعه فوق العربة .. والواد (يونس)

ولم نعرف هل كانت تقصد المعلم أم جرسونه .. لكن زفارة لسانها أضحكتنا خاصة عندما رشّها الولد الجرسون المترنح بكبشة جمر نار جعلتها تصرخ وتجري بعيداً . فضحك الناس لمنظرها إلاً (حسن العربي) باعتبارها قرينته ، فتناول طوبية من طين هش وسفخ بها الواد في دماغه فلغمط له وجهه ، ولطخ جاكية الجرسون المسرحية .

على عربة أخرى كان (عبدة) الكونترجي الآخرين في عالم آخر.. منهمك في ترتيب قوالب الأحذية وتثبيت السندان والعدة ، بينما صبيه منهمك بجدية أكثر في تشميع الفتلة.

على عربة أخرى يقودها حصان أسود غطيس وكأنه الأدهم جلس (عط الشاعر) مهيباً متربعاً على دكة خشبية مبطنة ، وحوله بطانة بالأرغوول والم Zimmerman والرق .. وقد ارتدى جميعهم ملابس جديدة لنج .. وتجمع حوله عدة أطفال وبنات من حارة الصياغة بينهم (مايسة) والواد (فؤاد) ليرودو وراءه حين يصهلل بجد.

وفوق أحد الجمال ربط (السيد أبو نعمة) بسلب وحبال غليظة وهو يمسك بجرنان الأهرام مقلوباً استعداداً لقراءة الأنباء من إذاعة (الشرق الأدنى) بينما زميل عمره (محمد أبو صبح) يردد (هنا القاهرة) ويدي تحفزاً للدخول مع زميله وحبيبه وتوأم روحه في الحمق والهزل وشريكه في مهمة المسرحياتي في قافية ومبارة تبادل النكت والساخرية كل من الآخر ، ومن كل المشاركيين والمترنحين أيضاً.

الجملان الآخران زين أحدهما بشرطه وزهور وأغصان صفصاف وجريدة نخل أخضر، أما الآخر فكان عليه صندوق كبير أسود منقوش عليه زخارف كز خارف الكعبة وبما تنتزعن به الكسوة الشريفة .

في الجانب الآخر كانت عربات أخرى . فوق بعضها جامعات قطن وعمال تراحليل بفؤوسهم وكواريكفهم وعلى واحدة أخرى كان ( توفيق) ابن عمتي (فرحة) يجلس في عظمة وقد باعد بين ساقية وأخذ في

ولذا احتاج وصفع الولد المسئول عن الحصان الهائج وخلف لا يشارك (في لعب العيال ده!) بينما زعق الولد المصنوع مستنجدًا بأفراد قبيلة (البراءة) للانتقام له ..

وكاد (البراءة) يفتكون (بزيдан) وأن يمرّمطاً بكرامته الأرض ، لولا حال بينهم وبينه أهل الخير الحريصين على كيان الموكب . ولم يمنعهم من الانسحاب من المشاركة في الرفة هم وأحصنتهم وعرباتهم إلا طرد (زيдан) وحرمانه من المشاركة ..

والحقيقة أنه انسحب بإرادته في قلادة ، رغم ما شيعه به (البراءة) ونسايدهم (القواسم) من سباب وشتائم .. وبعد استرضاهم البراءة ونسايدهم عاد الهدوء النسبي إلى ساحة الانطلاق .

على عربة أخرى كان (سلمان الحداد) وابنه مع كور وسدان ضخم وطفل مصبوغ وجهه بالسنابج وكأنما من قلة الغسيل جالساً على قرافيه ، وأمامه حجر أبيض أسطواني وعدة شقارب (مناجل) وشرasher أخذ يمارس سنها بالسميك والسندان .. ورغم أن الموكب لم يبدأ بعد فقد انهمك بكل جدية في عمله وكأنه أمام دكان الحداده .

ولم تجذب نظره أو تشغله عن عمله العربية المبرقشة والمزينة بشرائط كريشة ملونة والتي توسط العريش عليها المعلم (حسن أبو مصطفى) نفسه مجموعاً على كرسي فراشة ، مرتدًا ملابسه (الأبيض في الأبيض) يدور حوله بمبة خرة صبيه الحراك في بدلة جرسونات حقيقية استأجرها له من مخزن (العدلية) في المنصورة وهو يلوح حوله بالمبخرة تنفس دخان بخورها . بينما يقدم له باليد الأخرى الشيشة الفاخرة التي لا يستعملها غيره .. ساعتها صاحت (فهيمة أم جبر) :

- جتك نيلة على أمك ، لو كانت شافتكم في الأملة دي ما كانتش ماتت م الجوع .

حضنه طنبوراً حقيقياً كأنه يروي حقلًا متخيلاً.. لكن الناس فطست من الضحك عندما فاجأته المهرة التي تجر العربة بإغرافه في نافورة من بولها، فقال أحدهم:

– ياللا يا عم أهي جابت ميه ، الله بيبارك لك السنة دي .

• • •

## لزريئنهم ..

○ فجأة .. دق الطبل مارشًا عسكريًا زاعقاً  
من بعيد ، فالتفتت الوجوه في دهشة واشرأبت  
الأعناق وتعلمت العيون في استغراب وسكتت  
الألسنة وطار السؤال المستطلع فوق الرؤوس  
الصامتة. جرينا نحن الأطفال في نفس اللحظة دون  
اتفاق متوجهين نحو مصدر الصوت ونحن نصيح  
في ترحيب لم نتفق عليه .

من بعيد من آخر شارع البحر خلف بيت  
(الشهابية) لاح طابور (جوالة الإخوان) بملابسهم  
الكاكي وكأنهم فيلق من الجيش المرابط . يحملون  
على أكتافهم كالبنادق شماريخ غليظة تشبه أيدي  
الفئوس. في ثلاثة صفوف غير منتظمة على رأس  
كل طابور منهم واحد يحمل طبلة .. طبلة الرجل



مطالب السبا  
في العتب

تشارك و من حق الكل يمشي في الزفة .. ما هم برضه أهلنا.  
 كتم (عبد الرؤوف أفندي) غيظه ، وهمس الأستاذ (يوسف) له:  
 - فوت الموضوع ده يا عبد الرؤوف . همه قصدوا يحطونا أمام  
 الأمر الواقع .. و ممكن يبوّظوا المولد .. مش كانوا معتبرينه بدعة و راضينه  
 من أول ما كان نية .. فوتها عليهم، و غرضهم ح ينكشف .  
 ز مجر (عبد الرؤوف) وأيده (عبد الباقي أفندي) وحتى (محمود شطا)  
 قال له :  
 - يا سيدتي ح يعملوا للزفة هيبة .. و عملتهم قدام البلد ما هيش في  
 صفتهم . أهم بقوا شركاءنا في البدعة والضلاله ..  
 - رد (عبد الرؤوف) وهو يكتم غيظه :  
 - فرحان (عبد الهادي) قوي بيهم ..  
 ح يعملوا لطعته هيبة . الخلفا ، زفة رسمية ، دا حتى ح يمشيهم  
 تشريفة قدام حصانه .. ولا خليفة بغداد .  
 - وح يمشوا قدامه !؟  
 كمان ؟ لا بقى .. وراه زيهم زي غيرهم !  
 - يا سيدتي قدامه والاً وراه .. المهم يقوا بره الموكب ..  
 كان كل شيء قد صار على أبهة الاستعداد لإطلاق إشارة البدء ..  
 وكان (حمادة المصري) فوق المقام مستعداً ببندقته التي يستخدمها  
 (مدفعاً) في رمضان والتي دفع ثمناً للتاريخ بها سنوات طويلة من عمره  
 وكلفته طلاق مراته الأولى والأخيرة .  
 وكان (الخلفية) قد امتنع حصاناً أيضأً أمام المقام (آخر قيافة منظره)  
 على رأي مراته (زبيدة) :  
 - يشرح القلب الحزين .

الأوسط كانت طبلة ضخمة تكاد ترکبها . يدق عليها بعضها غليظة لها  
 رأس مستديرة من القماش ، بينما طابور اليمين واليسار يحمل من في  
 مقدمتهما دربكة أو طبلة صغيرة حادة الصوت يتداول ذراعاه بعصاتين  
 رفيعتين الدق عليها في تبادل محسوب الإيقاع نغماً منضبطاً منتظماً  
 بحرقة مضحكة من ذراعيه اللذين يرتفعان في الهواء بزاوية وكأنه يحرك  
 جناحين شبه طائرين ..  
 كان منظرهم مدهشاً لدرجة الفكاهة .. فمضينا نقلد الخطوة  
 المنتظمة ، مشكلين طابورين على الجانبين ، مسحورين بالإيقاع وبانتظام  
 الخطوة وإيماءاتها البطولية .. بعض المتفرجين كان يحتاج على ما ن فعله  
 فصفع بعضنا أو دفع آخرين وأوقعهم معتبراً ما نفعله سخرية لا تليق بهيبة  
 الطابور ولكن الأغلبية أيدتنا ونهرت من ضربنا مشجعين ضاحكين معنا:  
 - إيه؟ مش عايزين تمرّنوا الأجيال الجاية؟!

- ما تسيبوهم .. الله؟ هو ده مش زي الذكر .  
 لم يلتفت لنا أحد من أهل الطابور نفسه ، بل ظلوا محتفظين بنظراتهم  
 الجادة الجهمة . رافعين رؤوسهم يتطلعون إلى الأمام . فأخذ منظرهم  
 مع رهبة الطبل الكبير وجدية إيقاع الطلبين الأصغر يجبر بعضنا على  
 الانسحاب من الطابور الساخر (التقليل) ويفقد فاغراً فاه .. أو خائفاً من  
 عقاب مجھول ..

زعق (عبد الرؤوف) أفندي محتاجاً :  
 - احنا ما اتفناش على كده يا (عبد الهادي)..  
 الحاج (عبد الهادي) رد في حكمة الخلفاء (لم يكن قد حج بعد لكنه  
 سيكمل دينه بالتأكيد ويحج).  
 - يا (عبد الرؤوف أفندي) وأنا كان في إيدي إيه؟.. كل البلد عايزه

الناعم الأسود (مسحوق الجثث) وكان عفريتاً خرافياً نفخ من مؤخرته عاصفة رهيبة جعلت الكل يكح ويعطس وسالت دموعنا حرقة فاقترح (حسن العربي) أن نسلخ منطلقين لنسبق الموكب لمشاهدته من مكان ملكي سيقودنا إليه .

وبتعناه .. بعضنا استجاب لفكرته وبعضاً تاه في خضم الارتكاب الذي لا حد له . والذي كانت معجزة كبيرة أن يتنظم بعد كل هذا الهرج والمرج بفضل العناية الإلهية وبركة (سيدي مجاهد) ..

قادنا (حسن العربي) إلى حيث اقترح علينا الصعود على أغصان شجرة الكافور الضخمة أمام باب بيت الشيخ (علي أبو حسن) فسبقنا الموكب مهرولين كالمعيز الشارددة . وبسرعة ساعد كل منا الآخر للصعود على الشجرة الضخمة التي كانت تمذراً عقوياً عبر الشارع ل Polyester عليه، البنات رفضن الصعود ، لأن رفعهن يقتضي حملهن وهذا عيب ! لكن الواد (عبد السلام عويسة) قال أنهن غالباً لا يرتدبن (إلبسة) ورح تبقى فضيحة لو شافهم حد من أهلهن.. تراحمنا على الفرع واتخذنا من كثافة أوراقه ستاراً يحجينا عن أعين أهل الدار . (حسني) ابن (محمد أفندي) رفض أن يصعد ، حتى لا تمزق بيجامته أو تتوضخ .. أنا لم أتردد فهذا يوم مفترج والبيجامة اتوسخت فعلاً . وأني عرف أني في خضم المعركة . وصلت إلينا أصوات الطبول من وراء بيت (بير كمال) .. وتباطأت كثيراً ، فعرفنا أنهم توقفوا أمام دار (عابدين) ليقوم أولاد عم الخليفة بتوزيع الشربات والعرقسوس تحية له ..

وحين لاحت الجوالة على شارع البحر قال (حسن العربي):  
- شوفتوا وكأنهم بيفرجونا إحنا .. ح يعدوا من تحتنا .  
قال الواد (عبدة جلص):

كانت العمدة الخضراء تصوی تحت ضوء الشمس .. والغترة الشاهي البيضاء تلمع عاكسة ضوء الضحى مباشرة تزغلل العيون . واستعد أهل المطاهرين الموعودين كل على حماره أو حصانه ليبعوه .. ولكن (عبد الرؤوف أفندي) تدخل في اللحظة الأخيرة بمجرد أن أطلقت رصاصه البده بعد تصاعد إيقاع الطبلتين التقرزان فجعلهم يتبعون طابور الجوالة مؤخراً حصان الخليفة لما بعد انتظامهم .. وسرت حمى الاستعداد لكل العربات المنتظرة حول الساحة . واخترت الجوالة بعد التوقف والاستدارة (للخلف در) على طريقة الغفر زحام الواقفين على اليمين والشمال .. وطارت حمامي بيضاء أطلقتها زوجة (علي أبو عابدين) وهاجت غربان الجنينة مع ارتفاع صيحات التكبير وتقدم حصان الخليفة بعد مسيرة المطاهرين وأعطيت الأوامر للعربات أن تنتظر وتحرك واحدة بعد الأخرى كي تتبع موكب الذاكرين من أهل الطريقة والمداحين . وعلت ضجة كبيرة اختلط فيها التراب بالزعير والصراخ بالزغاريد التي هزت السطوح القرية والتي تماوجت وتطاولت عبر الأسطح وفي خلف البيوت وعلى المصاطب مع الشيلان الملونة الزاهية والطرح السوداء التي صنعت مع البيارق والرایات التي ترفرف فوق الموكب مهرجاناً من الألوان ، لم تر (ميت سلسيل) مثله من قبل ..

وعقب تحرك موكب المشايخ والأفندي وأهل (ميت سلسيل) الذين حرصوا على السير في الموكب . بدأت العربات تتوتر وتز مجر مع توتر قادتها كل منهم يريد أن يأخذ مكاناً في المقدمة .. فاختلطت عربات الكارو بمحميرها وخيلها مع الجمال وعجز المنظمون وفشلوا في إجبار أي أحد على الالتزام بالترتيب المتفق عليه ولا على أي ترتيب ما .. وارتقت فوق الهدير والضجة سحابة تراب دخاني كثيف من تراب (أبو خشبة)

وغضب الشيخ (علي أبو دقن) لما حدث ، فقد كان مصرًا على عدم الوقوف لأي من كان ، فنحن هنا في مناسبة دينية شريفة ولستنا منافقين لفلان وعلان..

غطى هدير الذكر وصوت أهل الطريقة على صياحه . وأدار عم (عبد الهايدي) رقبة الحصان ومضى في طريقه . خاصة وقد ضغط من هم خلفه وتزاحموا تحت ضغط الخيول والعربات .. وتصاعد صوت حركة الذاكرين وارتفع هديرهم واستأنفوا التقدم ، والكل يحيي بطريقة أو أخرى الشيخ (علي) ذا الوجه الأحمر الطفولي الذي يجبرك على الإعجاب بعيونه الخضراء وابتسامته الطيبة .. قلت له (حسن العربي) : - يا خير يا (حسن) لو شافك .. تبقى وقعت في إيه بنفسك وجيت له برجليك ..

شخر (حسن العربي) وقال :

- والله كنت عملت له مولد .. وخليلت الخلق تترج عليه بدل ما هو بتترج عليها..

كنت أشير إلى حادثة مشهورة عندما جبس الجناني الولد (حسن) في مخزن التبن عندما ظبطه يسرق لنا الفاكهة .. ولما جاء الشيخ (علي) كان (حسن) قد سلك نفسه ونظر من شباك المخزن للترعة .. وكانت حادثة تحدثت بها البلد كلها ؛ خاصة وأن الشيخ (علي) كان موضوع السرقات يضايقه جداً ، وأعلن أنه سيسلخ اللص بكتابه . وظل يعلن طول الطريق صانعاً أكبر ضجة ممكنة أنه سيجلد الولد الملعون ومن يتشدد له .. ووصل إلى الجنينة متصرراً ليواجه أن اللص قد هرب بكل بساطة وضاعت تهديداته هباء ، وسخر منه العيال والكبار ، وظللت رواية يتداولها ويقلد أبطالها الساخرون في سهراتهم لفترة طويلة .

- والله الواحد بتوزع نفسه يطرطر على الواد (ابن فريحة) اللي عامل فيها أستاذ ولا بس تشريفه !

سكة (حسن العربي) قلم على قفاه كاد يلقيه من على الفرع .. وكاد صوته يلفت إلينا أنظار (الشيخ علي) وأولاده الذين خرجوا ليقفوا على المصطبة أمام بيتهم وحولهم أبناء العيلة مرتدین البدل والقمصان النظيفة .. وكاد قلبي يقف عندما شاهدت أبي يقف معهم وخيل إلى أنه التفت على صرخة الواد (عبده) !

لكن ربنا ستر لأن (صلاح) كتم نفسه ، ولو لا أن تشتبنا بالأغصان لسقطنا كتلة واحدة أمام الموكب وأمام ضيوف الشرف ، الذين كانوا يقفون في عظمة ، بينما خفت الضجة والأصوات ولم يكن هناك إلا إيقاع الطبل وحده يثير في النفوس رهبة ضخمة ، كرهبة الشيخ (علي أبو حسن) والأفنديه ..

مرت الجوالة ولم تتوقف إكراماً للشيخ (علي) كما هو مفروض بل تعمد قائداتها (بكر ضيف) و(نصر القداح) على أن الإصرار على النظام أدعى ، لأن هيبة الموكب أهم كثيراً من المجاملات ؛ خاصة وأنهم احتجوا على ما حدث أمام دار (عابدين) وكاد يفسد النظام .. لكن عمي في عباءته السوداء وعمته الخضراء التي كانت أكبر كثيراً من رأسه الصغير والتي أضفت عليه هيبة لم أشاهده عليها في أي وقت . أوقف حصانه الأبيض بالضبط أمام الشيخ (علي) ليحييه ، وصنع توقفه مسافة كبيرة بينه وبين الجوالة من المتفرجين رجالاً ونساء فارتقت الزغاريد وأطلق بعضهم عدة رصاصات في الهواء ، وحى الشيخ (علي) عمي (عبد الهايدي) . فطفرت الدموع من عيني انفعالاً برهبة الموقف .. ولكنني أخفيت دموعي بسرعة حتى لا يسخر مني الأولاد ..

شلة بنات حاسرات من بنات عزبة الغجر من الأجرية ، يرتدين ملابس العيد الزاهية وهن يطلبن ويرقصن ويصفقن وإحداهن تغنى والباقي يرددن في حماس :

ياعم يا مزين خليك عليه حنين

وأقطع له بالهداؤة مجل يبطل شقاوة

وتحرجن أمام الشیخ (علي أبو حسن) قليلاً ، فارتباك غناوهن وهن يتضااحکن من الكسوف ثم ما لبث أن اشتدا بيقاعهن وعلا صوتنهن ، لأنه لم يغضب ولم ينهرهن بل ابتسם في وقار .. فأخذن يحيينه بالزغاريد .

خلفهن جاءت تلات أحصنة على كل منها رجل أمامة طفل أو أكثر في ملابس بيضاء وطواقي مزروقة بالخرز يبتسمون في بلاهة . ولا يدرؤن ما ينتظرون بعد انفلاط الرفة على يد الحلاق .

وبعد العربة الأخيرة انضم أكثر المترججين إلى الرفة . حذرنا (حسن العربي) أن تحرك حتى يدخل الشیخ (علي) وقلت :

ولما ابوياما يمشي كمان ..

ـ كده ح تفوتنا الرفة .

ـ ما الرفة فاتت يا عبيط .. ما شفناها كلها .

ـ مش لسه ح تلف البلد ..

ـ واحنا مالنا .. ح نروح وراهم بعد ما شفناها من أجدع حته ؟ ..  
ـ ح بخري وراهم؟

ـ اللي عايز يروح يروح ..

ـ أنا راجع على المقام .. اللحمة زمانها استوت .. والصوانى ح  
ـ تيجي ع الصوان يا اهل انت وهوه !.

•••

مرت العربات تحتنا تماماً في انتظام تحيط بها جموع من الرجال والنساء والأطفال الذين استأنفوا زعيقهم وزياطتهم حين وجدوا (الشيخ علي) يضحك في إعجاب وهو يتبع حركات الحرفيين فوقها .. قال ( محمود كحول ) :

ـ شايف أولاد الكلب العربية لا بسين اللي ع الحبل وراكبين على الاحسنـة .

ـ ما قلت لكم أطرطر عليهم من هنا ..

ـ يا عم مش أحصنتهم ، حقهم يركبواها ..

ـ بص . بص ، برضه عربية وح يفضلوا عربية .. شوف الواد (أبو زنون) مبربر على روحه ازاي ..  
(حسن العربي) لم تعجبه رنة الحسد هذه .

ـ ياد يا اهل انت وهوه فيه حد في البلد اتفرج فرجتنا ، إحنا شايفين الرفة من أولها لآخرها .. إيه يعني راكبين الاحسنـة ما طول عمرهم بيركبواها حتى وهي شالية الجلة . احنا هنا ولا الملك .. ولا الشیخ (علي) ذات نفسه .. وكأنها جاية مخصوص تمر من تحتنا .. بص .. بصوا ..

ـ كان (السيد أبو نعمة) و(ابو صبح) كل على جمله يمسك جرناله بالملقوب وهما يتبدلان الأخبار المؤلفة عن ناس من البلد أو من البلاد المجاورة في كاريكاتير شفوي عميانى ساخر .. وكان الناس يشاركونهما القافية والتعليقـات الضاحكة في صخب مرح .

ـ خلفهما كان (العوضي) يستعرض بمؤخرته في حلة كبيرة مصدية رقصة (بياض النحاس) في حركات فاحشة تثير ضاحـكات الشبان وتكشف النساء فيدارين وجوههن ضاحـكات خلف الطرح والشيلان ..  
ـ وتوالت العربات في هدوء حتى ظهرت عربة لم نرها من قبل ، تحمل

و(بكر ضيف) وهمما من الكوادر القوية في الإخوان وكانا على رأس الرافضين للمشاركة مهما كانت الأسباب . فقاما بقيادة الطابور حتى لا تفشل الخطة ..

ولا نعرف بالضبط ما اتفقوا عليه . ولكن ما حدد من وقوف الرفة أمام بيت دار (عابدين) لتلقي التحية ، وتلکؤ الخليفة أمام بيت الشيخ (علي أبو حسن) لم يكن في حسبانهم . وتسبب الوقوف الأخير في إبعادهم إلى الأمام . وتجمع حشد كبير من الأهالي بين الخليفة وبينهم ، فلم تعد الجوالة وكأنها الحرس الخاص أو التشريفية الرسمية أمام الخليفة ، بل صارت مجرد زينة وطلبة كما قال (عبد الرؤوف أفندي) ..

ولا أحد يعرف ما الذي قرره الوفديون . إذ أنهم مقتتون بحجج الخليفة نفسه باعتبار الإخوان من أهل البلد . ومن حقهم المشاركة . كان رأي الوفديين دائمًا أن خبرتهم تقول أن هناك دائمًا أغراضًا خفية وراء كل تصرف للإخوان ، وإنهم يضمرون ما لا يعلنون . ولابد أن هناك مصيبة ستحدث ماداموا غيروا رأيهم فجأة في المولد والمشاركة فيه بعد قتال عنيف لمنعه وصل إلى حد تهديد العمداء ...

بعد ابتعادهم للأمام عن الخليفة ، حدث ارتباك في صفوفهم واحتل انتظامها ، رغم أوامر (بكر ضيف) ولعنات (نصر القداح) وتحذيراته .. اختلت الخطوات المنتظمة بحكم محاولة كل من في الطابور معرفة ما حدث .. وخاصة حين حصل ضرب النار وارتفع صوت الرغاريد والغناء وما صاحب ذلك من حالة انفعال أمام بيت الشيخ (علي أبو حسن) .

غضب (نصر القداح) واعتبر كل ذلك مؤامرة مدبرة ضد هيبة الطابور الذي بذل جهداً كبيراً في تدريبه وتنظيمه . وكان بطبعه هادئاً وقوراً إلا إذا استثير غضبه . وحاول الشيخ (علي أبو دقن) تهدأه دون

## يعلم ما يسرون ..

○ كانت خطة الشيخ (علي أبو دسوقي) بالاشتراك في زفة المولد والتي فاجأ بها الجميع قد درسها الإخوان جيداً . ووافق معظمهم عليها باعتبارها الطريقة الصحيحة للسيطرة على المولد . أو على الأقل التوأجد لمنع المسخرة ومحاصرة أهل البدع ومنع ألعاب القمار وشرب الحشيش ، وغير ذلك مما يشيعه القادمون من بلاد أخرى تحت ستار الولاء للشيخ . وكل ما يجعل من المولد إساءة للدين أو على الأقل الحد منها ..

وكان (الشيخ علي) قد رتب أن تصل الجوالة التي انطلقت بقوة من أمام الجمعة إلى ساحة المولد ومن أصحاب البدع من التوأجد في الساحة بأي طريقة مستغلين ملابسهم شبه العسكرية .

وعلى هذه الأسس ، شارك (نصر القداح)



الزفة ماتزال تقدم للأمام .. واشتد إيقاع الطبول وارتفع صوت التكبيرات  
يهز الأرض ويملا الفراغ .. بينما ظلت شبابيك بيت العمدة مغلقة ولا أثر  
لحياة داخله ..

وصدع الجمهور والأطفال على البراندة . بل ودق بعضهم على  
الأبواب دون جدوى .. حتى ظهر شيخ العفر وأطلق بندقيته في الهواء  
وهو يزعق :

- العمدة مش هنا .. سافر ..

وضحّاك الواقعون . وجلا الناس عن البراندة وهم يسخرون من  
العمدة الذي هرب حتى لا يتكلف كوبًا من العرقوس أو التمر الهندي ..  
وأسرع الشيخ (علي) يأمر الجوالة بالتقدم وهو يكتسم غيظه وتلفت  
حوله ليرى رد فعل ذلك على (عبد الرووف أفندي) وأصحابه .. لكنه  
لم يشاهد لهم أثراً ... إلا (أحمد عبده حسين) الذي كان ضخم الجسم  
طويلاً ييدو وكأنه يعوم على سطح الزفة والذي كان يشير إليه في حزم أن  
يقدم إلى الأمام أو يفسح الطريق للزفة ..

خرجت الزفة من زنقة الترعة مع بيت العمدة . وانفسحت الزراعية  
وجسر السكة الحديد الفرنسي أمام الزفة ، وانتظم سير الجوالة في  
هيبة فوق الزراعية . وتبعد الموكب وأن ظل عديد من الأهالي والأطفال  
يزحفون المسافة بينهم وبين الخليفة والتي لم تضق أبداً .. بل اتسعت  
بحكم توافد آخرين عليها .. وإن كان الموكب قد استقام وانتظم بحكم  
اتساع المساحة والمسافة .. وبذا في أبهى منظر .. ووقف القطار القادم من  
المطيرية والذي بالصدفة وصل مع انتظام الموكب على السكة ..  
وتباطأ السائق معجباً بالمنظر المتبد أمامة، تطير فوقه الرایات الملونة  
والبيارق الشرعية وبيارق الزينة ذات الآيات .. وصدع كثيرون إلى سطح

جدوى ، بل صمم وأصر على الانسحاب معلناً أن اشتراكهم كان خطأ  
منذ البداية .

واستطاع (بكر ضيف) أن يعيد بعض الانتظام للطابور ، بينما اندفع  
الشيخ (علي أبو دسوقي) رئيس الشعبة عائداً ليتحجّج على هذا التسيب  
.. محاولاً كتم غيظه :

- يا (عبد الرووف أفندي) دي مش أصول . هو فرح ، لا يصح أن  
يقف الخليفة لأي كان .

لكن (عبد الرووف أفندي) سخر منه كعادته :  
- خليفة .. شي الله يا خليفة .. يا سيدى ده خليفة على قدنا مش  
عثمانلى .

وأضاف (يوسف عبد ربه) :  
- ما تاخدش ف بالك يا شيخ (علي) .. هو يعني كان الملك (فاروق)  
.. ثم هوَ وقف لمين يا أخي .. مش للشيخ (علي أبو حسن).. يا شيخ علي  
يا ابو... يا شيخ (علي يا دسوقي)؟!

ضحك الناس لتميّحه الذي لم يصرح به عن ذقه . وانسحب  
الشيخ (علي) في غيظ ومضي ليلحق بالجوالة حتى لا ينفرط عقدّهم بعد  
انسحاب (نصر القداح) غاضباً..  
وعاد الموكب ليتنظم كما هو مرسوم عبر شارع البحر وحتى ترعة  
الجوابر .. ثم كادت تحدث أزمة أخرى أمام بيت العمدة .. حيث أوقف  
(الشيخ علي الدسوقي) الجوالة بنفسه هذه المرة في مقدمة الموكب أمام  
بيت العمدة لتحيته .

وارتفعت تكبيرات رجال الجوالة ومن يصاحبهم من رجال الإخوان  
وشبابهم طالبين خروج العمدة إلى شرفة البيت لتحيته .

- الله أكبر والله الحمد ..  
وأحدث وقوفهم ربكة بسبب سدهم الطريق ، بينما كانت مؤخرة

كانت المفاجأة كاملة للشيخ (علي الدسوقي) و(بكر ضيف) عندما اكتشفوا ابعادهم عن الموكب ولم يستطعوا السيطرة عليه ، لضبط عودتهم للحاق به .. ودفع الغضب (الشيخ علي) للاسراع ليغادر المتسبب في ذلك ولكن المدخل كان مزدحماً للدرجة لم تعطه أي فرصة ليتبين شيئاً .. وهدّه الغيظ ، فصعد إلى براندة القهوة التي كان يحرّم الجلوس عليها وجلس على أقرب كرسي .. ورآه من عاد من فول الجوالة فجلسوا حوله على القهوة متبعين صامتين محاولين تهدئة أعصابه وهو ينفخ حتى لا يطق له عرق .. ورآهم (السيد راشد) فرحب بهم سعيداً وهو يصيغ :  
 - خروب ساقع يا وله للشيخ (علي) وإخوانه . دا القهوة النهاردة زارها النبي !

• • •

العربات بينما تزاحم الركاب في الشبابيك وعلى سلام العربات . وسار السائق في بطء يتبع الموكب وكأنه جزء منه وحيث النساء القطار بالزغاريد وحياتهم السائق بالسفارة في إيقاع منغم ..

ما أن وصل الموكب إلى قهوة (أبو راشد) وكانت مازالت مبنياً جديداً له براندة لها أربعة أعمدة صفت في نصف دائرة على الزاوية بين شارع (الشادر) و(الزراعية) كأول مبني على الأرض الزراعية الممتدة بين بيوت القرية الغربية و(ترعة السلطان) حيث المستشفى وبيوت دار (عبد ربه) .. وكان المعروف أن الموكب سيدور مع شاطئ الترعة نحو الشمال ، حتى يمر (مسجد السلطان) والعزبة ليعود إلى ساحة (سيدي مجاهد) .

لكن ما أن عبرت الجوالة القهوة على الزراعية متوجهة إلى المستشفى وبيت (كامل أفندي) غرباً .. حتى ظهروا فجأة ؛ نازلين من براندة القهوة . (عبد الرؤوف أفندي) و(السيد راشد) و(حسن أبو موافي) و(يوسف عبد ربه) .. وانضموا في موكب رهيب مختنقين زحام السائرين خلف الجوالة وقطعوا الطريق على حصان الخليفة . وقادوه شمالاً عبر مزلقان السكة الحديدية نحو شارع (الشادر) وفوجئ الخليفة نفسه بتغيير المسار ولكنه لم يتعرض .. ولم يكتشف قائد الجوالة ولا رجاله الأمر ، إلا بعد أن كانوا قد عبروا (عزبة الغجر) واقتربوا من وابور طحين (البداوية) .

حتى الذين كانوا يتبعونهم أحسوا بخفوت الضجة خلفهم . واكتشفوا دخول الموكب إلى القرية من أمام قهوة (أبو راشد) فعادوا مسرعين صارخين ضاحكين وبعضهم غاضبين عندما تبيّنوا أن الجوالة تسير بكل انتظام وجدية على السكة الزراعية عارية من الخلف إلا من بعض أنصارهم .. وبعض العيال الذين يحملون جريداً وعصياً مندمجين في تقليدهم بنفس الجدية ..

## عَسْ وَتَوْلِي ..

كان يرفض على طول الخط علاقتي مع أصدقاء طفولتي الأولى صبياناً أو بنات، يريديني ألا ألعب إلا مع أبناء (محمد أفندي سالم) والست (أم حسني) وأولاد وبنات (غزاله أم رخا) قريبة أمري ، وزوجة الشيخ محمد أبو مجاهد ومن هم على شاكلتهم من أصحاب (البيجامات) والذين لا يخلون صنادلهم أبداً للعب الكرة والمضرب أو غيرها من ألعابنا العنيفة المترية الطينية التي تغرينا أن نخوض غبار مقابر (أبو خشبة) وعفار جرن (دار أحمد) وطين المنصل والمسارف والترع التي تحيط (حيت سلسيل) من جميع الجهات.

كان يريد أن يحرمني من السباحة والتزول إلى الماء.. لا في البحر الجديد ولا القديم ولا (خرّارة مهدب) ولا (سحارة أبو دهينة) ولا حتى ترعة (غيط السباح) ..

وكان يحرم عليّ أن أشتهي تين جنينة (علي أبو حسن) الشوكى . أو أتحايل مع أصحابي لسرقةه أو سرقة فول حراتي حقول الساحل . أو طماطم غيط (رياض) أو بلح نخيل (الشهابية) الحياني أو حتى نخيل (السباخ) الذي زرعه بيديه . و كنت أستمتع بأكله أحضر وصيص . كيف يمكن أن تكون تلك الحياة قابلة للعيش لو هجرت وخاصمت شلة السباحة في البحر الجديد (الصغير) (برهام ومأمون وصلاح وعبد السلام وزغلول) أو حرمت من التسلل معهم إلى حقول (الساحل والسباخ) لالتهام الفول الحراتي أو قنة وخيار (التخريب) أو كيران الدرة المشوية في دوار الغنم على حطب قطن (أرض الطير) مع (أنعام ووطنية وحلمي وفتنت وسعاد و محمد ابن الصديق) . ماذا سيكون طعم الحياة، دون عصابة (حسن العربي وصلاح أبو العز وعزيزه بنت عباس وأمينة ووطنية وفاروق النملة) ونحن نقطع كعصابة (محمد أبو إبراهيم) الطريق

○ .. (غاب القبط .. ارقص يا فار) محرفة النص المعروفة للممثل الشعبي عن قصد . بهذا كانت أمري تصف العلاقة بيني وبين أبي . إذ بعد حادث سقوط أخي (الأصغر مني) (سامي) من شباك بسطة السلالم بين الدورين الثالث والرابع لبيت خالي في شارع (سيدي عبد القادر) في المنصورة ، قبل انتقاله إلى شارع (المديير) ، لاستحالة العيش في الشقة التي شهدت أول مأساة فادحة في أسرتنا ، أصر أبي على إلا أفارق مدى نظره إلا عند النوم ! فأصبحت أنا في محاولة دائمة للهرب عن ناظريه طوال اليوم . وبيدو لي أن هذا كان السبب الجوهري لإلحاقني بمدرسة (الشيخة الأولية بنات) في آخر (واطئ البلد) حيث يعمل هو - قبل بلوغي سن الازمام - بزمان.



فيه وكدت أغرق .. ووحدي الذي طاردني أصحاب الطماطم ووحدي الذي شتم (عم رياض) شتمة قبيحة !.. و كنت أتلقي (الضرب) و(التأنيب) منكراً كل ذلك مستشهدًا بكل أصحابي الذين كانوا سينكرون طبعًا لو أنهم سلوا .. ولكن في كل الأحوال كنت أقول لنفسي (علقة تفوت ولا حد يموت) وغدًا سيكون يومًا جديداً زاخراً بـ مغامرات جديدة !

كان مستحيلًا أن أتصور ألا يكون أصحابي غير (حسني ابن أم حسني) أو (فاروق) وأخوه (حمام) و(أبو المكارم) ابن الست (بير كمال)، مش ممكن . صحيح هم يرتدون مثل البيجامات النظيفة والصنادل ألم أبزيم معده ، ويقصون شعورهم حتى لا يسكنها القمل . وينامون في أسرة وعلى مراتب بلا براغيت أو بق أو بالقليل منها على الأقل - لكنهم لا ينزلون الترعرع للحموم ولا المسارف لصيد السمك ولا يتسلقون الأشجار خلف الشمار أو فراخ الطير أو بيض اليمام .. كان أقصى ما يفعله معظمهم هو الفرجة علينا أو حراسة ملابسنا ونحن نعوم ونقطس كضفادع مجونة!

لم يئس أبي من محاصري . ولم أعجز عن ابتكار وسائل للإفلات .. كان أحياناً يدور باحثًا عن في عز القيالة عند (المغذي) حيث نستحمل مصارعين الماء الساقط من البوابة أو عند (سحارة أو دهينة) حيث الجميرة الضخمة فوق البئر الغامض الخطير العميق حتى الجانب الآخر من الأرض، بين (ترعة السلطان) و(بحر السباح) .. وحيث المساحة الساكنة ذات الدوامتغير الخطيرة ، التي تصنع ما يشبه حمام سباحة طبيعي ، نظل نقطس ونعوم فيها منتظرین فرصة لاستغفال حارس جنية السراية ، ليتسلل بعضنا من خلال فتحة قناة الري عرايا على بطونهم ، لإمدادنا بما تصل إليه أيديهم من خيرات . وفي كل مرة كنت ألمحه أو يلمحه غيري ..

بين (الخمس والسياخ) كسرب جراد . مخترقين حقول المقاتة والطماطم نطارد الكلاب والغربان ويطاردنا أصحاب الأرضي دفاعًا عن محاصيل حقولهم ...

كيف يمكن ألا نتأمر - (مجاهد) ابن عمتي (فريدة) و(محفوظ) ابن عمي ، و (أشفاق) وكمال خضرة وفتحي وعواطف بنت فرحة وأنا - كي نغزو خزانة ستي (أم العز) وشفط القشطة والرايب بسيقان الفول المجوفة. كيف وماذا يكون طعم الدنيا؟ وما فائدة الحياة لو أنني قاطعت كل هؤلاء وامتنعت عن صحبتهم بحججة أنهم يسرون - بعضهم على الأقل - حفاة وبلا - في معظم الأحيان - ملابس داخلية أو بيجامات بوبلين المحلة ؟! أو بحججة أن معظمهم مع البهائم يعيشون أو ينامون على الأفران ، بنفس ملابسهم . ولم يدخلوا المدرسة ولم يقعوا تحت حد مسطرة (شاكر أفندي).. أو خزانة الأستاذ (علي بو علي) .. سيكون ذلك هو الجحيم نفسه أو النار (جهنم) على الأقل !!

كان صندلي يمتليء بالطين فأغسله ، في أي بير ساقية ، أو أي قناة راكدة ليعود كالفل .. وكانت ملابسي (تطفين) وتنشق وتصطبغ بالتراب والبقع .. فأغسلها في أقرب ترعة وأنشرها كجناح طائر فوق رأسى ونحن نجري حتى تجف أو تخيطها عند (فاطمة أم شطا) أو أرمها عند بنت خالة أمي (غندورة) فتعود سليمة ، ولا من شاف ولا من دري ! وقد لا تعود سليمة أو لا تجف كفاية ، فتوئبني أمي (ماما) وتقرصني وتهددني (غير جادة) بإخبار أبي . ولا تفعل . وأعود بريئا .. لكنه حين يدخل محملاً للبيت بعشرات الشكاوي ضدي أبدو وكأنني وحدي الذي صنع خطاف الشبك لاصطياد التين الشوكى ، ووحدي الذي قفزت المسرف ووقدت

من الأحيان تتسم بوشائج حنان وأواصر محبة عميقة . صحيح أن أبي لم يقل لي أو لأي أحد من إخوتي كلمة (يا حبيبي) أو صرخ لأحدنا بحبه في يوم من الأيام ، أو تحت أي ظرف عاطفي ، بل كان عاقد الحاجبين دائمًا تتصدر جبهته عالمة (١١١) الشهيرة التي أورثها معظمنا . فصارت إحدى سمات وجوهنا . إلا أن الحب الأبوي العميق الذي كان يكتنُه لنا فرداً فرداً ولِي على وجه خاص ، باعتبار علاقتي به أقدم وأبعد امتداداً في التاريخ أنا و(آمال) طبعاً . إذ ظللت هي وأنا نحظى بها لفترة طويلة في الحقبة التاريخية التي شهدت فقدان (صفاء وسامي) المأساويين ، حتى ولد (عادل) والذي سماه (محمد عادل) من أول مرة لتعويض فشله في إلحاد اسم (محمد) باسمي – وكان (عادل) قد ولد عقب إصدار الوفد قانون الإنصاف في (٤٤) الذي ارتفع به مرتب مدرسي الأ LZامي ارتفاعاً ملحوظاً كمكافأة ودية رداً لحملهم بوقوفهم المبدئي مع الوفد في الانتخابات السابقة .. صحيح أن الوفد جاء للحكم بعد تلك المرة على أستة رماح الدبابات والإذار الإنجليزي الذي فرضه الموقف العالمي من النازية ، ورغم أن أبي كان قد التحق غيظاً بـ(الإخوان المسلمين) بسبب ذلك ، ولكن الصفاء عاد مرة أخرى لعلاقات (الإلز) بالوفد الذي يقدر على الدوام دورهم الانتخابي ومنهم أبي . الذي عاد إلى صفوف الوفد تاركاً الإخوان تأكيداً لولاته المستمرة تحية لقانون الإنصاف الذي كان يكتبه مطر منقد بعد جفاف الحرب القاتل ..

كانت بسمة الحنان الممزوج بالفخر تبسط عقدة وجه أبي ، وتملاه بالسماحة عندما لا تخذله عبريرتي في إجابة الأسئلة أو حل الألغاز التي كانت أحياناً مادة تخفف من حدة الجدل الجاد أمام دكان ( محمود شطا )

يتذكر ويتحايل أصدقائي الأحباء لإخفائه فيلفونون حولي أو يدهنونني بالطين لذا لم يلاحظني سوى مرات معدودة ، كان فيها حضوره مفاجئاً تماماً .

وأخيراً قرر أن يلجم لحيل ماكرة لواجهة كارثة نزولي إلى طفليات الماء فلجم إلى التوقيع بإمضائه على لحم فخذلي . غالباً بالقرب من أسفل بطني ، توقيعه الفذ المعقد بالقلم الكوبايا والذي من السهل أن تزيله المياه . أو على الأقل تشهده ، فيكشفني دون الحاجة لمطاردي .. فلا بد أن أعود إليه طائعاً بالدليل القاطع على نزولي إلى ماء البليهارسيا ومخالفتي الأوامر .. لكنني لم أستسلم لذلك الأمر إلا أياماً قليلة بعدها اكتشفت طرقاً بمح بعضها وفشل الآخر في حماية التوقيع من تأثير الماء ، وإفشال دليل الجريمة . أخفيت التوقيع - عدة مرات - تحت رباط سميك من القطن والقماش لكن الماء خذلني ونشع ليشوه التوقيع .. ثم حصلت على شيء يسمونه (بلاستر) يضعونه في المستشفى على الجروح والدمامل المتقيحة أحضره لي (مختار) ابن (عمارة) التومرجي .. وأفلح يومها لمرة واحدة يتيمة ، لكنه لم يصمد في المرة التالية .. ولم يكن هناك بعد ذلك مفر من التدريب القاسي لتقليل توقيع أبي المعقد المكتوب بالرقة في سلاسة حروف متتحوله صعبه ، ..

لكن من أهمية الغاية وقيمة الهدف ، كان طول صبري وإصراري على تحقيق هذه الوسيلة الذهبية لإخفاء جريمتي اليومية المتكررة . والتي لم تعد تحتاج مني غير الحصول على (عقب) قلم (كوبايا) سري وإخفائه عن الأنظار !

لم تكن علاقة أبي بي على هذا الشكل دائمًا . بل كانت في كثير

(١١١) المعقودة أبداً بين حاجبيه حتى وهو يمازحني .. حمله لي ملهوفاً دون انتظار حماره عمتي وجريه بي إلى المستشفى رعباً من أن أكون ضحية مثلها لذلك اليوم الملتهب .. ثم سهره الليالي ليلة بعد أخرى يتابع ما يحدث لي وأنا أقوم مفروعاً أصرخ بسبب كوايس أنصاص الليلي لللّاحق بها تحت الأرض . وقد ظننت مثل أمها التي كانت تعتقد أنهم تسروعوا ودفعوها حية . لأنها لا يمكن أن تموت هكذا ! واحتضانه لي وأنا أفرفر فرعاً لما شاهدته وأحكى عنه في رحلة منامي إلى ما تحت الأرض من شياطين وبغال ذات قرون وثعابين طولها سبعون ذراعاً .. واضطراره للنزول على تنفيذ نصيحة خلت (حضررة أم بيومي) بذبح خروف لأهل الله . وإن رفض بشدة إقامة زار لطرد ما ركبني من عفاريت لأنه كان مقتنعاً أن ما يحدث لي إنما هو رد فعل طبيعي لما أفعله طول النهار وخلال أجزاء طويلة من الليل من (شيطنة) مع هؤلاء الأصحاب القدرين وجري وراءهم في الزرايب ولعبي معهم في مقابر (أبو خشبة) وأنه ما عفريت إلا بني آدم . بل كان يضحك ويقول : قولي إنّ هوّ اللي راكب العفاريت !

لكنه لم يصدقني حين قلت له إن الجرح الذي عدت به إلى البيت ذات يوم كان من سلك شائكة ملقى في طريق الجرن ، وصدق كلام (بهنونة) التي تأكدى أنها لابد وان تكون مستاجرة لمراتبى والابلاغ عنى – فقد أكدت أن كلبة (السباعي) جرت ورائي وعضتني . وهي كلبة مسورة والعياذ بالله .. ورغم تكذيبه لي وتصديقه لكتذبها ، بلغت سعادتي أو جها لأنني رأيت على وجه أبي ذلك التعبير المشفع الذي يقطع القلب واللهمه العميقه والخوف أن تكون الكلبة المسورة قد عضتني فعلاً .. يومها استبعد فكرة أخذى إلى مستشفى الكلب في القاهرة ،

أو في مندرتنا أو في حجرات المدرسين والتي كانت تتخذ صورة صراع الديكة في بلاد أخرى . إذ ينحاز الحاضرون وينقسمون انتصاراً لأحد الأطراف والذين غالباً ما يكونون في مثل سني يختبرون ذكاءنا ويتحزبون لنا . ويصفقون لمن يجيب على تلك الألغاز وتلك الأسئلة :  
 (ما هي الأعداد التي حاصل ضربها يساوي جمعها؟ هل يرد الشاي أسرع لو وضعنا الثلج تحته أو فوقه؟ ما هو الشيء الذي كلما أكل كبر وزاد وإذا شرب انعدم ومات؟ لماذا سمي غيط السباخ بهذا الاسم؟ ما معنى سجنجل؟ لماذا لا يصعد ماء الجوزة في غابتها؟)

لم تكن تلك الجلسات المرحة تحدث بالصدفة .. لكنني كنت أظن أنها مرتبة لأن أبي كان يؤكّد على حضوري و(جهوزيتي) قبلها . وغالباً ما كنت أنصره . ذلك أنني كنت أقرأ مجلة (الهلال) و(المختار) اللتين كان خالي يحرص على شرائهما وعلى إرسال الأعداد القديمة إلينا من (المنصورة) مع أي زائر أو مسافر متاح .. كما كنت أحضر على قراءة مجلة (البلبل) في جلسة واحدة إلى جوار عم (محمد السقا) باائع الصحف الوحيد في البلدة والذي تعمقت صداقتي به منذ سنواتي المبكرة تلك وشبابي (حتى جندته عام ٥٨) رغم فارق السن الكبير.

وكان انتصاري في تلك المباريات مضموناً . وكانت أحب أن أرى انعكاس ذلك على وجه أبي . وأضمن بها سماحته في مواجهة صراعنا الآخر الدائم بسبب أصحابي وعدم رضاه عن ارتباطي الحميم بهم.

لهفته على يوم ساخت روحي عندما سمعت خبر موت حبيبة قلبي وزميلة أخي ابنة (أبو نضارة) التي اختطفها لهيب الشمس الحارقة أكدت لي حبه رغم تكشيرته الحادة الدائمة ورغم علامه الـ

فحن عندما نتبارى في ذكر ما نعرف من بلدان - قرى وعزب ومدن - زارها كل منا.. كانوا يتفوقون على طبعاً . لولا أنني كنت أستعين بكتاب الجغرافيا فأفاجتهم بأسماء لم يسمعوا عنها .. مثل (فرنسا ولندن ونيويورك وأنقرة وألمانيا) مدعياً أنني ذهبت إليها بينما هم لم يتخطوا (الكريدي) و(عزبة بذله) و(أكلة العيش) و(الرحامة) و(ليثة الجمالية)..

ظللت متتبهاً منذ ركبنا القطر إلى (المنصورة) لكل اللافتات التي نمر عليها ابتداء من (الكريدي) و(موقع المكتباتي) حتى (ميتس حديد) و(محله دمتة) و( محلة امشاق) .. أما بعد المنصورة وركوبنا قطار سكة حديد المملكة المصرية فقد حيرني أن كثيراً من القرى لم يكن القطار يقف عليها وليس لها أرصفة أو محطات ولا حتى لافتات . بعضها كان أبي يسميه لي ولكنني ظنته في غالب الأحوال يؤلف لي أسماء من عندياته . لأن بعض الركاب كان يصحح له معلوماته . وبدأت أتشكل فيما دونته وفي جدواه . وبدأ الملل يتسلل إلىي . حتى أني نمت مخدرأً بحركة القطار وصوت عجلاته الرتيب المتنظم الذي لا يتغير .

كانت أمي قد أعدت لنا زيارة فخيمة تليق بمكانة والد يلعب دور الأب لعائلة من اليتامى وكذلك لأنها كانت تحب البناء جيًّا .. (سعاد ودرية ونعمات) وكانت تتمنى أن تجعل (آمال) تقلدهن في تأنقهن وذوقهن في اللبس والأكل والأدب . وحايلت والدي كثيراً لكي نصحب آمال معنا . ولكن دموع اختي ومحاييلات أمي لم تفلح في إقناع أبي بذلك . لأسباب لا أدرية لها خصها هو في شخطاته القاطعة :

واستبدلها بفكرة السفر بي إلى الإسكندرية لزيارة أقاربنا الذين كان أبي بمثابة خال لهم . وهم الثلاث بنات والأخين الذين يعمل أحدهم سائقاً في السكة الحديد الأميركي والذين أقاموا في بيتنا عندما لجأوا للقرية مهاجرين أثناء الحرب . ولم يستطيعوا التأقلم والعيش في بيت عوائلهم الأقرب منا .

وفرحت أنا وبذلك أقوالي ووجدت في اعترافي بعضاً الكلب وسيلة لرؤيه (بحر اسكندرية) الذي طلما حدثتي عنه البنت الصغرى من الأخوات الثلاث (نعمات) التي كانت تكبرني بستين ، والتي كانت صديقتي وشاركتني وأصحابي معظم مغامراتنا طوال مدة بقائهم عندنا لشهور عديدة ، لدرجة ظنت معها أنني أحبها .. خاصة وأن اختي طول الوقت كانت تحشر نفسها بيننا ولا تدع لي فرصة للاختلاء أو الاستئثار بها بعيداً عن تدخلها - اختي (آمال) .. وطبعاً وجدها أبي فرصة لصلة الرحم بزيارة أقاربه اليتامي والابتعاد بي عن صحبة السوء وأصحابي المشاهدة دنيا أخرى .. قد تقعنني بأنني أرقى من هؤلاء (المنحطين) في الطين والجهل .. وأن لي مستقبلاً آخر يعدهني له، يليق بضموراته التي ذاق بعضنا طعمها بسبب كونه الأخ الوحيد بين أخوة كثريين، الذي تعلم ودخل المدارس وليس دونهم طربوشًا وجاكتة وبنطلون .

دفعته أن يهيء لأولاده حياة مختلفة نظيفة و(بندرية) كما كان يطلق عليها علينا (الفلاحين) أقاربنا أنفسهم .

أحضرت دفتراً صغيراً وقلماً كي أسجل أسماء كل البلدان التي سنعبرها في الطريق إلى (الإسكندرية) ، وسر أبي لانشغاله بمثل هذا وراء بداية لنجاح خطته ، وكنت أراها وسيلة للتفوق على أصحابي أنفسهم

- هو احنا رايحين نتفسح؟ إحنا راحين المستشفى .. الولد ح ينسعر .. إن شاء الله لما نشوف ظروفهم يبقى نسافر في الصيف ونكون كمان فصلنا لآمال كام فستان يليقوا بالإسكندرية .

ثم قطع الطريق على الاستمرار في المجادلة بأن قال لأمي :

- ده ثمن التذاكر لوحده الشيء الفلافي .. ابقى امسكي إيدك شوية. وع الصيف الجاي يحلها ألف حلال . وتكوني فصلتي ليكي ولها مايوهات . علشان الشيخ (أبو العيون) يقطع رقابكم على البحر .. وضحك الجميع وانهمكوا في ترتيب القفف والاسبتة التي ستتصون (الزيارة) ..

• • •

## عليكم بأنفسكم ..

○ في المنصورة انتقلنا من محطة سكة حديد وجه بحري إلى محطة المنصورة الأميرية بسهولة .. كان معظم موظفي المحطة والكميسارية يعرفون أبي بحكم أنه زوج أخت (فتح أفندي) .. فلم نضطر لساومة الشياليين . بل تطوع بعضهم لمساعدة قرایب (فتح أفندي) ومحاملته ..

عبرنا إلى المحطة الأميري الكوبري العلوى الشهير الذي يمتد من أمام المحطة الصغيرة صاعداً لأكثر من ٤٢ درجة ومتداً إلى ميدان المحطة الشهير. كان مجرى الكوبري الحديدي الأسود الفخيم رهيباً.. ودرجاته زلقة لامعة من كثرة ما مر عليها من أقدام وأحذية وبُلغ . ولا بد أن تأخذ بالكل حتى لا تنزلق على أي درجة . وكان سطح



مطالب الصبا  
في المتنب

يمكن أن تكون ، وكانت معلوماتي عن طنطا كثيرة . إنها عاصمة الدلتا وملتقى خطوط السكك الحديدية والسكك الزراعية ، وتمر بجوارها (الرياح المنوفى) . وهي أكبر محافظات مصر من حيث المساحة . (لم يكونوا قد اقتطعوا منها محافظة الفوادير بعد) . ثم أن بها (السيد البدوي) المقام والمسجد . وهو شيخ أولياء مصر وزعيم مشايخ الديوان الذي ترأسه (السيدة زينب) .. وكسوة (سيدي مجاهد) بوركت منه ، كما أن عم أبي نصب خليفة لولد (سيدي مجاهد) باستشارته ورضاه . وكان أبي مصمماً على أن ننتهز فرصة مرورنا للقيام بزيارة ولنقرأ الفاتحة ونزور المقام استجابة لوصية أمي . لكن المشاكل المعقدة التي واجهناها في تلك المحطة لم تتح لنا هذه الفرصة . فقد صعب علينا معرفة الرصيف ، وكان القطار قد وقف في طرف المحطة لسبب لا نعرفه . وكان الوصول لرصيف (الإسكندرية) مشكلة وهذه القفف والشيل معنا . وتشاجر أبي وهو يفاصِل الشياليين واتهمهم باللصوصية حتى كادوا يقاطعونه ويتركوننا في حيص بيص . لكن أبي كان قادرًا على التراجع في الوقت المناسب وكذلك تدخل بعض الطيبين أولاد الحال الذين عابوا على الشياليين أن يتركوه لحل مشكلته بنفسه ومعه (صغير) مثلّي وغريب . وأحسست بأهمية تضاف لوجودي معه من حيث لا أحتجس .

عبر القطار محطة (كفر الدوار) فقال أبي :  
 - إسكندرية هي اللي جاية ...  
 قال رجل عجوز له وجه يشبه جدي يوسف :  
 - إسكندرية مريه وترابها زعفران ...  
 فقلت مندهشاً :

الكوبري مزدحماً لا بالعايرين فقط ولكن بسبب الباعة الذين يفترشون أرضه ويشغلون نصف عرضه تقريباً . باعة محافظ جلدية ومعهم آلات ثبت بها الأزرار المعدنية وباعة أمشاط وأووية وعطور وشيلان وتلفيفات ومناديل ولعب وأيضاً ماسحي أحذية وبائع لب وترمس وفول سوداني وسميط وبيش . بدا معهم الكوبري وكأنه المعبر الوحيد ما بين شرق الدنيا وغربها . يعبرهآلاف من العايرين والزائرين والمسافرين من كل الأشكال والألوان .

كان لابد أن نكرر تجربة الانتقال لقطار آخر في (محطة طنطا) . صحيح أننا لن نخرج من المحطة ولن نعبر أي كوبري عالي مثل هذا . بل يا دوب سننتقل من رصيف إلى رصيف . وقد يأتي القطار على نفس الرصيف . هكذا تخيل أبي وبذا كانه يسهل الأمر على :  
 - ربكم يسهلها ان شاء الله ..

تمت أمي هامساً لي وهو يفكِر في المشكلة وكانت هذه أهم نتائج الرحلة بالنسبة لي . فأبي الآن يعاملني كنِدْ . رغم أنه لا ينفك يتباهي وينصح لي ويقبض على يدي في قوة وحرص في أحياناً كثيرة .. لكنه كان يشركني فيما يواجهنا من مشكلات ، في اختيار أماكن الجلوس ، في وضع أوعية الزيارة أو اختيار ما أرغب فيه من أطعمة أو تسالي . مطبيقاً كل محاذير الصحة العامة وضوابط المالية كذلك . ولكن ذلك أعجبني بشكل عام وأضفي على وجودي معه أهمية كبيرة لدرجة كدت أظن أنه لولا وجودي معه لما أفلحنا في الوصول إلى (طنطا) .

ضخمة محطة (طنطا) وهائلة .. مدينة كاملة .. ليست كمثلها ولا

- ياعم حرام عليك دا الحصان بياكل بالشيء الفلافي ، هو انت فاكر  
لما نخرجوا من المحطة معاك ح تشيلوا حد تاني .. ح ناخدوا ثلاثة شلن ..  
آخر كلام ..

كنت أتمنى أن تنتهي المناهدة حول الأجرة .. مشتاقاً لركوب الخطوط  
ورؤية (محرم بك) .. كان لأبي قول مشهور وأمنية كالحلم يكررها كثيراً  
يا سلام لو عمارة في محرم بيه ومت ألف جنيه والعافية والصحة لأنها  
روشتة السعادة الأبدية ، وحلم الراحة الدنيوية .

صدمت عيناي لرأي الكثير من العمارت المهدمة .. كان بعضها  
مهدوماً تماماً. وبعضها كأنما قطعت بسکين جباره من السقف حتى  
الأرض ، يسيل الركام من حجراتها كالدماء المتحجرة . وتساءلت ساعتها  
أيها كانت حلم أبي الذي لم يتحقق . ولفت نظرى وجود أسوار من  
سلك شائك أو من قطع من الخشب والحديد تحيط بكثير من النفايات التي  
تحولت إلى أنقاض وسألت أبي :

- هل يلغونها بالأسوار لحمايتها من السرقة؟ ومن الذي سيسرق  
تلك الأكواخ من الأنقاض !

ضحك أبي ضاحكه مفتعلة ..  
- لا .. حصلت حوادث لبعض من دخلوا هذه الأماكن المهدمة لأن  
هناك قنابل لم تنفجر في وقتها وراح ضحيتها بعض الأطفال والرجال ..  
 كانوا يدوروا فيها على أشياء فانفجرت فيهم ...  
أفشعر بدني فالتصقت بوالدى وحين إحسست بذراعه تطوقنى  
مرحباً دفت وجهى فى ملابسه طالباً للحماية .

- زعتران ؟  
ضحك الجميع . وصححوا لي نطق الكلمة ولم أفهم الفرق ، ولكنني  
أخرجت رأسى من الشباك أواجه الريح رغم تحذيرات والدى لأنّ أفعل .  
كانت هناك رائحة تكاد تكون غريبة .

- دي ريحه البحر .. إحنا على وصول . والبود حيوس صدرك .  
أجريني قطار آت في الاتجاه المعاكس على الجلوس فرعاً .  
- قلت لك ما تبصش من الشباك .

الشمس كانت دافئة والنسمة تشرح القلب .. لابد أنه البحر ..  
البحر ؟

لابد أنه أكبر من (البحر الصغير) .. ولذلك سميـناه البحر الصغير  
وأكبر من (بحر النيل) كما كانت تطلق ستي على النيل عند (المنصورة)  
يقولون أنا لا نستطيع أن نرى ضفته الأخرى . والبعض أكد لي أنه لا ضفة  
أخرى له .

عجبت لأنهم يسمون محطة إسكندرية (محطة مصر) رغم اللافة  
المكتوبة بالعربية والإنجليزية . ولم أسأل لأن برضه مصر هي الكبيرة !

تقاهم أبي بصعوبة مع الحمالين الذين استدعوا عربة حنطور حتى  
سلم المحطة وتركوا أبي يفاصـل العربيـي الذي أصر على أن يتقاـضـى رـيـالـاً  
كامـلاً لـنقلـ كلـ هـذهـ الشـيلـ . نـهرـهـ أبيـ لـمـ غالـاتهـ فـالـمسـافـةـ قـرـيبـةـ جـداـ منـ محـطةـ  
مـصـرـ فـمنـزلـ أـقارـبـناـ فيـ (محـرمـ بكـ)ـ وـلـيـسـ فيـ (أـبـيـ قـيرـ)ـ وـهـدـدهـ بـإـنـزالـ الشـيلـ  
وـطـلـبـ حـنـطـورـ آخرـ ..

- عـاـيـزـينـ تـدـفـعواـ كـامـ؟  
- عـشـرةـ قـرـوشـ لـأـغـيرـ؟

- هو انت ح تيجي اسكندرية وما تزورش البحر. دا انا عارفة انك  
بتموت في الميه .. بس ميّتنا بقى ما فيهاش بلهارسيا .. وقدر تنزل من غير  
إمضا ..

قالتها وهي تضحك في مرح جعلني أكتم غظي ، لأنها عرفت  
ذلك السر الذي لا بد أن يقلل من مكانتي لديها باعتباري تحت رقابة أبي  
المسلطة ..

فاجأتنى قائمة جديدة وغريبة من الأسماء . كانت تدهشنى برئينها  
الساحر وإيقاعها الخواجاتي (كرموز / لمبروزو / بولكلي / زيزينيا /  
سيزوستريس) الذى مازلت حتى الآن أخطئ في نطقه بينما كانت  
(نعمات) تنطقه بنفس سهولة نطقها (للشاطبي والأنفوشي والأزاريطه)  
وأخذت أسرخ من هذه الأسماء التي لم أحتمل كما يبدو سحرها  
وغموضها فمضيت ساخراً أكسر حدة الغرابة وأمطرها بجلافة ظريفة .  
- الأنفوشي ..

- سألوأ عليكم مالقيوكوشى ..  
- المزاريطه ..  
- وقعت عليك حيطة .

مستعيناً بطريقة تتقنها أمي حين تبتكر تعليقاً ساخراً من أي شيء .  
لكن هذا الزخم من الأسماء الجديدة ذات الرنين ، أراح من ذاكرتى أسماء  
القرى التي دونتها في نوته المحطات لدرجة أنني نسيت أين أضعتها ..

وقفت فاغرًا فمي أمام عربة التفاح الأخضر المشرب ببعض الصفرة  
والاحمرار خاصة عندما قالت (نعمات) في ألفة صديقة مخاطبة البائع  
العجوز المميز :

لم نذهب إلى البحر على الفور كما تمنيت . فقد رتب الشقيق الأكبر  
لليتيمات (كمال) الذي يشتغل مساعد قائد قطار وهو منصب له أهمية  
كبيرة في مجاله - موعداً للكشف على باعتبار أن العلاج هو المهمة الأولى  
لهذه السفرية وبعدها البحر وغيره ..

قابلونا بما يليق من حفاوة وهددت (سعاد) العربيجي وأنبهه على  
طمعه وقالت لأبي أن لا يعطيه سوى شلن واحد . ولكن أبي لأمر ما  
 أعطاه ٢ شلن ، أخذهما الرجل وشكراه .

أفردو لنا سريرًا في حجرة الأخرين ، باعتبارها ستكون غرفتنا  
خالصة لنا . فالأخ الأكبر يقضى معظم وقته خارج البيت بحكم عمله  
وسفره الدائم . أما الأخ الأصغر فلم يكن يأتي إلى البيت ، كان عاطلاً لا  
تكلف المشاكل عن محاصره وإفساد علاقته بإخوته ..

أخذتني نعمات في جولة مسائية حول المنزل .. ولنشرتني تقابحاً  
أخضر كنت قد رأيته على عربة عند الناصية . وسألت أبي عنه فلم يهتم .  
كانت الشوارع واسعة ونظيفة ولها أرصفة تظللها أشجار  
(البنسوانا) الملتهبة الأزهار والحضراء أوراقها بريق غير عادي . لأن اليود  
المحمل به نسيم البحر يشفى ويشرح قلب البشر.. لابد أنه أيضاً يشرح  
قلب النبات ويجعل لحضراته هذا البريق الرائع الذي تفتقده كثيراً أشجار  
بلدنا إلا الجديد والوليد منها . وكانت أبحث طوال الوقت عن (الزعفران)  
ولكنني لم أجد أي تراب فالأسفلت يكاد يكون مغسولاً حتى في الأجزاء  
التي بجوار هديم البيوت .

أخذت نعمات تخبرني بأسماء الشوارع والمليادين وتشرح لي  
الاتجاهات . وطلبت منها أن تذهب بي إلى البحر ، ولكنها اعتذررت فليس  
أمامنا وقت لذلك الآن ..

انتصبت قامة أبي وطبّط على كتفي وهو يقودني للداخل ..  
 وسمعته يسأل (سعاد) هامسًا في رجاء:  
 - لازم بكره ناخذه للمستشفى يا (سعاد) .. أنا خايف من هوهوته  
 دي تبقى مصيبة ....  
 ردت (سعاد) تطمئنه:  
 - ما احنا ميعادنا بكرة .. بس ما تقلقش ، قال لك إنه يبهر يا  
 خال .. ياللا .. ياللا .. الأكل جاهز .. وم الصبح ح نروح للدكتور. في  
 المستشفى الإيطالي ..  
 عاد أبي من المستشفى سعيدًا يكاد يطير من الفرحة لنتيجة الكشف  
 . وإن لم ينس أن يؤنبني غاضبًا لأنني لم أتعزف بالحقيقة . لقد أكد له  
 الدكتور الطيب أن هذا جرح عادي وتلوث قليلاً .. ولا علاقة له بأي  
 عضة كلب .. وطهّر الجرح وقال:  
 - منوع ينزل الميه لحد ما الجرح يلم . ياللا يا شقي براءة ..  
 لكن أبي هددني بعقاب شديد لما سببته له وللجميع من رعب وجزع  
 . ولكنني قلت لأبي ببساطة شديدة ..  
 - يا بابا أنا قلت لك لما سألتني ، إنها خربشة سلك شائك اتشنكلت  
 فيه . انت ما صدقتيش وصدقت (بهوننة المجنونة) عشان تعرف انهم  
 بيكتبوا عليك تملي ويتبليوا عليَّ ..  
 - والسلك الشائك إيه اللي ودادك ليه ؟  
 لم أقل له طبعًا لأنني تعودت واصدقائي الذين لا يحبهم أن ندخل  
 من خلال قناة الري جنينة (سراية عبد ربه) ونحن نستحم أمامها في  
 (السحارة).. وأن السلك طال بطّن رجلي لعدم خبرتي ، معقول أقول  
 ؟ ما قلتتش طبعًا .

- نقى الحبة يا عم (أخنوخ) ما احناش زباين على الماشي .. عشان  
 خاطر (سمير) ضيفنا من المنصورة !  
 لم يعجبني أنها نسبتني (للمنصورة) وليس (ليت سلسيل) . واعتبرت  
 هذا تهريباً أن يكون ضيفها من الفلاحين مباشرة.. لكن موسيقى اسم  
 (أخنوخ) جعلتنيأشعر بلذة لا مثيل لها وأنا أقصد التفاحة التي انتقاها  
 (عم أخنوخ) بإمعان وقدمها لي ترحبياً بي .. وهو يبتسم ابتسامة عريضة  
 باتساع فمه الحالي تماماً من أي أسنان .

أثناء عودتنا بعد تلك الجولة السعيدة ، جرت (نعمات) لتسبني إلى  
 البيت وطاردتها مرحاً سعيداً ولحقت بها عند الباب . ثم طاردتها على  
 السلم القصير . ولم أجده ما أزعجها به سوى أن أنجح عليها مقلداً أصوات  
 من أعرفهم من كلاب . فوجئت بأبي يفتح الباب صارخاً وقد ارتسمت  
 على وجهه علامات رعب وجزع لا يحتمل ، متسائلًا وهو يأخذني  
 في أحضانه وكنت أظنه سيضربني فإذا به يتفحصني بحنان وهو يسألني  
 مرعوباً .. منذ متى وأنا أنجح هكذا.. لكنني وقد نسيت أنها هنا بسبب  
 كلب وهمي عضني .. فهمت سرّ رعبه . ولم أفهم إلا عندما سألني :

- أول مرة تهوهو يا سمير .. هه . هوهوت قبل كده !؟

وكم أقول له الصدق ..

(وأقول أنا؟ أنا ياما (هوهوت) . طول عمري (بأهوهو) – لدرجة  
 أدهشت خالي (الخميسى) ونافسته في عزف حفلة ومعركة (هوهوة)  
 تقليداً لبراعته في عزف هوجة (مأمأة) الغنم الأبيض).  
 لكنني في الحقيقة أشفقت عليه وقلت أطمئن جزعه ..  
 - أبداً يا بابا دا انا باهزر معاهما .. كنت باخوّفها بس ..

لربع قرن كامل لكي ينطقتها (ابني أشرف / فيما بعد) .. معبراً عن دهشته حين شاهد موج النيل يلاطم صدر الأتوبيس النهري في أول مواجهة له مع الماء وهو لم ينزل دون سن المدرسة . صاح في تلقائية ومرح ..  
- ياااه .. الدنيا بستتحمى ..

لماذا جمد لسانى وعجزت أن أنطقها أمام البحر .. مع أبي ساعتها كنت أكثر أهلية لذلك منه ، وكانت صاحب خيال يمرح مع الجن والغفاريت والجنيات . ويخوض حرب الليل ضد الخفافيش الطائرة .. والكلاب السرعانة . وكانت أخوض معركة الذهاب يومياً إلى (مدرسة الجمالية) أركب لها الصعب مزنوقاً في أتوبيس (عبد العواد) مع رعب عصا (الأستاذ هاشم) أو ممتطياً ظهر موتور дизيل القادم مع الفجر وسط بائعات الجن والفطير والخضار والسمك .. وكان لسانى طويلاً ، يخوض فيما لا يجب أن يخوض فيه من هم في سني ..... .

لكن الأمر احتاج لربع قرن أو يزيد لكي تنحل عقدة لسانى فينطق بنفس الجملة على لسان ولدي وليس أمام البحر وإنما أمام النيل .. ربع قرن طالت فيه شارات وباء الكولييرا الأولى قريتنا لخطف أكثر من ربعمائة عجوز وامرأة و طفل ورجل من فقرائها من بينهم عائلات بكاملها ، خلت منها بيوتهم وصارت خاوية على عروشها . وكادت تخطف مني أبي نفسه لو لا أنني أحضرت له من جينينة (عبد ربه) نفسها التي عضني سلکها الشائك بضعليمونات أعطاها لي (كامل أفندي) نفسه مع تمنياته لأبي بالشفاء وتأكيده لي أن أبي ليس مريضاً وإنما هو موهوم وكأنه كان يعلم ، لأن أبي قرش الليمونة الأولى فكف عن الشكوى ، وقرش الليمونة الثانية فتبسم وبشرنا برجاته ، وقام مع الليمونة الثالثة ليجبرنا جميعاً على مص فصوصها .. لننجو.

فرحة أبي لأنني لم يعذبني كلب ولم أنسرع فعلاً جعلته يقرر أن نأخذ يومين فسحة لتنفّر على (الإسكندرية) فوافق أن نذهب للبحر . وأكثر من ذلك وافق على أن نذهب للسينما وها أنذا أقرر بعد عقود طويلة أن هذين الحدفين كانوا من أهم ما حدث لي وأثر في تكويني وخلد في نفسي تلك الزيارة القصيرة للإسكندرية ..

البحر والسينما ..  
البحر ..

يا له من كائن ويا له من كيان ..  
كنت أظن - إلى أن وقع نظرى عليه - أنني ملك الحقوق المختصر وسلطان الترع .. ملك (الخمس) و(السباخ) و(أرض الطير) و(الساحل) .. وأنني المسيطر على مياه (البحر الصغير) و(المغذي) و(السحارة) و(الخرارة) و(الهدار) . وحتى (ترعة الجوابر) لا أطيق بعد عنها نهاراً واحداً . وأنني أسرع من يعبرها سباحة أو غطساً .. وأنني المرصود من جنيتها ذات الأصابع شبه البلح الأحمر .. فإذا بي وبمجرد أن عبرنا الكورنيش ووجدتني في مواجهته وجهًا لوجه أصابني الخرس أو أكاد أصاب بالشلل . واتسعت عيناي وفغر فمي في دهشة وبالهبة .. تعجب لها والدي الذي كان يكرس معظم وقته للحد من علاقتي بالماء .

عجزت عن النطق . كانت الجملة تدور في حروف مبعثرة أمام مخيالي ولا أستطيع نطقها.. كلما انتظمت بعترها هجوم الموج المباغت الذي كان يعلو الصخور في إصرار ، وكأنه مصر على الوصول إلينا . ضحكوا أو قفزوا محاولين تجنب رذاته .. أنا لم أفعل .. بل تجمدت عاجزاً عن نطقها ، أو نطق أي غيرها يعبر عما أحسه وأن فعل به .. احتاج الأمر

ربع قرن قلب نظام الحكم فيها الضباط الأحرار . ولمست بيدي قبعة (نجيب) وهو يعبر بوابة الساحة الشعبية وأنا معلق على بابها أنبح في حسي وأنا أدعو بحياته وحياة مصر.. ليتهي المشهد الذي حضرت من قريتنا خصيصاً لأشراكه منقذى الوطن وخالعى الملك عند زيارتهم (للمنصورة) فرحتهم والهتاف لهم لأرى بعد انفصال المولد رهطاً من العسكر يضربون طالباً يوزع (منشورات شيوعية) كما قال لي خالي عندما أعطيته الورقة التي التقطتها من الأوراق التي نثرها علينا . ولأعرف حين قرأتها أنها تلعن وتسب الذين سافرت أكثر من ٥٠ كم لأبراهام ونبحت حسي هتافاً لهم . تnadى بسقوطهم لأنهم جسوا الشرفاء وخطفوا الوطن وذبحوا عماله وتوطأوا مع الإنجليز والأمريكان عليه وعليينا . ولأعرف بعد سنوات طويلة أن ذلك الذي كان يوزع هذا المنشور ويضرب بسيبه هو صديقي (فيما بعد) وزميلي (عبد الله الزغبي) المحامي .

• • •

ربع قرن من الزمان كادت فيها أظافر (عهد الإرهاب) أن تنتزع أبي من بيننا بتهمة انتقامه (لإخوان المسلمين) وهجموا على بيتنا يقتشون عن أي دليل . فلم يجدوا سوى خبر استقالته من تلك الجماعة في صدر صحيفة (الأهرام) وكان دخلها مع آخرين نكابة في الوفد عندما تولى الحكم بتدبير من الإنجليز . فاكتفوا بنفيه إلى (عزبة البرج) ثم (الشيخ ضرغام) في آخر بلاد يصلها (فرع دمياط) ويتركني لأكون رجل البيت كما أوصاني ثقة في وحملّني مسئولية خلافته وإدارة شئون بيتنا الخارجية مبكراً ..

ربع قرن شاهدت فيه عن قرب فلول جيشنا العائد من (النكبة) تستقبلها استقبال المتصرفين ولازين بصورة قادتها (الملح والفلفل) (المواوي والضبع الأسود) أغلفة كراساتي .. ثم أكتشف الحقيقة بعدما قرأت مقالات المصوّر عن الأسلحة الفاسدة وتحقيقات (روزاليوسف) .. وكانت قد أرشفت صور الطائرات وصور البطل (أحمد عبد العزيز) .. وسمعت حكايات عن مغامرتهم في أرض فلسطين وهتفت وغيت وبكيت مع (يا مجاهد في سبيل الله) ..

ربع قرن درت فيه على المدارس الثانوية ما بين (دمياط) و(المنصورة) و(النزلة) و(كشك في زفتى) وصادقت عشرات وتلمندت على يد عشرات . رأيت الدلافين في نيل (دمياط) وخيط جرح في رأسي في (المنصورة) وأنا أستحم في نيلها حين تشارجر أبناء شارعنا في (دابر البندر) مع تلاميذ من شارع (العباسي) قذفي أحددهم بفردة قبقايه المسنونة على أسفلت الشوارع . ويسرع بي زملائي إلى المستشفى القريب . وأجد ألف حجة لأكذب على أمي فمعي شهود عدول..

## قد شغفها حبا ..

أن حمل الإنسان (الأمانة) التي أشفقت منها السماوات والأرض والجبال والبحار والأنهار . ورغم ذلك لم يرحمه الذين أرادونا في قلب واحد .. نهتف عندما يريدون ونخرس عندما يشاوؤن .. ويفقد (الشيخ علي) بصره في السجن . وتشاء الأقدار أن التقيه في (معتقل المزرعة) عندما قُبض علىي في أول مظاهرة بعد (النكسة) رفضاً للحزب الواحد .

٢٥ عاماً من السجون والمعتقلات والأحلام والانتصارات والحكام الظالمة، والاعتقالات والسجن الانفرادي . وكم لذلك من شهداء .

٢٥ عاماً زخرت بأسماء ومعاني أخرى لنفس الكلمات .. تأميم القناة والبنوك . وشنق عمال وذبح ملوك . وعدوان وصمود وهزيمة وبالقاء للسلاح وحل للتنظيمات .

٢٥ عاماً يولد في نهايتها ابني وسط هدير مدافع (أبو جاموس) وحريق الزيتية الشهير . ثم محاكمات هزلية تنتهي بأحكام فكاهية لينتفض المضروبون بالخداعة والأعمال الكاذبة يطالبون الزعيم الذي خرجوا من قبل يرفضون استقالته .. يطالبونه بالخروج من قفص أواعنه إلى رحابة صدر الجماهير .. الذي اكتشفت أنه هو البحر .. البحر الأكثر روعة ورهبة وعظمة . وأيضاً عجزت أن أنطق أمامه . وسالت دموعي وقد عجزت أن أقول ما قاله ولدي بعد ٢٥ عاماً .. كانت ضرورية لحل عقدة لساني على لسانه بعد ربع قرن .

ومثلما خطف البحر روحي إلى مداه الشاسع الهدار المتلاطم سحرني السينما كجني تسلل ليتباس جسدي الهزيل الذي لم تكن تهدا له حركة ، والذي كانت تسرقه خطفاً مياه البحر الصغير وترع (الخمس) و(السباخ) العكرة لتغرقه حتى في أيام التحرير .  
ابتلتني (الإسكندرية) إذن بأمنيتي لم أشف منهما أبداً .. هما ضعفي

○ ربع قرن تتلمذت فيه على يد الشيخ (علي سعود) الذي أدبني بأدب الإسلام ولقّنني الحديث والقرآن وأدخل في يقيني أن العقل هو ميزة الإنسان ، وأن الذي أرسل رحمة للعالمين لا يمكن أن يكون أتباعه نعمة على خلق الله .. وأن جوهر الدين واحد منذ بدء الخليقة إلى الآن ، وأن لكل مقام وكل مقال مقام ، وأن الله جميل يحب كل جمال .. وأن عليَّ أن أحكم عقلي في الأفعال والأقوال .. وأن هناك فرق بين المدنى والمكى ، وأن التاريخ صار منذ الخلافة الأولى تاريخ المسلمين لا تاريخ الإسلام . وعلمني أنه لا إيمان مع الخوف ولا إسلام مع الإجبار ، لأن الله عَلِمَ الإنسان وخَيَّرَه أن يختار . من شاء أن يؤمن ومن شاء أن يكفر .. بعد



مِنَ الْمُسَا  
فِي الْمُخْبِرِ

أعترف أن الطفل الريفي الساذج الذي خرج من السينما يومها لم يعد هو نفسه الذي دخلها متعرّضاً الخطى فوق السجاد الأحمر عابراً المدخل والممر الغامض المؤطر بالصور الملونة والأنوار الحية التي لا تكفي عن الحركة ذهاباً وإياباً .. إلى الفراغ الضخم الذي تؤدي إليه الأبواب المتحركة حيث يمشي كثيرون من رجال ونساء ملئونون يحدثون ضجيجاً صامتاً .. ويتحرّكون كالظلال ولا يكفون عن الفرح تحت إضاءة خافتة لا مصدر لها إلى أن تنفرج ستائر فاخرة ثرية عن ستائر بيضاء هفّاءة لتنفتح مع الموسيقى الصاخبة نافذة لا أفق لها على حياة أروع كثيراً من الحياة .. وبشر ليسوا كالبشر لحركتهم سحر خاص ولكلامهم وقع عميق ليس كالكلام ، تحمله أجنحة الموسيقى الغامضة إلى الوجود ..

أي فرح كان يعيش فينا القارب الذي تتقاذفه الأمواج تحت وابل القنابل ، يركبها رجالان على طرف نقيض . أحدهما نحيف كالعصا والآخر سمين كالغيل .. وترتجف قلوبنا إذ ينقلب القارب ويواجهان للنجاة تحت سماء غاضبة وبحر عاصف .. ليخرج السمين من جوفه أسماكاً حية تضحكنا من القلب . رغم قنابل الطائرات اليابانية التي كانت تطارد القارب . ونحن نكاد نموت من الضحك على تصرفات وهلع (الربيع والتخين) وقاربهما التائه في البحر ، الذي لم يعد يشبه البحر . لكن تلك الطائرات وهديرها المخيف عمقت انتباها - بعد أن خرجنَا من السينما إلى تلك البنيات الكثيرة المهدومة ، بسبب طائرات تشبهها كانت قبل عام تقصف هذه المدينة وتهدم بيوتها فوق رأس أهلها والذين دُفن بعضهم تحتها وعاش آخرون كثيرون يقتلهم الخوف والرعب دون أن يثير ذلك أي فهمٍ أو ابتسامة .

قالت العمة (سعاد) ضاحكة :

أمام خضم البحر الماح الذي لا شطوط له . والذي أسلمني له عشق جسدي لمياه النيل العذبة التي حولتني لكاين برمائي يسبح في جداوله وعروقه ، متحدياً سرّاً كاري البليهارسيا وتوقيع والدي المعقد بالقلم الكوبيا على لحم فخذلي ! وشغفي المرضي ببوابات ومداخل السينما في كل المدن القادمة التي زرتها في مصر أو في العالم .. والتي لم تستطع أي منها - على تنوع أشكالها وأحجامها وحركة الأنوار اللاحقة على جدرانها الملونة ، المتعددة السرعات والمختلفة الإيقاع وزجاجها الملؤن عاكس الأضواء الثرية وحتى تلك القروية ذات الإمكانيات الفقيرة - أن تنسيني تلك الرجفة المتطلعة المبهورة التي غمرتني بها بوابة سينما (الهمبرا) لأول مرة لتدشن ولعي بالعالم الساحرة الأسطورية التي يخطفني إليها سحر الظلام حين عبر بزخها إلى ما وراء تلك البوابات من مدى لا تحدّه مسافات ، غني بالأضواء والأنوار ، بالسماءات ذات الأقمار ، والغابات ذات الأشجار والجبال المكسوة بالخضرة والمتفجرة بالنار والمدن التي تخطف الأ بصار ، والقرى الغارقة في غبش الأسحاق ؟ تجتاحها الجيوش والفرسان وقطعان الوحش ويسعى في حقولها الفلاحون وتضيء ليهـا قصص الغرام .. أصبحت كل تلك البوابات منذ بوابة سينما (الهمبرا) هي بوابات الجنة بالنسبة إلى منـذ أخذـتني (نور الهدى) فوق عربة حبيـها لنـركـب دونـ أنـ يـراـها أوـ يـرـانـي .. وأـغـرـتـني (أسـمهـانـ) بـشرـبـ القـهـوةـ وـشـراءـ الـورـدـ . وأـغـوـانـيـ (بـشـارةـ وـاكـيمـ) بـفاـكـهـةـ الـكـلـامـ المنـغـمـ المـوـقـعـ المرـحـ .. وـدـفـعـيـ لـلـاحـتمـاءـ بـأـبـيـ الـذـيـ كـانـ يـجـلـسـ بـجـانـبـيـ رـعـبـاـ مـنـ اـحـتـشـادـ الـأـفـقـ أـمـامـيـ بـخـيـولـ فـرسـانـ الـحـرـسـ الـمـلـكـيـ فـيـ تـشـرـيفـةـ الـأـسـرـةـ الـعـلـوـيـةـ وـهـمـ يـنـشـدـونـ مـلـوكـهـاـ مـنـذـ (محمدـ عـلـيـ) عـلـىـ أـنـغـامـ الـموـسـيـقـاـرـ العـاشـقـ الـقـاتـلـ (يوـسـفـ وـهـيـ)ـ فـيـ (غـرـامـ)ـ وـأـنـتـقامـ)ـ .

الفسيخ في احتفالية عائلية ذات نهار فاجع . وفي مرة تالية ضاع نهارنا ونحن نبحث عن أربع عجلات متماثلة للعربة التي صنعها بنفسه لنقل بطارية الراديو لكي تشحن في وابور الطحين يومياً . واقتضى ذلك أن نقضي الوقت في البحث والفحص الدقيق في أكوم الخردة والمساومات مع تجار المهمالات والأدوات القديمة ما بين مخازن (دائر البندر) وأسواق (الشيخ حسنين) (والعباسي) (والحسينين) لدرجة لم يتع الوقت لي سوى التمني المستحيل أن يطفيء أبي أشواقي بعيور بوابة (عدن الذهية) التي كانت واجهتها تزدان بصور ملونة لفارس على حصانه تلاعب الريح ثيابه العربية يشهر سيفه لينقذ معشوقته الجميلة التي تحيط بها النيران وفي الناحية الأخرى صفت من النساء الملائكيات الجميلات يرفعن سيقانهن العارية في تناسق وإيقاع منغم واحد مذهل . بينما تقودهن للماء حورية من بنات الجن تكشف عن ساقيها - هي قائدة (السابقات الفاتنات) كادت تدفعني صورهن للبكاء وأن أطلب من أبي - ونحن في طريق عودتنا بعد انتهاء اليوم الشاق - أن نبيت الليلة عند خالي لندخل السينما فبشت بثر أحزانه وكان متعباً وهو الذي لم يكن من يومها يذهب لبيت خالي هذا حتى لا تفتق قلبه ذكريات مقتل ابنه فنهرني بحدة وهو يكظم حزنه متحجاً بطبع اليوم الشاق .

في الوقت الذي ظلت فيه تلك العربة العجيبة والتي تبدو وكأنها تتنمي لعلم الحكايات . يحرها رجل عجوز يتقدمه ويتبعه آخران أحدهما يدق الطبل والآخر ينفع بوقاً نحاسياً يزفون في مرح ذلك الهرم الخشبي ذي الوجهين الملونين يحمل كل وجه صوراً ملونة تعلن عن مشاهد لأبطال الأفلام التي أبكاني أبني لن أراها ..

كانت تلك العربة - والضجة التي تصاحبها - تبدو لي كأنها تطاردني

- طبعاً .. اضطررنا للهجرة عندكم خوفاً ، فلم تكن الحرب أيامها فيلم يا أبو سمرة .. واهي كانت فرصة عظيمة نشوفكم وتشوفونا ونوصل جبل الوداد مش كده يا خال ؟

غمغم والدي موافقاً . وأظنه كان أكثر مني يعيش حالة وجданية سينمائية فهو الذي اختار الأفلام والسينما ليشاهد (يوسف بك) وليس مع (أسمهان) .. وعرفت ساعتها أن أبي ليس على هذه الدرجة من الجحامة.. وببدأت أكتشف فيهأشياء أكثر رقة .. هي بالتأكيد التي دفعته فور عودتنا إلى شراء الراديو الذي ميز بيتنا وأعطاه لمسة مميزة عن بقية البيوت .

اكتشفت أن الظلال المتحركة التي كان يجسدتها خيالي على الجدران أشباحاً وأشخاصاً وجنيات وعفاريت في أمسيات وليلات الحوش في بيت جدي أثناء مواسم الحصاد ، تخلقت لي من وهمها عوالم موازية للواقع من الظل والنور هي التي هذبت وجداً فأوقعوني أسيير سحر السينما الغامض تلك الليلة في الإسكندرية حين غزرت مشاعري وروحني فيها الأضواء والألوان والموسيقى والأصوات التي تتجسد فيها وبها تلك الشخصيات النوارنية التي لا تشبه أحداً من عالم قريتنا التي لم تعرف بدعة السينما بعد . حتى عاصمة المركز (النزلة) لم تكن عرفتها ولذا ارتبطت في نفسي غوايتها المبهرة بالمدينة الكبيرة فحسدت أهلها . وهالني الفارق الرهيب بين متعها الملونة وليلات القرية الرمادية الكالحة .

كانت رحلاتنا النادرة التي اصطحبني فيها أبي إلى المنصورة بعد رحلة الإسكندرية ، قصيرة وخطافية فأبي كان يكرهها . وكان يصحبني ليخفف من وطأة أحزانه سبب مأساة مقتل أخي (سامي) يوم سقوطه وموته الدامي على أسفلت الشارع من شرفة منزل خالي ونحن نأكل

حلمي. معايشة (السابحات الفاتنات) المضيئات على واجهة جنة (عدن).  
طللت الفكرة تطاردي وتملأ على تفكيري .. فأخذت أتحرى عن  
مواعيد القطارات الذاهبة إلى (المنصورة) وتلك التي تغادرها إلينا ..  
وأجمع القروش قرشاً فوق قرش كبخيل أراري وأحرم نفسي حتى من  
الضروريات ولم تكن كثيرة .. خاصة وقد استطعت أن أقلل من (مشااغلي)  
المحلية مثل رغبات السباحة ومخامرات السطو على جنية (على أبو حسن)  
. حتى تجمعت لدى كل الأدوات والمعلومات التي تجعل الرحلة لمشاهدة  
(السابحات الفاتنات) ميسورة وقليلة المخاطر . رسمت خطتي أن أسافر  
في أول قطار متوجه إلى (المنصورة) والذي يستغرق حسب تحياتي ثلاثة  
ساعات ونصف تقريباً .. فأصل إلى المنصورة في العاشرة والنصف . فإذا  
استغرقت المسافة بين المحطة وبين السينما نصف ساعة أخرى واستغرقت  
حفلة السينما ساعتين ونصف فسأجده أمامي وقتاً مريحاً كافياً للعودة  
في آخر قطار يغادر (المنصورة) . صحيح أنه قطار بضائع ويستغرق وقتاً  
طويلاً إلى قريتنا بحكم بطئه الشديد وكثرة المناورات التي يقضيها في  
معظم المحطات لقطار أو لترك عرباته المحملة بين القرى المختلفة ..

ولكن كل هذا مقدور عليه (فأنا ابن اخت فتوح أفندي) وهذا  
سيسمح لي علامة على توفير تكاليف التذاكر ذهاباً وعودة سوف يعطيني  
فرصة لركوب قطار البضاعة .. أما تأثيري في الوصول فليس مهم ..  
فكثيراً ما كانت مغامراتي المحلية تستحوذ علي وتنسيني مواعيد العودة  
المناسبة للحاق. موعد تناول العشاء العائلي المقدس ..  
وضعت الخطة .. واخترت موعد السفر . وحاوت أن أحسن من  
علاقاتي بالعائلة وأكون مثالاً للطيبة والسماحة وتأدية كل ما يطلب مني  
من طلبات وتأدية كل ما تأمرني به أمي وأبي وأختي من مهام لدرجة

أنا بالذات لتربيت حسرتي ، فتلوح في لحظة عابرة في آخر الشارع الذي  
نمسي فيه لتفاحئني وتقطع علينا الطريق ونحن في شارع (دابر البندر) . ثم  
تعود لتلحق بنا في (السكة الجديدة) ثم تواجهنا ونحن على وشك صعود  
السلم إلى محطة قطار العودة وفي كل مرة أعاود الإلحاح على أبي أن يرقق  
ويوافق على الاستجابة لإنغرائها الغامض فنيت الليلة لتدخل السينما بلا  
فائدة .

كان أبي مصرًا على العودة متوجهاً كل هذه الإغراءات للفرجة على  
تلك الأفلام ودخول جنة (عدن) !

وعدنا .. ولكن قلبي ظل يجوب شوارع المنصورة خلف تلك  
العربة الملونة بطبولها وبوقها وكأنني البهلوان ذي الطرطور الأحمر أبو  
الشراسيب والبدلة المرقعة بعشرات الألوان الذي يتقاتف حولها يرقص  
ويغني مرسلاً خياله إلى إغفاءاتي مقتحاماً . غيامة الدمع الذي ظل يترافق  
حسرة في عيوني بسبب الظهر الذي يلاحظني لأنني لم استطع أن أندوفق  
وأستعيد مرة أخرى تلك الحالة التي أدهشتني وزلزلت كياني في سينما  
(الهامبر) ..

وظل أبي يراضيني معتقداً عن رفضه تحقيق حلمي كلما مررنا بمن  
بيع شيئاً من مغريات الصبيان .. لكن حزني كان شديداً لم تخفف منه  
أكواب العصير (السيفون) التي بهرتني الآلة التي تشحن الليمون بالغاز  
فتعطيه طعمًا ومذاقاً حضرياً .. ولم يحول كوز البطاطا ولا قرفطا  
الترمس والفول المعصر تكشیرتي إلى ابتسامة رضا .. حتى العشرة قروش  
الورقية الجديدة لم تفلح في ذلك إلا حين أوحى ملمسها لي بفكرة أنتي  
أستطيع عن طريقها مع بعض التفكير والحرص أن أدبر بهدوء لغامرة  
محفوفة بالمخاطر أستطيع القيام بها دون تسلط من أحد .. لكي أحقق

تذاكر . أن يشتري (لوكاندة) كاملة في حي (الحسينية) ولذا خشى أن ألاحظ ذلك فتفلت مني خطأ أو وشایة كلمة غير مقصودة أمام خالي عمما لاحظه وأراه .

في محطة المنصورة أسرعت بالنزول من القطار والذوبان وسط جموع الركاب حتى لا يلحظني (صللي) أفندي ويسلمني خالي وإن خمنت أنه لم يهتم بذلك . مثل السوق الذي انشغل عنِّي بمناورات الوصول . أسرعت في اتجاه باب الخروج قبل أن يتتبه أحدهم لي فيقوم بتسليمي ! حين وصلت البوابة اكتشفت أن الخروج سيكون مستحيلاً دون لفت الأنظار وكان علي أن أبرز تذكرة الركوب ليسمح لي بالخروج موظف أبيه ذو كرش يليق بيasha يرتدي زيًّا رسمياً أحضر اللون تزيينه أزرار نحاسياً وشرابيط ملونة على الذراعين تضفي عليه هيبة بعثت الخوف في أو صالي . فعدت أبحث عن (صللي) أفندي الإنقاذي وإخراجي من هذه الورطة .. ولما لم أرهأخذت أردد بيني وبين نفسي (أنا ابن أخت فتوح أفندي) أهمس بها ثم أتمت محاولاً تدريب نفسي على نطقها دون شبهة كذب أو استرخام . ولما اقتربت من الرجل المهيـب الذي كان وجهه المستدير المربـب الخلائق يدل على مكانة سامية توحـي مع بـدنـته المـكـوـية وكـأنـه رئيس مجلس الإـدارـة نفسه . وشعرت كـمـ سيكون مـحرـجاً جـداً خـالـيـاً أـنـ يـعـرـفـ مثلـهـ أـنـ أـلـادـ أـخـتهـ وأـقـارـبـهـ يـرـكـبونـ القـطـارـ (ـسـفـلـقـةـ) وـسـيـغـضـبـ خـالـيـاـ لـهـذـاـ الإـحـرـاجـ جـداًـ .. وـهـوـ الرـجـلـ الدـوـغـرـيـ !

تقدمت مضطرباً من الرجل الفخم حارس البوابة أحـاـولـ أنـ أـبـدـوـ عـدـيمـ الخـوـفـ .. وـنـطـقـتـ الجـمـلةـ التـارـيـخـيةـ منـ طـرـفـ أـنـفـيـ،ـ عـنـدـمـاـ مـدـ يـدـهـ طـالـبـاـ التـذـكـرـةـ .. وـلـاـ أـدـرـيـ هـلـ سـمـعـنـيـ أـمـ لـاـ .. لـأـنـهـ دـوـنـ كـلـمـةـ أـوـ رـدـ،ـ مـدـ ذـرـاعـهـ وـأـطـبـقـ بـكـفـهـ عـلـىـ يـاـ قـيـيـ ثـمـ أـطـاحـ بـيـ خـلـفـ ظـهـرـهـ السـمـينـ.

أثارت دهشة الجميع ودفعتهم لتتخمين سبب هذه الروح الملائكية ، ولم يخطر لهم ببال أنها نسائم عطرة من جنة سينما عدن .. وبركة السابحات الفاتنات ..

في صباح اليوم الموعود استيقظت مبكراً .. أو قل أنت لم أنم تقريراً ليتها من شدة التوتر والانفعال ..

تسـلـلتـ مـعـ دـغـمـيـشـةـ الصـبـاحـ مـنـ الـبـيـتـ إـلـىـ الـمـحـطـةـ ..ـ فـيـ الـوقـتـ

الـمـنـاسـبـ وـحـاـولـتـ أـلـاـ يـلـاحـظـنـيـ أـحـدـ وـعـنـدـمـاـ وـقـفـ القـطـارـ أـسـرـعـتـ

وـحـشـرـتـ نـفـسـيـ بـيـنـ زـحـامـ رـكـابـ الصـبـاحـ الـبـدـرـيـ الـذـينـ وـجـدـتـهـمـ يـخـتـلـفـونـ

عـنـ الـمـتـجـهـيـنـ فـيـ نـفـسـ الـوـقـتـ إـلـىـ الـاتـجـاهـ الـمـعـاـكـسـ وـالـذـيـ تـعـودـتـ أـنـ أـسـلـكـهـ

خـالـلـ سـنـوـاتـ درـاسـتـيـ فـيـ مـدـرـسـةـ الـجـمـالـيـ طـوـالـ عـامـيـ ماـ بـعـدـ الـحـرـبـ ..

لـمـ يـجـادـلـنـيـ الـكـمـسـارـيـ طـوـيـلاًـ ..ـ بـلـ وـرـحـبـ بـيـ عـنـدـمـاـ عـرـفـ أـنـيـ

(ـابـنـ أـخـتـ فـتوـحـ أـفـنـدـيـ)ـ وـأـنـيـ ذـاهـبـ لـزـيـارـتـهـ فـيـ شـارـعـ (ـسـيـدـيـ عـبـدـ الـقـادـرـ)ـ (ـبـالـمـنـصـورـةـ)ـ لـشـأنـ عـائـلـيـ ..

- اـنـتـ (ـسـمـيرـ اـبـنـ عـبـدـ الـبـاقـيـ أـفـنـدـيـ)ـ .ـ وـمـسـافـرـ وـحدـكـ لـيـهـ يـاـ سـمـيرـ؟ـ

أـنـتـ مـعـاكـ زـيـارـةـ؟ـ ..

- لا .. أنا مش واخد زيارة .. دانا ح اوصل له رسالة !

في المحطة التالية ، جاء وأشار إلى أن أتبعه فنزلت وراءه .. فإذا به يأخذني إلى عربة السائق .. ويطلب منه أن يرعاني حتى يسلمني خالي يداً بيـدـ ! ..

وـرـغمـ اـبـسـامـتـهـ الطـيـةـ وـمـبـادـرـتـهـ الـمجـاـمـلـةـ ..ـ إـلـاـ أـنـيـ فـسـرـتـهـ بـرـغـبـتـهـ

فـيـ عـزـلـيـ عـنـ مـيـدـانـ نـشـاطـهـ ..ـ حـيـثـ كـانـ الـمـعـرـوـفـ عـنـهـ لـدـيـ الـجـمـيـعـ أـنـهـ

استـطـاعـ مـنـ خـالـلـ اـخـتـلاـسـ نـسـبـةـ كـبـيـرـةـ كـبـيـرـةـ مـنـ الـإـيـرـادـ الـذـيـ يـحـصـلـهـ دـوـنـ

وأتبعها بضمكته المميزة المجللة التي أحبها في الظروف العادبة  
فهرب الخوف مني واستعدت روحي خاصة وقد عقد الرجل الفخيم  
ذراعيه على صدره وأضاءت ابتسامة اعتذاره وجهه الذي بدا كسيد  
قشطة طيب ونبيل يقول :

– هوه قال لي .. وقلت لازم أوصله بنفسي لحضرتك !  
أسرعت أنا ملهوّاً خجلاً إلى حضن خالي .. لكنه أمسكني من كتفي  
وقد اختفت ابتسامته وقد فهم الأمر .

– أوعى تكون ركب القطر لوحدك !?  
بلغت ريقه وقلت أطمئنه :  
– لا أنا كنت مع (صللي أفندي) .. بس تاه عنني وكنت هنا أسأل  
عليه .

عادت إليه ابتسامته الحانية وربت على كتفي وقال :  
– طيب يا للا .. عشان تسبني على البيت .. يا (خضري) !!  
إنشقت الأرض عن رجل طويل بصورة ملفته وتسبق رأسه جسده  
الlaheth وكأنها تجره خلفها . لتعطي ما يكفي من حرية لحركة ذراعيه  
الطويتين فتقطعان بلا رابط ولا محاولة لحفظ توازنه فوق ساقيه الفارعين  
المربيكين :  
– نعم يا افندم !.

– تاخد (سمير افندي) وتوصله إلى البيت . تسلمه للست هانم يدًا  
بيد وترجع لي قوام . وتقوم لهم يحضروا الغدا على ما آجي .. يا للا يا  
(سمير افندي) !

أعجبتني (سمير افندي) هذه وإن لم تستطع إخفاء حسرتي لأن  
الأمور تمضي على نحو لا أريده .. وجود هذا الحارس الفارع سيفسد

ووجدت نفسي محشورًا بين الحائط المدهون بالزيت وظهره العريض ذى  
التضاريس التي خنقتنى .. وألمحتني المفاجأة وشلني الرعب .. ولم ينطق  
هو بكلمة ولم يلتفت نحوى لدرجة ظنت أنه لم يسمعنى فقط بل ولم  
يرنى أصلًا ..

ظللت مشلول التفكير لفترة وحين استعدت نفسي والتقطت أنفاسي  
بدأت أفكر في طريقة للهرب من الأسر والتسلل بحثاً عن أي مخرج عبر  
سور المحطة .. ثم شلني تفكيري – كيف سيستقبل خالي هذه الكارثة  
حين يصله أن ابن أخيه ظبط متسللاً من (ميت سلسيل) حتى (المنصورة)  
بلا تذكرة .. مستخدماً إسمه ؟!

فجأة سمعت من بعيد خالي ينطق إسمي في دهشة واستغراب بصوته  
العميق الآخر الذي يجبر من يسمعه في الأحوال العادبة على التزام حدود  
الأدب :

– سمير ؟!  
لم أتبين حقيقة لهجته في البداية لأنني ظنت أن ذلك أحد هلاويسى  
.. لكنه كان صوته وكان هو بشحمه ولحمه متتصباً أمامي وأنا محشور لا  
أستطيع الحركة خلف ذلك الفخم الذي تراخي أمام حضور خالي الطاغي  
فأفرسح مجالاً لحركتي مواجهًا خالي :

– إيه اللي جابك هنا؟ .. وواقف كده ليه؟  
لم أجد فرصة للإجابة لأن لسانى انعقد وتجمد في حلقي عندما رأيت  
ظهور الرجل الفخيم يلين ويلتفت إليه ويرفع ذراعه التي سجنتنى بما يشبه  
التحية العسكرية ويقول فيما يشبه الاعتذار :

– أنت تعرفه حضرتك يا سعادة البيه؟  
– ده ابن أخيتي ..!

الغاز في أكواب العصير . و كنت قد دفعت له الشمن مقدماً .. و خرجت بسرعة قبل أن يتبهه (حضربي) لغابي و انطلقت في (السكة الجديدة) بعيداً حتى وصلت إلى شارع يؤدي إلى (السكة القديمة) ومنها إلى شارع البحر قاصداً سينما (عدن) ..

حين وصلت إلى السينما صدمت .. فلم تكن هناك حفلة في الساعة العاشرة .. ولم تكن السينما تعمل سوى حفلتين في السادسة والنصف وفي التاسعة مساءً ولا تشتعل حفلات نهارية سوى يوم الجمعة فقط ! .. وحزنت لدرجة كادت تخنقني دموع الغيظ .. ولم يكن أمامي سوى أن أذهب للبحث عن (حضربي) وأدعه يسلمني إلى بيت خالي .. أو أن أعود مكسور الخاطر إلى القرية ، دون أن أشاهد (السابحات الفاتنات) .

مضيت أتسكع أمام السينما أتأمل الصور الملونة المعروضة في الفيترینات الزجاجية .. وارتحت قليلاً عندما علمت أن (الفيلم) سيعرض قريباً وليس الآن . وطيب هذا خاطري قليلاً وأخذت أدور حول السينما حزيناً .. وقررت العودة لأصل قبل انكشاف غيابي لأهلي فقد يخفف هذا من تكريبي ، لما سيسببه سفري دون إذن من قلق وفوضى .

تجنبت طريق (السكة الجديدة) حتى لا يقابلني (حضربي) ومضيت أقطع (السكة القديمة) في اتجاه المحطة .. في (ميت حدر) وجدت نفسي أمام سينما آخرى قرأته اسمها (سينما ركس) وكان مدخلها يعج بعدد من الصبيان في مثل سني يتطلعون بشغف لما على الحوائط خلف الرجاج من صور .. أكثرها لأفلام أجنبية ولأبطال يركضون فوق الخيول ويطلقون الرصاص .. ويقبلون نساء في غاية الجمال .. وكان الصبية حولي يحدثون ضجيجاً عالياً ويقلدون أصوات الرصاص بأفواهمه ويتبادلون الكلمات الوهémie .. واندمجت في الفرحة عليهم ثم خفت أن أتأخر فهممت

خطتي التي لم تعمل حساب مقابلي خالي من أصله . لكنه لم يترك لي فرصة بعد أن أصدر أوامره (لحضربي) وتركتي له ومضى ليطلق أوامر أخرى بينما أصابع حارسي الطويلة تقبض بشدة على ذراعي لظهور مدى تقانيها في تنفيذ الأوامر ..

خرج بي (حضربي) من المحطة وقد تحطم أحلامي في سرعة الانطلاق إلى سينما (عدن) ورؤيه الأفلام والعودة كما رتبت وخططت .. وودعنا الرجل الفخيم بابتسمة طفولية رائقة كأنه يسخر مني لافساده خطتي دون أن يدرى .. فقد أصر على تحبيتي بضربي تعظيم سلام وهو يقول راضياً عن نفسه :

— مع السلامة ..

لم أفلت .. ولم أرد عليه ، فقد كان كل همي ساعتها أن أفلت من قبضة (حضربي) الفولاذية .. لأحاول إنقاذه ما يمكن من خطتي لرؤيه الأفلام والعودة بسرعة . لأنني لو وصلت إلى بيت خالي .. فلن أستطيع أن أفعل شيئاً وسيكون موقفني في غاية السوء .. خاصة لو عرف خالي حقيقة السبب وراء مغامرتي التي يهددها الفشل الذريع .

بعد أن عبرنا الكوبري ، مضينا في طريقنا وأنا لا أكف عن التفكير في طريقة للإفلات من قبضة (حضربي) وجدت نفسي أمام محل العصير الذي سقاني فيه أبي عصير الليمون المعالج بآل الغاز . فطلبت من (حضربي) أن نشرب العصير لكنه اعتذر بأنه لا يحمل نقوداً الآن .. فأخبرته أنني سوف أضيفه فتمتنع ثم قبل بعد إلحاح وخفت قبضة أصابعه . دفعته أمامي لداخل المحل وعمدت أن أغريه بالجلوس في عمق المحل .. بينما طلبت أنا من الرجل الذي يعمل على آلة الغاز (السيفون) كوبين من العصير وحملتهما إلى حيث يجلس (حضربي) ووضعتهما أمامه ، واستأذنت منه لأدفع الحساب .. وعدت إلى مقدمة المحل حيث الرجل المنهمك في ضخ

بالإنصراف أسفًا .. لكنني لمحت عربة يد بجوار مدخل السينما عليها كوم من الصور الملونة لممثلين وممثلات مصربيات وأجنبيات ولما سألت الرجل الذي يجلس على طرف العربة قال أن الصورة بقرش ولما ترددت قال :  
— بتعريةة الصغيرة والكبيرة بصاغ !

قاومت تردي وقنعت نفسي أن هذ قد يكون تعويضاً كافياً لعودتي دون رؤية الفيلم .. أخذت أحصى الصور وأقارنها وأختار منها الأجمل . وكم كانت فرحتي حين وجدت واحدة لطابور (السابقات الفاتنات) .. ودفعت ثمن المجموعة ومضيت إلى المحطة سعيداً رغم تأكدي أن الرجل غالٍ في الثمن ، ولكنني لم أكن أملك وقتاً للمساومة كما قنعت نفسي أن صرامته لن تسمح بأى تفاوض مما جعلني أمضى .. نصف مجبور الخاطر .. نصف قلق لما سيفعله خالي عندما يعود (حضربي) إليه ويعنه فقد الابن الثاني (العبد الباقى) في الزحام !

سللت إلى شباك التذاكر وقطعت تذكرة (ميت سلسيل) وعبرت البوابة عندما تأكّدت أن الرجل الفخيم ليس هو الحارس عليها . توجهت إلى القطار المغادر بعد قليل واحتفيت في جوفه حريصاً على لا يراني أحد . أرافق فضاء المحطة في قلق .

و قبل أن يتحرك القطار توجهت إلى أحد العمال الذي يشير للقطار بالرُّحيل وقلت له :

— أنا ابن أخت (فتوح أفندي) .. لو سمحت لما تقابله قول له إن (سمير) ركب القطر ورجع (ميت سلسيل) .  
متصوراً أن هذا قد يخفف قليلاً من الاضطراب الذي قد يكون سببه ضياعي في الزحام .

• • •

## عقدة من لساني . . .

○ كنت في الثامنة تلميذاً في الصف الثاني الابتدائي .. في مدرسة (الجمالية دقهلية) التي تبعد إلى الشرق من قريتنا مسافة ٥ كيلو مترات تقريباً ..  
كنا نركب للذهاب إلى المدرسة واحدة من اثنين .. قطار سكة حديد وجه بحرى (الفرنساوي) ، الذي عادة ما يكون قاطرة تسحب عربة أو عربتين ، مفتوحتين من كل جانب للهواء الطلق . إن أمكن إغلاق بعض شبابيكها في الشتاء تكون نعمة وفضل .. أو يكون قاطرة طويلة ، هي القاطرة والعربة في نفس الوقت ، حيث يجلس السائق في (كابينة) ضيقة جداً في المقدمة ، بينما المotor الضخم يملأ فراغ الجزء الأكبر من العربة .  
تناثر حوله عدة دكك خشبية أو حديدية . في



أو المركز . ولم يحدث أبداً طوال مدة دراستي – في مدرسة (الجمالية) الابتدائية في الفترة الممتدة من قبيل – هبة الطلبة والعمال ضد (النقراشي وصدقى) والانكليز إلى ما بعد نكبة ٤٨ ، إن سمعت زمارته تلك ولم ألحق به إلا في مرات قليلة .. قد أحكي أسبابها إذا سمحت الظروف . فكل من يسمع صوته .. يمكنه أن يلحق به .. هذا هو قانونه العرفي الذي التزم به الجميع . والذي يرب الكل عليه حياتهم سواء كانوا تلاميد أو باعة .. أو مدرسين ..

حين كنت لا أفعل ، كنت انتظر عربة عم (عبد العاد) التي كانت تصل إلى قريتنا بعد السابعة بقليل ، وفي ذلك كانت مخاطرة كبيرة ، تعرضني وأمثالى لخطر تلقي وجبة إفطار ، من مسطرة أو خزانة الأستاذ (هاشم) مدرس الألعاب الرياضية .

ولأن الأسطى (عبد العاد) رجل طيب ومؤدب وبجامل ، يعرفه كل ركاب الخط .. لم يكن يهمه الإسراع بقدر ما يهمه انتظار كل مسافر براحتة .. ومنهم الأستاذ (هاشم) نفسه .. الذي كان غالباً ما يلمحه الأسطى (عبد العاد) من بعيد مخترقاً حقول قريتهم (ميت مرجا سلسيل) ، التي تفصل بيوها عن السكة مسافة ما يقرب من نصف كيلو متر من الحقول ، فيضطر لانتظاره حتى يصل إلى الزراعية ، عبر الجسور الرملقة بفعل الندى أو المطر . وهو صاحب الجسم السمين الثقيل الخطو والحركة .. وبعد ذلك ينتظره الجميع إلى أن تتم بنجاح عملية صعود (الأستاذ) ، واحتراقه كتلة الركاب التي يشكل الفراغ بجوار السائق بروزاً شديداً الكثافة منها .. لهذا كانت عملية حشر الأستاذ (هاشم) تأخذ وقتاً حتى تستوعبه الكتلة متعددة الرؤوس ومتتص الصناعة ذات الرأس الواحد ..

الشتاء يكون ركوبها نعمة في الحقيقة ، إذ أن المotor رغم صوته المزعج وأبخرة المحاز والزيت المتتصاعدة منه يصبح ملائماً من البرد . خاصة وأن موعد تلك العربة (المكيفة) كان الصباح الباكر جداً .. قبل شروع الشمس بكثير ..

يتكدس الركاب في فراغ (الديزل العربية) حول المotor وفوقه .. وكان ركوبها في الشتاء كما قلت ، نعمة حيث الزحام تلامح الحديث صراخ ، والضجيج يخترق سكون الريف الهدئ المدعمش ، ليعلن أن هناك ما سيقلق راحته إلى الأبد ، مبدلاً الروائح والأصوات والمناظر والعلاقات داهماً كل شيء منذرًا بعصر الصراخ وبخار الزيت والنفط والزحام ..

كان اللحاق بالقطار على أي صورة ينجينا مما نتعرض له في المدرسة ، إذا ما فاتنا الموعد واضطررنا لركوب الوسيلة الثانية ، وهي أوتوبيس شركة الشرق (فؤاد درويش) .. مع سائقه الأشهر الأسطى (عبد العاد) الذي كان في حالات رونقانه ، يتربكنا نزمر بدلاً منه ، مطلقين ذلك الصوت الفريد العميق العريض الغامض .. إذا ما أسعد الحظ أحدهنا ووجد مكاناً إلى جواره ..

في السادسة والثلث عادة .. كان дизيل ذو المotor الهدار يأتي مهترئاً ذات اليمين وذات الشمال على القضيبين الرفيعين المجاورين كأنه فقي في حلقة ذكر ، يكاد يصل إلى لحظة الاندماج .. مخترقاً دغميشة الصبح غير مكترث بالضباب أو البرد أو حتى الظلام ..

نسرع عبر الحواري الضيقة الملتوية مع أول صرخة يطلقها عند مغادرته قرية (الكريدي) .. تلاميد وتجار سمك وتجارات خضار وبائعوا أقشمة وحصر وعمال وموظفو وزارعون لهم مشاكل في المحكمة

يحرجه ويحرمه أن يقوم ولو لمرة واحدة - بإطلاق الزمارة العجيبة ذات الصوت الغامض الساحر الممطوط . مثلما نفعل نحن .

في تلك السنة قررت المدرسة الاحتفال بموالد (حضرة النبي) احتفالاً كبيراً .. تشتراك فيه القرية كلها .. وخاصة أن الاحتفالات ومواكب المولد كانت مؤجلة طويلاً بسبب الحرب ..

استعدت المدرسة بتجهيز فرق القسم المخصص والكشافة .. وانهمكت مجموعات في حفظ أناشيد وأغاني دينية ومصرية .. كما اختير عدد من الأولاد لحفظ والتدريب على تمثيلية دينية ، ألقها مدرس اللغة العربية (الأستاذ المعامل) .. والحقيقة أن الاستعداد لهذا الاحتفال الكبير جعلنا نكتشف الأستاذ (هاشم) من جديد .. فقد كان شعلة نشاط . كان الدينامو المحرك لتداريبات فرق الكشافة والقسم المخصص ، باعتباره مدرس الألعاب . ولكنه أيضاً كان يلحن الأناشيد وأيضاً هو الذي يقوم بتدريب فريق التمثيل الذي كنت أحد أفراده ..

كانت (كتلة) الأستاذ (هاشم) (نظر) كرة خفيفة من المطاط العجيب بين الطوايير والمجموعات .. في رشاشة وخفة .. يتدرج هنا وهناك .. يلقي تعليماته بصوت إوزة سمينة تعرف أنها سوف تذبح في المساء .. كان قد اختبرنا في التمثيل وفي الحفظ .. ووقع اختياره على لأقوم بدور (الأمين) .. ولعب صديقي (المرسي) دور (أبو جهل) .. و(عزيز) دور (أبو لهب) .. بينما قام (عبد الحميد) بدور (عبد المطلب) .. وكمال بدور (أبو طالب) .. وآخرون بأدوار (عمر) و(أبو بكر) والآخرين ..

والحقيقة أن قلوبنا ، نحن تلاميذ مدرسة الجمالية الابتدائية ، الذين لم يسمعوا زمارة дизيل مثلي - ولم يلحقوا به .. كانت تسقط في أرجلنا . ونظل نتمنى وندعوا الله أن تبوء محاولات إدماج كتلة الأستاذ (هاشم) في الكتلة الأم بالفشل . لكن طيبة (عم عبده) التي تفوق سماحة لنا أن نزمر بزمارته .. كانت تدعوه للوقوف حتى تتم عملية الإدماج بسلام .. ومن ثم يقطع الكيلو مترين الباقيين سعيداً . يتبادل النكات مع الأستاذ (هاشم) الذي يكون حضوره قد شكل ثقلأً آخر لنا .. وما أن تقف العربة .. وتببدأ كتلة الأستاذ (هاشم) مناورات الانفصال عن الكتلة الأم ، حتى يدفع بنا تخلخلها ويقذف بنا خلفه إلى الأرض ..

يا ويله من يحاول منا الإسراع كي يسبقه إلى المدرسة .. فالأستاذ (هاشم) يكون خلال وقوفه بجوار السائق قد أحصاناً وعرفنا واحداً واحداً .. وما أن يصل موكبنا - وهو يتقدمنا - إلى باب المدرسة .. وما أن يفتح الباب ويدخل .. حتى يتناول العصا من يد البواب أو يأمره بإحضار أي شيء يصلح للمهمة .. تعودنا لحظتها أن نرقص أنفسها في طابور ونتقدم فاردين كفوفنا مقلوبة ، معرضين ظهرها لتلتقي ما يسمح به كرم وعطاف الأستاذ (هاشم) جراء تأخرنا عن اللحاق بالديزل .. ومساهمتنا في حشره في زحام الأوتوبيس ..

هذا ما كنت أعتقده أنا .. الأستاذ (هاشم) لم يصرح بذلك ، وإنما كان يجد سبباً أو آخر لعقاب كل منا .. هذا لم ينطف حذاءه .. ذلك لم يحضر منديلاً .. والآخر لم يقص أظافره .. وأنا لم أقصّ شعرني .. ولكنني مع ذلك كنت مصرًا على اعتقادي - أنه إنما يعاقبنا لا على التأخير عن موعد الطابور وببداية الحصة الأولى ولا أي سبب مما يذكر .. وإنما لزماحتنا له على سلم الأسطري (عبده) ولأن وجودنا بجوار السائق كان

وأولياء الأمور .. وحيث كانت خشبة مسرح قد أقيمت بين حجرة الناظر وحجرة الأشغال وهي شرفة مربعة يطلّلها سقف من الخشب ، علقت على مقدمتها ستارة متحركة .. صنعتها الأستاذ (العشبي) مدرس الرسم ، بطريقة فنية . بحيث تفتح وتغلق كأي ستارة مسرح ، بواسطة جبل واحد يتولاه أحد التلاميذ .

وكانت غرفة الناظر المحرّم دخولها أو الاقتراب منها لغير ضرورة مؤكدة ، قد أصبحت غرفة للملابس وللمكياج .. شغلناها نحن الذين تدربنا على التمثيل لتجفيف الملابس ، ووضع ما يلزم من دفون وشوارب ، وكان ذلك (أملة) كبيرة . ارتدينا ملابسنا .. ارتديت أنا جلباباً أبيض ، (يشرب العصفور من عليه لشدة بياضه) ، صنعته وغسلته وكوته أمي ، وقرأت عليه (عدية ياسين) مرات كثيرة عندما عرفت أنني سأقوم بدور (الأمين) . وعندما جربته على بخرتني ورقني بالسبعينيات المباركات من أعين الحساد وهي تطلب لي الهدایة طول العمر .. وأن يملاً قلبي حب (الأمين) الذي اختارني لألعب دوره ..

تقدّمت فرقة الغناء (جماعة الأناشيد) وقدمت عدة أناشيد وتلتها جماعة الخطابة . حيث تبارى التلاميذ في شرح حكمة المولد وحكمة الاحتفال به .. ثم أعلن عن مسرحيتنا التي أعدّها مدرس اللغة العربية وأخرجها مدرس الرسم .. وقام بتدريبنا عليها الأستاذ (هاشم) الذي قوبّل اسمه بتصفيق حار يستحقه ..

وما أن بدأ التمثيل .. وارتفع صوت أهل مكة الكفار يتصارعون ويختلفون حول وضع الحجر الأسود ، حتى شعرت بريفي قد جف وقلبي يتوقف .. وإن كنت أسمع نبضه يدوي في أذني .. وأنا أنصت للكلمات التي أصبحت تملأ الساحة ، تضخمها مكبرات الصوت ، وتضاعفها الدماء التي اندرعت حارة لطبلة أذني .. وما أن نطق (المرسي) يجملة ..

كانت القرية بقيادة المدرسة ، والمدرسة بقيادة الأستاذ (هاشم) ، تقفان على قدم وساق لعدة أيام سبقت الاحتفال .. نُظفت الشوارع وتم كنسها ورشها .. انتظم الباعة في أماكن بعينها .. بعيداً عن المسار المحدد للموكب وعلقت الزينات .. فوق واجهات الدكاكين وفي الشرفات .. أعلام ملونة حمراء وصفراء وسوداء .. علاوة على علم مصر الأخضر الحبيب ذي الهلال والنجمة الثلاثة ..

ابتداً الموكب من المساحة الخالية أمام المدرسة ، يتقدّمه مدير المديرية وأمّور المركز والحكمدار وعمدة (الجمالية) . وطبعاً ناظر المدرسة ورجال مجلس المديرية وأعيان البلدة والقرى المجاورة .. وخلفهم كان طابور الحفراة والعسّكر وأمامهم طابور الكشافة والقسم المخصص في خطوة منتظمة على هدير دقات الطبول .. وصفارة الأستاذ (هاشم) الذي كان يتحرّك في رشاقة وخففة كعصفور .

وخلف الموكب الرسمي سارت عربات الكارو تحمل كل واحدة رجال حرف من الحرف ، حدادين ونجارين وخياطين وحلاقين ونقاشين وترزية ومبّيضي نحاس . وقصاصين وسروجية وصناع حصر وأفواص .. صيادي وصناع مراكب .. وكل منهم يمارس فعلًا من أفعال حرفه . وعلى الجانبيين تجمع أهل القرية والقرى المجاورة . وانطلقت الزغاريد من الشبابيك والشرفات ومن فوق أسطح المنازل ، حيث لاعبت الريح شيئاً وطرح وجلاليب الفتيات والنساء الملونة .. واختلطت صيحات الفرح بالزغاريد .. بتلهيل المنشدين ورنات صاجات أصحاب الطريقة مع المزاهير والدفوف ..

مر الموكب في كل الشوارع الرئيسية بالقرية ، ليعود مرة أخرى إلى حوش المدرسة حيث جهزت مقاعد لعدد كبير من الضيوف وأهل القرية

- ها هو (الأمين) !!

حتى وجدتني مدفوعاً بلا إرادة إلى خشبة المسرح . لم أعد أبصر شيئاً .. سال عرقني على عيوني .. وساد صمت خيل إلى أنه دام إلى الأبد، لدرجة لم أتبين ما قيل لي بالضبط .. ولكنني سمعت صوتي يخرج هادئاً في موعده رزيناً عميقاً .. خيل إلى أن أمي تسمعه على بعد ما بين قريتنا (الجمالية) ، بل خيل إلى أنني سمعتها تبكي وتدعوني فصرخت :

- إيتوني بثوب !

ولابد ساعتها اندفع الكفار ، بعد أن نظر بعضهم لبعض مذهبين ، تنفيذاً لتعليمات الحركة التي رسمها الأستاذ (العشى) .. وأسرع بعضهم فأحضروا قطعة قماش كبيرة من قماش (المحلة).. خيل إلى أن بعضهم اقترب به مني .. إذ وجدتني آخذه منهم وأفرشه على الأرض . وسط دهشتهم المفعولة وصدمتهم الضروري ، الذي أجبر المئات من المشاهدين في الحوش وعلى الأسطح المطلة على المدرسة .. على الصمت الرهيب انتظاراً لما سيفعله (الأمين) .

لم أخيب رجاءهم . وتقدمت في وقار وشموخ .. حملت (الحجر الأسود) الذي صنعه الأستاذ (العشى) من الورق المطبوخ .. سمعت شهقة جماعية من كل الحاضرين .. فقد بدت الصخرة المقدسة خفيفة يحملها (الأمين) بكفيه الرقيتين كمعجزة وخطوت بها وأنا أدعى ثقلها .. ثم انحنىت لأضعها وسط الثوب المفروم .. وأخذت أنظر مستملحاً الصمت السائد في عيون الكفار وكأني أقول لهم .. (لو كنتم تفهون!) وقلت : - ليأخذ كل منكم بطرف !

استرد المترجون شهقتهم المندھشة .. وصاحوا مهليين إعجاباً ..  
وهم يرون كفار قريش وكبارها يتقدمون طائعين . يحملون الثوب وفوقه الحجر الأسود ، حتى ذلك الجدار الذي لم يكتمل بناؤه في الخلفية .. ولما وصلوا إليه وقفوا حائرين ، ينظرون لي متسائلين .. تقدمت منهم مرة أخرى .. حملت الحجر ووضعته في بساطة متناهية في مكانه .. وقلت بصوت جهوري حازم :  
- الآن لا خلاف .. أكملوا البناء ..

لا أستطيع أن أقر بالضبط أو أصف ما حدث بعدها.. فقد كنت شبه غائب عن الوعي .. ولكن أكف الناس لم تكف عن التصفيق طبعاً . لبساطة الفكرة العبرية التي حسم بها (الأمين) الخلاف بين رجال قريش .. الذين سوف يقاتلونه ويعذبون أنصاره فيما بعد .. فاضت الزغاريد وغطت على الأناشيد التي ختمت بها المسرحية .. وجدت مدرس الرسم يحتضنني سعيداً ، وهو يقبل جبتي . وسمعت أمي بل ورأيتها من خلال غيامة الدموع التي ملأت عيني ، تربت فوق ظهري وتهون على ما أصابني من رعشة ، انتابت جسدي من شدة الانفعال .. ولمحت الأستاذ (هاشم) يخرج منديله ، ويمسح به العرق الذي تفجر من جبيني !

بعدها لم يضربني الأستاذ (هاشم) على باب المدرسة أبداً ، مهما فاتني موعد дизيل ، واضطررت أن أزاحمه في أوتوبيس (عبد العواد) .. بل ولم يضرب أي تلميذ آخر بعدها لأي سبب !!

• • •

أن تزوده بطرق طهي المسبك حتى يرّ نفسه ولا يكون (لحمة ومحروم)  
مثل من يحكى عنهم من التلاميذ ..

المرة الأولى التي كان للعودة من الغرب طعم مختلف حزين ومر  
كالعلقم .. كان قبل (النكبة) بسنوات أثناء الحرب .. وأبي يقودنا مكلوماً  
لأن أخي الذي رُزق به بعدي ، مات بطريقه فاجعة لا يمكن تبريرها ولا  
تخطر على البال دون أن ترك جراحاً غائرة لا تندرمل ، إلا بالاستسلام  
لإرادة الله . إذ لم يكن عسيراً علينا من الفاجعة بعض الخدر والخرص  
المفترض توفره عند أي منا أو عند الآخرين .. كان (سامي) مريضاً وذهيناً أبي  
وأمي وأختي وأنا لبست خالي في (المنصورة) لعرض المريض على طبيب  
مختص ..

كانت ظروف الحرب تفرض على السفر قيوداً صعبة ، جعلت  
الرحلة حلماً غامض الملامح .. ركبنا عربة مغلقة ، جلسنا فوق أرضها  
على كليم أو حصيرة ، حتى وصلنا (المنصورة) وهذا لم يكن متاحاً أو  
سهلاً إلا لأن خالي أصبح له شأن في الشركة بعد ترقيته من ناظر محطة  
(المطرية) إلى (مفتش مفاجئ) ..

يخيل إلى أنها كانت عربة (سبنسة) أو على ما يبدو كانت (عربة  
ماشية) جديدة . كنا نحن أول من ركبها ، ذكر أنه حين فتح بابها الضخم  
'، عندما توقف القطار كانت له قعقة ، جعلت أخي تصرخ فزعًا و كنت  
نائماً فانتفضت .. فاجتنبي الأضواء الزرقاء الباهتة كالنجوم متباشرة معلقة  
تملاً صفحة السماء .. تضفي على الليل سحرًا غامضًا ، لم تكن نحو ما كما  
خيال إلى . حتى تبين لي أنها نوافذ بيوت عالية تتحقق صامتة.. ومصابيح  
أعمدة باهتة.. وكشافات عربات ركوب وفوانيس عربات خطوط ،  
تختلط وتتمازج مبهمة تهوم في ذاكرتي ، حتى الآن مثلما تلوح بها  
الانعكاسات الغامضة المتحركة لأضواء الشارع في النهار وفي الليل من  
خلال شيش النوافذ القديمة العالية . صانعة لوحات حية متحركة غامضة ..  
تبهت وتهمس .. تقتحم رموش عيني نصف الناعسة ، في توازٍ وتوالٍ ،

## قبلة ترضاها . . .

○ (ليت سلسل) طعم خاص في كل مرة  
أعود إليها .. ومن أي جهة أدخلها .. راكباً أو ماشيَا  
..

كنت أعود من الغرب دائمًا في قطار سكة  
حديد وجه بحري على مدى سنوات طفولتي  
وصبای .. أحياناً كثيرة قادماً من (دمياط) في  
الحادية عشرة من عمرى - على مدد متفاوتة ،  
لأقضى الخميس والجمعة أو الأجازة لمدة أسبوع  
'، ملهوفاً في الشتاء لدفء الأسرة ، ولطعم محسني  
الكرنب بالكوارع فوق السطح المشمس .. أو  
لصواني (الصيادية) والأرز الأحمر التي طلما وفقت  
(أم سمير) مواعيدها مع مواعيد وصول ابن  
البكري (الغريب في مدن الأغراض) . وهي تحاول



وجهها الغارق في شعرها المهوش المكشوف ، مخترقه جمعنا المنوار ،  
فاندفعتا وراءها هابطين السلم نحو باب البيت ..

هناك .. كان (سامي) مطروحاً على الأرض الأسفلية القاسية أمام  
عتبة الباب الصخرية، جثة هامدة كحيوان أليف صغير لا حياة فيه ..  
ولا حركة سوى مسيل خيط الدم الأحمر الذي غمر لونه الغض تلك  
الصورة القاسية ، مختلطًا بكل الظلال السوداء ، والأضواء الزرقاء الباهتة  
التي حاصرتني بها (المصورة) ليلة وصولنا مؤطرة بصرخات لوعة أمي  
وآهات الحزن الفاجع المكتومة في نهنهات أبي المرأة . وبكاء خالي الصريح  
كطفل أوسعته أمه ضرباً للذنب لم يرتكبه فكسرت نفسه بقصوة ..

بنفس القطار عدنا في عربة مكشوفة هذه المرة .. كان الدخان  
التقيل الرطب يغمرنا طوال الوقت برائحة غريبة لبخار ماء حامض  
وخشب طري محترق .. بعد خروجنا من (كفر علام). بمسافة طويلة ..  
رأيت أبي يصرخ وهو ينط قافزاً العربات المكشوفة وسط عاصفة الدخان  
محاولاً الوصول إلى القاطرة ليوقف القطار . في نفس الوقت لمحت الحقيقة  
الجلدية الكبيرة التي وسدوا فيها خفية جثة أخي ، ليدفن في القرية تجنباً  
للوقوع في تعقيبات قانونية ، ومسألة لا يدرى أحد كيف تنتهي ، طائرة  
مع الريح والدخان والغبار ثم تندحرج على الطريق الزراعي المجاور  
لشريط القطر ل تستقر مجدهة في حقل قمح .

توقف القطار ، بعد أن تنبه السائق للإشارات الغربية المحذرة للناس  
السائلين .. والعاملين في الحقول محاولين لفت نظره لمحاولات ذلك  
الرجل المكلوم الوصول إليه فأوقف القطار. وقفز أبي ليحضر الحقيقة  
الهاربة . قبل أن يغري الفضول أحداً فيفضح سرها الخزين .

على سقف وجدران الغرفة نصف المظلمة في ذلك البيت العتيق ، المكون  
من أربعة أدوار في شارع (سيدي عبد القادر).  
كان خالي يسكن مع (ست هانم) عروسه التي لم تنجب . إذ  
أجهضت أكثر من مرة . وكان هذا يضاف على حياته مراارة وقلقاً يطفئ  
وهج شخصيته المرحة (المستيرية) .

كان أخي (سامي) أصغر مني . جاء بعدي بستين مبشرًا بسلامة أمي  
بعد معاناتها في مولدي ، وكنا سنلتهم يومها بكل احتفاء على الغذاء ، أكلة  
فاخرة من فسيخ (نبروه) الشهير ، جاءت هدية لخالي من عمدها شخصياً  
. وتطوعت خالي التي كانت تقيم مع خالي .. للعب مع (سامي) الصغير  
بعيداً عن معركة الفسيخ حتى لا يتشهاه وهو (محجوب) بأمر الطبيب .  
كان صوت بكائه يلاحقنا فيثير تعليقات ضاحكة أو مشفقة على الحالة  
التي حرم نفسها من الفسيخ ، ويبعث فينا شجناً غامضاً أحياناً أخرى ..  
حين كان يصمت بصورة غامضة مفاجئة فيثير قلقاً أكثر .

رغم معارضة أمي التي انهمكت في إعداد الفسيخ وتقطيع البصل  
والليمون ، صعدت خالي به إلى البسطة التي توسط السلم بين طابقنا  
والطابق الأعلى . وعلى قاعدة نافذة عالية من الزجاج الملون تطل على  
الشارع أجلسه على الحافة المرتفعة لإلهائه بما يدور في الشارع ، واطمئن  
قلب أمي وابتسمت حين تحولت صرخات نفيه إلى ضحكات غمرتنا  
بالارتياح ، وفتحت شهيتنا جميعاً للفسيخ اللذيذ الفاخر .. وفجأة ..  
دهمنا صرخة ملائعة أخرىستنا ، وغضّت بها حلوقنا فشلت حركتنا ، حين  
جاوبتها آهة دفينة حادة من أمي وهي تحملق في وجهنا :  
- إبني !! ..

خاطر غامض قاس انطلق بنا جمعياً كال العاصفة صاعدين السلم في  
الوقت الذي كانت خالي تهرون نحوها وحدها وهي تولول وتلطم

تعويض ما ، لفقدانها (سامي) الذي تذكرها به دائمًا صفارة القطار القادم من الغرب . رغم ما مضى من سنوات عوضها الله خلالها بأطفال آخرين بنات وأولاد.. لهفتها عليه يشعلها حضوره بالقطار من الغرب . لهفة لا يثيرها حضوره من الشرق في الأتوبيس عندما لا تقطع الأمطار الطريق الضيق الملائم لشاطئ البحيرة ..

عند صاحبنا كان للأمر وجوه أخرى ، إذ كان للقرية طعم ورائحة خاصة في كل مرة يدخلها قادماً من الشرق عبر سنين العمر الغض . طفلاً محمولاً على كتف خاله (الخميسى) ، و(رجل هنا ورجل هنا) تأسر عينيه الظلال وتفرج ملابسه برائحة نشرة الخشب . متابعاً إلى الأفق غناء الصفادع وزفير الحقول والقمر .. الذي يصر على ملاحقة حتى البيت .. أو صبياً يفضل الركوب على سلم عربات القطار الخشبي محطتنا حديثه ، تاركاً للريح مهمة مداعبة شعره . وملء ذاكرته بصور الحقول وخضرة أشجار الصفصاف والتوت ..

كان وهو التلميذ المتفوق في الدراسة الابتدائية .. يتبااهي على أقرانه برسومه ، ومعرفته بأسماء بلاد وعواصم الدنيا . وحكايات السفن والخيول الطائرة والآلهة التي تسكن جبالاً في بلاد بعيدة .. تحدد أقدار الناس وتحمل الشمس في عربتها الذهبية من قصر الشرق إلى بحر الظلمات ..

أو حين أصبح طالباً فنياً يكتب الشعر غزلاً في بنت (الهواري) .. أو في عيون (مديحة) البرسيم .. تسبقه قصص نزواته ومشاغباته .. حاملاً آثارها على ملابسه وجسده أو على كتبه الممزقة التي تزدحم هوامشها برسوم وبدایات قصائد العديمة القيمة .. التي لم تنجح في اقتحام (قلعة) الفتاة التي أكلت جدرانها رطوبة حقول الأرز ..

لسنوات عديدة طويلة من عمري .. لم تلوث أنفي رائحة الفسيخ دون أن تحسد لعيوني جثة الملائكة على صخرة الرصيف ، وصورة الحقيقة الطائرة وسط الدخان والغبار . فتعصر القلب غصة من خوف غامض حاد الأظافر ..

لكن العودة إلى (ميت سلسيل) من الغرب لم تكن دائمًا على هذه الدرجة من القسوة .

فصبي السنة الأولى الثانوية في الحادية عشرة من عمره كان يضطر كثيراً للعودة بالقطار نفسه في أيام الشتاء عبر (ميت الخولي عبد اللات).. (ميت الخولي مؤمن) .. عابرًا نفس المسافة التي طارت عبرها تلك الحقيقة ، فتموت أصابعه على السَّبَّات أو الحقيقة المكتظة بملابسها غير النظيفة . وهو يخشى أن يتذكر حلمه بطعم حضن الأم ومذاق أطعمتها المميزة التي لم يعد الفسيخ من بينها إلى الأبد . أو يفسد شيء ما لهفنه للعودة .. لرابع الطفولة التي اضطر للاستراغاب عنها في ذلك السن المبكر . لتغسل عن قلبه مواقع المدينة ..

يخرج رأسه مواجهًا برودة رياح الشتاء ، التي تصارع القطار حاملة إلى رئتيه دخان الفحم الراطب ذي الرائحة الخاصة .. وهو يتطلع إلى حقول (الخمس) ونخلة (ياسين) وترعة (مهند).. محاولاً استخلاص رائحة زيت القدح المحترق وطعم البصل الأخضر والكرات أبو شوشة من بين مزيج الروائح الذي يخيم على القرية ساعة الغروب ، مشبعًا بطعم الحقول والنباتات والبشر والطين المحترق .. ليحس معها بحضور الأم الفرحانة بعودته وبالاستجابة الربانية لدعواتها بسلامته ونجاحه وتفوقه على أقرانه . مخفية إشفاقها الدائم عليه من الغربية باحثة فيه عما يمكنها من

من ثلاثة أدوار تناطح السحاب وان ظل قائما على جدران وأساس البيت القديم الذي شهد ملاعب صباى وطفولتى والذى مارست فيه شقاوتي ومخامراتى لسلب جدى حليب الشوالى . البيت الذى شهد أعجوبة بناء دوره الأول بعد إستقرار أدواره العليا والذى تغيرت سبل الدخول إليه مع كل عقد من الزمان .. وشهد أوائل سنوات الوعى بالوطن وبالناس وبديايات الانفتاح على آفاق الإنسانيه الرحمة التى كان الطريق إليها الانتماء إلى العمل السرى تحت الأرض .. لتحرير الوطن ابتداء من تحرير الجمعية الزراعية .. !

اختفى هذا البيت المفعم بعطر السنين والذكريات أثناء غيابى الطويل هذه المرة .. وبنى مكانه بيت يشبه أى بيت آخر فى أى مكان آخر فى مدينة أخرى .. قالوا لي (لقد صمم ابوك البيت الجديد نسخة أخرى من البيت الذى سكنا فيه بالايغار سنة انتقلنا إلى (المنصورة) .. بيت (يسن الترزى فى شارع الأسواق المتفرغ من داير البندر .) فأيقنت يومها أننى عدت ولكن إلى بيت ليس بيته ! .

فقدت نغمة عجلات القطار الرتيبة إيقاعاتها القديمة .. ضاعت رائحة الزيت المحروق . وكل ما توحى به من ألفة المساء بعد يوم مجده طويل . هل أفقدت سنوات السجن روحه ما كانت تقipض به عند عودته إلى (ميت سلسيل) من مشاعر حنونة تبعثها رائحة الزيت المقدوح ، نكهة الأرز الساخن الفقير في صدور المجهدين .. ام كان ذلك كله بسبب فقدان بيته القديم بيت جدى .

•••

وعلى قدميه كم عاد إليها بنفس اللهفة ، من كل دروبها . ومن جميع جهاتها ، وفي كل الأوقات وعبر كل سنوات العمر طفلًا وصبيًا وشابًا.. تلميذًا وشاعرًا وسياسيًّا ، تثير قدمه أينما تدب غبار المشاكل والمعارك .. كل عودة لها طعم مختلف لكن المشاعر نحوها دائمًا غائرة في أعماقه ، لا تغير ولا تتبدل كمرض عضال لا شفاء منه ..

رائحة الصبار وثمار التين الشوكى والذرة الخضراء والبرسيم تلتحق به وتسكره حين يدخلها عائدًا من متعته اليومية في السباحة في البحر الصغير. من جوار جنينة (علي أبو حسن) .. تعلق ملابسه وجلده رائحة الخلfa وثمار (عنب الدibe). وهو عائد من حقل (السباخ) وأرض الطير عبر الخراية أو جرن دار (أحمد) .. رائحة التيل المعطن والسمك الميت الصغير حين يعود من البحر بعد السباحة أو مغامرات الصيد .

لكن عودته بعد سنوات خمس في المعتقل كانت فريدة لا مثيل ولا شبيه لها .. يومها أصر على العودة بالقطار ، نفس القطار القديم .. الذي لم يستطع هذه المرة أن يحرك فيه مشاعر الطفولة أو الصبا حزناً أو فرحاً . ولا أن يجسد أمامه أيّاً من تلك الصور التي لم ينسها أبداً . كان هناك خوف غامض يغزو قلبه .. يطمس الذكريات على صفحة روحه وينزع منه شيئاً لا ملامح له ، يتجمىء تلك الأيام البريئة .. كانت العودة تلك المرة يكتفي بها الكثير من عدم الثقة .. هل غيره السجن؟ أم أن الدنيا تغيرت؟ لقد هدم البيت كله .. بيت الجد الذي مات في الحجاز وبيت الجدة (أم العز) التي سحرت المرأة الغجرية المداحة وحوّلتها إلى بقرة .. بيت (الحوش) الذي شهد حالات العفاريت والذي تحول إلى منارة شهدت حضور الشيخ (على سعود) في حياته ومعه قيم العدالة في الإسلام .. بيت (عبد الباقي) خالصا دون شريك والذى مارس عليه هو ايته فى التغيير والتبديل فأصبح

كلما انحني على موتور العربة .. وغماراتك مع زوجة الفقي الأعمى وأنتما تحتممانه معاً . فتذهب مشاعرك وهي تثيرك بلمساتها وحر كاتها مع أعضائه . تلمسه وتغمس لثك .. وكيف أنك لم تكن تطبق نفسك وتقاد تجنب . وهي تركك لتجففه وتلبسه لكي تأخذه لصلة الجمعة .. أقنعتني أن كل النساء سواء .. أنهن يلتهين تحت القماش . تستوي في ذلك التي تلبس الجلابية على اللحم وتلك التي تلف نفسها كعروسة المولد !

أرجعت أمري مع (نرجس) لخيتي الثقيلة .. لأنني لا أبدي أي مبادرة للهجوم .. ذكرتني بيوم عودتي من امتحان الشهادة الابتدائية من (المنصورة) .. وكان القطار مزدحماً .. وجلست إلى جوار الشباك وأمامي مباشرة امرأة بضة هائلة الحجم وانحشرنا على الكراسي . ولم تكن المسافة بيننا تسمح إلا بتبادل المسافات ، فتداخلت السيقان .. كانت أشياؤنا تراحمنا .. وكثير منها تعدد فوق السيقان المتداخلة .. كان أبي فخوراً بما فعلته في الامتحان .. وكيف فهمت الأسئلة المراوغة وهزمت ذكاء واضعيها .. كان الكل ينظر نحو ي بإعجاب وخصلة الشعر الناعمة تسدل على جبيني العالي في وهو كخصلة شعر (أنور وجدي) .. في زمانه ..

لمحت ابتسامتها المعجبة تغمرني ، كان إعلان فيلم (قلبي دليلي) على جدار المحطة ممزقاً كالحال لكنه واضح تماماً .. ابتسامة (أنور وجدي) ووجه (ليلي مراد) مشرق وله سحر .. غمرت وجهها الصبور بقبلات عيني حين عادت عيناهما من حملقة مسحورة في الإعلان الغامض . في نفس الوقت الذي أطبقت فيه ساقيه التحيتين على سمانة ساقها الممتلة .. وبينما سندتها بالساق اليسرى بدأت أحرك بطن قدمي اليمنى الذي انتزعته من الحذاء .. صعوداً وهبوطاً في حنان ..

## طائرة في عنقه . . .

○ فخور أنا لأن أحداً لم يشق صدرني لينزع منه (حبة الشيطان) التي ظلت طوال عمري أبحث عنها لأنزعها بنفسي دون جدو ، كانت تزوج مني وتختفى ، فلم أتعثر لها على أثر بسببك ، نعم .. وકأنها كانت من صنعك يا صديقي المتعدد الوجوه تحتل مساحتى وتجوول بين حواسى بعقلك وبأمر منك .. وكان علي أن أظل أطاردها أبداً .. وهي تتحدى ومتلکني كالعبد وتصحبني كالتوأم الخفي ، تحرضني على الجدل في كل شيء ، وتغيريني بالحرم وتدفعني للتمرد .

حين حككت لك عن (نرجس) ، حاصرتني بحكاياتك مع زوجة الأسطى السوق ، الذي كان يجعلك متتطيه في الزريبة . ويشدك للوقوف خلفه



الاستماع لحفل تكريم نبوعي وذكائي الذي كان أبي لا يزال مصرًا على إحياءه على قارعة الطريق .

ولأنك قلت (إن هذه أمور عيال!). فخيت أملبي في الوصول إلى مكانتك ودرجتك . قررت أن أعاود الهجوم وأن أعيد ترتيب قواتي لمحاصرة (نرجس) . وكانت زوجة فلاح قصیر نحيل من أولئك الذين حكم عليهم أن يتتصوّوا بالطين منذ ولادتهم .. حتى يغوصون فيه مرة أخيرة إلى الأبد بعد وفاتهم دون أن يلاحظهم أحد ..

أخوه الأكبر تعلم صنعة (الترزية) وفتح الله عليه بدكان فتزوج في المندرة المطلة على الشارع .. وكان ربع القوم أبيض البشرة حلية .. طوبل القامة نظيف الملابس على الدوام .. على عكس أخيه زوج (نرجس) القلّه الذي (بييت الخنس في شقوق كعبه!).

زوجوها منه رحمة بها وستراً ليُشمها .. إذ كانت لها عين مصادبة ، فكانت رغم جمالها وامتلاء جسمها الفائز (معيوية) ويتيمة . وأقصى ما تحلم به حجرة تلمها ، وزوج تجلس في ضل حائطه .. كانت راضية بنصيتها من الدنيا ، لكنها لم تكن راضية عن نصيب زوجها .. بعد أن أفاقت من صدمة الفرحة بزواجهما وعرفت حدودها الضيقه جداً .. بدأت في التبرم .. تدفع زوجها للمطالبة بحقه في أن يستحم وأن يستريح .. وأن يكونبني آدم .. فأخوه الذي لا يشركه في عائد صنعته الرائجة .. يشاركه في رغيف الدرة الذي يخرج بجهده من الأرض .. وعليه إما (يبقى فيه عَدْل ، يا نشيل ده عن ده يرتاح ده من ده ..) . وخاصة أن عوج (ملوك) زوجة الترزي قد زاد عن حده ، فهيمنذ زواجهما لا تكتف عن مضايقتها ، تريدها خادمة في البيت مثلما زوجها خادم في الغيط ..

فوجئت السيدة التي كان زوجها يقف في الطرقة المزدحمة بين الكراسي مشاركاً في حفل الأعجذاب بي .. نظرت إلى معاتبة مندهشة غير مصدقة ، فكفت للحظة عن الحركة .. لكن توتر جفونها والدماء التي اندفعت لخدتها .. كانت فيهما الكفاية - لدعوي أن أستمر .. في حنان بالغ مضت عيني تحاول النفاذ خلسة إلى عمق عينيها ، اللتين احمرتا بالدموع والانفعال . وجدت ساقها تلين تحت ركام الأشياء الميتة فوق ركبتيها ، تحجبان عالم الصخب عن عالم الدهشة الخفي .. فأخذت أتحرك في معلمة . مقلداً خبرتك . وأنا أتذكر حركات يدك على ذراع زوجة الفقي التي تختضن كتفيك وهي تداعبك وتدعوك لكي تلتحم بها وأنت تختضن الجسد كله في بطن كفك الممتلي ببطن كفها ..

أخذت تممسح عرقها وهي تخلس النظر لزوجها وللآخرين .. قبل أن تقپض أسنانها على شفتها السفلی وهي ترمي في دهشة . وكان لسان حالها يقول :

- كل ده يطلع منك انت ؟

مع حركة القطار الذي بدأ يهدئ من سرعته لدخول المحطة .. هدأت حركات باطن قدمي فوق السمانة .. وبدأت هي تلم شتات نفسها .. وحين وقفت لخدمت نفسي في جمع (السوارات) ووقفت بشكل طبيعي لأحتضنها مانعاً سقوطها على المجالسين مع صدمة وقوف القطار .. ثرلت وزوجها .. اختلست النظر إليها من النافذة .. كانت تقف مجدهدة إلى جواره .. تلهث كمن خرجت من معركة ، وهي تعيد ترتيب ثيابها ، وتعدل من وضع طرحتها .. وتحفف عرقها .. وتخلس النظر إلى أنا واقف في النافذة أفلتها منتصراً من براثن نظرات عيوني .. عدت أحجلس مقتنعاً ومسلماً لك ولآرائك في النساء .. وأنا أوأصل

إلى شخطة لاسعة ، أو تعليق لاذع يعيدها إلى صدفة طبيتها واستسلامها  
الإلهي ..

كانت الصينية النحاس فوق كرسي العشا الجريد ، عليها كوم من القمح المتجدد . يقمن بتنقيته من أجل الطحين .. والتف الثلاثة حول القمح ، رستأت (رسمية) نفسها في مواجهة الحياة الفاترة على السكة والجسر لكي لا تقوتها شاردة . بينما جلست (نرجس) في مواجهتها ، أما خالي فكانت غير مستقرة (تماماً) بينهما لتعطي نفسها فرصة للقيام والقعود حسب الحاجة! .

وحين هلت من بعيد ، هللاوا جميعها مرحباً . خالي قامت واختطفتني إلى حضنها .. (رسمية) تظاهرت بأنها ستحاول رفع طن اللحم ، فضحت وملت عليها لتقبلني .. لمحت بهجة خاصة في عين (نرجس) التي قامت تحتضنني وتقبلني كعادتها :  
ـ أهلاً بالحبيب ابن الغالية ..

(رسمية) التي كانت لا يخيل إليها شيء ، وتحسب حساب سوء النية في كل شيء ، جذبتها بعنف فأجلستها ..  
ـ لا يا حبيتي ! كان زمان وجر .. زمان كان (نونو) .. دلوتي البوس والأحضان عليها جمرك ، نفسُهُ الوقتي يحبّل اللي زيـك .. ما يحكـمش .  
أحسـت (نرجـس) كأنـها ضـبـطـتـ عـارـيـة .. لـكتـني سـرعـانـ ماـ قـبـلـتهاـ فيـ خـدـهاـ وـعـمـقـ لـكـيـ أـغـيـظـ (رسمـية) ..

ـ حـ أـفـضـلـ طـوـلـ عـمـرـيـ إـبـنـهاـ الرـضـيع .. بـسـ اـخـرـجيـ اـنـتـيـ مـنـهـا ..  
كـانـتـ ضـرـبةـ عـلـىـ الـوـتـرـ الـحـسـاس .. (فنـرجـس) لمـ تـنجـب .. وـيـدـوـاـنـهاـ لـنـ تـنجـبـ أـبـداـ،ـ قـرـأـتـ ذـلـك .. فـيـ تـلـمـيـحـاتـ (رسمـية) عنـ جـوـزـهـاـ

ولـكـنـ (لا..ـ دـاـ بـعـدـكـ .. دـاـ اـنـاـ قـرـيـةـ الـأـمـ)ـ وـ (ماـ حـدـشـ يـكـسـرـ عـيـنـيـ) ..  
(وـالـحـلـوةـ تـحـلـاـ وـلـوـ فـيـ الـوـحـلـةـ)ـ ،ـ (مـشـ أـقـلـ مـنـهـاـ يـاـ بـنـتـ النـاسـ) ..ـ قـبـقـابـ  
بـقـبـقـابـ وـضـفـيرـةـ مـغـسـلـةـ وـمـتـسـرـحةـ بـضـفـيرـةـ مـغـسـلـةـ وـمـتـسـرـحةـ ..ـ وـهـدـوـمـ  
وـإـنـ كـانـتـ (بـاطـسـطـةـ)ـ وـ(شـيـتـ الـمـحـلـةـ)ـ لـكـنـ زـاهـيـةـ وـمـزـهـزـهـةـ وـنـضـيفـةـ ..  
(الـعـدـلـ بـدـلـ)ـ ،ـ وـالـقـصـةـ الـمـسـبـبـةـ تـدـارـيـ عـيـبـ الـعـيـوـيـةـ زـيـ النـضـارـةـ ..  
وـ(لـمـ الـجـلـةـ مـشـ عـلـةـ) ..ـ آـهـ ..

كـانـتـ النـارـ مـشـتـلـعـةـ فـيـ بـيـتـ دـائـمـاـ ..ـ وـكـنـتـ شـبـهـ زـائـرـ مـقـيمـ فـيـ بـيـتـ  
خـالـتـيـ الـقـرـيـبـ ..ـ الـذـيـ كـانـ مـلـاـذـ (نـرجـسـ)ـ الدـائـمـ مـنـ لـهـيـبـ الـمـعرـكـةـ ..  
حـيـثـ تـجـدـ نـفـسـهـاـ فـيـ بـيـتـ (بـنـدـرـيـ)ـ حـضـرـيـ مـعـ اـبـنـةـ خـالـتـيـ الـتـيـ تـضـرـبـ  
بعـشـرـةـ أـلـسـنـ ،ـ وـتـقـرـاـ (أـلـفـ لـيـلـةـ وـلـيـلـةـ)ـ وـلـاـ تـكـفـ عـنـ التـعـلـيقـ عـلـىـ الدـنـيـاـ  
وـالـحـيـاةـ الـتـيـ ظـلـمـتـهـاـ شـكـلـاـ وـمـوـضـوـعـاـ ..ـ بـلـسـانـ سـاخـرـ سـلـيـطـ ،ـ يـواـزـيـ طـيـةـ  
لـسـانـ الـخـالـةـ وـرـضـاـهـاـ بـالـمـقـسـوـمـ الـمـبـنـيـ عـلـىـ إـيمـانـ لـاـ تـقـسـيـرـ لـهـ ،ـ سـوـىـ أـنـهـاـ مـنـ  
سـلـالـةـ عـيـلـةـ مـؤـمـنةـ فـيـهـاـ الـلـيـ شـايـلـ الـقـرـآنـ عـلـىـ قـلـبـهـ رـحـمـةـ وـنـورـ ..

كـانـ بـيـتـ خـالـتـيـ يـقـعـ عـبـرـ تـرـعـةـ صـغـيرـةـ تـرـوـيـ الـحـقـوـلـ قـبـليـ (الـكـفـرـ)ـ لـهـ  
بـاحـةـ صـغـيرـةـ أـمـامـ الـبـابـ مـبـاشـرـةـ تـصـنـعـ بـرـاحـاـ تـظـلـلـهـ الـأـشـجـارـ الـتـيـ تـتـكـافـفـ  
أـمـامـهـ ..ـ لـتـجـعـلـ مـنـهـ بـقـعـةـ نـادـرـةـ مـنـ الـرـطـوبـةـ الـخـانـيـةـ لـلـجـالـسـ فـيـهـاـ وـتـعـطـيـهـ  
قـدـرـةـ عـلـىـ الإـحـاطـةـ بـاـتـسـاعـ الـامـتـدـادـ الـعـابـرـ لـلـزـرـاعـيـةـ وـجـسـرـ السـكـكـ الـحـدـيدـ  
(المـقـلـيـ)ـ فـيـ قـيـظـ الشـمـسـ ،ـ فـيـ تـعـالـ وـإـحـسـاسـ بـالـتـفـوقـ وـالـرـضـاـ بـطـراـوـةـ  
الـظـلـ وـالـنـسـمـةـ ..ـ وـتـعـطـيـ (لـرـسـمـيـةـ)ـ بـنـتـ خـالـتـيـ الـقـدرـةـ عـلـىـ رـصـدـ حـرـكـةـ  
مـجـمـعـ الـكـفـرـ الـجـدـيدـ كـلـهـ ..ـ الـذـيـ يـتـحـركـ فـيـ بـطـءـ ،ـ يـتـيـحـ لـهـ الـفـرـصـةـ الـكـامـلـةـ  
لـلـتـأـمـلـ وـلـلـتـحـلـيلـ وـالـنـمـيـمـةـ السـاـخـرـةـ الـمـنـتـقـمـةـ مـنـ الـرـايـعـ وـالـجـايـ ،ـ وـالـقـائـمـ  
وـالـقـاعـدـ ..ـ أـوـ عـلـىـ حـدـ تـبـيـرـهـاـ (الـمـقـعـدـ)ـ ..ـ رـغـمـ اـعـتـرـاضـاتـ أـمـهـاـ السـلـبـيـةـ  
الـتـيـ لـاـ تـجـرـؤـ عـلـىـ الإـفـصـاحـ عـنـهـاـ أـمـامـ نـظـرـاتـهـ الـلـاهـيـةـ الـتـيـ كـثـيرـاـ مـاـ تـتـحـولـ

- طب والمقوصة (مديحة) يا فلاتي ..  
 - لأنّ دي حاجة تانية .. كل واحدة طعم يا بنت خالي ..  
 ضربتني (نرجس) على ضهري محتاجة ، لمحت احمراراً في خديها ، فمدت قدمي ل تستقر تحت فخذها .. لم تتعرض ، بل خيل إلى أنها ضغطت عليها .

فضلت أن أخمن أنها ظنتها نتوءاً في الفرش الذي نجلس عليه .. أو أنها قدم (رسمية) نظرت في عينها الوحيدة مباشرة وحركت إصبع قدمي الكبير في صمت صاعداً وهابطاً في رقة تدق شطوط فيافي لحمها الدافئ ..

نظرت إلى نظرة خاطفة وكأنها خافت أن تفزعني .. فتجرأت ..  
 كان الحديث بيننا صاخباً ، تعرض لقصص كثيرة حقيقة ومحترعة عن (السقا) الذي حاول مغازلة خالي . وفطست (رسمية) من الضحك وهي تدعوها للاعتراف أنها (كمرا) شجعته .. لكن الحالة كانت بمكر تخترع حكاية عن ابنها ناظر المحطة الذي كان في نفس الوقت - حسب قولها - يحاول مغازلة راكبة من الركاب جاءت تقطع منه تذكرة سفر .. لكنه (رأى برهان ربه)، فعل .. ومثله مع (السقا) تماماً فعلت ! وقالتها له دون أن تفصح عندما اعترف لها :  
 - دقة بدقة ولو كنت زدت لزاد السقا .

ضحكنا في صخب .. الحديث والضحك أتاحت الفرصة لي .. أخفيت ذراعي تحت الصينية ، استبدلت بأصبع قدمي باطن كفي الذي استقر على فخذ (نرجس) في أمان .. مدت يدها في البداية لتزيح يدي لكنها خافت أن تلاحظ (رسمية) الأروبة أن لها يداً واحدة فوق الصينية .. فتخمن ما هو أسوأ . غمزتها راجياً الصبر . فسكتت وكفت عن

القزعة .. النافر للغيط على طول .. وسؤالها الخبيث الدائم (نرجس) عن أخبار المخدة والناموسية !  
 ضحكت (نرجس) تداري جرحها وضررتني بحنية على كتفي ..  
 - تعيش لي انت طول العمر يا حبيبي .. أيوه كده أجر بخاطري كده قدام العوازل ..  
 كانت تقول ذلك لتشاغب (رسمية) في براءة مفتعلة . بينما هاجمني صوتك الواثق المجرب :  
 - أنا متتأكد أنها تلك النظرة الشهوانية في عيونك .. ها هي أمامك يا فالح .. أرض بكر عجز المحراث عن شق أحشائها ل تستقبل الشمس وتأوجح رغبة الحياة في البذور .. عفية ، فائرة ، تطوي جوانحها على أحلام مشروعة وقريبة .. تلتهب بالشهوة عندما تقرأ لها (رسمية) في ساعات الصيف عن جواري الخليفة الالاتي لا يزور الواحدة منهم إلا مرة في العام . وهن حبيسات البستان والحمام وغرف النوم ، وسط أجساد العبيد السمراء المشحونة بالقوة الغجرية المجهضة بالذل والإخماء .. لكنها تظل قادرة على الهصر والعصر والإرواء.. بألف طريقة وطريقة ..!  
 لمحت ظل غرغرة غائمة طافت بعين (نرجس) المبصرة .. لكن سرعان ما ابتعلتها ودفت كفها الأسمر الخمرى الحشن في كوم حبات القمح الدافئ .. الأملس الحاني ..  
 قررت أن أغrieve لك وأن أثبت لك أنني لست أقل منك جرأة ، خلعت الصندل وخطوت على الفرش ، نزلت متربعاً بجوارها جاعلاً الصينية في حضني .. اندمجنا على الفور في حديث مرح بدأته (رسمية) بنشرة أخبار عاجلة لا تخلو من تلميحات مكشوفة عن سلفة (نرجس) وزوجها العيوقه ..  
 سألوني عن دراستي ، تطرق الحديث لبنت (الهواري) قريتهم ..  
 رجوت (رسمية) أن تتوسط لي عندها . كانت تلميذة تركب معنا дизيل ، وكانت متعلقاً بها وبالنمיש الذي يغطي وجهها ويعطيه حسناً لا حدود له .

المقاومة . امتدت يدي وسط الضجيج والصخب تفتح لنفسها مسالك خطرة .. فانتفضت (نرجس) واقفة حتى كادت تقلب الصينية .. وعندما حاولت أن تنطق معتذرة ، خرج صوتها مبحوحاً .. فاضحاً لما يمور في خلايا جسمها الفوار من غمال وعناكب ، لم تفت (رسمية) ، لملمت نفسي ونظرت إليها في دهشة بريئة . لكنها أسرعت .. تلبس قباقبها الخشبي ..

وهي تقول :

ـ يا حسرتي .. دالانا كان لازم أعمل العشا النهارده ، حماتي ح تدبحني ..  
وجرت إلى بيتها دون أن تنتظر ردًا من المحملقين ..  
فقط (رسمية) نظرت إلى في اتهام مباشر نظرة من يقرأ ما تخفيه الصدور ..

ـ إنت عملت فيها إيه ياللي تنضرب في قلبك ..  
حالتي أنقذتني كعادتها قائلة ..

ـ عمل فيها؟ هي اللي مرووشة ومش على بعضها من ساعة ما جت .. بلا دلع مرئ .. تتشطر على جوزها العجبة !  
لكن عيون (رسمية) تابعت فحصي ، بعيني بصاص ضبط حرامي فراح متلبساً كأنها تكتشف ملامح الشيطان في لأول مرة ..

• • •

○ أنت أغويتني وعلمتني أن أطرق الحديد  
وهو ساخن ..  
فما بالك و(نرجس) كانت مشتعلة ، عندما  
هبت ناجية بنفسها من نظرات ولسان (رسمية) لو  
أحسست بشيء مما جرى في الخفاء .  
تعمدت الانتظار قليلاً .. ثم اعتذرت ، كي  
أغادر . تعللت بضرورة الذهاب لبيت جدي لأن  
هناك رسالة من أمي لازم أوصلها .. تجابت نظرات  
(رسمية) .. وتركت نفسي خالتى التي أصرت أن  
ترقيني من عيون الناس . أمسكت بيدي وأحتنت  
رأسى فوق صدرها ، وبدأت في ثتمات وهممات  
منغمة بلغة منقرضة ، لحروفها سحر مجھول ، وهي  
تملّس يطن كفها اليمنى على شعري ورأسي ..



مدى السيا  
في العين

الباب.. ثم وهي تُمطر قبتها ، وبعد أن تلفت في الحوش أخذت تكرر ..  
- مين اللي دخل ؟

جاء صوت حماتها تسرع زهقانة من العرق والتراب .  
- شوفي يا (نرجس) ملوك بتتادي ..

جاء صوت (نرجس) من خلف باب الوسط وروحها في مناخيرها ،  
لأن حماتها على ما ييدو كانت قد أنتتها غاضبة لتأخرها عند الست (أم  
يوسف) ..

- فيه إيه يا (ملوك) .. عايزه إيه ؟

- فيه حد دخل من باب الدار ..

- ما فيش حد يا أختي .. يعني شايقة البساط أحمدي ، والضيوف  
رايحين جاين .. خليكي في اللي انتي فيه ..

- جرى إيه يا (نرجس) .. بيتهيألي إن حد مرق لجوه ..

- ما حدش (مرأ) يا أختي .. دا خيالات المراية .. والدلع المِرئ .  
صمصمت (ملوك) شفتيها في تحد وسخرية ودخلت المدرة  
خاصتها.. ورزعت الباب في غيظ ..

تنهدت روحها في راحة .. فالأمر كان يمكن أن يتطور وقد (ملوك)  
بوزها في أودة (نرجس) .. لكن الصمت ساد .. ردت باب (نرجس)  
بهدوء وأخذت تأمل الغرفة ..

السرير الحديد الأسود عالي بدرجة غريبة . يحيط بأعمدته التي ضاع  
أحد فوانيسها كورنيش دائري من القماش الأبيض المشغول .. الناموسية  
ملحومة كالقبة في شكل جميل .. وعلى السرير ما زال اللحاف الساتان  
ذي الشراشيب البمببي ، كأنه لم يمس منذ فرش لأول مرة .. يتسلى تحته  
كورنيش دائري آخر يصل إلى الأرض ليخفى ما تحت السرير ..

- روح ربنا يجعل في وشك القبول .. وينجيك من كل ما يعاديك ..  
كنت أحب دعواتها المنظومة المنغمة وأخاف منها . لكني كنت قد  
قررت الاستجابة لتحديك ..

أعرف أن (نرجس) كذبت حين قالت إن زوجها سيعود مبكراً  
اليوم . وأن عليها أن تجهز له لقمة .. فالاليوم ليس يوم (خميس) .. كان -  
زوجها قد تعود أن يختصر مرات اضطراره للمجاهمة والمعافرة اللامجدية  
مع (نرجس) قدر الإمكان .. لذلك كان مستحيلًا أن يغير عادته . كنت  
متتأكداً أنها في البيت وحدها الآن .. وقد تكون منخرطة في البكاء ..  
(ليس هناك مفر ، إن كنت بالفعل تنوی الدخول في التحدي) ....  
العقبة الوحيدة كانت الدخول إلى البيت دون لفت نظر سلفتها .  
الناس العابرون والجيران تعودوا على دخولي وخروجي إلى البيت بحكم  
العلاقة الحميمية بين خالي وبنتها وبين سكان البيت . فتظاهرةت بعدم  
الاهتمام وعبرت العتبة . في جرأة ..

كان باب مندرة سلفتها على اليسار مفتوحاً .. والمندرة التي على  
اليمين مغلقة .. وباب الوسط الذي لا درف له كان مغموراً بالشمس  
وحماتها تتحدث مع نفسها أو مع شخص ما فوق السطح في غضب ..  
باب مندرة (ملوك) كان موارباً .. مرقت بسرعة خاطفة . ودخلت  
حجرة (نرجس).. مرت لحظة صمت ، حبس فيها أنفاسيا خلف الباب  
الموابد . ثم سمعتها تقول في شك ..

- مين ؟ مين اللي دخل ؟  
لم تسمع رداً .. لكن خيالاً ما ، كان بالتأكيد قد عبر المرأة خلفها ..  
و قبل أن تكذب ما رأته ، أرادت التأكيد ..  
سمعتها تقوم وتزيح كرسيها الخشبي .. ثم وهي ، تخطو نحو

كدت أوضح وجودي .. تماست بصعوبة .. ساد الصمت الغرفة ..  
أحسست بها تتشمم الهواء .. وأنها تشک في شيء .. راقت قبقياها وهو  
يتحرك في عصبية ثم يتجه بسرعة ناحية الباب . وسمعت صوت الترباس  
الحديدي يحكم إغلاقه ..

رأيتها تجلس وظهرها للباب . وأخذت تميل برأسها إلى الأرض لترى  
ما تحت السرير . ملت مثلها وأنا أضع أصبعي على فمي هامسا ..  
- أنا يا (نرجس) .. هس هس .

- يا مصيبي ..

قالتها في فرع حقيقي ورعب وإن لم تنطقها ..  
أخذت تدق صدرها في رعب وهي تتلفت .

- إيه اللي جابك هنا ؟ بتعمل إيه ؟ أصوات ..  
- وانتي يرضيكي تقضحيني ..

- قصدك أوضح نفسي .. يا نهار أسود .. أعمل إيه دلوقتي يا ناس ؟  
دي المضروبة مقصوفة الرقبة شافتكم ..

كانت قد جلست على الأرض يائسة فخرجت من مكتمني واقربت  
منها زاحفا ..

- انتي اللي ح تخليها تشويفي .. هس .. إهدى ..

وضعت يدي على كتفها ، ففرزعت وترت كفي وهي تقوم مرتخفة ..

- تعالى يا (نرجس) .. ما تتكلميش واسمعني .. أنا مزنون هنا  
أكثر منك .. غلطة . أنا دخلت من غير ما حد يشوفني . كنت فاكرك  
في الأودة .. لكن إنتي اللي قفلتي علينا الباب .. دلوقتي أنا وانتي في  
المصيدة .. مش هنخرج من هنا إلا إذا هديتي .. وبطلي لطم .. تعالى ..  
أيوه .. تعالى .. الباب مفروم .. والمغدورة قفلت بابها عليها .. الحمد

خلف الجدار المجاور للباب كانت التسريحة ، عليها شوال رز أبيض  
وتحتها أكثر من صندوق خشبي عليه رسوم بدائية .. وكرسيها مسنود  
عليها في مكانه ، رغم إحالته على المعاش بدرى .. الدولاب العمولة ذو  
الضلفتين ، والبتينة مازال الصيني فيها لم يجد بعد الفرصة كي يستخدم .  
رفعت الملاعة المتبدلة من السرير ، كانت هناك عدة إشولة مملوءة  
بالحروب وبعض الخلل النحاس وطشت غسيل مملوء بالأرز الأبيض  
. المساحة التي بين السرير والتسريحة كانت نظيفة ، مغطاة بطبقة من  
الطين المعالج الناعم المستوي ، تغطيها حصيرة أقرب إلى سجادة الجوامع  
المصنوعة من السمار بها بعض الخطوط الملونة ، وإن كانت أطرافها قد  
تاكلت من فعل الرطوبة والكتنس المستمر ..

كانت رائحة الغرفة مميزة وأليفة ونظيفة تفوح برائحة الصابون  
المعطر . زجاج الشباك الملون أعلىه يشع جواً خيالياً .. ساحر شذاه -  
مازال يهاجم أنفي وعيني حتى يومنا هذا - كحلم مفقود ..

لم تكن عندي خطة ولكنني كنت أسير رغبة حارقة لتحديك أنت  
بالذات وإثبات قدرتي على المبادرة ، لا يفوقها إلا رعيبي لأنني يحدث ما  
 يجعلك ترضى عنني .. وتدرك أنني تلميذ نجيب لك . وأجعلك تغير من  
إحساسك الدائم بخيبة الأمل فيّ وفي نضوجي ..

دلفت تحت السرير في هدوء وصمت . عندما أحست بخطى  
(نرجس) ودقة قبقيها الذي تعمد أن تطرق به في الحوش لثبت لي ما  
يتسمو إنها مش أقل منهم . وإنها وإن كانت زوجة (الفلاح) إلا أنها لا  
تقل (تستثنا) عن الآخرين ، بل هي تصاحب أيضاً ستات أكبر بحق مثل  
ست (أم فهمي) .

دخلت الغرفة ورزعت الباب لأنها تصفع أعداءها ، فأفرغتني حتى

غاظتنى .. وجدتني مكومًا أحاول جمع ما تبعثر مني ، لأنعاود :  
 - لا إيه ؟ ليه ؟  
 - ما تقضحنيش اعمل معروف .. ياللا .. لحد هنا كفاية ..  
 - إيه اللي كفاية .. انتي اتهلتي يا هبلة انتي .. تعالى بس .. اقعدى ..  
 يا حبيتى .. ما فيش حد بيحبك قدي ..  
 - قوم والنبي سايقة عليك النبي وحياة معزّة خالتك .. أخرج ..  
 - ده هبل رسمي .. أخرج أزاي ؟ إنتي لو بصيتي من خرم المفتاح  
 ح تلتقي صاحبتنا قاعدة مستنية لك .. ويجوز حاسة باللي بيحصل ..  
 أكيد.. أمال ليه قعدت ع العتبة ؟  
 لطمت خديها .. مرعوبة ولم تكن تجرو على التنفس .. كان صراخها  
 للداخل وصوتها الأخرس يكاد لا يسمع ، ومع ذلك كانت تظن بالفعل  
 أن وراء الباب حشد من العيون والآذان .. وأن همساتها تصل حتى آخر  
 البلد .. جذبتها ، فيجلست إلى جانبي على الحصيرة شبه مستسلمة .  
 - يا بنت الناس .. خلاص .. ما فيش فايدة .. إحنا اتربطنا بعض  
 بسلبة جمل .. مش ح أخرج إلا إذا حصل ..  
 تعجبت لجرأتى . لم أتعود أن أتكلم مع البنات أو النساء بهذه الطريقة  
 . لم أكن أنا الذي يتكلم . كان صوتكم وعباراتكم .. أنت الذي تلبّسني  
 وأعطياني هذه الجرأة والمكر .. خرج صوتكم مداهناً على لسانى :  
 - إهدى .. إهدى .. دلوقي .. إنتي تفتحي الباب وتخرجى ..  
 وكإن ما فيش حاجة حصلت .. اتصرفي عادي جدًا ..  
 - وانت ؟  
 - أنا ح أنام هنا .. ح ابيت معاك ..  
 - يا مصيّتي ..  
 زحفت تحت السرير .. صعدت على زكيبة مليئة بحَبْ ما . وأسندت  
 ظهرى لأخرى واقفة مستندة إلى الحائط .. هبطت ورفعت الملاءة ..

الله .. وحماتك بينها وبين القيالة عهد ما تبطلش نكش .. و(بها بند) ما  
 بين الفراح والحملة .. أيوه كده .. إضحكى .. النبي تبسم .. يا سلام ..  
 إنتي عارفة إني باحبك قد إيه ؟ إنتي اللي بتجيبيني لبيت خالي على ملا  
 وشي .. طب مش فاكرة ؟

كانت تستمع لي مذهبولة .. حائرة .. لا تجرو على إخراج صوتها  
 للرد على .. تحس أن أنفاسها المكروشة تصل للناس على الزراعية ..  
 وكانت كفای لا تكفان عن الحركة . أربت هنا وأطبّط هناك .. وألس  
 وأتحسس في حنان صعودًا وهبوطًا ..

تحول تهدرجها من انفعالات الرعب إلى انفعالات حانية ملهوفة وخافتة  
 .. لم أتعجلها .. اقتربت بشفتي من وجنتيها .. وهبطت بهما إلى رقبتها  
 ، كانت تتلوى ، رغم أن جسمها الفارع كان يفوقني طولاً وعرضًا ..  
 كنت طفلة بين ذراعي .. كانت لكلمة .. (يا حبيتى) فعل السحر ..  
 لمعة عينها الوحيدة اختفت تحت سيل من الدموع .. هبطت بشفتي نحو  
 شفتيها البكر ، التي لم تعرف على ما أظن طعم القبلات .. فهبطت بي إلى  
 الحصيرة مجدهدة .. لينة .. مددتها ومدت يدي فسحببت إحدى الخداديات  
 من على السرير بسرعة البرق وأرحت رأسها عليها .. أحاطتني بذراعين  
 لا عظام فيها وهبطت بي لوديان من زهر النرجس . مرغت رأسي في  
 صدرها الصلب وهبطت إلى تلال الزبد والعل .. ولكنها نفرت فجأة  
 كأيل وحشى ، عندما بدأت في فك الطلس ..

انتفضت واقفة على حيلها ، كأنما أفاقت فجأة .. فألقت بي من سابع  
 سما إلى جهama الحصيرة الصلبة فأوجعوني .. تحطم سفني على صخور  
 الشاطئ . وعادت تلطم وجهها ..  
 - لا .. يا نهار أسود .. يا فضحى ؟!

فقتلته .. لاحتها فوق السطح بين كيمان القش . تاهت مني ، درت  
كأني في متاهة شاسعة أبحث عنها .. كانت مستغرقة في النوم مستلقية  
بين أكمام قش الرز وقد تعرت إلا من قميص ممزق . وكان القمر .. يغمر  
الليل حولي يحيطني بوجه ضياء لا حدود له . كنت نشوانا .. تقدمت  
منها .. وجلست أتأملها وهي ساكنة في سلام .. وحين لمستها فزعت ،  
لكنها أخذتني في حضنها .. حتى فاجأنا عسكر الخليفة وجر جرونا بعد  
أن ربطونا من الأقدام بحبال من مسد خلف الخيل .. وأنا أحارب حمایتها  
دون جدوى .. ثم فرقوا بيننا .. إصطحبوها إلى مقر السلطان . أما أنا  
فجلدوني تحت شباكها حتى تقطعت أنفاسي ..

لو كنت ساعتها معي لما حدث لي ذلك .. نعم افتقدتك وافتقدت  
أفكارك وحيلك وقدرتك على مواجهة مثل هذه المواقف .. كنت متأكداً  
أنني سأخرج من مخبي في هدوء عندما تنتهي من أعمالها العادمة .. وحين  
ينخدم الجميع ستأتي هي إلى . وعلى المفرش البمبى الساتان الناعم الملمس  
. وتحت هذه الناموسية التي تشبه خيمة من ضوء القمر ، سنقضي ليلة من  
العمر حرمت منها .. ولكن هذه الصورة لم تتح لي أبداً .. حتى عندما  
حاولت ، غلبتني هلاوس .. حملتني بعيداً .. نعم كانت معي في كل هذه  
التخاريف ولكنني لم أحتويها أبداً ولم أقضم تفاحتها .. فجأة أحست  
أنني تجاوزت حدودي ، وأنني ارتكبت حماقة كبيرة . وأن الأمر لن ينتهي  
على خير .. كالعادة بدأت في تأنيب نفسي .. أرهفت السمع قد أسمع  
شيئاً .. على الإطلاق .. وكان البيت ومن فيه ماتوا أو رحلوا ..  
تنبهت على خطوات متلصصة .. كدت أنادي عليها ولكنني لم أجربه  
.. ولحسن الحظ لم أفعل .. فمن خلال أحد ثقوب الدانتيلا اليدوية التي

وتأملت جلستي متربعاً للحظة . كادت تنفجر ضاحكة .. كتمت  
ضحكتها بصعوبة .. وإن أعجبتها بل أذهلتها فكري - (آن لك أن  
تصدق أن كل هذا يخرج مني)! - تمالكت نفسها :  
- واللي نبا النبي إنك تجننت .. كل ده يطلع منك انت ..?  
- إنتي بتقولي فيها .. أنا أصللي جوًّا يا عفريت .. مش قالولك ان أنا  
بالليل باصحى وازعق واهلوس بكلام .. أنا كده .. وذنبك على جنبك..  
تعالي .. أنا عارف انك بتحبني .. بس مش قد حبي لك يا (ترجس).  
- حبك اللي ما يتسمى .

لم أعر اعراضها أي انتباه .. ( واستمر صوتك على لسانى ).  
- إنتي بالراحة تقومي تخرجي وتعملين اللي انتي عايزاه . زي كل  
يوم .. أنا مش منقول من هنا .. ولا الجن الأزرق ح يعرف طريقي . إلا  
إذا اتي حبيبي تفضحينا .. هه .. انتي حرة ..  
سحبت نفسى ونمت فوق الزكيبة وأغمضت عيني .. بينما هي تنظر  
إلى في ذهول وعجز .. بل وخوف .. نجحت فكرة العفاريت والجنون  
.. ( علمتني أنت أنهن يصلون كل ما يتعلق بالعفاريت .. الخرافة غذاؤهن  
اليومي .. صلاتهن .. رغبتهن في السلام والأمان .. شوقهن إلى الحياة  
والنعم .. صدقتك ، وازادداد إيماني بسلوك المؤكدة ) .. لأنها صدقتنى  
واستسلمت .. وأرخت ستاره .. وفتحت الباب وخرجت ..  
بينما رتبت أنا مكاناً لائقاً بما يكفي . ونمت (ابتسامة انتصارك)  
عريضة تکاد تنطلق في قهقهه فاضحة ..

لست أدرى كم من الوقت مضى وأنا بين الصحو والنوم ، تدور  
برأسي الأحلام ، وتصورات ملونة لما سيحدث .. كنت بين الحلم والعلم  
.. بين الصحو والنام ، لكنها كانت دائمًا معى .. أخذتني من يدي ..  
نزلنا البحر ، سبحنا حتى غرقنا .. أنقذنا قرصان عابر حاول اغتصابها

فرحت مهولاً وأنا في غاية من الرعب والاضطراب أجر جثتي خارجاً  
.. لتلقنني يد خالي و(رسمية) يسويان منكوش شعري .. ويحدراي من  
النطق بكلمة :

– انت اتحننت يا وله .. إيه اللي عملته ده ؟

كاد يغمى علي .. لكن (نرجس) ساعتها دخلت .. ولم تقاجأ  
بوجودي ولم تنزعج.. كانت تحمل صينية عليها عدة الشاي وضعتها  
وسطنا .. ورفعت رأسها في ابتسامة انتصار وتشف :  
– شرفتنا يا (سي سمير) .. والنبي خطوة عزيزة .. دا احنا زارنا النبي  
.. دا احنا ناس فلاحين مش قد المقام .

تفجر العرق بغزارة من جبني . أحسست به يغمر جسمي .. دارت  
بي الغرفة .. حاولت أن أفهم ما حدث .. معقول !! هل جاءت بهم  
الصدفة .. لا .. لقد رحبوا بي قبل دخولهم كأنهم يريدون الإعلان عن  
وجودي معهم .. غامت الدنيا أمام عيني ..

أخذتني خالي في حضنها وهي تضع كفها فوق جبني .. وصاحت  
.. وهي تبسم وتقرأ (الصمدية والكرسي) وأدعية أخرى بلغة غير  
مفهومة .. ترقيني لتطرد الشياطين التي ركتبني وغوتني ..

– يا حسرة قلبي .. معلهش يا أختي .. ما تصيبش الشاي .. إحنا  
قايدين .. الشاب قايد نار .. فجأة كده ؟ يا حبة قلبي .. قومي يا (رسمية)  
إسديه معايا ..

– يمكن ما عجبتوش عيشة الفلاحين ..  
قالتها حماتها في سخرية ولكن في براءة ..  
لكن نظرة (ملوك) التي فتحت الباب وسلمت على (رسمية) وهي  
تمقصص شفتيها في استغراب ولهجه تشي بشك كبير :

تنzin الستارة .. لمحت الباب ينفتح في هدوء .. ورأس (ملوك) يندس بين  
الدرفين تبحث عن شيء ما .. لم تهدأ .. ولم تقنع أن أحداً لم يدخل ..  
لخطب هذا كياني وشل تفكيري .. (فلا بد أنك تخليت عنني تماماً، وتركتني  
أو اجه هذا الموقف وحدي) .. فلم أستطع سوى أن أرتعش رعباً .. قالت  
(ملوك) في صوت هامس :

– مين اللي هنا .. وله ؟!

كتمت أنفاسي . وتوقعـت أن تدخل فترفع القماش وتكشفـني ، وتبين  
لي أنـي شخص مختلف كثـيراً عـما كنت عليه قبل أن تـركـني (نرجـس) ..  
ذلك لأنـك اختـفيـت عنـي ورـحلـت حتى عنـ ذـاـكـرـتـي ، وأـنـاـ فيـ أـشـدـ الحاجـةـ  
إـلـيـكـ ..

شيـءـ ماـ جـعـلـ (ملـوكـ)ـ تـعـدـلـ عـنـ الدـخـولـ ،ـ وـتـسـرـعـ بـإـغـلاقـ الـبـابـ  
فيـ هـدـوـءـ ..ـ وـسـمـعـتـ بـاـبـ غـرـفـتـهاـ يـغـلـقـ بـصـوـتـ عـالـ ..ـ ثـمـ سـادـ الصـمـتـ  
لـلـحـظـةـ ..ـ بـعـدـ ..ـ سـمـعـتـ صـوـتـ (نـرجـسـ)ـ يـعـلـوـ فـيـ صـخـبـ مـرـحـباـ ..

– يا أهـلاـ ..ـ يا أهـلاـ ..ـ دـاـ اـحـناـ زـارـنـاـ النـبـيـ ..ـ مـعـقـولـ ..ـ أـهـلاـ ياـ سـتـ  
(ام فـهمـيـ)ـ اـتـفـضـلـ أـهـلاـ ياـ (سـتـ رـسـمـيـ)ـ ..ـ مـعـقـولـ ..ـ وـ(ـسيـ سـمـيرـ)  
كمـانـ إـيـهـ دـهـ ؟ـ يـاـ دـيـ الـهـنـاـ لـمـ تـزـورـواـ نـاسـ فـلاـحـينـ زـينـاـ ..

فـوجـئـتـ باـسـمـيـ يـعـلـنـ عـنـ حـضـورـهـ ..ـ وـشـاهـدـتـ خـالـيـ وـ(ـرـسـمـيـةـ)  
وـ(ـنـرجـسـ)ـ يـدـخـلـنـ إـلـىـ الـحـجـرـةـ وـرـأـيـتـ خـالـيـ وـابـنـهـ تـفـرـشـانـ الـأـرـضـ  
بـجـوارـيـ مـبـاشـرـةـ ..ـ بـيـنـمـاـ اـرـتفـعـ صـوـتـ (نـرجـسـ)ـ تـنـاديـ حـمـاتـهاـ أـنـ تـنـزلـ  
لـتـسـلـمـ عـلـىـ الضـيـوفـ ،ـ فـيـ الـوقـتـ نـفـسـهـ سـمـعـتـ هـمـسـ (ـرـسـمـيـةـ)ـ يـدـعـونـيـ  
فـيـ حـزمـ لـيـسـ غـرـيـباـ عـنـهـاـ :

– أـخـرـجـ يـاـ (ـسـمـسـ)ـ ..ـ اـظـهـرـ وـبـانـ يـاـ أـخـوـيـاـ وـعـلـيـكـ الـأـمـانـ ..ـ يـالـلـاـ ..  
لـمـ أـفـهـمـ شـيـئـاـ ..ـ لـكـنـهـ مـدـتـ يـدـهـاـ مـنـ تـحـتـ الـقـمـاشـ تـسـتـعـجلـنـيـ ..

– هوَ انتو لحقتوا . ماشين على طول كده ليه ؟ الشاي ما اتشربش ..  
اسم الله عليه .. إيه اللي حصل له؟ بعد الشر عليك يا ضنايا ..  
لم تلتفت لها خالي وخطت بي إلى الخارج بسرعة.. تريد أن تنهي  
الموقف الثقيل ..  
وقالت لها (رسمية) وهي تربت على صدرها .. في لهجة انتصار  
نسوي :

– آشيته بعافية شوية يا أختي .. شوفتي .. ما لحقناش نقدر ونتسامر  
معاكي .. معلهش يا (نرجس) نجيلك مرة تانية .. خيرها في غيرها ..  
(نرجس) – على ما أعتقد – لم تحتمل . فأسرعت إلى غرفتها وأغلقت  
الباب عليها.. ولا بد أنها انخرطت في البكاء المكتوم حتى أغمت عليها ..  
من الحسرة وخيبة الأمل .. تلعن العيشة اللي عايشينها .  
بينما (أنا متتأكد) – أن (ملوك) همست لنفسها غير مفتعلة بكل ما  
رأته :

– لا والنبي واللي نبأ النبي .. ده ملعوب كبير قوي .. الحكاية دي  
مش نازلة لي من زور.

لكنها على ما ييدو بلعثها بعد ذلك على مضض ولم تحرر حولها ،  
عندما بلغها أنني سقطت بالفعل مريضاً مرضًا لم يعرف له (حامد أفندي)  
حلاق الصحة وتومرجي الدكتور (حبيب) سبباً ولا دواء.. ونصح  
بضرورة استدعاء الدكتور (حبيب) نفسه . أو نقلني إلى المستشفى الأميركي  
بالمصورة على الفور ..

• • •



## إن الإنسان ليطغى . . .

○ أعتقد أنك تأكدت الآن أن الذي يدفعني  
ويغربني مرة أخرى بمعاودة الكتابة عنك هو أنك  
بكل المقاييس أعز ما ابتلعني به الدنيا من أصدقاء في  
الطفولة والمدرسة ، بين الناس ، في السجن والغربة  
، ولأنني أشعر عندما أكتب وأنت معي ، يصبح فعل  
الكتابة أجمل وأسهل مع أنك مع كل جملة تخلق  
على الورق ، تغمغم معتراضاً في غضب أو سخرية  
على طريقتك.

– (لا يا حبيبي) ، أنك تقصد (أنا) بالكتابة  
عني يعني (عنك) تستطيع أن تتحرر لست جمل وأنت  
تکذب فتحكـي ، تخترع وقائع لم تحدث ، أو تغير  
في ترتيب الواقع كما تشاء أو تبالغ في قيمة بعضها  
وتخلق شخصيات تنسب إليها نمائـك ومعـاكـ

- حقائق إيه يا عم؟ وأكاذيب إيه يا صاحبي وبطيخ إيه؟ حيلك على ، لماذا ذهبت بعيداً يا صديقي؟. أنا أكدت منذ البداية أنك - وحدك - كنت ومازلت أهنم (شيء) في حياتي حتى قبل أنتحقق بركبك (اللينايري) أو أعتقد مبادئك الماركسية - بصرف النظر عن مشاعرك من حيث ثقتك في أو شكلك في مدى إخلاصي لك واعتراضي أو عدمه بجميلك الدائم والمؤثر الملمس والمؤكد على مسارى وتكوينه بل على مسار الوطن لعقود طويلة .

أنا يا عمي لم ولن أغير رأيي فيك . وأعترف مرة أخرى أن كل شيء جميل وحي ودرامي وله صلة بالحياة (الحقيقة) من حب وجنس أو فيما يتعلق بالإبداع والموهبة والصدقة والمقدرة على الفعل أو العجز عنه والإصرار على الحق واتخاذ الموقف السليم كما أتصوره يرضيك (سواء تخوض هذا عن غباء عظيم أو ميزة فادحة) كان كله بسببك وبالتأكيد كان الفضل فيه عائداً إليك بصرف النظر عن خيبة فكرة (دكتاتورية البروليتاريا) التي انتهت في الواقع إلى دكتاتورية أجهزة الأمن السرية ومستويات التنظيم العلنية والتي دفعتك للإنتحار الإرادى أو القسرى (مثلاً سيكشف المستقبل) في منتصف العام الخامس والستين حتى يتحقق السوفيت إنهيارهم العظيم بعد سقوط حائط برلين..

فكمل جميلى وتحملنى وساعدنى على أن أكمل وبعدها حاسبى . لقد كان في نيتى الآن وقد شجعني ذكرك على معاودة الكتابة بعد انقطاع دام أكثر من عام محل ، عجزت فيه عن إضافة سطر واحد إلى ما كتبته من قبل عجزاً ويسراً وقرفاً ب رغم صدور الرواية السابقة (ولا هم يحزنون) .

بما يجعلك تضفي على نفسك ملامح رومانسية مبرأة من كل خطأ، وتظهر بريئاً لم تقرف أي جريمة في حق الآخرين أو في حق نفسك، وتستمرى بكل خبث وبكل براءة أن تنسب لي تحريضك على كل الموبقات والخطايا التي تعطيك من ساسك لراسك.

أصبح أنا الذي دفعك للتطاول على المرأة في القطار رغم غيابي وحضور كل من كانوا حولك وبينهم أبوك وزوجها .. أنا الذي دفعتك دون أن أدرى - يا جباريك - لاقتحام غرفة (نرجس) بهذه الطريقة وكأنني الذي أوحى إليك بتلك الخطة التي لا يفكر فيها إلا (خباص) أرارى وبتابع نسوان متودك .. أنا طبعاً الزنديق الذي وسوس لك وجعلك تسخر أمام خالك من بناء فلك (نوح) في الصحراء . بل وتدعي أنتي جئتكم هاتقاً كصوت مقدس من السماء وأدعوك وأحرضك على احتضان (زهزهان) المسكينة بحجة مواساتها بتجفيف دموعها بشفتيك إمعاناً في الحنية (يا راجل يا ضلالي!) خلاص - تريدين أن أكون شيطانك أم ملاكك - هيا استمرئ سكتوي وانتهز فرصة وفاتي ! . واستحل عدم قدرتي على الرد على ترهاتك وادعاءاتك .

اختفِ ورائي ، توار - يا جبان - لكن لا تكون فجأاً وتزودها فتصبح اللعبة مكشوفة واللحجة تصبح مفضوحة . كن كما تدعى رجالاً شريفاً - واعترف - فهذا منذ البداية كان وعدك لمن سيسوقهم سوء حظهم لقراءة هذا الهراء الذي تعانى كي تسكبها على الورق الذي لا يتعامل معه الآن إلا القليلون وأقل منهم من سيصدقون ، بحكم الظروف التي أحاطت بك وبي وحاصرت كتاباتك وحاصرت وجودي عبر كل هذا العمر . ولا أعتقد أن مزيداً من الأكاذيب أو - يا سيدى حتى لا تغضب - مزيداً من فبركة الخيال والحرفنة أو ادعائهما سيغير من الحقائق شيئاً .

أمام الآخرين في سهرات ليالي الشتاء العائلية حول منقد النار .. فكنت أفعل مطابوسا في تمنع مفتعل يجعل الكل يحيطونني بالاغراءات لأمارس ما كنت تفسره أنت بالأأنانية وعشق الذات ، وكل تلك التعبيرات المعقّدة التي أنكرها تماما ولكنك أبدا لم تبرأني منها .

أريد أن أذكرها ببساطة فنية . تعوزني الكلمات لأقولها أنك كنت - كما قلت من قبل متحدلاً - كنت (جبريلي وخضرى وفيرجيلي) . في أجمل وأسوأ ما حدث لي طوال هذه الرحلة منذ وعيت على الدنيا ومضيت في مناكبها ، أعني متابعيها من سفر وسجن وغربة وصراعات وحب وكراهة و Yas و هزيمة . نعم ، فأنت ، سواء كنت تدرك أو لا تدري ، تذكر أو لا تذكر ، أنت مثلاً .. على سبيل المثال ، لابد أنك كنت من عرّفني على (حسين عبد ربه) !!

• • •

كان عاماً كبيساً تمت فيه سيطرة سياسة التصفية (السقوف الواطئة) على اليسار وقت صياغة سياسة (التمديد) إلى الأبد (التوريث) إلى ما شاء الله .. وظهر مخطط بلقنة المنطقة بالكامل بمشاركة ومبركة كل قادة المنطقة كل حسب الدور المنوط به !!

وانتهى بتدمير (لبنان) وذبح أطفاله . كان عاماً ثقيلاً وقاتلًا ! ذكرناك وحدها وأحلام صعودك وعودتك مرة أخرى كانت دافعي الذاتي لتخطي وتجاوز عجزي ، وعودتي للكتابة ، مرة أخرى . أقسم مؤكداً على حضورك في ، معترفاً للأبد بفضلك عليّ وعلى حياتي كلها . فلا بد أنه أنت أو شيء منك هو ما دفعني لاعتناق الشيوعية مثلاً . نعم أنت أو شيء ما من طرفك ، زين لي ذلك الطريق ، وقدني إليه واختار لي أصدقاء وأعدائي . والكتب التي أقرأ والبنات اللاتي أحببت ، بل والطريقة التي أحبيتها بها ، نعم كنت الدليل أو الملام لي إلى أهم وأتفه وأجمل وأرذل ما مر بي من أحداث . لا أريد أن أبالغ في كرهني القراء وأهون عليهم . ولا أريد أن أهول فتكرهني أنت أو تفارقني رافضاً كعادتك ميولي الفردية الاستعراضية ، ورغبتي الدائمة في الاستحواز على أعجاب من حولي .. منذ نجاحي في لعب دور (الأمين) على المسرح ، وشيوخ قدرتى عن استعادة أحداث وصور تلك الحكايات العجيبة التي كان يقرأها علينا مدرسي الرسم عن آلهة الأوليمب وابطال الأساطير وقدرتى على روایتها كأننى عشتها أو أقرأها من الكتاب بكل تفاصيل أحداثها وسحرها . خاصة وان خالاتي العوانس كن يطلبن مني قراءة (ألف ليلة) لهم .. ويستعدنها مني

محدودة ومعزولة مثلها . ومن هنا كان افتانهم الدائم والتحاقهم بكل حكومات الأقلية وتفانيهم في خدمتها ، وخدمة الملك على مر العهود ، مما ضمن لهم وللمتعلمين من أبنائهم الحصول على مراكز مهمة ووظائف محترمة في كل الأجهزة السيادية حتى في عز (أيام الاشتراكية !) . أما (علو البلد) الوفدى فقد كان يشكل الجزء الأكبر والأكثر من البلد إذ يمتد على مساحة شاسعة تكتظ بالبيوت المتراحمة ، فيما بين ترعة السلطان ، عبر جسر سكة حديد الفرنساوى والزراعية جنوباً ويتجاوز البحر القديم شمالاً ، محتفظاً بثلاثة كبارى خشبية ضيقة تربط البيوت المنفلتة من الزحام بالجسم الرئيسي للقرية ..

كان بيت جدى الذى أصبح بيتنا بعد انتهاء عصر ستى (أم العز) أم علام - التي كانت تختل النصف الداخلى من الطابق الأرضى ، مؤكدة هيمتها على بقية البيت من أول الباب الفريد ذى التهاويل الخشبية الفاخر على الشارع حتى السطوح العليا للدور الثانى حيث إيرياں الراديو الذى يشق عنان السماء متقططاً الاذاعة (المصرية والشرق الأدنى) . يقارع موسيقاہ وأغانیه وأحادیثه حدة صوتها الذى لا تقطع أوامرہ لكل داخل أو خارج من الدار من البشر أو الحيوانات والطيور .  
وانتهى. معتها الصراع الذى كان حاداً في النصف الثانى من اليوم لأن لها وحدها الهيمنة طوال النصف الأول من النهار ، حيث تهدى حركة البشر بمعادرة الصغار والأب البيت إلى أعمالهم ومدارسهم وانقطاع الإرسال بطبيعته .

بقية بيوت دار (عوض) حيث يسكن أعمامى وعماتى كانت بجوار الخراب على مسافة قرية ، وعيادة دار (عوض) فرع من كيان كبير غير محدد

## ويخلق ما لا تعلمون

○ طول عمر (ميت سلسيل) قرية وفدية . وفي القرى الوفدية المصرية كثيراً ما تنمو وتزدهر الأفكار الثورية وتنفس هواء الحرية والتقدم فى مواجهة أقلية من العائلات الأكثر ثراء وفيها كان معظمهم يقطنون الجزء الشرقي منها والمعروف بـ (واطى البلد) .

كانت عائلات (القصبي) و (قداح) و (عاشور) و (مقيل) وكذلك (دار أحمد) تكره الوفد على طول الخط . وينتقلون دائماً في أذىال أعدائه ، من أول السراية حتى أصغر أحزاب الأقلية . لذلك تخلقت منهم وتحوصلت بينهم ، كالأتمية ، خلايا (الإخوان المسلمين) و (مصر الفتاة) وغيرهم من أصحاب الأفكار الفاشية والرجعية . وإن ظلت



ميت السبسى  
في المنيب

لديهم من الأحلام ما يجعلهم يناظرون الحياة لجعلها أفضل . ولدى الجميع تخدم رغبة عارمة لتعليم أولادهم تحدياً للفقر . كانت (بائعة الفجل) تكدر لتوفر مصاريف ابنها ، وكان العربي السريج وعامل التراحيل الأرزقى يذوق الأمرين لتوفير مصاريف تعليم ابنه في البندر . كان الطلبة يشكلون ظاهرة لا يمكن تجاهلها في تshireح القرية الاجتماعية وخاصة طلبة (علو البلد) الذين شاع خبرهم فيما حولنا من بلاد كطلبة محترفين .

كانت بلدنا قبل قرار (طه حسين) وحكومة الوفد أن يكون التعليم كالماء والهواء للجميع - تشرب وتتنفس قدر الإمكان هواء وماء العلم ، لكنها فرحت فرحاً لا يقدر لأن ذلك القرار - الذي تأخر كثيراً في رأى أهلها ، وفر على الكثرين منهم وعلى أبنائهم مذلة تقديم شهادة إدارية موثقة تعرف (بالفقر) والعوز ، مذلة كانت السبيل الأوحد لحصول الكثرين على فرصة تعليم مجاني ثمناً لاعتراف ورضا بالتدنى الاجتماعي وإقراراً بذل الفقر والعوز .

لذلك كان من الطبيعي أن يسعى رجال (علو البلد) بشدة لفتح المدرسة الابتدائية الأولى في (ميت سلسيل) حتى قبل وصول الوفد إلى الحكم ، بجهود ذاتية عقرية توكل أن الابداع كان سمة من سمات الشعب المصري ، الذي كان أيامها قد صك شعاره العقري (الجلاء بالدماء) !! في تلك الأيام بالذات تعرفت على (حسين عبد ربه) . ولكنني لا تغضب أو كد أنني لست متاكداً يا صديقي تماماً - فضلك في هذا . ولكنها طبيعة البدايات الغائمة التي تمتد ملامحها في المنطقة العالقة في أعماق الذاكرة بين حبال التذكر وغيام النسيان ، وإن كانت الأحداث ستكتشف كعادتها دون اى قصد أو تعمد ، عن دورك في انعقاد تلك الصدقة التي دامت برعايتك طبعاً - بل وفي بعض الأحيان رغم أنفك - حتى نهايات العمر .

اسمه (عيلة الشرفا) يضم العديد من الفروع مثل (النبراوى) و(شهاب) و(مجاهد) و(حجازى) و(طه) و(الحلو) و(نابل) و(عطاطا) و(الحسين) و(جبر) و(شطا) و(عابدين) يختلطون في (علم) البلد بعائلات أخرى كثيرة مثل (قنديل) و(الرمبالي) و(البراوي) و(أبو العز) و(أبو الفضل) و(العصفورى) و(على) و(الزفتاوي) و(رخا) و(بدر) و(عبد ربه) و(المملة) و(العشماوى) و(القواسم) و(البسى) و(الدسوقي) و(أبو مسعد) و(أبو دهينة) و(التحاس) و(الأزرق) و(جعطيط) و(حبيب) و(الموافى) و(عبد النبي) و(هاشم) و(زبلة) و(الضھيرى) و(أبو الحسن) و(العربى) و(الطنطاوى) و(البيومى) و(مطاوع) و(القشلان) ومعظمهم من الملائكة الصغار ، أو المتوسطين ومن أهل التجارة والأسواق ومن أصحاب الحرف والصناع ، من فقهاء وجزارين وسماكين وحلاقين وقصاصين حمير ونجارين وتجار وقهوجية وعربجية وباعة ومدرسين وصغار موظفين وعمال تراحيل .

لذا كان أهل (واطى البلد) يطلقون علينا أسم أو صفة (!!)(السوقية) نسبة إلى السوق ولم نكن نعتز بهذه التسمية ، لكننا لم نكن نغضب منها . بل كانت أحياناً موضع فخر لدى الكثرين ، وتوحي لهم بالرجلة والفتونة والخشونة والتمرد . بل كان ابن عمى عبد الحليم (عبد الرحمن) وهو فلاح انقطع عن الدراسة بعد أن نال قسطاً متواضعاً كافياً أن يميزه عن الآخرين ويؤهله لشراء جريدة (المصرى) بانتظام .. وليعطيه الحق أن يطلق علينا سكان هذا الجزء الحى من القرية بكل بساطة وتعال - الشعب (الدهماء) !!

وبالرغم من أن حدود العيش في الغالب الأعم كانت ضيقة كحدود الرزق في علو البلد إلا أنهم جميعاً (ميسورين وأرزقية) كانوا طموحين

أفندي عاشور) العمدة . وطبعاً كان هناك آخرون - بين بين - تطوح بهم الظروف السياسية والاقتصادية فيما بين هؤلاء وأولئك مثل (محمد أفندي العزبي) والشيخ (حسن أبو مسعد) والشيخ (على الدسوقي) كبير عزبة الدقون . وطبعاً كان يتخلل هذا التسريح متى دون على التصنيف والتسلكين لكنهم حاضرون ولهم حساب عند الجميع سلباً أو إيجاباً - مثل (مجاهد أحمد طه) و(العدل مجاهد) و(حسن أبو مصطفى) و (أبو نضارة) و(السيد الغرابوى) و(محمد السقا) و (إبراهيم رخا) و(يسن أفندي) و(السعيد حمزة) .

اقول (رجالات) لأتجنب الكلمة (أعيان) التي كان لها مدلول اقتصادي وسلطوي طبقي آخر في أدبيات تاريخ تلك الفترة . فلم يكن (رجالات) (علو البلد) جميماً من أصحاب الملكيات الزراعية الكبيرة ، ولا كانوا كلهم رؤساء عائلات كبيرة يكتسبون من خلالها مكانتهم . قد ينطبق هذا بشكل أكبر على بتوغ (واطى البلد) ، ف(توفيق بك قداح) أو (أحمد أفندي القصبي) و(حسين بك عاشور) مثلاً ، يمتلك كل منهم على الأقل ما يقرب من مائة فدان .. وإن كان معظمهم لا يقع في زمام (ميت سلسيل) فقلل ذلك من نفوذهم على فقرائهم .

أما بتوغ (علو البلد) فلم تكن لمعظمهم ملكيات كبيرة ملحوظة ، بل كان بينهم من لم يكن يمتلك أرضاً على الإطلاق . أو من كان مجرد صاحب دكان وبجارة مميزة كالخشب أو الجاز أو تاجر أقطان (موسمى) أو (تاجر أقمشة) أو مقاول عمليات أشغال أو تاجر حبوب . ومنهم من كان صاحب عقل راجع ، أو كبير عائلة كثيرة العدد أو كل له رجالها التحدث باسمهم ، مثل عائلة (القواسم) أو (العشماوى) ، أو كان مجرد صاحب وظيفة لها هيبة ومكانه مثل شيخ الجامع (أبو بكر) ، ومتعلم

كان (كامل أفندي مصطفى عبد ربه) أو (مصطفى كامل أفندي مصطفى عبد ربه ) الذي أخذ اسمه على الأرجح تيمناً باسم الزعيم الشاب ، مشعل شمعة الوطنية في ليل الهرم بعد (هبة عرابي) - والد (حسين كامل مصطفى عبد ربه) واحداً من (رجالات) (ميت سلسيل) . ولم يليست (رجالات) هذه تعبيراً أدبياً (من وقتنة فقط) وإنما هو تعبير عن حقيقة أو ظاهرة لا يمكن تجاهلها . ولعلها كانت ظاهرة عامة في كثير من قرى الأربعينات نعم أشهد أنه كان هناك (رجالات) فعلًا .

ف(كامل أفندي عبد ربه) والشيخ (على أبو الحسن) والشيخ (مجاهد أبو دسوقي) و(محمد أبو على أبو عابدين) والشيخ (أبو بكر) شيخ الجامع الكبير و(عبد الرءوف أفندي) والشيخ (شطا) والشيخ (محمد أبو مجاهد) و(عبد الباقى أفندي عوض) والشيخ (أحمد أبو حسانين) و(جاد أفندي عبد النبي) و (محمد أفندي الطنطاوى) و (الشيخ عويضة شهاب) و(حسن أبو موافى) و(محمد أبو دسوقي التملة) والشيخ (على أبو على الأمير) والشيخ (عبد الحليم النبراوى) و(السيد أبو سيد) و(محمد أبو نبراوى) و(عبد الجليل النبراوى) و(محمد أفندي شطا) كانوا وغيرهم من تعجز ذاكرتي عن إستحضارهم جمياً (وقد يأتي ذكرهم مع توالى الأحداث التي من شأنها إنعاش مضادات النساء) كانوا هم رجالات (علو البلد) وطبعاً كان هناك مثلهم في (واطى البلد) يجبرني روح العدل - التي ربتهن عليها يا صديقي - أن أذكرهم والشئ بنقيضه يذكر نعم كان (واطى البلد) رجالاتها أيضاً بالطبع ولكن مع الفارق الذي لم أضعه أنا . كان هناك (توفيق بك قداح) و(أحمد بك القصبي) و(محمد أبو مقبل) و(مصطفى أفندي مقبل) و(حسين بك عاشور) و (إبراهيم العزبي) و(عرفات الغندور) و(أحمد أبو أحمد) و(عوض قداح) و (نصر

اللازم؟ أو لأنني نسيت البعض؟ أنا أذكر معلومات لا رأياً لختلف ، فلماذا تعرّض؟ .. أنت الذي علمتني أن أحترم البشر ، خاصة عوام الناس من الرجال والنساء فلماذا تغضّب ، لأنني أريد أن أؤكد فكرتك أن الإنسان هو أثمن رأسمال؟ وأنه في أيامها رغم الاحتلال والملك والسرابة والخيانة ... كان الرجال يتصدرون لا بالكلام فقط ، ولكن بالفعل وبالجهد. وكان لهم اعتبار ومكانة كبيرة ليس لدى أهلهم فقط أو لدى قراهم فحسب ، ولكن الكل كان يعمل لهم ألف حساب عند الحكومات ، حتى حكومات الأقلية . وعند الإدارة كان صوتهم مسموعاً يصل لقمة الجبل الإداري - لاحظ أنهم لم يكونوا رجالاً في خدمة السلطة كما يحدث الآن . صدقني - انزل أي قرية مصرية الآن لن تجد مثلهم ، إلا أولئك المجالسين على حجر التنظيم الرسمي أو الحزب الحكومي أو أجهزة الأمن ، وستجد مثلهم مقهوراً معموماً مطارداً إلى الهاشم يبحث عن ظل حيط . وإلا قل لي بربك : لماذا اختفى (الطلبة) كظاهرة ثورية من حياة قراهم وصاروا مجرد آحاد ، أعداد ، أرقام ، خيالات ظل؟ ولم يعد يظهر لنا مثل هؤلاء (الحالات) التي كانت تقود القرى وتتنسى ما بينها من خلافات سياسية إذا تعلق الأمر بإنجاز أو تحقيق مصلحة لخدمة القرية؟ .. سكت .. طبعاً . ولعلك فهمت لماذا أذكر كل هذه الأسماء في معرض حديثي عن علاقتي بـ(حسين عبد ربه) تلك التي بدأت - كما لا أتذكر - على يديك ، ولكن أعذرني هذه حيلة ردئية من حيل الكتابة . وعلى فكرة حتى ولو أنكرت ، أنت الذي علمتني اللجوء إلى مثلها ضمن ما علمتني من عادات سيئة !

الحارة الغريبة الشعبانية تستدق وتضيق في معظم أجزائها حتى تصبح مجرد زفاف يعتمد تقسيم (ميتسيل) قسمة جغرافية غريبة ، تكاد تتفق

صاحب شهادة - مدرس مثل (محمد أفندي سالم) و (يس أفندي) أو رجل طيب على قده مثل عم (الصديق الصحصاح) أو رجل مهمات صعبة مثل (إبراهيم أبو رخا) أو (السيد الكذاب) وإذا مددنا الخطوط على آخرها فسوف نصل إلى رجال لا يمتلكون من ضهر الدنيا شيئاً يصنع جاهماً أو نفوذاً في أعراف ذلك الزمان . لكن البلد لا يمكن أن تتجاهلهم إذا ما ألمت بها كارثة ، أو اندفعت لتحقيق شيء فيه مصلحة عامة ، أو درء مصيبة فادحة كبناء مئذنة الجامع المنهارة أو استكمال فصل ثلاثة ابتدائي على الأقل ، والحصول على وعد بالسنة الرابعة قبل البدء بتأسيسها ، أو بناء مقر للإخوان المسلمين ، أو مواجهة الوباء أو ردم البركة أو إزالة الخراب ، وبيع أرضها ليساعد ثمنها في بناء المدرسة الجديدة . يوم يضيق بيت الشيخ (على أبو الحسن) على تلاميذ البلد الذين يتکاثرون بمتوالية هندسية - وغير ذلك - خاصة إذا ما سمحت الظروف أو حتمت حدوث انتخابات حرة أو غير حرة فيستنفرون لتعلن (ميتسيل) رأيها الوفدى دائمًا رقم مقاواحات (واطى البلد) .

وكان من هؤلاء مثلاً (سعد الطنطاوى) الرجال و(احمد أبو جبر) و(عبد الحميد عثمان) و(السعيد الضھيرى) و(مأمون عبد الحى) الضابط الذى حكم عليه بالإعدام بعد الثورة و(الخواجہ سیپرو) ناظر المحطة والشيخ (محمد أبو عبد الله) و(شاكر أفندي الدغیدی) وطبعاً (يوسف أفندي عبد ربه) و (محمد عبد حسين) اللذين كانوا على أيامها من الشباب الناهض - الذى ظهر فى القرية بعد الحرب العالمية محملاً بافكار وخبرة (جنة الطلبه والعمال) و(الطليعة الوفدية) - وما أدرك

لماذا أشعر أنك تتململ وتکاد تنفجر غيظاً؟ هل لأنني أثرث أكثراً من

الحركة لا تهدأ ولا تهدى ولا تنام فى النهار كما فى الليل مثل دكاكين (علو البلد) التى كان لكل منها طابع المنتدى الليلي . دكان (محمود شطا) مجلس جماعات السياسة الوفدية ، ودكان (محمد النحاس) ملتقى الشباب من الطلبة ، ودكان (جاد عبد النبي) ودكان (الشيخ شطا) ، مجلس أهل العقل والحكمة من هم فوق الأربعين . وبرغم ذلك جاء وقت ضاقت فيه شباب (علو ميت سلسيل) باهلهما المتكلمة فظهرت عدة نواصي ومصاطب تشتبك فيها وتحتمد عليها الأحاديث الصاخبة والسمير الهادئ ، كما انتشرت إلى جوارها منتديات عشوائية فى أماكن مختلفة .

عايشنا ذلك منذ الصبا، واعتنينا هذا الضجيج المحاصر بظلام الصمت بعد حراك المساء والذى لا يهدأ ولا ينوى يأسننا ويجدبنا كالفراشات، ويندفع البعض منا للاقتراب فى تشوف ، مصطنعاً الجدية، ثم منهشاً منفعلاً ثم مشاركاً، إن كان له ثمة قرابة أو انتماء لبعض المارسين الكبار، وقد يجد الفرصة للاندماج حسب سنه طبعاً ، وحسب طبيعة الموضوع، ولغاية التدخل ولو بسؤال .

على خشب بنكبات الدكاكين وعلى تراييزات المقاهى ، بل وعلى التراب وفي الساحات والتواصى ، كم رسمت الخرائط ، ووضعت الخطط لتحرّكات جيوش (هتلر) والمحور ، ولتجمعات قوات الحلفاء ، وعصابات (البارتيزان) ، والمقاومة الفرنسية ، وكارثة تقهر (المجيش الأحمر) أمام النازى ، ثم عودته لاكتساح (الإلمان) فيما بعد وأساطير (ستالينجراد) ورجال الأنصار الحمر !! وكم استخدمت قطع الدومينو أو الزلط أو الأحجار أو أى شئ متاح للدلالة على موقع (روملي) و (مونتجومري)

مع قسمتها الاجتماعية إلى (علو وواطى البلد) . الحرارة تبدأ من الجنوب حيث البركة ، عند نهاية محزن محطة القطار ومبني جمعية الإخوان المسلمين الذى أقامته القرية عقب خيبة أملهم فى الوفد عقب (٤ فبراير) ، ثم تندفع شمالاً فى صعود حاد لنفصل بين بيوت (آل جعطيب) ، و(الغنادرة) و (آل مقبل) إلى جوار (دار أحمد) موصلة صعودها مخترقه عدة وسعيات ، وتتقاطع مع شارع السوق ثم تشقه في حدة ما بين إحدى دور آل (رخا) ودار (مسعد) ، لتهوى في انحدار حاد ملحوظ نحو معدية (عزبة الدقون) هذه الحاره التي شق بها القدر (ميت سلسيل) بالعرض ، تجعلك تلاحظ بقعة أن شرقها حيث (واطى البلد) تكاد تختفي فيه كل حركة رجل ، ليلاً ويخرس كل صوت ، فلا يوجد مقاهى أو دكاكين ساهرة في كل هذا العب الذي ينتهي عند (ترعة الجوابر) . فيما عدا (من أجل خاطر عيون الحقيقة) دكان (عم خلف) الذى يعتلى انحداراً آخر حاداً نحو البحر ، تصل الحركة لدرجة السكون في معظم شوارع وحوارى (واطى البلد) .

أما في (علو البلد) فالأمر على العكس . إذ تقع فيه كل مقاهى (ميت سلسيل) ودكاكينها وورش مهنتها المختلفة ، التي تتكدس إما على المحطة أو على جانب الجزء الغربي والأوسط من شارع السوق ، في دهاليز وسراديب شوارع (علو البلد) وحواريها قهوة (أبو راشد) وقهوة (السعيد حمزة) وقهوة (أحمد النادي) وفي السوق قهوة (حسن أبو مصطفى) وقهوة (العدل مجاهد) على المحطة . وقد راج شأنها ، بعد أن اشتراك هو (مجاهد أحمد طه) في إقامة سينما (ميت سلسيل) مواكبة أولى مواجهة النكبة ، فصارت المحطة بفضلها تشغى بالبشر والأصوات . وصارت

على ألسنتنا صغاراً وكباراً أغنية (على ياعمر ارفع العلم للأميرة فوزية والأمير إيران).

التحقنا صغاراً بمدرسة السياسة الحرة هذه على المصاطب والتواصي في مساحات الضوء التي تسكبها كلوبيات المجاز أم رتيبة في الليل التي بلا قمر ، تبدد ظلمات الليل والجهل وتدفعنا دونوعي كامل للاحتفاء باسماء وصور أبطال تلك الحروب ، من (فلسطين) إلى (الصين) والاحتفال باسماء الزعماء، (النحاس زعيم الأمة) ، و (ستالين بطل ستالينجراد)، وكذلك الإعجاب بمناورات (رومبل ثعلب الصحراء) ، وحكايات أبطال الفالوجة ، واعتقالات الإخوان المسلمين ، وحواديت ملك مصر والسودان ، والعسكري الأسود ، والعجوز (صدق) الذي أتم بترويل إيران فصار عندنا في معزة (النحاس) الذي الغى المعاهده بأسم الامه. وسمح للفدائيين بالذهب إلى القناة لقتال الانجليز ، مما دفع وشجع (حسين عبد ربه) ، على الهرب من منزله ليضمن للمقاتلين ، وهو لم يبلغ الرابعة عشر بعد ، فقلب كيان البلد ، وغزا اسمه مساحات الكلام في مقاومتها ودكاكينها ، ومساحات الضوء فيها لأسابيع ليست قليلة . وثبتت له مكانة في قلوب الطلبة والناس ، إلى أن عرف والده مكانه في (القصاصين)، فذهب وعاد به مظهراً أشد مظاهر الغضب بينما هو فرحان في سره ولكن ليس مثله من رجالات البلد الصارمين أن يظهر فرحاً لزيارة ولد جاهل مراهق .

• • •

، و(ديجول) ، و(ستالين ، و(تشرشل) ، و(شكاي شيك)! تتناثر على الأرض غضباً أو زهقاً أو استسلاماً حسب طبيعة الاختلاف ، وحدة موقف كل متكلم .

طوال (الأربعينات) وحتى سنة (اثنين وخمسين) وجدت هذه التجمعات ما تخوض فيه بكل حماس ، عن الحرب العالمية الثانية ، وحرب الخبطة وإيطاليا ، وكوريا، أو ذكريات الحرب العالمية الأولى وثورة ١٩٤٥ وموافق السلطات المختلفة إذا ما احتاج الأمر إلى ضرب الأمثال : إلى فضائح (الملك فاروق) وقصصه ، وحكايات (نازلى) و (فريدة) ، وأحمد حساني ثم زواج (فتحية) و (غالي) و (ناريمان) ، كل هذه الأحداث والشخصيات كانت تطرح أرضاً على تراب الساحات وعلى أخشاب المناضد لتأكيد الجدل المحتدم والنقاش الذي لا ينتهي .

حتى في أيام الملاريا ، وبعدها الكولييرا ، لم تقطع هذه المجادلات الصافية حول أسباب الوباء وطرق العلاج الكافى الشافى ، وما لليمون من فوائد في علاج كل تلك الأرذاء.

فتاوی وآراء يشارك فيها حتى من ليس له في الطور ولا في الطحين. ولما حلت حرب فلسطين ، أخذت المجادلات والمناقشات تشتد وتحتد ، وتناخر أو تسخر من اجتماعات ملوك ورؤساء الدول العربية ، وتحركات الجيوش ، والأسلحة الفاسدة والفدائيين ، استخدمت هذه المرة أسماء مبتكرة لكل ما يناسبه .

ف(عبد الهادي) كلب الوادي و(عبد الله) جون بول و(الطبع الأسود) (السيد طه) واللواء (الماوى) الفلفل والملح أبطال (الفلوجة) والبطل (أحمد عبد العزيز) وما نسج حولهم من أساطير نضالية فاقت أساطير وأغانى زواج الأميرة (فوزية) من (شاه إيران) . حيث انتشرت

القديمة ، أكثر ما كان يميزها تلك الجميلة القديمة المعمرة التي تعطليها في سطوة واضحة كرمة عنب (بز الناقة) . كنا نظن ألاً صاحب لها ولذا كانت عناقيدها الفذة غنية مغربية لنا في أي وقت .

كنا نغزوها صغاراً في جماعات كغيران الحقول ، معربين أنفسنا لمطاردات عنيفة - عفاريتية مجهلة من أي من كان ، وغالباً ما كانت تنتهي تلك المطاردات بسقوط أحدنا في تلك البئر الدوامة المياه ، فتنقلب المطاردة أياً كانت وحشيتها إلى تضامنية رائعة بين المطارد الغاضب والمطاردين المذعورين لإنقاذ الضحية ، التي كان يعتقد اعتقاداً راسخاً أنها يمكن أن تغوص به فلا تظهره - حسب اعتقادنا - إلاً في الجانب الآخر من الكورة الأرضية !!

يوماً ما ستمتد بيوت دار (عبد ربه) فيما يلي السراية على الشاطئ الغربي للترعة ، الذي تحجبه وتحجبها غابة هائلة من الغاب البلدي ، ترتفع متماسكة كجدار حاجز يستر سوراً من البناء الشائكة يحيط السراية ، ويمتد حتى بيت (فؤاد عبد ربه) يليه بيت (إبراهيم عبد ربه) أو (فلتيمها) إن شاء الله . قبل أن يؤول الأخير إلى الأستاذ (إبراهيم العزيبي) مدرس اللغة الإنجليزية وزوج أختهم .

وبعدها كانت مسافة خالية عامرة بأشجار الخوخ والبرتقال والنخيل والعنب ، حيث المساحة التي سيقام عليها بيت (مصطفى أفندي) كامل أو كامل أفندي مصطفى) الأخ الأكبر . ولم يكن مسموماً لأحد غيرهم (آل عبد ربه) ومتارعيهم بالمرور على ذلك الشاطئ ، خاصة أن (يوسف عبد ربه) سيبني بيته له شمال السراية بعد خرابها ، ويصبح من الضروري اقتحام حرمتها للمرور على المدق التحيل المحصور في ما بين سور الكثيف الشائك وغاب الشاطئ الخاص .

## يسقي بماء واحد . . .

○ كانت بيوت (دار عبد ربه) تقع في صف واحد على الشاطئ الغربي لترعة (السلطان) . في المسافة ما بين البحر القديم الذي يبدأ من نقطة مجهلة ما بين (الكردي) و(المنية) في الغرب من غيطنا المعروف بغيط (السباخ) والذي كان ينتهي ملتقياً بالبحر (الترعة) الأكبر منه قليلاً ، الذي يبدأ من (البحر الصغير) أو البحر الجديد . كما أطلقنا عليه عند ما يعرف (المغذي) ولكن في نقطة ما ، بين بداية (عزبة السلطان) و(سراي عبد ربه الكبيرة) وبيت (أبو دهينة) ، يصنع ما يشبه اللغر . حيث يختفي طرفه فجأة تحت الأرض في مقابل بشر ساقية مهجور مبني بصخور تاريخية عتيقة بازلية سوداء ، تشبه ما ترصف بها بعض شوارع (المنصورة)



بالصبا  
في المحنبي

يتنفذ . نقوم نعطيه إحنا ، لا إله إلا الله...!

- محمد رسول الله يا شيخ علي ..

قاطعه (حسن موافي) وهو يفرغ فارداً ركبته التي كان يثنى بها تحته :

- إنت يا شيخ علي اللي بتقولها . فيها إيه لما يفتحوا فصل سنة ثلاثة ونريخ البلد ونريخ ولادنا !! بشرروا ولا تنفروا يا مولانا .

غضب (الشيخ علي) :

- أنا اللي (نفروا) والا أنت عشان ابنك وابن عبد الباقي ، عاززين تعطلوا لنا فتح المدرسة من أصله.. فيها إيه أمّا نحمد ربنا على اللي حصل وما نضيعش الفرصة . وطبععي ح يبقى فيه ثلاثة السنة الجاية .. وإذا عيالكم لا قدر الله سقطوا يدخلوها ..

ضحك بعض الحاضرين لكن الأغلبية استنكرت ما قاله .

كانت عادة ترسخت ملامحها في (ميت سلسيل) من عهد بعيد ، كانوا يتدعون بعد صلاة الجمعة ، كلما استدعي الأمر ذلك أو طلبت مشكلة حلاً ، كان أصحابها يسرعون قبل انصراف المصلين ويطردونها عليهم . وتم مناقشتها بحثاً عن حل . وكان الأمر في بعض الأحيان يحتاج لعدة صلوات للوصول لرأي مشترك .

وقام (عبد الباقي أفندي) في ضبط نفس لم يتعد عليه وهو يقول :

- عيالنا مش خايبة عشان تسقط . والمجلس ح يوافق ح يوافق على الفصل ، بس انت ريح نفسك يا شيخ واطلع منها ، أيوه يا سيدي تفأعل معانا (ولا تنفروا) يا شيخ علي وقدر ربنا يا سيدي يكرنك ولا يسقط لك عيل !

قام (الشيخ علي) متتفضاً وهو يشوح غاضباً من تلقيح (عبد الباقي) القاسي :

ورغم هذا التجاوز المحسن بحرمة الشطط والخدائق المشمرة التي تضم المنطقة ، ستصبح العلاقات بين الأشقاء - الجيران - مقطوعة إلى درجة شبه عدائية مستترة وخفية إلا على الحميمين من الأقارب والأصدقاء . وهي سمة ليست غريبة نراها كثيراً في العائلات الكثيرة العدد ، حين تتمزق بينهم الملكية الموروثة بعد وفاة الرجل الكبير الذي أعطاهم اسمه ، بما يهدد العز الفخيم الذي كانت تضمنه ملكيته الكبيرة التي كتب عليها بأن تنقسم حسب الشريعة بين الإخوة الأشقاء أو غير الأشقاء ، المعترف بهم وغير المعروفين ، خاصة عندما تكشف الوفاة عن روابط وعلاقات ملتبسة ومركبة ومعقدة . ويدخل الأمر في الغالب بعد الفشل المؤكد للمحاولات العرفية السلمية ، إلى سراديب المحاكم وألاغيير القانون مخلفة آثاراً عدائية تمتل لأجيال وأجيال ..

وإن ظلت السراية والأرض محتمية بقدر هائل من الرهبة والغموض ، قائمة في ما بين البحرين (بحر السباح) و(الترعة) ذات الشاطئ الغامض ، في مواجهة كرمة العنبر (بز الناقة) وجميزتها المنحنية لقضاء الله فوق البئر المفزع . وفي مواجهة العزبة ، التي احتمى ساكنوها بمسجده ، ذلك (السلطان) الذي كان آل (عبد ربه) يدعون انتسابهم إليه .. سلطان إيه ؟ لا أحد يعرف !

- إنت أحسن حاجة تقوم تروح يا (عبد الباقي أفندي) بالكشف لكامل أفندي وهو ح يحلها .

اعتراض (علي أبو دسوقي) :

- ما تقضوها سيرة وكفاية مجلس المديرية وافق على المدرسة، أولى وثانية ، فيها إيه؟ لو ح تطلعوا فصل سنة ثلاثة ح تعطلواها! القرار صدر وح

يومياً في الشتاء مع أذان الفجر في عز البرد لكي الحق (ديزل) السادسة صباحاً و كنت أركبه مجاناً فأنا ابن أخت فتوح أفندي ) وأوفر نصف القرش الذي أدفعه للأتوبيس . إذا ما فاتني дизيل . ساعتها تعصر قلبي احتمالات تأخر الأتوبيس بسبب المطر أو مشاكل الطريق غير المرصوف والتربص الدائم (لهاشم أفندي) مدرس الألعاب بالذين يتأخرون منا إلى ما بعد صرف طابور الصباح وتحية العلم .

كانت تتناوشتني وأنا أهروول خلف أبي المتعجل مشاعر غامضة حيال الشاطئ الغربي لترعة ذلك (السلطان) .. كنت أظن أننا ذاهبون إلى (السرaya) فغمرتني ذكرى زيارة ما - ذات يوم أثناء الحرب المشتعلة بين (الإنجليز والألمان) فوق أرض وسماء مصر. كان يقيم عندنا أقاربنا من الإسكندرية، المهاجرين إلينا من خطر القنابل الألمانية وصواريخ (زبلن) .. كان الاسم أيامها موحياً وله في نفسي صدى لغ موضوع ساحر مثير يجعلني أردده بين مشاعر الإعجاب والخوف) . يومها اصطحبت أمي بكري الأخوات الثلاثة اللاجئات إلينا ، في زيارة مجاملة وتعارف للهانم ساكنة (السرaya) . وذهبت معها (إذ لم يكن من اللائق أن تقوم النساء بزيارات نهارية في ظل الحرب أو ليلية طبعاً ، دون أن يصحبهم (رجل) حتى لو كان طفلاً يدرس في مدرسة للبنات بطريقة غير رسمية .

لم تكن (السرaya) قد خربت بعد طبعاً إلى هذه الدرجة ولم يكن (يوسف عبد ربه) قد بدأ بناء البيت الذي احتل الجزء الشمالي من حدائقها المشمرة الغامضة ...

تقدمتهمما في جدية أنا دعي على الجنائي . كنت أعرف أنني منتسب لهم منها الزعيم بصوت عال فلا يليق بالنساء الصياح كما فعلت .

- القاعدة بقت ماسخة ... أنا ماشي ...

قال (عبد الجليل النبراوي) في حزم :

- ما تهمني يا شيخ علي .. إنت لا لك ولد في ثانية ولا في ثالثة وأبو موافي ح يحول لابنه من دمياط مخصوص مع أنه مرتاح هناك عند أخيه عشان يكمـل الكشف . وإيه المانع يبقى ابنه تحت جناحه ؟

قال الشيخ علي مصرًا على الذهاب ...

- القرار بيقول لازم الفصل بيقى ٢٢ تلميذ على الأقل .. والكشف حتى بابن ابو موافي يا دوب ١٦ . ح تعملوا إليه في الباقي يا سي عبد الباقي أفندي !!

فأخرج (عبد الباقي أفندي) الكشف وفرده أمام الجميع قائلاً :

- الكشف فيهأسامي ١٨ تلميذ معانا طلبات وإقرارات أولياء أمورهم . وفيه ولدين من (الكافر) بكرة إن شاء الله حنجيب موافقة أولياء أمورهم (كمال ابن طاهر الهواري)... ولد (للسيد الجعلاني) .. ما باقيش غير اثنين ..

- خلاص يا عبد الباقي أفندي . إنت بس تروح لكامل أفندي و تعرض عليه الموضوع وهو يقدر يقنع (الكرادوة) وأكيد ح تحـل ، إلـحـقـه قبل نومـةـ الـقـيـالـةـ رـوـحـ .

مضى (الشيخ علي) وهو يلوح بذراعه متحجاً ويغمغم في قرف :

- كل واحد هُمه مصلحته وبس !

مصمص البعض شفافيه متعجبًا دون أن ينطق ...

جذبني أبي من ذراعي وهو يقف .. قائلاً : أنا رايح الحق كامل أفندي ، وادعوا لنا يا اخوانا . واقروا لنا الفاتحة بنية صافية ح تحـلـ انـ شـاءـ اللهـ ...

مضيت مهرولاً وراء أبي لألاحقه بصعوبة وأنا أحـسـ بـامـتنـانـ لهـ كـبـيرـ ، وبـاعـجـابـ غيرـ مـحـدـودـ بهـ وأـنـ أـرـاهـ يـيـذـلـ كلـ هـذـاـ الجـهـدـ لـراـحـتـيـ .. وـلـمـ أـفـهـمـ لمـ يـعـرـضـ (الـشـيـخـ عـلـيـ) عـلـىـ اـهـتـمـامـ الأـبـ بـراـحـةـ ابنـهـ ؟ .. كـنـتـ أـسـتـيقـظـ

حاسماً تردد أمي وضيقتها فصعدتا خلفي السلم الرخامى العتيق العريض  
الذى فقدت إحدى درجاته نصفها بفعل الزمن .

وقفنا أمام الباب الضخم المشغول بتهاويل حديدية معقدة ، تعلف  
وتؤطر ضلقتين هائلتين ، ثلثهما الأول من خشب مهول منحوت عليه  
نحتاً بارزاً يمثل (سبعين) ، كل منها يضع إحدى قدميه الأماميتين على  
غزال صامت . لو كنت أمليك كلمة السر السحرية لاستعطفت أن أرفع قدم  
السبعين عن الغزال ، ولظهر مدخل الجب الذي به (الخاتم أو المصباح) .  
تجاهلت حسرتي لعدم معرفة كلمة السر . وأخذت أتأمل ثلث الباب الممتد  
إلى السماء مزخرفاً بزجاج رائق من ألوان عديدة، وإن سقطت أجزاء من  
زجاج ضلقته الثابتة . محدداً في قسوة امتدادها الذي بدا لي في البداية،  
متداً بلا نهاية .

وجدتنا في قاعة عالية ، محاطة بأبواب ضخمة ، حول أرض لامعة لا  
تشبه صالة السرايات الأخرى ، فهذه يتوسطها سلم له درايزين من خشب  
مشغول . وعلى كل درجة بقايا قطع لامعة من نحاس كالح الخضراء .  
كانت في زمانها تلمع . وعلى ما عرفت فيما بعد كانت تمسك بسجاد  
فاخر يعطي السلام ..

سبقتنا مهرولة إلى أعلى امرأة فلاحية عادية ، تتتساقط كلمات الترحيب  
مهشمة على شفتيها وهي تقودنا صاعدة إلى حيث (الست الكبيرة) .  
حين دلفت من الباب لم أر شيئاً . أعشى عيني ضوء ملون يشع من  
خلف الكتلة الرمادية الغامضة المكونة من عدة كراسٍ ضخمة مذهبة تمتد  
أمامها في هدوء سجادة كاحلة عليها رسوم لغزلان وعصافير .  
بدت لي الست تحت الشباك البحري الكبير - المكون من الزجاج  
الملون من عالم أسطوري ، رأيتها في مكان ما ، (فضاء فسيح تنسدل على

فتح لنا رجل مسن عتيق غامض ظهر فجأة أمامي فأفرزعني كأنه  
شيخ شيخ خارج للتو من قمم إحدى حكايات ألف ليلة . فهذا البستان  
(الجينية) المسكون بالجنيات والحوريات كان دائماً مركز تصوراتي عن  
جنان حوات خالي ، عمامة المعقدة الكالحة المتربة ، ثوبه البالي المعقود  
حول وسطه كاسفاً عن ساقه شجرة جوافة أو عنزة جرباء .. بالإضافة  
إلى لحيته الطويلة الرمادية التي توظر في غموض وجهها جافاً تبرق فيه عينان  
تعلبيتان (جحاوتن)، سمرّتني هيئته على التو حين فاجأتني لهجته تسألني  
بصوت صاعد من جب عميق عمن أريد .

تصورت معه أن (مقصاً مهولاً سوف ينقض ليقص طرف لساي)  
حين أبوج بما أريد ، لكنني تمالكت نفسي فور رأيته يفتح البوابة مبتسمًا  
قبل أن يعرف من نحن . ولما عرف أنها من نحن وأننا في زيارة إلى الست  
الكبيرة ، تسابقت كلماته المرحبة ترعش لحيته المسلوبة بطريقة مضحكة  
تليق (بأبي نواس) . تماستكت ولعبت بصعوبة دور الحادي ، أقود أمي  
وقربيتنا (تانت سعاد) إلى الأمام وكأنني أعرف المكان منذ قديم الزمان .

لم يكن شكل السراية الهائلة ذات الدورين الكاملين والنواخذ  
الطوبلة غريباً على فقد دخلت مثلها اثنين في (الكفر الجديد) كانتا لعائلة  
(الهواري) التي كانت خالي (السيدة) أرملة واحد منهم - سرايتين لا  
واحدة - الأولى دون بستان وعلى شريط (السكة الحديد الفنساوي)  
على مسافة قصيرة شرق المحطة . والأخرى في شمال غرب البلد ولها  
بستان يقع أيضاً على ترعة ، مثل هذه تماماً وقد سبق لي أن زرتها مع خالي  
، ومازالت أذكر تماماً ما بداخلها ... كانت هناك أيضاً (ست كبيرة) وكان  
حالاتي يدعونها (الهواري) وينطقن باسمها يكفي من الاحترام المشوب  
بسخرية غامضة . هذه الخبرة أعطتني جرأة على التقدم نحو (السراية)

- تعال .. ما تخافش (كيف عرفت أبني خائف؟) .. مش أنت سمير  
بنات مدرسة البنات ؟

ضحك نساء كثيرات ، ساعتها تنبهت أن هناك أخرىات في ضيافتها .. وزاد تبني لها كلهن ووجوههن من ارتباكي ، لكن نظرة تأنيب من أمي شجعتني فحركتني ، وعاد إلى ما يعرف عنني من جرأة وتماد ، فتماسكت وتقدمت أسلم عليهن واحدة واحدة في شجاعة مفتعلة . وغرقت للحظات في أحضان عرق وروائح متباعدة . وغرق وجهي في قبلات إعجاب ، وقبلات ترحيب منافقة وأخرى لزجة .. حتى وصلت للست الكبيرة فانحنت على تقبلي . سحرتني رائحة عطرية مجهلة مسكرة ، قبّلتني على خدي من هنا ومن هنا .. فكدت أقع من طولي . ولما جلست أجلسنني إلى جانبها . وبعد لحظات نسيني الجميع وانشغلنعني حتى هي . وانطلق حولي سيل من الثرثرة التي كنت في حال لا أتبين معها مخارج الحروف ولا معنى الكلمات..

كنت مخدّراً مسلوب الذهن تائها ، حتى غمرني إحساس أن هناك من يراقبني ، فانتبهت والتفت إلى باب صغير بعيد موارب ، لمحت منه فتاة ترتكن إلى ضلفلته المتحركة كأنها تقبلها.. وهي تشير إلى بطرف إصبع كفّها اليمنى في بطء وهي تركز عينيها في عيني كالساحرات – أن تعال ! لم يحس أحد بي وأنا أقوم مذهولاً منوّما .. إليها .. ولما اقتربت منها تراجعت عن الباب . وما أن خرجت وراءها أغلقت الباب وهي تقول بصوت خشن صبياني :

- إيه يا وله ؟ ح تقدعد تسمع رغبي النسوان ؟  
أفقت واستنكرت ما قالته ، (فالسلطانة) وضيافتها ليسوا (نسوان)  
ولم تعطني أي فرصة بل أمسكت يدي وجذبتني على امتداد ذراعها

جدرانه ستائر مزركشة مليحة ، ذات تراكيب تحيط به مصاطب وخزائن على ستور مريخيات ، وفي الوسط سرير من المarmor مرصع بالدر والجواهر ، فوقه ناموسية من الأطلس الأحمر تجلس عليها (الست الهانم) بوجهها المضيء ، يخجل الشمس . وعلى جانبيها حارستان رشيقتا القد ذاتا حسن وجمال وقدّ واعتدال ، وجبين كغرة الهلال ، مسكن بمروحتين من ريش العام ، تروحان بهما في رقة ودلال .. وكان هناك طاووسان يفردان ذيليهما كمروحتين ملونتين يصيحان في غموض) ، جعلني المنظر أتسمر في مكانني فاغرًا فمي مذهولاً .. سبقتنى أمي لتلحق بضيفتها قبل أن تقوم لاستقبالنا مرحبة . ولا يجعلها تتجمش عناء ملاقاتنا بما نستحق من احترام . وبينما اندمجت أمي وضيفتنا في كتلة الظل التي يشع الضوء الملون حولها ، وقفـت مشلولاً أتأمل ما يشع أمامي من سحر ، وأنا أغغم بصوت واهن :

- السلطانة ؟!

وبينما كنت أتمت باكتشافي الخاص ، وقد تسمرت ساقى في المسافة ما بين باب القاعة الهائلة وبسطة السلم الغارقة في الظل والأضواء الملونة التي تسقطها الشمس من خلال النافذة القبلية تضيء السلم والفراغ الذي كان متداً إلى السماء – بعد هذه المرة – حيث كانت قبة هائلة تغطي فراغ السلم الكبير خلفي ، إلى حيث أفكر في الهرب .. سمعت صوتها بعد أن فرغت من طقوس الترحيب بأمي وضيفتها . انتبهت لي متسمراً عند الباب :

- تعال يا حبيبي ..  
تنبهت إلى صوتها العميق الرنان ، الذي بدا لي آتياً من عالم آخر .

- إنت سمير ؟ البنوة ؟  
 غضبت . وتوقفت . انتزعت ذراعي من قبضة يدها في حدة .  
 - أنت زعلت ؟ ما ترعلش دول الولاد غيرانين منك . عشان انت  
 في المدرسة قبل السن الإلزامي وشاطر .  
 - سن إيه ؟ .. أنا كبير كفاية .  
 - يا عم بيقولوا عشان خاطر أبوك ، سابوك تبعد وسط البناء على  
 تختة واحدة .  
 كانت تقف أمامي محاولة الاعتذار .. لكن الكلمات التي كانت  
 تجري على لسانها في صوت أقرب لصوت البالغين من الصبيان ، كانت  
 تقر في الاتجاه المضاد بعكس ما تريد ، لكنها نبهتني أن أتأمل ملامحها لأول  
 مرة . كانت أشبه بالأولاد بالفعل ، أنفها الطويل الشديد الحضور وشعرها  
 المضفر في خشونة .. وحاجها الثقيلان .. قالت :  
 - أنا بذاكر في البيت ؟ بابا خرجني من المدرسة ، كنت أشطر منك !  
 فتاة عادية إذن . وأنا الذي ظنتها طول الوقت إحدى مساعدات  
 (الشيخ عثمان) أرسلها لتدعلي على الطريق ، وتكشف لي أسرار البستان .  
 صدمت وتهيأت للعودية ، لكنها لم تتح لي الفرصة وشدتني بقوه :  
 - تعالى ح اجيب لك كمترى عمر ابوك ما داقها .  
 الإغراء غفر لها طولة لسانها . فطاوتها حذرًا لاعطيها فرصة  
 الأخيرة .

كانت عناقيد العنبر الذهبية تتدلى من سقف التكعيبة . قفزت فجأة  
 إلى أعلى في قوة فامسكت واحدًا ، فرط منها أكثره على الأرض . لكن  
 قبضتها لم تفلت معظمها . قدمته لي بعد أن هبرت بفمهما الواسع جزءاً كبيراً  
 منه ..

هابطة السلم وأنا أحارو أن أتماسك حتى لا أندلق على الدرجات ..  
 - سبيك منهم تعالي ناعب ..  
 لم أعرض .. فهي لم تعطني أي فرصة للكلام . ووجدتني معها  
 في الجينية الغامضة الغنية الظلال الرطبة . تسري بين أغصان أشجارها  
 الغضة التالية أنفاس جنيات غامضة . تهمس بنداءات مثيرة وتتدلى منها  
 عناقيد من ثمار فواكه شهية أعرف بعضها وأخرى لا أعرفها تكاد تنفجر  
 عصائرها ممزقة بشرتها الشفافة . وثمة أصوات طيور أسطورية متخمسة  
 وحشرات لا تكف عن الطنين والثرثرة ، تطير في بطء متخفخة من الشبع  
 نهمة وعدوانية ، سكرانة بعسل الفاكهة الناضجة . تؤكد لي أن هذه الجينية  
 هي (البستان) الذي كان منذ بدء الخليقة ميداناً لكل الأحداث التي جرت  
 في كل بساتين حواديٍ خاليٍ السيدة من أول (يا مقص قص طرف  
 لسانه !!) إلى جنيات الشاطر (جاهنشاه) الالائي رآهن طيوراً ، يخلعن  
 ثياب الريش ليصبحن حوريات رائعات . خاض من أجل أحداهن الهول  
 في بستان (الملك سليمان) الذي يحرسه (عم عثمان) الذي يعرف لغات  
 الطير والعفاريت .

تحت كرمة العنبر الممتدة إلى مدى البصر ، سرت خلف البنت سريعة  
 الحركة مبهور الأنفاس .. أتوقع في كل لحظة أن أصل إلى البركة التي  
 تستحيم فيها الطيور المتحولة . تتوقع أذني أن أسمع رنين ضحكاتهن بعد  
 أن رأيت بأم عيني الطاووسين المغوروين المستأنسين يمشيان بخياله بين  
 يدي (السلطانة) . قالت البنت :

- اسمي حياة ، اسمك إيه ؟  
 - سمير .

قلت معترضاً :

- من غير غسيل ؟

فضحكت ضحكة حادة جافة ساخرة وهي تقول :

- ده على بز امه .. يا عبيط ، نظيف .

ومدت يدها مستقيمة تضعه أمام وجهي بل تكاد تدسه في فمي :

- أنضف من بقك . خد .

كدت أعاود الغضب متحجاً .. ولكنني أدركت أنها لا تعني ما تقول بالضبط ، وغفر عسل الحبات التي قضمتها كل إهاناتها .. كان طعمًا ساحراً لم أذق مثله في حياتي ، أدهشني وأعاد لي اليقين أن هذا بالفعل البستان الذي طالما وصفته خالي ، وعبرت غامضة في خيالي صورة (السلطانة) تحت وميض الزجاج الملون ككاميرا غير بشرية . يبدو بياض وجه أمي إلى جوار ما يشعه وجهًا عاديًا ، وسمعت صوت تلك الطواويس التي تتحرك بحرية وسط القاعة الهائلة الغامضة .. كان عسل العنبر ثرياً وصافياً مخادعاً ، أدهشني وجعلني أرى حركتها العتزرية ناعمة في خفة غزالت الحكايات التي تصر على إخضاع ما أراه لفكري الغامضة عن سحر المكان الذي أتخيله . مدت يدها مرة أخرى . ناولتني ما تبقى من العنقود وحشرته في فمي فخدرني .. ثم صدمتني صوتها فأيقظني :

- حاسب يا مفجوع . إنت عمرك ما دقت عنبر .

توقفت متحجاً . كانت هي قد بدأت كالسعدان في تسلق شجرة كمثرى عتيقة تتسلل منها ثمارها كشلول بصل الخزرين . وأيقظتني من غيبوبتي صرخات وأصوات عيال يتفاوضون في ماء الترعة التي كانت قريبة بدرجة قاسية ، لتبدد أيأمل في العثور على البركة المسحورة التي تستحرم فيها فتيات هن في الأصل طيور وجنيات ، ولما اختفت هي بين أغصان

الشجرة وهي تغمم في فجاجة :

- ح أدوّرك كمثرى عمر أبوك ما شافها .

صفعتي كلماتها .. فعدت أدراجي دون كلمة . حتى وصلت إلى عتبات الباب الخلفي (للسرایة) حيث وجدت الرجل العجوز الهزيل الذي قادنا إلى بابها الرئيسي ، جالساً يتسنم بضم خال من الأسنان يتضاحك منافقاً ، وهو منهمك في تسليك أنسجة التيل وبرمها لقتل حبل جديده :

- بيدوروا عليك فوق عشان ماشين ..

وكركر ضحكة تشبه صوت الجوزة المسوددة . فأسرعت بالدخول حين وصلني صوت السعدانة قاطفة الكمثرى يصرخ باحثاً عنى :

- إنت يا وله يا اهبل مش عايز كمثرى ؟

لم أرها ولم أهتم بالتحقق إن كان ذلك صوتها .. وأخذت السلالم قفزاً حتى وصلت إلى باب الدور الثاني .. مبهور الأنفاس ، فوقفت أستعيد نفسي . ثم دفعت ضلفة الباب الضخمة متسللاً ، لكن الكل لاحظني . التفت وجههن جميعاً نحوي مرة واحدة ، فشلت حركتي . سألتني أمي في غضب .

- كنت فين ؟

لكن (السلطانة) التي تبيّنت أنها ليست سلطانة حقيقة كما ظننت - إنما ست هائم زي (الهوارية) والست (أم حسني) - عادية بياضها عادي

مثل أمي ، لكنها قالت في حنان مفتعل يليق بست هائم أصيلة :

- تعالى يا حبيبي كل كمثرى وعنبر .. ح تمشي من غير ما نضيفك !

لكنني لم أتحرك .. وقلت لأمي في طهر لا يليق :

- مش هنروح بقى؟ ياللا..

وقالت أمي وهي تنهض معتذرة :

– ياللا يا حبيبي كنا مستينينك !

و قبل أن أغرق في ضحكات وسلامات طقس الوداع المتعتمدة ،  
وبكلات المحبة الزائفة وثرة الأحاديث الأخيرة الفارغة ، كنت قد سبقت  
الجميع إلى السلم الرخامي البارد الضخم ذي السلمة المكسورة .

سرت وراء والدي الذي كان يرتدي قناع الأهمية ويرسم بشدة  
تلك (١١١) التي تتجسم بين حاجبيه ، توحي بالجدية القصوى ، أنه  
يخوض معركة فاصلة . فتحى فتح فصل جديد وإضافي للمدرسة التي لم  
تقم بعد ، ظهر له معارضون لا لشيء إلا لأن البعض تحمس أكثر من اللازم  
لأن له مصلحة واضحة والبعض ليس له هذه المصلحة .

كان اسمي أول اسم في الكشف الذي يحمله ويجمع فيه أسماء  
الأولاد الذين يفترض أن يتقلّوا بإذن الله مع العام الدراسي الجديد إلى سنة  
(ثالثة) ابتدائي من كل القرى المجاورة .

لم يبق سوى اسمين ، ولم يتبق أولاد لائقون لتلك السنة الثالثة لا  
في (ميتسيل) ، ولا في ما جاورها من بلاد وعزب ، وكان الجميع  
يائسين من إمكانية فتح الفصل الجديد ، لو لا أن صرّح بعضهم أن (كامل  
أفندى) يستطيع التأثير على أهل تلميذين من أبناء (الكردى) أو على الأقل  
يستطيع أن يقنع مجلس المديرية إن تعذر ذلك بفتح الفصل بعشرين تلميذًا  
بدلاً من اثنين وعشرين . فالدنيا لن تنهى ، إذا نقص الفصل تلميذان ،  
ومجلس المديرية لن يخذلك والانتخابات على الأبواب .

• • •

○وها أنا أهرول خلف والدي (المتهم)  
ذاهبين لخل تلك القضية الشديدة الأهمية .  
وسأدخل بيت (كامل أفندى) لأول مرة . قابلنا في  
الطريق (عوض عبد ربه) فوجئنا أنه عرف ما نحن  
بصدده دون أن يسأل أسرع يقول لوالدي :  
– يا عبد الباقى أفندى ، كامل أفندى وضيوفه  
 عند الأستاذ يوسف .

كنا عند شادر الخشب . استقرب أبي سكة  
(السلطان) مختصرًا الطريق لنلحق بهم هناك ،  
وفرحت أنا لأنني سأرى (السرایة) مرة أخرى من  
الداخل . وأشاهد الطواويس ذات الذيل الملونة  
والأسود التي تضع أيديها على الغزلان الأسيرة  
، وقد أقابل البنت الطويلة الهایفة ذات الصوت



من المحبة

- لو كنت قدّمت دقيقتين كنت حصلّتهم . اتفضل تعالى استريح  
وبعدين حصلّهم .

لُكْن أبي المستعجل شكره وهو يشدّني كي أسرع ، بينما أحست  
قلبي ثقلاً يلصق أقدامي بالأرض .

(السرaya) لم تعد في هيّتها القديمة التي أسرتني من قبل . كانت أوراق  
الشجر المهمّل تتراءّم حول الجدران وعلى السلم الرخامي الذي انتزعت  
منه الآن درجتان على الأقل .

الجدران كشفت عن الطوب الأحمر الذي بدا مرصوّصاً في الفراغ .  
وتحولت المونة إلى غبار .. الرطوبة أكلت البياض ، وتساقط البهاء الذي  
كان يغلف الجدران .

الجنيّنة التي كانت ثرياً الظلال والشمر ، صارت أشجاراً جرداء تثمر  
قطعاً قديمة من القماش والورق ، ترفرف كرايات جيش مهزوم ، وأوراق  
متغضّنة جافة ، قطع من خشب بالي ، وحطّب وأعشاش زناير . هربت  
الطيور إلى رياض أخرى ، لم تجدها الحالات ، ويتحدّث فيها البشر  
أحاديث ودية .

كانت السرaya تبدو خالية . تطير الطيور عبر فراغها ، خلال النوافذ  
المكسورة والمخلوّعة بينما ظلّ الباب الكبير مغلقاً بإحكام ، وقد علاه  
الصدأ وقد أكره التي كانت تلمع ، عديد من السحالى الخضراء والرمادية  
تقرح تحت أكوام الأوراق المتراكمة الجافة ، التي أصبح من الصعب  
إزالتها ، فتركّت لحالها مأوى لجعارين سوداء وخنافس ولبعض الشعابين  
المتحمّلة غير المرئية ، والقنافذ المعترلة ، كنت أحس بعشرات من عيونها  
السرaya تراقبنا في حذر توقياً لأي حركة غدر تصدر منّا .

الأجش الذي لا يتحكم في معاني ما تقول فتطلق شتائم قاسية لا تقصّدّها  
، وقد أستطيع ساعتها أن أجده فرصة لرد إهانتها القديمة . وعلى الأقل  
سأستعيد ذات الشعور الساحر ، أيام ما كانت الجنينة تعني لي بستان الشّيخ  
(عثمان) العارف كل لغات الطير والجان ، ونائب (سيّدنا سليمان) .

ابتسمت ساخراً من نفسي . لأنني كنت في أيامها على هذه الدرجة  
من العباطة لأصدق كل ذلك ، لكنني ما أن اقتربت من باب الجنينة حتى  
ارتّعش شيء ما داخلي وغمّني شعور بالرهبة وعاد إلى اعتقادي الذي  
سخرت منه ، لكن التغيير الذي حدث جعلني أتماسك وأستعيد نفسي  
، فيّيت الأستاذ (يوسف) الذي لم يكتمل اقطع مساحة كبيرة من الجنينة  
ودمّر قدسيتها القديمة .

صفق أبي أمام الباب الخارجي المفتوح مستأذناً وهو يدخل دون  
انتظار ، خرج الأستاذ (يوسف) إلى الشرفة وهو يزعق قبل أن يرانا بصوت  
عال :

إتفضل .. إتفضلوا ..  
ولما رأنا رحب بأبي ،

كنت أدور يعني مذهولاً لما أصاب الحديقة والسرaya .  
كانت الحضرة قد اختفت من أجزاء كبيرة ، وتناثرت أكمات وحشية  
من الحشائش ، بينما بدا النخل مهوشاً غير مقضب .

- كامل أفندي روّح هوّ وضيوفه يا (عبد الباقي أفندي) . يمكن لسة  
ما خر جوش من السور القبلي .  
انتبهت على يد أبي تقض على ذراعي وتسحبني في اتجاه الطريق  
الذي أشار إليه الأستاذ (يوسف) .

تقسيم التركة بين الإخوة . فاز (يوسف) بالجزء البحري ولكن بدون جنية إلا المساحة حول حوائط المخازن والزربية، بينما احتفظ (عبد السلام) بالسرaya و ما حولها حفاظاً على ذكرة والدته (السلطانة) ، ولكن الإهمال سرعان ما أصاب كل شيء بحكم ابعاده أصلاً عن المكان .

زوجته لم تكن تطيق (ميت سلسيل) ولا أهلها ، فترك السراية نهيبة لكل من استطاع إلى ذلك سبيلاً ، نزعت النوافذ والسلام الرخامية ، وتکفلت الرياح ، وزلط الأطفال صيادي العصافير ، بتدمير الزجاج الملون ، ومات الرجل الذي كان يرعى الأشجار ، فاكتبت كروم العنب ، واهترأت قوائمها ولم يهتم أحد .

وأخيراً باعها (عبد السلام) أنقاضاً . فخلعت الأشجار واستبدل البستان حتى حدود بيت (فؤاد) ، تحول إلى أرض ستزرع يوماً بالقطن والقمح وما أشبه .

أما (إبراهيم) زوج أختهم الذي كان قد قرر العودة إلى (ميت سلسيل) ، فكان في نيته بناء البيت محافظاً على ما يحيط من أشجار مشرمة ، ولكنها لن تكون في بهاء العز القديم .

أما (كامل) وهو الكبير فقد كان من نصيه المساحة الأكبر إلى جوار السكة الحديد ، حيث ترك جزء كجرن بين البيت الجديد والزراعية وشريط السكة الحديد لكنه أعاد الحياة إلى الجزء البحري فازدهرت به بعض أشجار الخوخ والكمثرى والمشمش والقصطة ، علاوة على كرم العنب (مش بطال) .

لمحناهم من فوقه يتخدون مجالسهم على الفراندة ، مجموعة من الأفنديات المطربين ولا سي القفاطين والجلاليب البلدي الصوفية ، وأخرى أفرنجية بيضاء يشرب من عليها العصفور تلوح فوق بعضها طرابيش فاقعة الحمرة تبدو كأعراض ديكية بيضاء .

كان كرم العنب المتدا لا يزال متدا حتى آخر الجنينة ، لكن احتمال وجود بر크 للجنيات المسحورة فكرة أصبحت ساذجة ، وغير ممكنة على الإطلاق . اختفت الأغصان الخضراء والكوخ الذي يسكنه أو الذي كنت أظن أنه يسكنه عم (عثمان) ذو الساقين العنتين ، تعرى من سقفه واخترقته الشمس فطردت كل ظلال الخيال التي من المحتمل أن توحى بأنفاس إنسانية ، فقدت الأمل في لقاء تلك البنت التي أغاظتني . ووجدتني أفقدتها بحق ، وأغفر لها كل ما طجنت به من كلام معنى .

عبرنا البوابة الخشبية ، كان جزء منها مدفوناً في طين القناة المجافة التي تمضي إلى الترعة . مليئة بالعشب الأصفر نصف الجاف . تقودنا إلى المدق الوحيد بجوار غابة البوص على شاطئ الترعة ، يحجب عنها تماماً الشط الشرقي ، حيث العزبة وأرض دار (أحمد) .

على اليمين كانت المساحة التي يتنوّي (فؤاد عبد ربه) بناء بيته العصري عليها فيما بعد ، فأهمل الشجر لتكتشف الأرض عن مساحة فراغ جراء ممتدة ، حيث يوماً ما سيكون فيها بيت (إبراهيم عبد ربه) الشقيق الأصغر للأستاذ (كامل أفندي) وحينها ستكون مرتعًا لقصص حب ومشاعر مستقبلية لم يحن أوانها بعد .

انتبهت على شخطة من أبي لألحق به ، فقد كانت أحمل الأوراق التي بها كشف أسماء التلاميذ وكانت تضفي على بعض الأهمية ، تبريراً شرعياً لبشر نفسي في موضوع هو في ذاته من شأن الكبار .

لمحناهم يصعدون الفراندة البحرية لبيت (كامل أفندي) الجديد - الذي لم يكتمل سوى نصفه الشرقي - من خلال الأغصان الثرية للجزء الذي بقي حياً من البستان القديم والذي نجا من عadiات الزمن ، وعواقب

مقامة في صالة كبيرة لم تسقف بعد ، تقع بين الجزء الذي تم بناؤه من البيت والجزء الغربي الذي مازال تحت الإنشاء .

كانت مائدة عامرة يتوسطها ديك رومي كالخروف ، وعديد من الأطباق الكبيرة المتخصمة بالحمام والدجاج والسمك المقلي ، وصواني مختلفة فاحت منها رائحة البطاطس المسبكة في الفرن والفتة بالخل ، فقلبت معدتي .

لمحني أقف بعيداً ، فتجنبت نظراته وأسرعت بالابتعاد منسجباً وراء

الجدار فصاح بي غاضباً :

– استنى يا ولد .. إيه يا (عبد الباقي) مش تقول ان معاك المحروس .. تعالي يا (سمير) تعالى يا شاطر ، بتهابر زي ابوك عشان ترتاح من السفر (للحجمالية) ومن أهلها الهم اللي ما يتعاشروش .

حاولت الاختباء عن نظرته وواصلت الهرب ، فأسرع منادياً بلهجته شلت حركتي ..

– يا حسين تعالى يا ولد هات الواد ده غصب عنه .

خرج (حسين) من الداخل متباولاً يبحث عن ذلك الولد المزعج الذي يهتم به أبوه لهذه الدرجة ، وجدني أجلس مستترًا بالجدار على السلم ابتسما ساخراً ابتسامة لا تحمل أي معنى للترحيب . وقال ..

– هوَ انت ؟ ما تقوم يا وله تغدى هو احنا بنلعب ؟

كان صوته مثل صوتها ، نفس النبرة والإيقاع المتعثر في فراغ الأنف ، تذكرتها على الفور الفتاة التي قابلتها بالجنينة زمان . كان يشبهها فعلاً ومثلها كانت الكلمات تخرج متعالية من فمه . لم أتحرك .. وقلت بحدة : أنا شبعان مش جايين ناكل .

كانت صيحات (كامل أفندي) تطارده وتعجلني أن أطير .

وصلتنا أطراف ضحكاتهم وأصداء مناقشتهم الزاعقة مختلطة بأصوات احتكاك خشب الكنب البلدي والكراسي الخريدي بالبلاط الجديد ، مع عبارات الترحيب والمjalلة ، كانوا أكثر من خمسة عشرة رجلاً يحتضنهم ويسلم عليهم مرحباً بهم (كامل أفندي) الذي كان يتسنم في كرم لهم ، وهو يزعق بغضب على من في الداخل للإسراع بتجهيز السفرة ، ومنهم مكـ دون توقف في المناقشة ، متابعاً الإشراف على راحة الجميع واستقرارهم في مجالسهم .

كنا قد وصلنا إلى درجات السلم في الوقت الذي كان يستعد فيه للجلوس بعد أن اطمأن على راحة الجميع ، في نفس الوقت جاءه خبر انتهاء كل الاستعدادات فهبَ قائماً على الفور يدعو الجميع للطعام . لمحنا فالتفت نحونا قائلاً بصوته الأخشى المقتجم الأمر الذي لا يقبل

معارضة :

– طول عمر حماتك بتحبك يا (عبد الباقي) يالله يا جماعة افضلوا . حاول والدي التمنع ، مسرعاً بشرح سبب مجئه وعجلته ، لكن .. (كامل أفندي) تجاهل كل ذلك ومدد له ذراعاً عملاً يصافحها ليجذبه بها إلى الداخل :

– يلا .. يلا يا راجل .. دي حصة غداً ومحدث فاضي يتكلم عن الفصل ولا عن المدرسة والمشاكل دي .. اطمئن .. إن شاء الله محلولة محلولة . خش انت بس واقعد وخد نفسك .

وأخذ يقدمه للحاضرين مع أن الجميع كانوا يعرفون بعضهم بعضاً بالتأكيد . وأن اهتم كثيراً بترتيب جلوسهم حول السفرة، التي كانت

صاحب حسين في زهرة :

– طب قوم بلاش هزار . ومتاكلش انت حر ، إنما قوم اقعد مع الرجاله . محدث فاضي للهجهص ده .

استسلمت وتبعته مثلما فعلت مع الفتاة في الجنيهه . دخلنا ، كان أبي منهكمَا في الحديث مع أحد الضيوف فضايقني ذلك ، أفسحوا لي مكاناً بطرف المائدة ، لكنني ظللت متنعًا عن المشاركة .

لاحظ (كامل أفندي) الذي لا تفوته شاردة ذلك . فصاح :  
أيه يا (عبد الباقى) الواد ده طالع بخيل ملين ؟ ده اخوه أهل الكرم  
ولا إيه ؟ كل يا ابني كل .

ألفت والدي نحوى وقال بدون حماس ونظراته تلومنى وتنهرنى :  
– ما تأكل ، اسمع الكلام .

ثم عاد للحديث مع الضيف قائلاً :  
– سيبوه براحته .

لكن (كامل أفندي) لم يتركني براحتي ..

– يا (حسين) تعال يا ابني خد صاحبك ده . يأكل معاك جوه ما دام  
مكسوف وسط الجرما ده .

لم أكن مكسوفاً ، لكنني كنت غاضبًا من نفسي ومحرجًا فأسرعت  
مع (حسين) لأنجو من هذه الورطة حيث لم أفهم لماذا يجعلني هذا الجمع  
أتصرف على غير طبيعتي . وتعجبت من حالي ، لم أكن مرتاحًا لموافقى ،  
لم يكن ذلك تصرفى في وجود الكبار ، حتى لو كانوا من الغرباء وكرهت  
نفسى لأننى تصرفت هكذا كالآولاد (العاهاهات) في وجود الطعام .

كان خالي (يوسف) لسنوات يصحبنى معه عندما يتصادف وجودي

في (الكفر الجديد) ، ويكون هو في طريقه لإنجاز مهمة ما – لإصلاح ساقية قديمة أو تسليم ساقية جديدة في عزبة ما أو قرية بعيدة – وكنت أذهب سعيداً لأنني سأتعرف على أنس واماكن لا أعرفها . كان خالي يقابل بترحيب كبير ، وكانت أصبح بينهم الطفل المدلل ، يتبارى الرجال والنساء في إرضائي وإكرامي ، إكراماً لسيرة جدي وخالي ، لم أكن أحس حرجاً أو خجلاً في التعامل معهم بندية ، أجلس مثالمهم على الأرض ، منتاشياً لرائحة وملمس الطين والنباتات ، وعطر المتعبين من العمل !

فعملية إقامة ساقية جديدة وتثبيتها في مكانها لم يكن بالأمر السهل . إنها عملية تقاد تكون حربية ، تتكافف فيها أيدي وأذرع وأكتاف عديدة .. حبال وروافع ، كتل خشبية وأشجار ، سلام وشواكيش ومناشير ، نداءات آمرة ، وأخرى راجحة وكثيرة منها داعية ، تقرأ الآيات وأخرى تعنى .

فليس سهلاً زحزحة (التابوت) أو (الطنبوشه) وإحكام ثبيتها في المحور الحديدي المثبت في حائط البئر إلا بحسابات دقيقة تسمح له أو لها بالدوران في يسر وأسيّاً . تلي ذلك عملية إلحاق (الصغير) بها ، وهو ترس خشب ضخم (رغم اسمه) ، يثبت رأسياً معها بدقة كي يدورا معًا أو بالأصح يديرها هو بحركته ، ليخرج الماء من البئر ، إذ يكون التابوت الذي يغرق ثلثه الأسفل في الماء قد جربت سهولة دورانه قبل ثبيتها تماماً .

ثم تبدأ عملية تدكيم ضروس (الكبير) والذى يشبه (الصغير) في تركيبه . ولكننه يطرح أفقياً في فراغ مجهر (بدقة) مع ثبيته في الأرض كي يدور . وتعمل ضروسه على تحريك ضروس (الصغير) الرأسى مع

يتنابني حرج ولا خجل . على العكس ، كان الجميع يحسدون خالي على كرم ابن أخيه ، الذي لا يترجح أمام الطعام ، بل يعتبر نفسه صاحب مكان وصاحب مطرح ، وكان خالي يتباھى بتصرفی هذا الذي كنت أجدھ عادیاً ولا أحس معه تلك الخواجز المهمة بیني وبين الآخرين من الكبار ، حتى ولو كانوا غرباء أقابلهم لأول مرة ، كما حدث لي حين وجدت نفسي وسط هذا الجمجم من الأفنديه والبهوات من آل (عبد ربه) ورجالات الوفد ، كان بينهم (عبد السلام عبد ربه) ذلك الذي تزوج اخت (يس بك سراج الدين) شقيق (فؤاد باشا سراج الدين) والتي لم تطق العيش في بلدنا ، وكان بينهم النائب الوفدي الجديد (محمد سويم) الذي اختارته لجنة الوفد في الدقهلية لخوض معركة الانتخابات القادمة .

• • •

(التابوت) أو (الطنبوشة) حسب نوع البئر ونوع الساقية ، ومن محور هذا الكبير ترتفع (الشعبه) ، وهي شجرة متوسطة لها فرعان ، هذبت بعد قصّ فرعيها بطول مناسب لتصبح محوراً ، يرتفع لأعلى فوق الفراغ وفوق (الطنبوشة) أو (التابوت) إلى السماء ، حيث يحتضن ذراعاه شجرة أخرى من جذعها ، تتد مستقيمة نحو (المدار) ل تستقر فوقه على إرتفاع مناسب محسوب يربط بها (السلب) الذي سيمتد إلى (الناف) الذي يعلق برقبة (الماشية) سواء واحدة أو اثنين حسب سعة (الطنبوشة) وحجمها وكمية المياه .

كانت عملية صعبة ودقيقة ، خطط لها وأنجزت أجزاؤها على حسب حسابات معلومة ، من حيث الحجم والطول والثقل وسلامة دوران المحاور المختلفة . كان خالي ومساعدوه من النجارين يتولون المسائل الدقيقة لضبط الأصول الفنية ، بينما عشرات من (الفالحين) يتكتافون للحمل والنقل والثبت وإعادة التثبيت ، حسب نتائج التجارب في كل خطوة ، وبعد كل مرحلة حتى يتم استقرار الساقية ، رهيبة مهيبة ، غاية في الجمال والاكتمال ، حين تدور وتخرج أول دفعه من المياه تبعث في الوجوه المتعة المرهقة فرحة الراحة والانتصار ، وتنطلق الزغاريد البهيجه من النساء اللائي أحضرن الطعام .

كنت أشارك في كل هذا وكأني أحمل معهم وأدفع وأحزق وأنقطع ، مع أن دوري كان قاصراً دائمًا على مناولة حبل أو شاکوش أو مسمار حدادي أو إبعاد خشبة أو طوبة عن الطريق ، ولكنني في كل الأحوال كنت أحس أنني فعلتها معهم ، إذا كانت تغمريني مشاعرهم ، ولذا عندما يوضع الطعام كنت بكل بساطة أزاحم لأجد لنفسي مكاناً بينهم ، لا

لإحضار ماء للشرب .. وعرفت أنها أخته الكبيرة، كانت الملامح موحية . الصوت وطريقة الأداء كلها تؤكّد انتمامها إلى (كامل أفندي) صاحب الصوت المسيطر الذي لا يقبل جدلاً أو رفضاً ، ويطلق الكلام عدواً بلا مجاملة .

أثناء الأكل حكت (حسين) مبرراً موقفها الذي بدا طفوليًّا .. حكت له عن السوافي وطريقة إقامتها ، عن صناعتها وأجزائها وعن خالي والجميزة المسحورة التي زرعها شيخ طريقة سوداني على إسمه والمرهونة خضرتها بحياته منذ ارتبط اخضرارها بمولده و عن بيت جدي لأمِّي ، وعن المدرس الذي يحكى لنا الحكايات في مدرسة (الجملالية) عن الآلهة والوحوش ذات العين الواحدة وعرائس البحر والساحرات .. وحكي لي هو عن حياته في (المنصورة) والأفلام التي يشاهدها ، وحكي لي عن أمِّه التي لم تكن مرتابة لوجوده في (المنصورة) وحده ، وإصرارها الدائم على إلحاقه بمدرسة المنزلة ليكون بين أحضانها . كانت تعيره بي عندما يتحجج بقرف السفر وتعبه ، والصحيان بدربي وقرفيه ، وكيف كانت تحاول إثارة غيرته مني ، لإقناعه مع أنه كان في السنة الرابعة :

- تعال شوف ابن عبد الباقي القزعة اللي قد الفار ، شوفهم بيطلعلوه حشر في الأنوبيس من شباك العربية ، وشنطته الخشب قده مرتين شاليها على قلبه . يا حبيبي الغربة كربة ، اقعد زيه في حضن امك .

وعرفت ساعتها أن منهج الكلام وطريقة الأداء التي أزعجتني منذ قابلت فتاة البستان سمة من سمات عيلة (عبد ربه) كلها وعلىَّ أن أتعايش معها .. لو صرنا صديقين في المستقبل !

بعد أن أكلنا صحبني لاغسل يدي في حمام لم تغط جدرانه بعد محارة ولا ضهارة . حيث كان أبريق نحاس ضخم يشغل نصف المكان . يكاد

## ما لم تكن تعلم ..

○ حين جلست مع (حسين) في الداخل .. جاءت فتاة البستان بنفسها حاملة صينية عليها طعامنا.. وعندما حطت الصينية على الترابية المجهزة لنا لاحظتني .. فقالت :

- هوَ انت ؟! رحب بيها يا حسين ده خواف !

بلا خيبة دا جري وما رضيش يأكل الكمشري اللي ...

وحتى لا تكمل بصوتها المتعالي وطريقة أدائها العدوانية قاطعتها :

- أنا مارضيتش آكلها مش مغسولة ..

فضحكت ضحكة خشنة ساخرة ..

- طب كل .. الأكل ده كله مغسول ..

نهرها (حسين) وطلب منها أن تذهب



- يرجع (على ماهر) !

- يا راجل الإنجليز حيرضوا (على ماهر) ؟ والدنيا مقلوبة ، ما يقدروش على كده . فيه آلاف في السجون ولعلمك همه بقى عشان تعرف اللي يضغطوا عشان الانتخابات ..

وفجأة قال (حسين) بصوت عال مستنكراً طريقة التعامل مع الجراح التي ما تزال تنزف بهذه البساطة :

- الإنجليز همَّه اللي ح يضغطوا عشان الانتخابات !؟

قطعت الجملة المتسائلة في استنكار تيار التداعي الذي تعودوا عليه في مناقشاتهم ، كان صوت الصبي غير مألوف ، التفتوا إليه جميعاً في صمت ودهشة . قطعه (كامل افendi) بمشاعر بين الغضب والإعجاب الخفي بابنه الذي أصبح يفهم في السياسة ويتحدث كرجل ناضج بعد أن خاب أمله في أن يجذب ولديه الأكبر إلى الاهتمام العام .. أحدهم فضل أن يظل في وظيفة (ابن كامل افendi) .. والآخر عصفت به هواية التمثيل ويريد أن يصبح نجماً سينمائياً فلم يفلح ، ولكنها هو (حسين) يبشر أن يكون خليفة له وزعيماً يتحدث وسط الرجال ويدلي بدلوه .. رغم حدة آرائه التي طالما أزعجه قال :

- أيوه يا سيدى ، يعني رأيك إن ما فيش انتخابات قريب .

تردد (حسين) فهو يعرف والده جيداً .

- أكيد ح تكون فيه انتخابات ، بس الملك والإنجليز عارفين إن لو حصل ح يجي الوفد.. وما حدش منهم عايزه دلوقي إلا إذا كانوا عايزين بورطوه .

- إحنا اللي عايزين يا أخي . ولازم الوفد يرجع مرفوع الرأس بعد اللي حصل .

- الوفد راجع غصب عن عين التخين ..

يلامس السقف محمولاً على حامل من الحديد القوي ، وله حنفية تحتها طشت لتلقّى ماء الغسيل . فتح الحنفية ودعاني كي أغسل يدي بالماء وهو يناولني صابونة نصف مستعملة .. وقال معتذرًا في سخرية هو يطوح بالفوطة فوق كتفي :

- لسه ما عملناش مواسير في الحيطان يا سيدى !  
تجاهلت سخريته وتلميحة أن أبي كان يتفاخر بأنه أدخل المواسير إلى بيتنا وقت مندهشاً ومتجاهلاً بجد :

- بس الإبريق ده دخل هنا ازاى ؟ دا ضخم جداً .

ضحك متنازلاً وهو يقول :

- لا .. دا احنا بنينا حواليه البيت .

وتبادلنا نظرات عدم التصديق المرحة . ثم مضينا لنلحق بالشاي مع الرجال الذين كانوا قد سبقونا إلى الفراندة وجلسوا يحتسونه في استمتاع علني مسترخ ومتلئ ، في دوامة من الكلمات والأصوات صنعت غيمة من الرعic الرّصين وضحكات المجاملة جلسنا عند أطرافها لنسمع .

- خلاص وزارة (النقراشي) بتودع .

- هيّ لحقت ؟ دول كام شهر ..

- إيه يعني ! الملك ممكن يجيب (صدقى) تاني ، ولا يمكن ح يعمل انتخابات مش ضامن نتيجتها .

- يا عم مين قال لك . المرأة دي غصب عنه . كل الدلائل بتقول كده ، الحالة متدهورة وما يقدرش يكرر غلطة (صدقى) .

- الوفد هو الإنقاذ !

- ما تضمنوش .. يا ما في الجراب يا حاوي فيه عشرات جاهزين ..  
عنه (مكرم) جاهز  
أصوات استنكار .

البحر الصغير . وأخوه هو اللي ح يشرف علي بناء المدرسة الجديدة.. وأبسط يا عم أكيد ح يفتحوا لك فصل سنة ثالثة ورابعة كمان.. لأن الناس في مجلس المديرية برضه خايفين من الانتخابات .. ورجوع الوفد فيجاملو (ميت سلسيل).

أسرني حديثة وجمني ، سكت أسمع مبهوراً وسألته :

ـ وانت عرفت ده كله منين؟

ضحك في قلاطة وقال لي :

ـ اللي يسأل ما يتوهش يا شاطر ، والعقل موجود في نافوخ كل واحد .. بس تشغله ..

قلت في سذاجة حقيقة :

ـ وتشغله ازاي؟

ـ بالقراءة يا ابني .. دول كلهم زعما شفوي . ما بيقروش إلا (الوafd المصري) ، انت ما لاحظتش ان عمي (يوسف) ما جاش معاهم يتغدى .. لأنه ما بيحبش السياسة السمعاعي ولا المناقشات الألاؤى - بيقول عليهم دول ناس (طوباويين) ..

ـ إيه؟

فاجأتهي الكلمة وبطحتني ،

ـ يعني إيه؟ طوباويين دي؟

ـ متناسف .. قصدي خياليين .. هواة مش فاهمين الواقع .

ـ واقع؟

ـ أيوه .

ـ عايشين على أوهام سنة ١٩ وأحلام الماضي .. الوفد ما بقاش هو اللي في دماغهم بيقيسوه على مسطرة مصالحهم وبس ، الفقر مالي الدنيا

هبت موجة حماس غير مبررة ، فاختلطت الأصوات . وكأنما كان صوت الحقيقة المزعج فاضحاً لطبيعة تلك الغمامنة الهشة من المناقشات المتكررة فتساقط متبدداً في تراب الأوهام الأرخص والأسهل .

وغمغم (حسين) معرضاً عن المشاركة في الجدل والتفت لي :

ـ مش عايزين يفهموا إن الوفد ما بقاش الوفد . كلهم مستنظرین معجزة على نار ، عشان اللي عايز يخلص تاره من العمدة اللي عايز ينتقم من رفده من الجمعية التعاونية .. اللي ... اللي ...

استمعت مبهوراً . لا أتصور أن هذا الكلام يمكن أن يصدر عن (صبي) لا يزيد عمره عن عمري إلا بسنوات قليلة . وعرفت منه كثيراً مما بدد رعني حين وجدت نفسي وسط هذه الكوكبة من الأفنديبة ورجالات الخل والعقد في مجلس واحد . أربكني وجعلني لا أتصرف على طبيعتي . وأنا الذي تعودت أن أحشر نفسي في مجالس الكبار أمام دكان (محمد شطا) (لكن مش للدرجة دي) مرشح الوفد ، ونسيب (يس سراج الدين) ، وأعضاء لجنة الوفد بالدقهلية . ومن (حسين) عرفت إنهم بيرتبوا للانتخابات التي يظنونها على الأبواب . ويستعدون حتى لا يفاجأوا ، يخططون كيف يزيرون أثر (٤ فبراير) متسلحين بإنجازات حكومة (النحاس) أثناء الحرب - (كوبونات الجاز وقانون الإنصاف والإفراج عن المعتقلين وإطلاق الحرريات) ، وكأن موقف الوفد هو الذي تسبب في انتصار الحلفاء على (هتلر) وهزيمه (روملي) . وأن ينتقموا لما فعله الملك حين أقال (النحاس) وألغى معظم قرارات حكومته وطالبه بفلوس التبرعات بتاع الملاريا .

ـ لكن الحقيقة أن (مجاهد أبو دسوقي) ح يطلع مقاولة تطهير تلت

أحسست لبكائي شجناً ولذة وراحة لا تعادلها راحة .. كنت في قادم أيامي ، كلما تذكرت ما ححدث لي مع (المعدبون في الأرض) أقول باعتزاز : يخرب بيت معرفتك يا ابن عبد ربه !!!

• • •

لكن همَّ مالهم . المهم تمشي معاهم وتقول (يحبا الوفد ولو فيها رفد) نسيوا صدقى و٦٤ ومش دارين أو بيتجاهلو إن تحرير مصر بقى محتاج سياسيين من نوع جديد وان الاشتراكية بقت هى الحل لبلد زى بلدنا .  
- لكن دول ناس بخدموا البلد .

- ما قلناش ، هوَ أنا قلت انهم خاينين للبلد . لكن مش قادرin يفهموا إن الدنيا بعد الحرب بقت دنيا تانية فيها الاتحاد السوفيتى والصين، والوفد بقى يحكمه (سراج الدين) و(زينب)، وبالعكس همَّ مبسوطين بكده ما احنا نساييهم برضه .

لم أستوعب في الحقيقة ما يعنيه . ولكنني كنت قد سحرت به رغم نبرة استكبار وقلادة ملحوظة في اللهجة . سألني فجأة..

- إنت قريت (المعدبون في الأرض) بتاع الدكتور (طه حسين) .  
فغرت فمي .. فلم أكن قد سمعت بهم أصلًا ..

- إسمع ، أنا ح اعطيك كتاب (طه حسين) ده تقراه وتجبيه تاني . ده متتصادر ولا انت م اللي بيلبطجو على الكتب ..  
أنكرت بسرعة واعداً بإرجاعه ، رغم أنها المرة الأولى التي يتطلع أحد ليعرني كتاباً.. صحيح أنني حكيت له عن حكاياتي مع دولاب خالي (إبراهيم) .. وقراءتي لألف ليلة وليلة لحالاتي من خلف ظهره . حينما حكى لي عن الكتب التي يتداولها الطلبة في المنصورة سراً !!

كانت المرة الأولى التي يعيرني أحد فيها كتاباً .. وليس أي كتاب .. فقد قلب كياني الغض .. وعصر فؤادي حزاً .. كنت أبكي بجد حين أكون وحدى .. لم أحرك عن هذا له ولا لغيره ، فهذا عيب ، كنت أعيش على وهم أن الرجال - الرجال لا ي يكون ، كنت خجلًا . وكلما فعلتها

تغالب دموعها وهي تربت عليّ . ولما استيقظت أخذتني في حضنها وأطلقت لنهنها العنان ..

اكتشفت بعدها أن الهواء ثقيل ، وأن نفسي قد انسدت عن الدنيا ، ولم أعد ذلك الصبي الذي لا يكف عن الحركة وتسلق الأشجار ، واحتراق السياجات المحرمة لاقتناص فاكهتها . ولا ذلك الفتى الذي يلقي بنفسه في أي مياه جارية يسبح ويفغوص ويعبر إلى الشطوط الأخرى .. وقدت شلة الشقاوة وعصابة الليل بهجتها وإغراءاتها ..

كنت (جميلاً) تحبني البنات . وتملائي النسوة وهن يتونمن . لكنني كنت كالقط البري آخر بش وأخمش كل من يحاول تخطي حدود الأدب معى من الصبية والشبان المنحرفين ..

ذات يوم فوجئ رواد مقهى (حسن مصطفى) في وسط السوق بي وأنا أنهال بعضا صفاصاف كالكرجاج على رأس وضهر وجه الواد (سامي) الذي كان صديقاً لي .. تبعته وقد جهزت عصاي حتى دخل دائرة الضوء وضجيج الزهر والقواشيط لأفعل فعلتي .. حتى يكون تأدبي له علناً جهاراً انهاراً .. وحين اندفع الجميع لتخلصه من قسوتي ، سألوني .. قلت : إسألوه هو .. لو عنده رجولة يقول ليه؟ .. لازم يفهم ان مش كل الطير اللي يتكل لحمه ..

وربت (سعيد المربيح) (في خبث رجل فلاتي لا تترك يده زهر الطاولة ولا يغادر القهوة أبداً) على خدي مهدئاً بطريقة وجدتها تتجاوزت حدودها فصفعته على وجهه أمام الكل صفعة أطلقت من عينيه شارات تؤكد أنني أعني ما أقول . (مش كل الطير اللي يتكل لحمه) ..

## اقرأ كتاب ...

لم يكن (المعدبون في الأرض) أول كتاب أقرأه ، لكنه كان أول كتاب أعيد قراءته وأحفظ منه بكل إرادتي فقرات كاملة . كان ترديدها يجعلني أبكي .. ذات يوم ضبطتني أمي وأناأغلق غرفتي علىي معه ، فحاولت أن أخفيه لكنها لاحظت أحمرار عيني .. ضربت صدرها بملء كفها وهي تصيح :

ـ يا حسرتي ، مالك يا عين امك .. بتعيط ليه .. إيه ده؟ هات اللي بتخبيه ده ..  
و لم أستطع الرفض . فلما رأته كتاباً ، ضحكت ، فأسرعت بإخفاء وجهي الذي يليله الدموع تحت اللحاف ، لكنها لم تترك الكتاب إلا بعد أن قرأته .. وعادت إلى وجدتني نائماً .. فأيقظتني وجلست



البيوت يتاؤهون في ظل الحيطان ، مهجورين إلا من أم عجوز تواسي بلا حيلة ، أو زوجة متبرمة تبكي نداءاتهم في استسلام وبلا أي نصير على الإطلاق سوى الصمت والفقر والرعب حين تشتد نوبات المرض المجهول .. لم أكن أفعل شيئاً سوى ، أن أ också شفتي إشفاقاً .. قد أناول هذا القلة ليشرب أو أغلق الباب المكسور إذا طلب مني ذلك ، أو أقرب له رغيف الخبز الجاف المغمس ببعض المش ليكون أحسن على أسنانه ، وأفعل ذلك وأنا أحس أنني ملاك الرحمة .. وأنسى الأمر بمجرد ابعادي .

لم أكن أحسن بأي مشاعر حادة حيال معاناة عمتي (فريدة) وزوجها (حسين) ، الذي عاد من مستشفى المجانين ، عاجزاً مستسلماً لقدرها . يجلس طول اليوم في مكانه أمام الدار على قرافيسه ، وكأنه يتهدأ لرحيل لا يحدث أبداً . يتأمل الرائحين والغادين ، يقتله العجز لعدم استطاعته مساعدة زوجته في ترويض أطفالها ، وفي سد حاجات الغيط والبيت .. ولا يعرض على إرسال ابنه للخدمة عند بعض أقاربه الطلبة في مصر ، لقاء لقنته وهدنته وقووش قليلة ..

لم أكن أجد غرابة في ذلك ، فهذه هي حياتهم أراها منذ وعيت على الدنيا دون أن تقلقني أو تثير دهشتي ، بل إنها أحياناً تصبح مادة لعيتنا الطفولي ، إذ كنا أحياناً إذا ما لم نجد شيئاً آخر يشغلنا .. نغني للمسكين الرابض عاجزاً يوم في عالمه ، بالأغنية التي أطلقها البعض سخرية من قصة حبه لعمتي أيام الشباب . وكيف أشعّلت بأحداثها التارية غيره الكثرين فغنوا لهم ما مرحاً ما نغنيه نحن الآن إزعاجاً وسخرية وقد تبدلت الأحوال وتهدللت المعاني وجفت :

(جلاويں جلاوین جلاوین)

وفريدة بتحب حسين / وحسين ما بحبهاشي !

كانت كل أحواش وسطوح البيوت التي حولنا من أقارب أقربين وأبعدين مفتوحة لي .. و كنت أتأمل ما حولي في لا مبالاة .. بل أحياناً في براءة وسعادة . لا أحس بقسوة الفرق بين بيتنا وحياتنا وبين حياتهم وبيوتهم ، بل قل جحورهم ورائهم ..

لم ألاحظ أن معظمها لا توجد بها سراير ، ولا كتب ولا مرايات . ينامون على المصاطب أو على الأفران أو في أركان غرف عارية ... على حصير أو عباءة تختشد فيها الحشرات .. والبعض ينام على السطوح ، دافناً نفسه في أكوم القش . وكم كنت أفرح إذا ما تصادف ودخلت زرية (الصديق) المعتمة التي تفتح عليها نافذة المندرة يعيش فيها عندما تقوم زوجته (عاقلة) بحلب الجاموسية التي ولدت حديثاً .. وتغريها (بالبُو)، وهو هيكل مصنوع من جلد عجل صغير ، تخدعها به لتدر لبنها كأنه لرضيعها .. وأشارك في مرح عندما يعود زوجها وابنهما من الغيط ، فيليقي بحمل البرسيم في قرف ويزعق طالباً الطعام .. فتسرع لتضع أمامهم على الأرض ، فوق حصيرة مهترئة ، حلة البارمية أو الملوخية (القرديخي) وتلتقي أمامهم بعدة رصات من الخبز وبضع بصلات أو حزمة سريس .. فأجلس بينهم في سعادة ، أشاركهم طعامهم الشهي ، مستطعماً مستلداً مؤكداً لنفسي أنه أذكى كثيراً من طاعمنا المجهز بالمستكة والخبهان ، والمطعم (بالظفر) ، في أطباقه المغسولة .. مبرراً أن هذا يرجع للفرق بين الطهي على (المقدة) والطهي على وابور الجاز لأنني لا أستطيع أن أتخيل أن هناك امرأة تفوق أمي في طهي الطعام .

وكنت في خضم انديجي مع الأولاد والبنات ونحن نتجول كالعاصفة في كل مكان ، نطارد الكلاب ونزرع البط والدجاج ونصيد الزرازير ، أو الجمارين أو أسماك الترعرع، حين أشاهد المرضى من أهل تلك

لمطاردتها عشوائياً .. بتطويع ما جهزناه من عصي طويلة وفروع شجر أو جريد نخيل وبوص ريح ، ويتفاخر كل منا بعد ما أسقط من (وطاويط) كنا نظنها عصافير جنة .. ونخافها طول الوقت حذرین أن يلتصق أحدها بوجه أحدهنا ، ساعتها لن يترك المبلي البائس ولا (بالطل البلدي) حتى يمتص دمه .. وكنت ألاحظ هذه (الوطاويط) في غير أوقات هيجانها معلقة في هدوء من أرجلها في أسقف الزرائب والأفران ، حيث ينام أصحابي وأهلهم تحتها في تعايش ولا أجد ساعتها في ذلك أي غرابة !!

أسمع أن والد صاحبي (موسى) مات فجأة مع أن الكل كان يتوقع موته من زمن طويل، كان كرشه المنفوخ أمامه يكبر يوماً بعد يوم ، لم يقعده عن الذهاب كل يوم للغيط وممارسة شئون الفلاحه .. حتى انفجر فجأة ونزف دماً أصفر كالمدّة من فمه وأذنيه واسته .. وفاحت رائحة زنخة لم تفلح وصفات الحانوتى في معنها إلا لما أطبق عليها غطاء القبر ..

وكنت أشاهد في ذهابي وإيابي (أبو الروس) يجلس على المصطبة العالية أمام بيتهما المواجه لأبي خشبة (الخرابة) وأمه الضئيلة الجسم تقوم على خدمته وإسناده حتى لا يسقط بسبب تضخم رأسه التي تبلغ ضعف جسمه ، منتصبة كهرم مرعب مقلوب .. بل وكنا نداعبه ونلاعنه سخرية في غيبة أمه لشأن من شئونها .. ولما تعود تطردنا وتنعتنا بالكفرة .. لأنها تصر على أن ربنا أكرمنا به . فهو ولی من أولياء الله ، تخدمه طول الوقت لتكتسب ثوابه ، فالله يبتلي عباده المخلصين .. بينما كان بعضنا يتساءل في خبث .. كيف خرج هذا الرأس المخروطي الضخم من فرج تلك المرأة الهزيلة الواهنة التي تشبه خنفساء بلا أرجل .

لم أكن أحس قسوة شمس القطن وأحسد الصغار الذين يساقون إلى جمع لطع الدودة من الأشجار المصابة في عز نعمة الشمس .. وأحسن نفسي معهم (بيجامتي) النظيفة كأنني أريد أن أشار لهم (لعيهم) . وكان الخولي يطردني برقة إكراماً (عبد الباقي أفندي) .. أو يطاردني ملوحاً بلسوعة خرزاته التي يسوق بها غيري للعمل .. مهدداً بضربي بجد إن نزلت الغيط ولم أرجع إلى البلد ويصرخ في متحجاً :

- ايه يا أخوان البلاوي دي انت جاي تبلينا ما تروح لأهلك يا ابن عبد الباقي أما مصايب ..

ولكتني لم أكن أجد في ذلك أي مصائب .. فبعض من يحترقون في الشمس أصحابي ، لماذا لا أشار لهم ، وكأننا نستحم في الترعة أو ن bum التوت أو نتأمر لغزو الجنينة . وأندهش جداً ولا أجد إجابة لسؤال يلح على لماذا لا يسمحون لي ؟!

أعود شاكياً لأمي .. فتموت على روحها من الضحك.. وتناولني كعكة مما أحضره أبي من المدينة ، ولستنا في موسم الكعك فأتظاهر بأكلها .. وأخفيفها في جيب البيجامة لأشارك فيها أياً من أصحابي .. وكثيراً ما كان يحدث أن أنها فترت ملابسي . وتنهنني أمي وهي تغيرها لي بأخرى نظيفة ، مثلما تفعل كلما عدت لها آخر النهار ملوث الشباب بطين المصارف ، أو بتراب المصاطب المندي أو بغبار الساحات الذي لا يكفي عن الاستجابة لأقدامنا وأجسادنا التي لا تهدأ ولا تكف عن العفرة..

كنا مع المغرب نخوض معاً المعركة اليومية مع (الحفافيـش) ، جيوش مؤلفة منها كانت تنطلق مع الغروب من أسقف الزرائب والعرياش والأحواش المظلمة . تطير بجنون عبر الشوارع والحواري فسرع نحن

عليَّ هُمْ لَمْ يفارقني وامتزج بدمي إحساس قاتل بالذنب فيما لا ذنب لي .. واكتشفت مرارة في لساني لا تزول .. ودهشة مبعثها اكتشافي أنني أعيش طول الوقت أولئك المعذبين في الأرض ، دون أن أحس بتلك المشاعر ، التي أطلقت دموعي حسرة وحزناً عليهم .. حين قرأت عنهم كلمات مكتوبة . (أي سر تملكه تلك (الكتابة) لتدمير هنائي ، وتسلبني براءتي .. أي سر .. !?)

— منك الله يا ابن عبد ربه !!

• • •

كنت أتعايش مع كل ذلك في غمرة نشوء الصبا .. ولا أحس تناقضًا بين حياة بيتنا (البندرى) الذي يشع بياضه في الحرارة ، المبلط الأرض ، ذو السلام البلاط ، والحمامات ذات الموسير .. والراديو أبو بطارية سالية ، والإيرial العالى المزدوج ، والفراندة الملونة الزجاج واحدة بحرية وأخرى قبلية على الشارع ، تمرح النسمة الطرية في الصيف بينهما لتجعل من الصالة العلوية في الدور الثاني مصيفاً ومتعة .. تتتصدرها (أم سمير) وهي تقوس كوسة المحشى أو تلف ورق العنب أو تنظف الأسماك أو تنقي العدس والأرز .. في دعوة واطمئنان لتجهز الطقات الثلاث في مواعيدها . وتجعل منها طقوساً يشارك فيها الجميع بلا أي أعذار لمن يكسر النظام .. أو تتبادل الأحاديث والأخبار مع (خلت خضرة) التي تقعى على البلاط البارد مستمتعة بملمسه ، وأمي تطوي وترتب غياراتنا المغسولة والمزهرة التي كانت منذ قليل ترفرف كالإعلام فوق السطح على حال غسيل مثبتة في مسامير وأعمدة . لترت ملابس كل منا في غيارات معلومة ، لتوضع في ترتيب منسقة في الدولاب .. لتخرج في موعدها .. حمام كل أسبوع بالماء الساخن في الصيف .. وكل أسبوعين في الشتاء للجميع بلا استثناء مهما كان شح المياه في السدة الشتوية .

العجب أنه لم يكن يدهشني ذلك التناقض بين هذه الصورة التي تأسري كل مساء في مواعيد الطعام المنتظمة .. وبين تلك الحياة التي تخطفني طوال اليوم ولا أستطيع أن أخلص نفسي منها لتلبية نداءات البيت الجبرية ومواعيده المنضبطة إلا بصعوبة بالغة ..

لكنني حين قرأت (المعذبون في الأرض) فقدت براءتي .. وحط

في نترة واحدة .. وانطلق بنا حماره ركضا إلى مكنة الطحين التي كان لصوتها المتقطع الحاد ذى الایقاع المتواتر رنينا خاصا لم أسمعه في أية بقعة آخرى من بقاع الأرض . ومازال يرن في أذنى حتى الآن كلما فاضت روحي شوقاً لذكريات صباً وطفولة (ميت سلسيل) ..

وبسببه ما زلت حتى الآن أحفظ فضلك يا صديقي في إشتعال جذوة شغفي (بالشعر الأكتر والعيون التي سرقها الحزن من البرسيم) والنمش الذي جذبني إلى وجهه (مديحه) من بين وجوه البنات اللائي يتزاحمن لجمع (الرجيع) الناتج عن هرس غلاف الأرز الشعير خلف ماكينة تبييض الأرز ..

بنات فقيرات من عائلات الكدح والتراحيل (المعدبون في الأرض) يؤجرن لكل الأعمال الطارئة من حمل موءون البناء إلى جمع الدودة أو ملء أزيار الماء للبيوتات المستوردة أو جمع القطن أو تنقية الغلت والبخر ومخندقوق من غيطان الأرز أو القمح .. وكيف لا يجدن ذلك لقاء قروش قليلة ، يقمن بأعمال خاصة متعددة لحساب من يطلبنهن لقاء نسبته من الناتج ايَا كان ، فيقمن بجمع الجلة الحية ، بمتابعة البهائم لدى عودتها من الحقول حيث تكون قد هضمت طعام اليوم كله .. أو بجمع (الرجيع) هرس قشر الأرز ، حسب طلب أصحابه لقاء نسبة عينية منه لبيوتهن أو لحساب صاحب الماكينة نفسه . وكان (السيد البدوي) يجلس في كشك صغير مصنوع من نفس الصاج الرمادي المصنوعة منه جدران مبني الماكينة التي تضم عبرين ، أحدهما لطحن القمح وهو الأكبر والأخر لتبييض الأرز . ترددت فيه الفتيات يعرضن أنفسهن على صاحبات الأرز المقشور (المبيض) أو على كاتب الماكينة وابن صاحبها (السيد) ليختار المحظوظة التي تقوم بالعمل لحسابه .

## لا تقصص رؤياك

○ حين سمعت صوت (خالت حميده أم قشلان) تنادي ابنها (فتحي) على طريقتها - يا لا يا واد يا فتحى أتفتحت في راسك طاقة !!  
أسرعت انزل السلم قفزًا إلى أول الشارع حيث بيت (الأشنة) (جمع قشلان) .. فقد وعدني صديقي (فتحي) أن يصحبني إلى مكنة (البداوية) لنحضر الطحين وأن يعطيني فرصة ركوب (حماره الحصان) ، نعم كان حماراً كالحصان فأذنيه أقصر من الحمار العادي .. وذيله أغزر شعراً وجسمه ضخم عال بشكل غير طبيعي .. ولم يكن يشكمه ويسطير على جمودة إلا قلة على رأسهم (فتحي القشلان) ..

رأيته يركب (الحمار الحصان) ولما لمحني قادماً إليه مد ذراعه القوي تعلقت به ورفعت نفسي خلفه



وراءه داخل الوابور مجاملة له فقط .. بل كانت مجاملة لي بالدرجة الأولى يا صديقي مثلما كانت مجاملة لك .

فقد كانت حبيبته (هانم) بنت الصايغ جارتنا لزم ، تسكن في مواجهة منزلنا ، وبما أنه يأتي لزيارتها كثيرا وفي أوقات ملفتة للنظر ومثيرة لأقاويل ولغط كان لا يهتم لهم كثيرا . كان يهتم أكثر أن يجدني مبتسما له كلما صادفته داخلا أو مغادرا في تحد لأخوتها المتخصصين المقيمين بنفس البيت ، مما عقد بيننا صدقة رغم فارق السن . لذا لا تؤاخذني يا صديقي - فانا أعرف أنه صديق لك قبلي وأكثر مني لأنكما بحبل الغرام موصولان هو يحب جارتنا وانت تحب صديقتها إبنة (العصفوري) وكثيرا ما اجتمعنا على رأس حارتنا أمام بيتك أو أمام بيتنا لنتمكّن من رؤية حبيبتك . حين تأتي مستترة خلسة لزيارة صديقتها في غبطة المساء . المهم أنه - مجاملة لك أولى أجلسني على دكة سلطته حتى تنتهي من عملك . بل وتركتي أمارس بعض مهامه فأزن وزنة بين الحين والحين أن أراد القيام ببعض شأنه أو ليظهر مزيدا من إعزازه لي . بجعل اشاركه بعض سلطته المطلقة !

وفي إحدى هذه المرات نشب صراع . وقامت خناقة بين الفتياـت جامعات (الرجـيع) كـادت تصل إلى حد التـشابـك . واضطـرـرت لممارـسة سلطـتهـ في التـدخلـ صـارـخـافـيهـنـ ،ـ منـ حيثـ أناـ وـراءـ الشـباـكـ مـهـدـداـ بـطـرـدهـنـ جـمـيـعاـ ،ـ ولـدـهـشـتـىـ إـمـتـشـلـنـ لـصـرـختـيـ الـهـشـةـ وـصـوـتـيـ الغـرـ وـتـرـاجـعـنـ .ـ أـخـذـتـنيـ جـالـلـةـ المـوقـفـ حـينـ هـدـأـنـ بـشـكـلـ لمـ أـتـوقـعـهـ .ـ نـادـيـتـ عـلـيـهـنـ لـأـسـأـلـهـنـ عـنـ سـبـبـ النـزـاعـ .ـ وـلـماـ حـضـرـنـ أـمـامـيـ مـتـراـحـمـاتـ مـسـتـضـعـفـاتـ يـسـتـرـحـمنـيـ ..ـ كـدـتـ اـفـقـدـ سـطـوـتـيـ .ـ لـأـنـتـ رـأـيـتـهـ لـأـوـلـ مـرـةـ (ـتـلـكـ العـيـونـ التـىـ سـرـقـهـاـ ..ـ

يتقاتـلـنـ فـيـ صـخـبـ طـوـلـ الـوقـتـ مـسـتـجـدـيـاتـ أـنـ يـكـلـفـنـ بـالـعـمـلـ .ـ يـحـدـثـنـ ضـجـيجـاـ وـصـخـبـاـ يـعـلـوـ عـلـىـ صـوـتـ الـمـاـكـيـنـةـ نـفـسـهـ .ـ بـيـنـماـ يـجـلـسـ (ـالـسـيـدـ)ـ أـمـامـ شـبـاكـ فـيـ وـاجـهـةـ الـكـشـكـ تـخـرـجـ مـنـ أـسـفـلـهـ طـبـلـيـةـ الـمـيـزـانـ ،ـ الـذـيـ تـوـضـعـ عـلـيـهـ قـفـفـ أـوـ زـكـابـ الـأـرـزـ ،ـ بـيـنـماـ يـجـلـسـ هـوـ مـزـهـوـاـ بـنـفـسـهـ مـتـحـكـمـاـ وـمـرـاقـبـاـ كـلـ مـاـ يـجـرـيـ أـمـامـ الـكـشـكـ وـالـمـاـكـيـنـةـ مـنـ الشـبـاكـ الـذـيـ يـقـعـ وـرـاءـ مـبـاشـرـةـ صـدـرـ الـمـيـزـانـ حـيـثـ الـذـرـاعـ ذـيـ الرـمـانـةـ .ـ يـرـاقـبـ حـدـودـ مـلـكـهـ مـنـ الـخـارـجـ سـوـاءـ خـارـجـ الـمـبـنـىـ أـوـ حـوشـ مـاـكـيـنـةـ تـبـيـضـ الـأـرـزـ مـنـ خـالـلـ الـبـابـ الـكـبـيرـ الـوـاسـعـ الـذـيـ يـكـادـ يـشـكـلـ نـصـفـ الـوـاجـهـةـ .ـ

ربطـ فـتحـيـ (ـحـمـارـ الـحـصـانـ)ـ فـيـ الشـجـرـةـ الـوـحـيدـةـ التـىـ تـقـعـ أـمـامـ الـمـاـكـيـنـةـ ،ـ عـلـىـ شـاطـئـ الـقـنـاءـ الصـغـيرـةـ التـىـ يـنـدـفـعـ فـيـهـاـ الـمـاءـ السـاخـنـ مـنـ الـمـاـكـيـنـةـ بـعـدـ قـيـامـةـ بـتـبـريـدـهـاـ إـلـىـ مـسـرـفـ (ـبـوـالـيـصـ)ـ وـالـتـىـ تـسـبـبـتـ سـخـوـنـتـهـاـ فـيـ تـقـزـيمـ الـشـجـرـةـ الـعـجـوزـ فـأـصـبـحـ ذـاتـ مـنـظـرـ فـرـيدـ لـاـتـشـبـهـهـاـ فـيـ شـجـرـةـ أـخـرىـ ..ـ سـمـحـ لـ(ـالـسـيـدـ)ـ بـالـجـلـوسـ إـلـىـ جـوـارـهـ عـلـىـ دـكـةـ سـلـطـتـهـ الـمـطـلـقـةـ ،ـ وـرـاءـ الـشـبـاكـ الـمـطـلـ علىـ بـاـنـورـاـمـاـ الـمـشـهـدـ .ـ وـهـوـ مـكـانـ لـاـيـسـمـحـ بـجـلـوسـ أـحـدـ فـيـ أـثـنـاءـ ذـرـوـةـ الـعـلـمـ إـلـىـ مـنـ يـعـزـهـ .ـ حـيـثـ تـتوـافـدـ أـمـامـهـ سـتـاتـ وـبـنـاتـ الـبـلـدـ الـمـسـتـورـاتـ الـلـائـىـ يـحـجـبـنـ فـيـ الـبـيـوـتـ اـنـظـارـاـلـلـزـواـجـ ،ـ لـكـنـ يـذـهـبـنـ لـبـيـاضـ الـأـرـزـ أـوـ لـطـحـنـ الـقـمـحـ لـلـضـرـورةـ .ـ وـغـالـبـاـ لـفـرـصـةـ شـمـ الـهـوـاءـ الـحـرـ خـارـجـ الـبـيـوـتـ ،ـ وـالـأـمـرـ لـاـ يـسـلـمـ إـذـ تـنـكـشـفـ الـوـجـوهـ وـالـأـذـرـعـ بـلـ وـبـعـضـ الـسـيـقـانـ اـثـنـاءـ الـمـهـابـرـةـ وـالـتـزـاحـمـ عـلـىـ أـوـلـوـيـةـ الدـوـرـ ،ـ لـوـزـنـ حـمـولـ الـأـرـزـ أـوـ الـقـمـحـ وـوـضـعـهـ عـلـىـ الـمـيـزـانـ أـوـ رـفـعـهـ عـنـهـ ثـمـ دـفـعـ الـأـجـرـ أـوـ الـمـساـوـةـ عـلـيـهـ .ـ وـمـاـ فـيـ ذـلـكـ مـنـ مجـاملـةـ أـوـ دـلـعـ وـجـبـرـ خـواـطـرـ !ـ وـكـانـتـ دـعـوـةـ (ـالـسـيـدـ)ـ لـيـ أـنـ أـجـلـسـ إـلـىـ جـوـارـهـ حـتـىـ يـنـهـيـ (ـفـتـحـيـ)ـ مـاـ

مبسمة قبل أن تدخل الماكينة . إبتسامة أشرق معها وجهها نظيفا لا أثر عليه لغبار الرجيع أو لانكسار الفقر .

كان (السيد) إلى جواري خلف النافذة يضحك من القلب وينادى :

- تعالى يا (فتحى) شوف صاحبك واللى جرى له ..

واح (فتحى) فى باب وابور الطحين وهو ينفض ملابسه من غبار

الدقيق :

- ما له ؟ كفى الله الشر .. قدامى لسه شويه يا أستاذ (سمير) وح

نروح على طول .

قاطعته حتى لا أصبح محور حديثهما ، فيفسدان على الحالة التي قررت أن أخوضها محتفظا لها بخصوصيتها . فلا تصبح حدثا يفضح قدسيته الأصدقاء ويتمسخون عليه مثلما حدث (خطاب بنت الهاوارى) المزعوم الذى دسه البعض على والدى أكتشفع معى فى الفصل الأستاذ (الشار) .. فى الأسبوع الماضى .. وكانت مرارته فى حلقى مازالت حادة حتى غسلها عسل عيون (مديحة) البرسى ..

لم أتعمد أن تتقمصنى شخصية (دارتبان) ولكننى قررت أن أضع (مديحة) تحت حمايتي !

(كنت قد شاهدت فيلم (الفرسان الثلاثة) منذ عدة أسابيع حيث كانت سينما (المنزله) قد افتتحت بفيلم (فتاه من فلسطين) وكأنه جاء إحتفالا بعودة جيشنا المحاصر (المتصر) إبان النكبة . فتقىصتني روح الطيار . الذى أحبه الفلسطينية وقررت أن أكون طيارا ثم تلاه (فيلم المجنونة) فغيرت طموح تخصصى لأكون دكتورا .. إنشاء الله .. وظللت غير مهنتى أسبوعا بعد أسبوع حسبما يكون بطل الفيلم الذى عادة ما يقع

الحزن من البرسيم وذلك الشعر الأكرت ..) فتلعثمت كثيرا إذ خطفت قلبي كأنما أنتزعته مني !! وعجزت عن الاستمرار فى دور القاضى .. ولو لا وصول (السيد) وتوليه أمر النزاع لأنعشى على ، بسبب حرجى من الخرس الذى لجمنى .

وكأنما ضرب ساحة ماكينة الطحين (نيزك) شارد أو زلزلت الأرض زلزالها لأنه ساد سكون تام .. واختفت كل مخلوقات الأرض وأثقالها فيما عدا ابتسامتها المشرقة التى لم يخفها العبار وضفيت بها الخشنتين وسكت العالم حولى وإلى إن سمعت صوت (السيد البدوى) يصرخ فى :

- مالك يا ابوسمره .. هوه سرحت فى إيه ؟ مالك ؟

ثم عرفت إسمها لما سمعته ينهرها فى قسوة

- إيه يابت (يا مديحة) إيه يا بنت (أم نمر) عملتى إيه يابت زعل الأستاذ ؟ ... همست بلا صوت . (زعـلـتـنـىـ اـزاـيـ ياـ (ـسـيـدـ)ـ؟ـ). قول سحرتني شلتـنـىـ ؟ـ) ..

كانت عيناهما الزمردين تشعاـن من تحت رموش غطـاهـاـ رـجـيعـ الأـرـزـ . وـتـرـقـانـ فوقـ خـدـيهـاـ الـوـرـدـيـنـ المـنـمـشـيـنـ المـرـبـيـنـ ، وـكـانـ شـعـرـهاـ الأـكـرـتـ الذـىـ يـطـلـ نـافـرـاـ فـيـ ضـفـرـتـينـ زـعـرـورـتـينـ منـ تـحـتـ منـدـلـيـلـهـاـ الأـوـيـةـ الأـجـرـبـ المـغـبـرـ .. يـجـسـدـانـ لـيـ حـلـمـاـ أـخـذـ بـلـبـىـ ، وـأـسـرـنـىـ مـنـذـ تـعـلـقـتـ بـبـنـتـ (ـهـاـوارـىـ)ـ وـالـتـيـ تـجـسـدـتـ لـىـ (ـمـدـيـحـةـ)ـ نـمـوذـجـاـ نـظـيفـاـ لـهـاـ . إـسـبـدـلـ خـبـالـ جـلـبـاـبـاـ النـاـحـلـ الكـالـحـ الـفـقـيرـ بـمـلـابـسـ مـدـرـسـيـةـ نـظـيفـةـ ..

هـنـزـنـىـ (ـالـسـيـدـ)ـ فـأـيـقـظـ سـبـاتـىـ وـانتـبـهـتـ أـنـ قـلـبـىـ يـكـادـ يـنـحـشـرـ فـيـ حـلـقـوـمـىـ .. وـشـاهـدـتـ الـبـنـاتـ يـتـفـرـقـنـ وـيـعـدـنـ إـلـىـ الـعـلـمـ إـلـاـ هـيـ .. وـسـمـعـتـ قـلـبـىـ يـعـودـ مـنـ إـخـتـاقـتـهـ وـيـدـقـ عـلـىـ طـبـلـتـيـ أـذـنـىـ .. عـنـدـمـاـ رـأـيـتـهـاـ تـلـتـفـتـ لـيـ

في الغرام وتحيط به المشاكل والدسائس لينتصر في النهاية ويفوز بعشوقته رغم عن أنف الجميع أو بعفارتهم وسط فرحة وبهجة وسعادة .  
وكان (دارتيان) رابع الفرسان الثلاثة وأظرفهم قد التقى وهو الريفي بخيطة الملكة التي تسكن في بيت متواضع في أحد حواري (باريس) الفقيرة .. فقرر أن يضعها تحت حمايته وأن يصد عنها عدوان ومؤامرات الحرس الشرير ..

أخذت أحوم حول وابور الطحين وأنا أفك في طريقة للحديث معها بعيداً عن الأنظار . ظن (فتحي) عندما رأني أمر من جانبه إلى حيث موتور الماكينة أتنى أستعجله :  
– نص ساعة بالكثير يا سمير وح نروح ..  
ضحكـت وقلـت له أطـمئـنه

– ما تشـغلـشـ بالـكـ ، خـدـ رـاحـتكـ ، أـنـاـ بـسـ بـاتـفـرجـ .  
وـدخلـتـ الجـزـءـ الخـلـفـيـ حـيـثـ (ـالـموـتـورـ) الـذـيـ تـخـرـجـ مـنـ السـيـورـ ، الـتـيـ تـدـيرـ مـاـكـيـنـةـ طـحـنـ القـمـحـ وـالـتـىـ تـدـيرـ مـاـكـيـنـةـ فـرـكـ (ـتـبـيـضـ) الـأـرـزـ وـكـنـتـ أـعـرـفـ الـمـكـانـ جـيـداـ فـقـدـ إـرـتـدـتـهـ كـثـيرـاـ عـنـدـمـاـ كـنـتـ يـوـمـيـاـ أـدـخـلـهـ لـشـحـنـ بـطـارـيـةـ الرـادـيوـ .ـ كـانـ الـفـتـحـةـ الـمـوـدـيـةـ لـمـاـكـيـنـةـ الـطـحـنـ كـافـيـةـ لـمـرـوـرـيـ عـرـجـارـ .ـ وـلـكـنـ الـتـىـ تـمـ بـهـاـ سـيـورـ مـاـكـيـنـةـ الـفـرـكـ لـمـ تـكـنـ كـافـيـةـ لـأـعـبـرـهـ إـلـىـ حـدـدـ الـفـتـيـاتـ .ـ فـوـقـتـ وـسـطـ ضـجـيجـ الـآـلـاتـ مـحـاـوـلـاـ لـفـتـ أـنـظـارـهـ ..ـ وـلـمـ رـأـيـ (ـمـديـحةـ) شـهـقـتـ خـوـفـاـ مـنـ أـنـ أـعـبـرـ بـجـوـارـ السـيـورـ .ـ وـانتـهـزـتـهاـ فـرـصـةـ فـأـشـرـتـ إـلـيـهاـ أـنـ تـقـرـبـ .ـ لـكـنـهاـ خـافـتـ فـالـإـقـرـابـ مـنـ السـيـورـ خـلالـ عـمـلـهـاـ العـنـيفـ خـطـرـ وـلـهـ كـثـيرـ مـنـ الضـحاـيـاـ ..ـ أـشـارـتـ لـيـ أـنـ أـبـتـدـعـ وـأـعـودـ وـلـكـنـيـ لـأـعـبـتـهـ بـالـتـهـدـيدـ أـنـ أـقـرـبـ أـنـاـ ..ـ

فـسـلـلتـ مـتـظـاهـرـةـ أـنـهـ تـرـيدـ أـنـ تـعـرـفـ مـاـ أـرـيدـ ..ـ  
كـانـ صـوـتـ الـآـلـاتـ عـالـيـاـ وـلـهـ هـدـيـرـ ..ـ لـكـنـهاـ بـعـدـ لـأـيـ التـقـطـتـ مـاـ أـوـدـ  
قـوـلـهـ بـصـعـوبـةـ ..ـ أـنـ تـلـحـقـ بـىـ عـنـدـ سـوـرـ الـمـسـتـشـفـيـ الـقـرـيـبـ حـيـثـ سـأـسـبـقـهـاـ  
إـلـىـ هـنـاكـ رـاكـبـاـ الـحـمـارـ .ـ  
وـعـدـتـ بـسـرـعـةـ وـأـنـ أـسـابـقـ دـقـاتـ قـلـبـيـ الـمـنـفـعـلـ فـقـدـ كـنـتـ كـمـنـ صـعـدـ  
جـبـلـ (ـالـجـيـوشـيـ) عـدـواـ ..ـ

لـمـ حـنـيـ (ـفـتـحـيـ) أـحـاـولـ رـكـوبـ (ـالـحـمـارـ الـحـصـانـ) فـتـرـكـ مـاـبـيـدـهـ وـجـاءـ  
بـسـرـعـةـ وـسـاعـدـنـىـ عـلـىـ اـمـتـطـائـهـ وـكـانـ الـمـرـأـةـ الـأـوـلـىـ الـتـىـ أـمـتـطـيـهـ وـحـدـيـ .ـ  
وـنـاـولـنـىـ مـقـوـدـهـ وـقـالـ فـيـ سـمـاـحةـ :ـ  
– مـاـتـرـوـحـشـ بـعـيـدـ أـنـ قـرـبـتـ أـخـلـصـ .ـ  
ـ قـلـتـ لـهـ بـلـاـ مـبـالـاةـ :

ـ أـنـاـ حـاضـرـ بـلـطـةـ عـلـىـ الزـرـاعـيـةـ وـارـجـعـ حـالـاـ ..ـ  
ـ إـبـتـسـمـ (ـفـتـحـيـ) فـيـ ثـقـةـ وـضـرـبـ (ـالـحـمـارـ الـحـصـانـ) عـلـىـ مـؤـخرـتـهـ  
ـ فـأـنـدـفـعـ بـىـ فـجـأـةـ كـحـصـانـ ،ـ حـتـىـ كـدـتـ أـفـقـدـ تـواـزـنـىـ وـأـفـشـلـ فـيـ أـوـلـ مـحاـوـلـةـ  
ـ لـتـقـمـصـ رـوـحـ الـفـرـسـانـ ..ـ

ـ عـبـرـ شـرـيطـ السـكـكـ الـحـدـيدـ بـعـدـ أـنـ تـعـمـدـ المـرـوـرـ أـمـامـ بـابـ مـاـكـيـنـةـ  
ـ الـفـرـكـ حـيـثـ الـفـتـيـاتـ لـأـكـدـ (ـمـدـيـحةـ) مـاـ طـبـتـهـ مـنـهـ إـذـ كـنـتـ أـشـكـ أـنـهـاـ  
ـ إـسـتوـعـبـتـ طـلـبـىـ أـوـ وـاقـفـتـ عـلـيـهـ بـسـبـبـ هـدـيـرـ الـآـلـاتـ الـمـرـفـعـ ..ـ  
ـ لـكـنـيـ عـدـتـ مـتـشـياـ بـحـالـةـ الـفـرـوـسـيـةـ الـتـىـ تـقـمـصـتـ بـسـبـبـ طـاعـةـ  
ـ (ـالـحـمـارـ الـحـصـانـ) لـتـوـجـيهـتـ عـلـىـ غـيـرـ عـادـتـهـ مـعـ الـأـغـرـابـ ،ـ وـأـقـنـعـتـ نـفـسـيـ  
ـ أـنـهـاـ وـاحـدـةـ مـنـ أـمـارـاتـ الـحـبـ تـحـسـهـاـ الـحـيـوانـاتـ وـالـطـيـورـ الـقـرـيـبـةـ مـنـ الـمـحبـينـ  
ـ اـذـ تـسـرـىـ يـهـمـ كـالـكـهـرـبـاءـ ..ـ  
ـ مـضـيـتـ قـلـيـلاـ عـلـىـ الزـرـاعـيـةـ ،ـ وـكـانـ الـقـمـرـ طـفـلاـ يـرـسـلـ ظـلـلاـ أـكـثـرـ

ولا كيف أخاطبها ولكن صوت (نهجانها) شجعني لأخفى (لهاي)  
فأنحنىت عليها واحتطفت بشفتي شفتتها البكر وأذوب في عسل أول  
قبلة تلهبها مشاعر حقيقة ملموسة . وهمت في رعدة غامرة لم أعرفها  
من قبل . لا في أوهام غيبوتى مع (زهزان) ولا في أحلام يقظنى مع  
(نرجس) .

كانت قبلة أبدية كونية لم يفارقنى طعمها الخشن المغر فى يوم من  
الأيام .

• • •

ما يرسل ضوءا .. ولكننى أحسسته بدرأ وأدرت رأس (الحمار الحصان)  
وعدت متسللا بجوار سور المستشفى الذى يغطيه الياسمين الزفر الذى  
بدلى سياجا مزهرا كأسوار قصور (باريس) .. وأخفىت معظم جسمينا  
تحت غصون الياسمين المسدلة إلى منتصف المسافة إلى الأرض ووقفت  
أحملق في المساحة الممتدة أمامى حتى اضواء وابور الطحين .

كان الليل قد تقدم بما يكفى كى تنقطع الرجل على الزراعية في  
المسافة الطويلة تلك التي تفصل بين قهوة (أبو راشد) وجسم القرية  
الرئيسى . وبين وابور الطحين والمستشفى حيث ترعة السلطان ..  
لم يكن هناك سوى بعض رجال على الجانب الآخر بعيدا حيث  
(عزبة الغجر) من عمال التراحيل ، يصل إلى أحيانا طرف من حدتهم  
حول عمل الغدو صوت خلافاتهم على الأجور .

لحتها بعد أن أرهقنى الانتظار فارتعش كيانى وارتعش الحمار  
تحتى يشاركتى فرحتى ، وأنا أتابعها تتسلل محمية بظلل الظلام مهتدية  
بظلل ضوء الهلال الوليد حتى عبرت الزراعية وهى تتلفت وتسرع حتى  
احتضنت رقبة (الحمار الحصان) منفعلة وكأنها تريد الشعور بالأمان .. لم  
تكن هي ، بل كانت طيفا نورانيا لا يفسد جماله غبار رجيع الأرز المختلط  
بعرق الشقاء طوال اليوم بل يزيد بهاء .

قاومت رغبتي في النزول لأتلقاها بدلا من رقبة (فرسي) ، حتى لا  
يظهر عجزي عن امتطائه مرة أخرى .. ولكننى مددت يدى الحرة ..  
وملست على شعرها وألصقتها بساقي .. قالت :

- عايز إيه ياسى سمير مني ..

عجزت عن الرد .. فقد كنت في الحقيقة لا أعرف ما أريده منها

فاكتشف أنتي حملتها في نافوخى بكل ما يضرع فيها من ضجيج وزحام وبشر يستيقظون كلما حاولت النوم لاستجمع قواى كى اتمكن من ممارسة هوايتى وأمسك بالقلم .. فأهرب من الكتابة وأخترع لنفسى ألف حجة أضيفها لما لدى من الحجج المعاذه ، إذ تنتظري هنا ألف مهمة ومهمة مؤجلة ، مثل دق مسمار لتعليق فوطة في المطبخ حتى لا أضطر كلما ابتلت يدي أن أجففها في جلبابي ويضطربني منظره إلى إعادة غسله ، أو عرق طرف الجنينية وإعادة غرس الشجيرات التي فشلت في اختراق الأرض فطلت قرميدية قزعة ، وتوقفت عن النمو ، وإن أصرت على تمسكتها بالحياة ورفضها الموت .. مؤيدة قرار الكف عن الاستمرار في كتابة ذلك المسلسل الفكاهي - الذي كانت قد اتفقت معى على كتابته تلك المحطة (للإرسال المبكر) التي عرضت يومها أجرًا خرافياً دمر كل مقاومة أو رفض يستند إلى رأىي في تلك المحطات ومن يكتبون لها ومن يمولونها - ليبدو لي أنه أعظم قرار يمكن به علاج حالي ..

فما حاجة الناس إلى هراء جديد يضاف إلى عشرات التفاهات التي تقيناتها المطبع ولا تجد من يقرأها ، أو التي ترجم الشاشات لتوقف الزمن وتطمس الملامح الإنسانية في وجوه وعقل الناس .. ما حاجتهم إلى الفكاهة المؤلفة ، والمسخرة تحيط بهم وتحاصرهم من كل جانب في مهزلة لا مؤلف لها .. تلعب الأدوار الرئيسية فيها (أولبرايت) (مبراك) (البعث السوري) والأمم المتحدة (القذافي) (الطالبان) (عرفات) ومع ذلك يديرون لها ظهورهم ويفضلون الفرجة على حركات (زينات صدقى وعبد السلام النابسى) ..

لم يعد مضحكاً أن يجلس الوفدان (الإسرائيلى والفلسطيني) للأطفال المشاغبين في انتظار (الألفة) الذي خرج من الصف كى يقضى

## قدرناه تقديرًا ...

صار نومي متقطعاً ، لكن العالم كله ظل حاضراً وصاحياً في دماغي .. ترحل بي أهوابي فيه عبر المسافات والأزمان . وسط ضجيج هائل من الرغبي واللت والزمامير والصيحات والذقون (اللحى) والجثث والبضائع والكتب وشخصيات الكتب .. أحس مرور الزمن ثقيلاً وأنا مغمض العينين . يخيل إليَّ أن ساعات طوال قد مضت وأنا أظن أني نائم . أتصور هذا بسبب التعب والجوع إلى النوم .. أفتح عيني بصعوبة بالغة وأبذل جهداً خارقاً للتحقيق في الساعة .. فاكتشف أن الدهر الذي مرَّ علىَّ منذ لقحت جسدي على السرير ليس سوى ربع أو نصف ساعة.. ما هذا ؟ ما الذي يحدث لي ؟ كلما جئت إلى هذا المكان النائى الذى يبعد أكثر من ٣٠٠ كم عن ضجة العاصمة



إذا ما صورت لهم عم (برق) مثلاً وهو عريان ملط وقد انكمش أبهه الضخم (الذي أفسد عليه حياته) من الرعب وهو مضروب ومسلوخ متداشداش تحت شوم (حسن منير عبد اللطيف رشدي) يجري فينكفي على وجهه ويقوم متعرضاً حاملاً (نمرته) نحو باب (أبو زعل) المفتوح الدامي وسط صفين من العساكر الجلاوذه يطحون عظمه .. وحين يرفع رأسه فيشاهد دخان المازوت الذي تنفسه مدخنة المطبخ ، يصرخ في هيسريا رافعاً إصبعيه السبابتين .. (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ينطق بالشهادتين قبل أن تلتهمه نار الفرن المشتعل والمجهز طبعاً لاتهام أجساد المضروبين من دكاترة ومهندسين وفنانين وصحفيين وأدباء وبرولوتارية ، ولو مبيين مصرىين من (المنصورة) و(طنطا) و(أخميم) . ماذا لو سألك عن معنى (برق) أو معنى كلمة (جلاوذه) أو ما هو (أبو زعل) . لن يصروا حتى تشرح لهم العلاقة بين دخان المازوت الأسود في (أبو زعل) .. وأجساد الصحايا في أفران الغاز النازية في (بوختنالد) ..

ماذا سيعنى كل ذلك لهم .. سوف يهزوون أكتافهم وتقول أقربهم إليك .. (يا عم كبر راسك.. هات م الآخر.. يعني إيه (برق) نطق بالشهادتين. هو (برق) ده راجل يعني ؟! إقلب الشريط).. وستقلب الشريط .. الذي هو مقلوب في الأصل ..<sup>(١)</sup>

بالأمس ذهبت لتنام بعد مكالمة - سخيفة - مع ابنتك الوحيدة ، عكن كل واحد منكم على الآخر رغم الثلاثمائة كيلو متر التي تفصل (سيدى عبد الرحمن) عن (القاهرة) .. وذلك بسبب (ميشكا) .. سألك عن (ميشكا) وصحته .. فأغضبك هذا لأنها لم تسأل عن صحتك أنت بنفس الاهتمام .

(١) آرجو من القارئ الليبي إن كان يهمه الأمر أن يراجع (الفذلقة) التي تتصدر روایتی (ولا هم يحزنون) التي لها صلة عضوية بهذه الروایة!!

حاجة وتركهم لأنصين لا يجرؤون على التصريح بشيء للصحفيين حتى يعود - بعد أن يبلغوه بكل تفاصيل ما قيل في غيابه - ليختلي بـ(عرفات) ليشد أذنه كي يفهم ويجعل في وجهه حبة دم ويرى كيف ألغت (إسرائيل) صفقة الإنذار المبكر مع (الصين) دون أن تطلب من (أمريكا) شيئاً .. فيعتذر له (عرفات) بضعف السمع والعجز عن الهرولة .. ويدهب بنفسه ليجلس مع الوفد المناكف لأنه من ناحيته يوافق على أي شيء يرضي أولاد العم ، ولكن عنده من هؤلاء من سوف يأكلون وشه عندما يتنازل أو يساوم . ويزايدون عليه ويفضحونه فضيحة (المظاهر نهار دخلته) ويعلن المتحدث الرسمي أن البقية في الحلقة القادمة .

ماذا يجدي مسلسل كوميدي كليب آخر .. ومازال سكان الحي الفقير يدفنون تحت الانهيار الطيني أو الصخري في كل مكان .. رغم تحذير السلطات لهم أن يتقللو إلى أحياه أرقى .. لكنهم يفضلون الموت عناداً (وعشاً) لعششهم الصفيح وبيوتهم الحيش التي لا تمنع سقوفها الأمطار لأنها أكثر راحة طبعاً ! لا يحسون فيها بحرج الموت جوعاً .. ولا النفوغ علينا رغم كل النفايات التي تبدعها الأقلام .. فلماذا تكتب نهاية أخرى .. لن تزيد الأمر سوءاً في العالم إن أنتجت - وإن أذيعت لو أنتجت - وإن شوهدت لو أذيعت ، لن تضيف إلى الحياة إلا المزيد من الفجاجة والصفاقة وقلة الطهي !

أنت نفسك تحس أنك لم تعد تجد ما تقوله ولا تعرف كيف تقول إن فرض ووجدت شيئاً يقال .. وماذا ستقول .. لأجيال تتحدث لغات أخرى .. ولا تدرى عمما تحكي عنه شيئاً .. فماذا - وحياة أمك - يعني لهم (شهدي) أو (فؤاد حداد) أو (فؤاد مرسي) . هؤلاء الشبان سيضحكون

غرت من القط؟

كفت قد أخبرتها أن (ميشكا) بعافية .. وأن الناصور قد عاد للظهور.. اكتشفه ابن أختك صدفة لأنه كان مهتماً بدراسة تصرفات (ميشكا) معك وتصرفاتك حاله .. وأسرار العلاقة الغربية التي تؤكد التشابه العجيب بينكما لدرجة التطابق .. انزعجت هي طبعاً وطلبت منك أن تأخذه للمستشفى ، وتطلب من أي مترجي أن يزيله أو ينظفه له .. - وهات له ملين أطفال .. لازم حصل إمساك ..

وطبعاً قاومت أن تصرح لك أن كل هذا بسبب الإهمال .. إهمالك! كظمت غيظي ، فكيف يمكن أن آخذ القط إلى المستشفى وأقف في طوابير نساء العربان القاقدات لتلقي علاج الأمهات والحوامل وهن يصحبن أطفالهن ليخترقن معهم حواجز زمان وحقب من التخلف البدوي يفضلن معها العلاج بأعشاب الصحراء وحبة (البركة)..

استكبرت أن تتقدم أنت بشيئتك الوقورة لتطلب وسط هؤلاء من الأطباء أن يرحموا (قط) قوم ذل .  
- حاضر سمعاً وطاعة ..

أحضرت له الملين وأرضعته عدة مرات مع حذر كاف لعدد النقط خوفاً أن يتسمم أو يزيد عليه المرض ..

هو نفسه أيقظني اليوم في السادسة لأفتح له باب الغرفة .. وأضع له الطعام .. لم يأكل السمك .. السمك المكرونة الذي قليته بعد تنظيفه. فأكدت طهيه خوفاً أن يكون عادماً ، لم يعجبه طعمه ، سوينته في شوربة بالبصل والكمون والملح .. فصصته .. أخليته من أي أثر لللشوك أو الجلد. ومع ذلك لم يأكله. قطّرت له اللبن في فمه .. فصصت له قطعة دجاج

محلية .. بعد أن سلخت عنها البيض والبهار والفيجيتار .. أكل قطعتين سنتوفتين ثم نظر لـ كأنه يسبني ومضى في كرياء يفلق الحجر أسرعت وراءه أسترضيه لأرضعه الدواء.. فنزلقت على البلاط وكادت تتكرر مأساة وقوعي يوم الاحتفال بذكرى (صلاح جاهين) في (المنيا).. حين تزقت كل أربطة وشرابين وشعيرات ساقي اليسري .. وترتب على ذلك شللي لمدة شهر كامل. شعرت بنفس الخدر الشرير يحتاج ساقي .. وحيل إلى أنني لن أقوم من سقطتي وليس من أحد يساعدني .. تحسست ساقي في قلق ورعب لكنها جث سليمة .. وضعتها تحت الدش البارد .. ثم جربت المشي ، فمشيت بلا ألم ، حمدت رب . وأخذت أنادي على القط وأرجوه أن يعود ليشرب الدواء .. لكنه لم يعرني أدنى اهتمام ولم يرد .. صعدت إليه في الطابق الثاني .. كان نائماً فلم يعرني أي اهتمام واكتفى بتحريك إحدى إذنيه لتلقط أي حركة غدر أقوم بها لإجباره على الشرب ..

نزلت السلم كي أحضر السرنجة لأرضعه لبنياً أو ماء مع نقط الدواء فأساعد حضرته على التبرز المريح . كنت قلقاً عليه بعد بحث مضن في البيت كله لأرى إن كان قد فعلها أم لا .. بحثت تحت السراير في الحجرة الكبيرة في البلكونة والمصالحة الأولى والثانية . صعدت إلى السطح ، دققت في كل شبر .. دخلت إلى الحمامات والمطبخ .. لم يكن هناك أي أثر لبراز في أي مكان .. فانقبض قلبي ، ضاعفت نقط الملين .. لكنه طبعاً فهم أني أستعد لعمل شيء ما لا يحبه .. فاختفى .. درت أنادي عليه رفعت ملاءات السراير .. زحفت على ركبتي تحت الكتب .. صعدت السطح مرة أخرى نظرت تحت الخزان وبين أشولنة (السفنج) .. ثم عدت أدور حول المنزل .. فتشتت الحديقة ، شبراً شبراً ، مناديأً عليه ذلك النداء الذي تعوده مني

والقلق والاكتئاب؟ بعد هذا العمر العريض وتلك الرحلة الطويلة.. منذ قيام الحرب العالمية الثانية ، مروراً بوباء الكوليرا ونكبة (فلسطين) الأولى .. وانتخابات عام خمسين .. ثم قيام الضباط بطرد الملك لجسم الأمور وشنق (البقرى وخميس) وتوزيع الأرض على الفلاحين (باندونج) والعدوان الثلاثي ويا (حمام البرسق) و(احنا اخترناك) (لتشنق الإخوان المسلمين وتطهير مبادئهم) واستقبال اللاجئين من (بور سعيد) وتسكينهم في مدارس القرية والتدربيات للحرب بالعصي في حوش المدرسة . وحكاوي (محمد الفلسطيني) وحواديت (أحمد النادي) و(محمد الباز) ونواذر (الشقيط) و(السقا) و(شطا) و(سلامة) و(عم الصحصاح) وانتشار (عبد الحميد عثمان) ومقالب (إبراهيم رخا) ومخامرات بنته العمشاء) وزكي الظروطي) وحكايات أختي و(نجاة) ومعركة الجمعية والوحدة .. والسجن والاعتقال وموت (شهدي) وأبو (زعل) و(قراميدان) .. و(الواحات) .. و(السويس) وأيام المقاومة وندوات (قصر الثقافة) والجواز وحل الحزب والحب المجهض . وهلوسات المراهقين وتراجيديا (جوزفين) وأيام الحب والخلفة والنكسه وهتافات الانتقام من ضباط الطيران .. ومظاهرات ٦٨ في رمسيس والمطالبة بذبح (هيكل) وسقوط دولة المباحث بعد أن صدقنا بسقوط دولة المخابرات (بيان ٣٠ مارس) ومعتقل (طره) ، وزارات (نجلاء) و مقابلتها الجريئة (لشعراء جمعة) . ووكيل النيابة (رفعت) وعودة (سيد خميس) وظهور (الشيخ إمام) ، وعدود (عدلي فخرى)، وأغاني (في حب مصر) و(جماعة الدراما) .. والأحقاد الصغيرة .. وموت (عبد الناصر) .. واتفاقية الحرامية .. وألاعيب (شيشا) وملاعيب (تعالييو) و(السدادات) ، والسفر للخارج وفضح المستور .. ورحلات (السنديbad الحديث) ما بين (عدن) و(الكويت) و(دمشق) و(بيروت)

المارة والجيران والعاملين في المستشفى القريب .. (ميشكا ااه) .. الذي صار به أشهر حيوان في (سيدي عبد الرحمن) وأصبحت به سيرتنا على كل لسان ، وأخيراً وجده معتزلاً فوق التنوء الخرساني في سقف الدور الأول حيث لا يمكن الوصول إليه .. (ميشكا) .. (ميشكا) يا حبيبي .. تعالى .. أwooوه .. جعان .. تعالى .. جغان ..

ما أن نطقت بها حتى فعلت مفعولها .. الكلمة السرية الوحيدة السحرية التي يتجاوب معها عند نطقها إذ يبدوا أنها تحمل نفس المعنى في لغة القبط..

تقدمني في حذر وشك كعادته .. وصبرت .. صبرت حتى صار في متناول يدي . انقضضت عليه غير عاين بتفسيره لتصريفي . وأجرته على الرقاد بحيث أقترب له ما في السرنجة من ماء اختلطت به قطرات الدواء.. همهم بالفاظ أقرب إلى لغة البشر مع كل زخة سائل في فمه المغلق .. تملص أكثر من مرة وخدش بقدمه الخلفية في قوة وتهديد زام مزجراً مهدداً ، ولكنني لم أعره أي اهتمام .. (ففيروز) تنهمني بإهماله .. وأنا لا أطيق أن يمر يوماً حتى الآن دون أن أتشرف بجمع بقاياه وإخراجه النادر .. وما أن انتهي من زخ ما بالسرنجة وإفراغها .. حتى تملص مني فتركته .. وقف بعيداً يزغرلي من خلف ظهره صامتاً حتى انتبهت إليه، فشتمني في احتقار وقرف .. وحين همممت بالقيام لشأنى وليس في نيتها الرد عليه أطلق ساقيه للريح واختفى في الدور العلوي ..

- ما قيمة كل هذا وما دلالته يا شيخ بعد كل هذه السن ، وما فائدته .. لأي إنسان .. وماذا تريد أن تقول به .. هل هو يضفي علي نفسك راحة حين تكتبه؟ هل يزيدك معرفة بنفسك؟ أم يعمق إحساسك بالوحدة

على كل حال هكذا أحسن .. لقد مرت الأزمة . وها أنت لا تقاد  
تتوقف عن الكتابة.. لا تجادل.. إن حالتك الآن أحسن كثيراً عنها عندما  
كنت تبحث عن آثار براز القط (ميشكا) ولا تجدها وتحاول أن تطمئن  
نفسك أن نفياتك أظهرت كثيراً من نفيات (رفعت السعيد) وعدم ظهورها  
 أمامك ليس مهمّا ، فلابد أنه فعلها مثله في مكان ما ..

ها أنت ترى بكل وضوح أن كتابة المسلسل الفكاهي لمحطة  
الإرسال المبكر كانت ضرورة واحتياجاً لا مفر منه .. فمن أين ستأكل  
(ميشكا) سمّاً طازجاً غير مستورد؟

لا حل الآن سوى أن تخبر نفسك على العودة إلى الجلوس إلى المنضدة  
القصيرة التي تحبها.. وأن تمسك بالكتار والأقلام وتبدأ في بريها بالطريقة  
المطلوبة المحسوبة وتخضع لواجبك المقدر لتأمل قادراً على إشباع حاجة  
كل من يحتاجونك .. وعلى إغاظة كل من يكرهونك .. هيا . هل تمردت  
أبداً .. على ما يكون واجباً وضرورياً؟

هل ستفعلها بعد هذه الشيبة .. هيا أنت الآن أفضل .. وسلس  
وهادئ .. فكر في المفيد، قم وأصنع فنجاناً من القهوة المغالية كما عودتك  
عليه البنت الخلبية الجنية التي خلبتك فسحرتك ذات مرة ..  
عد إلى الكتابة ودع (ميشكا) يتبرز في أي مكان يريد !

• • •

و(موسكو) و(باريس) و(بني غازي) .. وأيام (بيروت) مروراً (برلين)  
و(بوخارست) و(صوفيا) .. و(فرانكفورت) .. وساحرات (ساليم) ..  
وحكايات (ميغاستوفيلوس) حامل درجة الدكتوراه في التاريخ السري  
لضحايا التاريخ العلني وخطته الجهنمية لإنها الحدوة نهاية كوميدية  
لا تناسب مع بحر الدم المهدى على المسرح ومؤامرات (ياجو) وحصار  
(بيروت) ، ياه ما فائدة كل ذلك وقد حدث وراح ولم تكن له جدوى؟  
تأتي الآن لتصدع رؤوسنا بـ «غماراتك مع (ميشكا)؟  
هل بالحديث عنه ستكون له الجدوى فى إعطاء الحكاية طابعاً  
روائياً.. أو دراماً؟

عشرات كتبوا عن نفس الأماكن والناس والحوادث ، ولا أحد يذكر  
الحقيقة كاملة .. كلهم ينظرون من خرم الباب المواجه لعيونهم الشمال أو  
اليمين دون محاولة لتوسيع دائرة الرؤية التي هي ضيقه جداً بالضرورة ..  
وبالغضب .. هل يجدي أن تضيف تفاهة أخرى إلى كل هذا الركام من  
التفاهات.. الذي يحمل الوجوه المشوهة ، لأنها هي التي تقى وتحكى  
وتطبع وتقول .. ثم على كل الموائد تبر لتنبول وتحظى بالرضا والقبول ..  
ماذا ستقول؟ .. وماذا سيفعل لك أصحاب محطة الإرسال المبكر إن  
لم تكتب .. لم يدفعوا لك مقدماً إلا الماليم . من قبل طلب منك (حسن  
مصلحي) مدير عام مكتب مكافحة الشيوخية بنفسه كتابة نفس فكرة  
المسلسل في قالب درامي آخر .. ورفضت بكل شمم وفضلت المعتقل  
والمنفى . والآن ها أنت قد صمت وصمت وفطرت على بصلة .. بينما  
طلع بعضهم بالهبر لأنه كتب حسب الاتفاق وفي المواعيد المقررة .. الآن  
فات الميعاد والسوق جبر والآخرون سيتهمونك أنك تكتب للمحطات  
الرجعية التي تزيف الوعي .. الذي سبق وزيفوه أكثر من مرة في براءة  
ولكن في إطار العقيدة وموافقة التنظيم؟

المزخرف الأطراف والزوايا يحيط بعده أسياخ سميكة من الحديد لم تكن تسمح لرؤوسنا بالخروج من بينها ، فقط الولد (حلمي) ابن عمتي هو الوحيد الذي كان يستطيع النفاذ من بينها برأسه الصغير .. وكان ينفلت للخارج بمهارة مخرباً رأسه ثم حاشرًا جسمه ليتعلق بالشباك من الخارج حتى يأتي أحدهم وينزله بعد أن ينال قل敏 صفعاً أو عصايتين لسعًا على مؤخرته عقاباً له على الخروج . ولكننا كنا نحسده ونتمنى أن نفعل مثله ..

وكان (بيت جدي) يمتد من بيت (حسنة أم عبد الله) حتى بيت (البيومي الحلو) مسافة كنا نقطعها جريأً ونحن نلعب (استغماية) أو نطارد الدجاج الشارد ونحن نلهث ، كانت جدران البيت عريضة.. .  
يستطيع الجلوس على حجر الشباك ثلاثة أو أربعة منا نظل على الشارع من بين القضبان متعلقين في الأسياخ الحديدية بقبضاتنا الصغيرة .. وكان الولدان (فتحي القشلان) و(حسن عويضة) يحضران أعواداً من الخطب أو الصفاصاف ليضرها بقبضاتنا .. كانوا يغاران منا لأن بيت (عويضة شهاب) وبيت (القشلان) لم يكونا مثل بيت جدي .. كان لكل منها باب كبير من ضلفة واحدة هائلة يمكن أن تدخل منها عربة كاملة لا فتحات فيه إلا فتحة واحدة تسمح لشخص واحد بالدخول والخروج منها . أما الضلفة الكبيرة فلم تكن تفتح إلا للضرورة لكنها تظل مفتوحة دائمًا في المواسم ، وإلى جوار هذا الباب كان شباك صغير أشبه بالطاقة يسمح فقط للهواء بالدخول بصعوبة إلى حيث (طواله) البهائم التي تمت بطول الحوش حيث تبيت البهائم أمامهم مربوطة تأكل طول الوقت .

لم تكن البهائم التي لجدي تبيت في البيت ، كان لها دوار آخر بجوار الخرابة حيث بيوت أخرى يسكنها أعمامي (عوض) و(محمد) و(عبد

## الذي باركنا حوله . . .

○ كان (بيت جدي) في زمانه كبيراً ممتداً في الشارع ، واسعاً ، له باب ضخم لا تصل عيناي إلى مداه ، باب من ضلفين هائلتين منقوشتين بزخارف من أغصان النبات والأزهار الخشبية. لكل ضلفة شرائعة طويلة من الحديد العريض المشكل في دواير وأقواس متداخلة .. وتعلو الباب فوق عارضة من الخشب ، نصف دائرة حديدية هائلة تؤطر شمساً من الأشعة تقف عليها أزهار وعصافير من الحديد ، لم تكن تفتح سوى ضلفة واحدة ولا تفتح الأخرى معها إلا عندما تدخل الحمير محملة بالركائب المتجمدة بالحجب في الموسم أو محملة بالبرسيم في الشتاء ، وإلى يسار هذا الباب العملاق شباكان شديداً الطول لهما إطار خارجي من الحديد



هي التي كانت تسكنها على أيامِي... كنت أراها دائمًا في الحوش المواجه ، نصف المسقوف .. تجلس على (عنجرِيب) نصف ، فوق بعض العباءات مستندة إلى جدار (الحاصل) حيث خزين البيت من الحبوب والسمن (على مد أيدها) وتحت بصرها ، بعد ذلك كانت قاعة الفرن التي يمتد الحوش أمامها غير مسقوف إلا قليلاً . يستند إلى جداره البعيد ، أو يستند الجدار عليه ، سلم خشبي من فرعين سميكين من الكافور له درجات عريضة متقاربة من كتل خشبية قصيرة تتقافر عليه طول الوقت مع المعزة والخروف صعوداً إلى السطح وهبوطاً منه، متعرضين طول الوقت لعصا جدتي التي لم تكن تطبق ضجتنا. وطالبتنا طول الوقت بالسكتوت أو اللعب في الشارع ..

عندما بنى أبي المقددين فوق السطح ليسكُن فيهما مع زوجته (أمِي) استعمل هذا السلم لفترة ، لكنه لم يكن آمناً بما فيه الكفاية لزوجته ، فبني سلماً في القاعة المكسوقة التي في الوسط حيث يربون الدواجن . نصفه درجات من الحجر ونصفه من الخشب المتين يصعد إلى بسطة طويلة فوق الغرفة غير المنسقوفة . ونقلت الدجاجات إلى الداخل على غير هوى جدتي ، التي لم تكف عن احتجاجاتها بصور مختلفة ، خاصة وأننا أنا وأختي وأبناء وبنات عمتي (فرحة) وعمتي (فريدة) التي كانت تلازمها كلَّ نهار .. لم نكف عن استعمال السلم الخطر المحروس بسلعات عود الخطب ، أو غصن الصفصاف الذي كانت توصي يومياً عليه لتكسره على ظهورنا ومؤخراتنا حتى يذوب ، كانت لعبة تخلو لنا معها ، هي تطاردنا في غيط ونحن تتفلت منها في مرح .. مهلايين عندما نفلت وتطيش ضرباتها ، وصارخين في عناد عندما تؤلمنا لسعاتها . كنا حريصين طوال الوقت على

الهادي) و(عبد الكريم) و(فرحة) و(فريدة) .. الذين يلعب أولادهم معنا طول الوقت في (بيت جدي) .

خلف الباب الضخم لبيت جدي كان دهليز طويل واسع وعربيض سقفه عال جداً .. تعشش فيه بعض طيور عصافير الجنة في أعشاش طينية تبنيها باهتمام ودأب شديد़ين ، ولم أكن أصدق أنه يمكن الوصول إلى ذلك السقف العالي الذي يبدو غارقاً طول الوقت في ظلام غامض حتى في عز النهار .

على يمين الداخل كانت المnderة ذات الشباكين حيث كانت ثلاثة مصاطب كبيرة وعربيضة تتدلى أسفل الجدران مفروشة بالمحصر أو العْبِي الصوفية اليدوية ذات الملمس الخشن. كانت ثقيلة لا أذكر أنني كنت أستطيع تحريكها أو حملها .. المحصر كانت أسهل ولذلك أحبيتها ، فقد كانت باردة في الصيف تدعوك لتربيح خدك مستمتعاً بطراوة حقيقة محببة. كان هناك حاجز يفصل بين آخر المnderة وداخل البيت يتكون من نصف جدار وباب بلا ملامح ، وخلفه يقع (الكتيف) الذي كان مجرد (حفيرة) في الأرض السوداء الرطبة .. كنت أخاف الاقتراب منه .. لا بسبب رائحته النفاذة فقط ، ولكن لظلمته الغامضة . ولأن ستي لا تدخله إلا بعد أن تقرأ (آية الكرسي) لطرد العفريت .. وكانت أحس بـ ذلك أنها تطلق عليه أحياناً (الكرسي) .

وفي مواجهته كانت توجد غرفة غير منسقوفة ، يربون فيها الدجاج والإوز والبط والأرانب . بعدها كان باب الوسط مفتوحاً على الدوام .. على يمين الداخل منه كانت قاعة غامضة بها عنجرِيب وكروية خشب . كان جدي يسكنها قبل أن يموت ، في أرض النبي صلى الله عليه وسلم أثناء الحج ، قبل مولدي ولذلك لم أره .. ولكن جدتي (أم العز أم علام)

فراش جدتي ، وتنظيف حجرتها الغامضة التي كان محروماً علينا دخولها ..  
كنت أتحجّج بهم وأنسب إليهم كل ما يحدث من جرائم سرقة بيض  
الدجاج لشراء الملبس والحمص والأرواح أو لركوب مرجيحة (أحمد  
همام) . كانت عمتي تتدخل لصالحي ، وتنعنه من عقابي مؤكدة - له أن  
أولادها هم السبب وأبني طيب لا أفعل شيئاً ..

- جرى إيه يا (عبد الباقي)؟ ده عيل ، الواد (مجاهد) وأخوه (سيد)  
هما اللي يستاهلو قطم رقابيهم .. بلاش افترا .

لكن حظي السيئ كان دائماً يزوده بالراهين ، أبني الفاعل الأصلـي ،  
أو على الأقل مشترك أساسـي .. كأن يضبط في جيبي غلاف (أرواحـة)  
ملون لم استطع الاقتنـاع بانعدـام قيمـتهـا ، أو عدم الوقـوع في إغرـاء (خرـوـنتهـ)  
كلـما كـعـلـتـهـ في كـفـيـ دـاخـلـ جـيـبيـ ، أو غـواـيـةـ وـضـعـهـ عـلـىـ عـيـنيـ فـيـ مـواجهـهـ  
الشـمـسـ ، لأـرـىـ الدـنـيـاـ خـضـرـاءـ أوـ زـرـقاءـ أوـ بـرـتقـاليةـ . وأـحـيـاناـ ماـ كـانـ يـضـبـطـنيـ  
شـخـصـيـأـ بـأـبـادـلـ الـبـيـضـ الـمـسـرـوقـ بـالـلـبـ وـالـمـلـبـسـ مـنـ عـنـدـ (حـسـنـيـ النـمـلـةـ)ـ ،ـ  
كـانـ أـوـلـادـ عـمـتـيـ يـهـرـبـونـ فـيـ صـمـتـ ،ـ وـلـاـ يـنـهـونـيـ وـيـتـرـكـونـهـ يـمـسـكـ بـيـ  
مـتـلـبـسـاـ لـإـثـبـاتـ تـورـطـيـ عـلـىـ عـكـسـ اـدـعـاءـاتـ أـمـهـمـ (عمـتـيـ)ـ بـرـاءـتـيـ .ـ  
وـلـمـ أـكـنـ أـسـكـ لـهـمـ طـبـعـاـ ،ـ وـكـنـتـ أـيـضاـ أـدـبـرـ لـهـمـ مـاـ يـوـقـعـهـمـ فـيـ شـرـ  
أـعـمالـهـمـ أـوـ شـرـأـعـمـاـيـ ..ـ كـانـ السـلـمـ أـمـامـ الفـرنـ ،ـ الـذـيـ يـحـرسـ الـخـرـوفـ  
الـنـطـاحـ وـالـمـعـزـةـ التـرـاثـةـ التـيـ كـانـتـ تـتـعـدـدـ الـمـأ~مـةـ صـارـخـةـ كـلـمـاـ نـجـحـتـ فـيـ  
الـعـبـورـ دـوـنـ أـنـ تـلـحـظـنـيـ الجـدـةـ كـأـنـهـ تـقـصـدـ أـنـ تـقـضـحـنـيـ وـتـشـمـتـ بـيـ  
فـنـصـرـخـ جـدـتـيـ :

- إـنـتـ يـاـ وـلـهـ اـنـتـ وـهـ رـايـحـينـ فـيـ ؟ـ  
لـمـ نـكـنـ نـرـدـ طـبـعـاـ .ـ وـكـانـ (سـيدـ)ـ يـرـفـسـ المـعـزـةـ رـفـسـةـ قـوـيـةـ تـحـوـلـ مـأ~مـاـهـاـ  
الـوـاـشـيـةـ إـلـىـ مـأ~مـاـةـ شـاكـيـةـ ..ـ

كتـمانـ أـلـنـاـ فـيـ ضـحـكـاتـ ،ـ مـظـهـرـيـنـ عـدـمـ الـاـهـتـمـامـ لـأـغـاظـتـهـاـ ،ـ بـيـنـماـ نـحنـ  
نـحـلـكـ مواـضـعـ الـأـلـمـ فـيـ وـحـوـةـ حـارـةـ .ـ بـجـاهـدـ لـكـتمـ لـهـاـنـاـ وـنـحـنـ نـخـرـجـ  
لـهـاـ أـلـسـنـتـاـ فـيـ تـشـفـ مـزـوـجـ بـالـأـلـمـ وـالـاـنـتـصـارـ .ـ

فيـ بـعـضـ الـأـحـيـانـ كـانـ هـنـاكـ بـقـرـةـ .ـ تـظـهـرـ أـحـيـاناـ فـيـ قـاعـةـ الفـرنـ  
،ـ كـنـتـ أـعـتـقـادـ اـعـتـقـادـاـ جـازـمـاـ أـنـهـاـ وـاحـدـةـ مـنـ الـمـدـاـحـاتـ الغـرـجـ الـلـاتـيـ لـمـ  
تـكـنـ تـطـيقـهـنـ جـدـتـيـ ،ـ سـحـرـتـهـ وـحـبـسـتـهـ لـأـنـهـاـ لـمـ تـمـضـ فـيـ حـالـ سـبـيلـهـاـ ،ـ  
وـظـلـتـ تـصـدـعـ رـأـسـ جـدـتـيـ بـطـبـلـهـاـ الـمـزـعـجـ وـصـوـتـهـاـ الـقـبـيـحـ .ـ وـلـمـ تـجـدـ أـحـدـاـ  
مـنـ الـعـيـالـ لـتـرـسلـ إـلـيـهـاـ بـرـغـيفـ أـوـ بـعـصـاـ لـيـطـرـدـهـاـ ،ـ فـاسـتـدـرـجـتـهـاـ إـلـىـ دـاـخـلـ  
الـبـيـتـ وـعـاقـبـتـهـاـ وـحـوـلـتـهـاـ إـلـىـ بـقـرـةـ ..ـ كـنـتـ أـرـىـ حـزـنـاـ إـنـسانـيـاـ غـرـيـبـاـ فـيـ  
عـيـونـ الـبـقـرـةـ ..ـ كـانـتـ تـسـمـعـنـيـ عـنـدـمـاـ أـتـسـلـلـ إـلـيـهـاـ أـسـأـلـهـاـ ،ـ وـكـانـتـ تـخـاـوـلـ  
الـإـجـابـةـ ،ـ وـلـكـنـ عـجزـهـاـ عـنـ الشـكـوـيـ كـانـ يـفـجـرـ فـيـ عـيـنـيـهـاـ دـمـوـعـاـ ..ـ وـكـانـ  
صـرـاخـ جـدـتـيـ وـصـيـاحـهـاـ عـلـيـ ظـلـمـهـ كـلـمـاـ دـخـلـتـ عـنـدـ الـبـقـرـةـ يـؤـكـدـ لـيـ خـوـفـهـاـ مـنـ  
أـنـ أـكـشـفـ سـرـهـاـ أـوـ أـبـطـلـ سـحـرـهـاـ ..ـ وـكـانـ الـأـمـرـ دـائـمـاـ يـنـتـهـيـ بـعـلـقـةـ ،ـ لـاـ  
لـأـنـيـ أـغـضـبـتـ جـدـتـيـ وـلـكـنـ لـأـنـ أـبـيـ لـمـ يـكـنـ يـرـيدـنـيـ أـنـ أـعـبـرـ حـدـودـ الـمـنـطـقـةـ  
الـمـحـرـمـةـ الـخـاصـةـ بـهـاـ أـصـلـاـ .ـ خـوـفـاـ مـنـ أـنـ تـحـولـنـيـ إـلـىـ كـلـبـ !ـ

هـوـ شـخـصـيـاـ ،ـ مـنـذـ بـنـىـ السـلـمـ فـيـ حـوـشـ الدـجـاجـ ،ـ لـمـ يـعـدـ يـسـتـعـمـلـ  
الـسـلـمـ الـخـشـبـيـ الـآـخـرـ لـلـعـبـورـ أـمـاـهـاـ ،ـ وـحـذـرـنـيـ مـنـ ذـلـكـ ،ـ وـلـكـنـيـ لـمـ أـسـتـطـعـ  
أـنـ أـفـعـلـ ،ـ فـأـلـوـلـادـ عـمـتـيـ (فـرـيـدـةـ)ـ لـمـ يـكـنـوـاـ يـلـعـبـونـ إـلـاـ مـعـ أـخـتـيـ ،ـ  
عـنـدـمـاـ يـحـضـرـوـنـ مـعـ أـمـهـمـ لـقـضـاءـ حـاجـاتـ جـدـتـيـ ،ـ سـوـاءـ إـطـعـامـ الدـواـجـنـ  
وـالـخـرـوفـ الـنـطـاحـ ،ـ وـالـمـعـزـةـ ذـاتـ الـقـرـنـ الـوـاحـدـ ،ـ الـرـابـضـينـ أـسـفـلـ السـلـمـ  
الـخـشـبـيـ .ـ أـوـ لـحـلـبـ الـبـقـرـةـ الـمـسـحـوـرـةـ وـكـنـسـ الـحـوـشـ ،ـ وـتـنـفـيـضـ عـبـاءـتـ

- إنت يا وله سيب المزعة يا وله ..!

نكتم ضحكاتنا وهمساتنا ، ونوسع المزعة ضرباً متأندين .. أنها لن ترانا ، كانت عينها كليلتين للغاية ، لا تميز على بعد شبرين إلا أشباحاً .. كما أنها كانت لا تستطيع مغادرة مكانها منذ تحملها (فريدة) كالطفلة من سريرها إلى مكانها الدائم ، ما بين (الحاصل) المليء بالخيرات والخزين وحجرة نومها الغامضة المحرمة علينا! .. كحارس ، (تبك) عيونه شرار نار ، غير مرئي ، يلبي كل من تسلطه عليه ..

كان عندي إيمان راسخ مؤكّد أن لديها كنزًا يفوق كنز (الملك الشمردل) تخفيه في أرض الحجرة أو في (الخورستانة) التي في الحائط الغامض ، معلقة بفتاح له ثلاث سنوات من حديد صلب نادر، يشل من يمسكه ، غير صاحبته ، ييرق معلقاً في جبل كتان غامق حول رقبتها . حذرت العيال من النظر إليه لأنّه مرصود وقد يصيّبنا بالعمى ، إذا وقعت عيوننا عليه ونحن نعبرها متسللين إلى المنطقة المحرمة .

كنا في أوقات معينة نصعد في صمت على السلم إلى نصف السطح المتبدّل أمام (الشكمة) البحريّة في الدور الثاني . ونرّحف تحتها في طابور كالنمل أو دود القطن ، حتى لا يرانا أحد من سكان المقاعد ، عابرين إلى حيث المزعة العاشرة بطاواجن الرائب وشوالي الحليب وأشولة السمسم .. كان عيال عمتي يعرفون متى يكون العزو مجزياً لنفوز بالغنيمة .. نراوغ العمة ، نتسلل في فترات انشغالها في الحلب ، أو في أي عمل وتكون قد سهّت فترتك بباب (المزعة) مفتوحة .. لكنها على ما يبدو ظنت أن قططاً تدخل خفية لشرب اللبن الحليب أو الرايب . ولكن أقراص الجبنة الضاني لا تحملها القحطط ، ولذلك قطعاً للشك لم تعد ترك الباب مفتوحة ولو للحظة ..

اخترعّت طريقة عقريّة لامتصاص اللبن والرائب من الطاقة الصغيرة الوحيدة التي في جدار المخزنة البحري ، والتي تركت للتهوية وإن حصنت بأعواد من جريد النخل الصلب بالطول وبالعرض لمنع القحطط والفئران من الدخول للمخزن عبرها ..

تفتق ذهني بعد فشنّنا المتكرر في التسلل إلى المخزنة ، منذ أصبحت العمّة أكثر حرّضاً ويقطة .. أحضرنا عدة أعواد من سيقان الفول الجافة التي عادة ما تكون مجوفة وكنا نستعملها كمزامير أو مواسير ل النفخ الريش الزيغي في الهواء ومتابعه والرهان على الاحتفاظ به طائراً لأطول مدة ممكنة ، لعبة كنت قد علّمتها للعيال غمارسها عندما يقتلنا الضجر أو يصعب علينا اختراق حصار عيون المجدّة وعصاها اللاصعة .

ووجدت لتلك السيقان وظيفة أكثر فائدة وعلّمتهم أن نمدّها من خلال المربعات بين أعواد الجريد ، حراس الطاقة البحريّة غير المكشوفة لسكن الدور الثاني .. وتفتنا في وصلها وإطالتها لتنال من كل الطواوين وتندرس في حلق الشوالى الفخار .. وحين نجحنا أول مرة في شفط دفعات ثرية من الحليب والرايب ، كادت ضحكات فرحتنا بانتصارنا أن تكشف مكمننا الخفي ..

لم يصدق أبي أبداً عندما انكشفت حيلتنا الجهنمية أن هذه الفكرة ليست من بنات أفكاره ، كان يعتقد اعتقاداً جازماً أنني وراء كل هذه المصائب .. فأنا السبب في كسر قرن المزعة التي صارت بعدها عتنزة وحيدة القرن .. وأنني وراء ما أصاب الحروف النطاح الذي كانت تربيه جدتي لذكرى وفاة جدي القادمة ، فعجلت بذبحه . وهي تدعى كاشفة رأسها على من أطعمة (الداتورة) فكاد يقضى عليه .. لم يكن يشق في ذكاء عيال

حتى كان يوم رأيتها ترج سائلاً ما في شيء صلب غريب، شبه مجوف، يلمع باطنه كرخام عتبة الجامع العاجية ويترعرج ظاهره القائم عروقاً بنية غريبة تخللها شروخ من بياض يكاد يضيء .. قالوا أنه قرن (الختيت) الذي عرفت فيما بعد أنهم يقصدون (الخربيت) وبعد أن رحت القرن بالسائل الذي وضعته فيه مع عشب ناشف مطحون .. قرأت عليه أوراداً أو آيات على رأس بنت عمتي المحشور بين ركبتيها . وعمتي تفتح فم البنت غصباً لاستقباله فزعة تحاول التخلص باكية من كلابة ركبتيها دون جدوى ..

البنت شفيفت من المغض القاتل - بعد أن نامت طويلاً غارقة في عرقها ، صحت وقفزت على قدميها كالقردة . وعرفت من أحاديثهم أن (قرن الختيت) هذا أحضره جدي من أرض الحجاز هو (ودهن إحليل قساح) و(كبد عقاب حي) وأن ساحراً من السودان لقنه كيفية استعمال السحر في شفاء الأمراض ، وهو علم جدتي السحر بدوره . كنت متاكداً بعدها أن لدى جدتي أشياء أخرى خفية كنت أسمعها تتردد على السنة الكبار عن (نجل يتييم...) وعقارب عقيمة وهداهد صامدة .. ودمأطفال يتامى) ثم اخittel كل هذا بما قرأته في حكاية (جودر) والسحر المغاربة الذين جاءوا إلى مصر يسعون وراءه لكشف كنز (الشمردل) وبغلة المخط والمسحور والجحش الذي يأخذ شكل المارد وتمثل لي كل ذلك متجسداً في الظلام الذي يكمل الغرفة التي لا نوافذ لها، ضباباً يحجب السقف والأركان عن نظر من يجرؤ على التطلع صدفة أو على البخلقة عمداً في فراغها الرطب اللزج ..

•••

أخته ، فحكاية شفط اللبن الرائب والخليل بواسطة أعود الفول لا ترد إلا على ذهن يعرف شيئاً ما عن الأواني المستطرقة . أو سمع عن نظرية الضغط الأسموزي ، مع أن كل الناس الذين لم يذهبوا أبداً للمدارس يمارسون شيئاً من هذا القبيل وأتفق ، في كل القهاوي وبطرق أكثر تقدماً وعلمية من نظرية عيدان الفول وذلك باستخدام أعود البوص المشذبة والغالب الرفيع المختار بعناية في شرب وقربعة الدخان والكركرة بالجوزة ليلاً ونهاراً .  
الخسارة الفادحة لم تكن في معرفة وضبط من توصل إلى هذه الأفكار الجهنمية فقد عثرت عمتي على قطع من سيقان الفول مشبعة باللبن وعلى بوصة جوزة كاملة (كانت قد أفللت من يد ابن عمتي عند محاولته (تنشينها) في حلق شالية متربعة بالخليل لم تكن موضوعة في مكان مناسب) .

وأمام استمرار غزو (الخزانة) حتى بعد معرفة السبب سدت الطاقة تماماً .. وحين اكتشفوا اختراق حاجز الطين الذي لم يكدر يحف نقلوا كل ما في الخزانة من خزين إلى الحاصل المحروس (بالرصد السحري المربع) على العنجريب طول الوقت مستنداً على جدار بابه المحرم .

تهادمت (الخزانة) مع الأيام وتتساقط طين (لياستها) ، وانكشفت بوص سقفها ولم تعد تصلح إلا كبيت مفترض لخلافات زفافنا العيالي ، حين نلعب عروسة وعريس في البيت اضطراراً . فقد كان الجلو فيها بعد خرابها غاية في الطراوة المنعشة خاصة في قياميل أيام الصيف الطويلة .  
تعرفت على سر (جنية الكيف) التي كانت جدتي تكتف شرها بأية الكرسي ، وهي تدخل كي تقضي حاجتها محمولة بواسطة ابنتها (فريدة). راقبتهن أكثر من مرة .. وتأكد لي أن هذه الجنية لا تسكن الكيف ، وإنما هي تشارك جدتي في حجرتها المحرمة ، لكنني لم أجروه على تجاوز العتبة .

صرخت فيها العجوز غاضبة:

ـ باقول لك تيجي تنامي معايا ، تيجي بعد ما تربى أمورك .. وما  
تروديش في الكلام

حين شوحت بذراعها الجاف غاضبة رنت حول عضمة ساعدها  
كتلة من أساور ذهبية كانت تخفى تحت الكم الأسود الواسع .. ولمع  
الخزام الذهبي على ضوء المسرجة . ولم تهدأ إلا حين قالت (فريدة) التي  
اقتنعت على ما يبدو بحكمة وجودها إلى جانبها في لحظتها الأخيرة:  
ـ ح أشوف يا امه ، هو أنا يعني اللي بتتك لو حدي .  
همهمت (أم العز) تغريها في صوت مستضعف يثير الشفقة ويشي  
بوعد خفي:  
ـ ما ليش غيرك يا بنتي يسترك ربنا ويعوض عليك .

كانت (فريدة) أحب بناتها إليها والأقرب لقلبها ، فهي التي خدمتها  
ورعت مصالحها منذ فضيت الدار عليها .. كلهم اشغلوا بحياتهم ..  
وأزواجهم وزوجاتهم بنات ورجاله .. لم يبق بالبيت إلا (عبد الباقي)  
الذى كانت معه في نقار دائم لإيشارها (عوض) آخر العنقود بحبها ..  
ولأن (عبد الباقي) تزوج بدون شورتها وأنى (بواحدة) غريبة طالعة فيها  
و(بندرية) تظن نفسها أفضل منها ومن بناتها وتريد منه أن يخدموها  
لا أن تخدمهم هي . وجوزها شجعها وصار يتحكم (على كيفه) في  
البيت يبني فوقه مقاعد بالجلبس والطوب الأحمر والبلاط . هي ربطته من  
مناخيره ، جرته وراءها وأنسته حاجة أمه « .. يا ريت كان (عوض) هو  
اللي اختار الدار وقعد جنبها بدل من اللي سكن مراته فوقها ، وليل ونهار  
قباقيبهم تدق على نافوخها ».

## في غيابه الجب . . .

○ قبيل موت جدتي بأسابيع سمعتها  
تطلب من (فريدة) أن تعمل حسابها على الميت  
معها . إذ أنها صارت تحلم كثيراً ، لو نامت ، بال حاج  
يناديها أن تلحق به إلى أرض الرسول . وفي يقظتها  
تطاردها كوابيس وأحلام مرعبة ، لا تجرؤ بعدها أن  
تنام . حكت لها أنهامنذ وعث على الدنيا لم يمت  
أحد من عائلتها أو من عائلة الحاج إلا حين يترك  
وحده - حتى ولو للحظة خاطفة - لذلك تريدها  
أن تبكي معها .

سمعت (فريدة) تتحجج بأولادها - وأنها  
ستوصي (عبد الباقي ومراته) أن يطروا عليها في  
غيابها .

وسترك باب الوسط مفتوحاً لأي طارئ،



بدا بابها الخشبي كوجه صنم من أصنام (الملك النمرود) ، يراقبني وقد رفع حاجبين عريضين يلقيان تحتمهما ظلاً يخفى لمعة عينيه المنطفتين .. كانت أركان الغرفة غارقة تماماً في ظلام لا يمكن اختراقه ، بينما احتفى نصفها الأعلى وتعمق سواده وامتد إلى السماء .. خطوط نحو (جدي) فتعثرت بكرسي خشبي حسبته كائناً ما . فصدرت مني آهة صامتة كتمها الرعب الذي شل ساقي ومعنى من القفز عائداً إلى الخارج .. عدة أجرولة متربعة بالحبوب كانت مرصوصة في الركن الأيمن بدت كرجال رماديين يبحلقون في صمت متسائلين عن هوية ذلك المزعج الذي أيقظ سباتهم .. تململت جدي وسمعتها تقول في حدة :

- مين؟ وله؟ .. واد يا سمير ..

كدت أصرخ حين سمعت اسمي مشروخاً بل أردت أن أصرخ ، لكن صوتي مات في جلد حلقي واختنق .. وتخشب ساقي وتخجر جسمي وأحاطت بي همسات للمسات باردة ولم أدر هل مددت يدي لأخذ المفتاح من تحت رأسها ، أم أنني وجدته في موضعه بباب (الخورستانة) .. أنا لا أذكر أنه كان بقدرتي الإتيان بأي حركة ، أو أن أفعل ما ظننت أني فعلته إن كان قد حدث فعلاً .. فتحت باب (الخورستانة) بسهولة .. كانت مستطيلة بها رفان من خشب قديم قاتم قسمها إلى ثلاثة أقسام .. حين لمست (قرن الحنفيت) انتابتي رعشة وكدت أستقطه فوق رأسها .. ولكنني أبعدت يدي بسرعة؟؟ وحين تناولت العلبة الخشبية الخشنة وفتحتها ، شعّ منها بريق أعشى عيوني وبهر أنفاسي ، عشرات الجنيهات الذهبية والأساور والحلقات يعلوها خلخال ذهبي يتلوّى رافقاً فوقها كأنه ثعبان حي . فحَّ في وجهي فأفقلت العلبة بسرعة ، فأحدثت صوتاً له رنين

هدأ (فريدة) من مواجهها وودعتها بعد أن وعدتها أنها ستأتي لتبييت معها من يوم الجمعة القادم إن شاء الله .. (وعليها بس أن ترتاح .. وربنا ح يديها الصحة وطوله العمر!).

- طب خشي المحاصل وخدبي العشا لا ولادك قبل ما تمشي ! وفعلت (فريدة) ما تفعله كل يوم . دخلت وأخذت ما لا أعرف من حاجات وأشياء ومضت ..

صار المكان (اسكت هس) .. لا شيء يتحرك حتى العنزة أم قرن واحد - رقدت واتخمنت ، والدجاج طار على جناحات الحلم ، واستيقظت العفاريت تمارس ألعابها الليلية .. فاستجمعت أنا ما ادخلته من شجاعة وتسخّبت للدخول إلى تلك الحجرة الغامضة المكتظة بأدوات السحر والمسكونة بالأشباح والغرائب.

حين دفعت الباب القائم التقليل صرّ وزيق محدثاً صوتاً كالآلين الغامض لمارد يتاؤه هبّت علىّ منه ريح محمّلة بمزيج من رواح غليظة وهبو دخان ثقيل له قوام يضغط على الجلد ويشير الرعب، أغمضت عيني وأخذت نفساً عميقاً محاولاً تهدئة قلبي الذي صمّت دقاته أذني حتى خُيل لي أن كفين ضخمين يصكانهما في بطء وانتظام . فتحت عيني وأنا أحاول تذكر آية الكرسي أو حتى الفاتحة . لكن الآيات اختلطت ولسانني تصلب يسد حلقي عن التنفس ..

إصراري جعل عيني تعودان للظلام الذي يغمر الحجرة، رغم الضوء البارد الكالح الذي تشعه في ضعف اللمسة السهاري الضئيلة المستقرة داخل طاقة خاصة على شمال الباب. على ضوئها الباهت تبيّنت كتلة ضئيلة من السواد متكونة في طرف العنجريب، تحت (الخورستانة) التي

وصدى عميق لا نهاية له .. خيّل إلى أنه أيقظ كل الموتى والشياطين ،  
قفزت مرعوباً ولم أدر ساعتها هل أغفلت (الخورستانة) وأعدت المفتاح  
إلى مكانه .. أم أنني لم أجد القدرة على فعل ذلك . إذ أن الصرخة الحادة  
التي أعادت الوعي لي لم تعطني الفرصة للتأكد من أي شيء ..

## وكان سعيهم مشكورة ..

○ قبيل موت الجدة جاءت (كمال)  
بنت عمتي (فريدة) وأقامت معها في الحجرة التي  
كانت محرمة علينا .. أمي أظهرت بعض الاحتجاج  
والشك وقالت :  
- طبعاً .. ييرتبوا الحاجة كبيرة ..  
أبي كعادته عندما لا يعجبه قول أو تصرف لها  
برطم وقال :  
- طب كتني اعمليها انتي .  
قالت في امتعاض :  
- أنا .. بعد الشر ..  
ازدحم المكان بأولاد وبنات عمتي ودبث  
الحياة في الخوش ، لكن المدارس كانت قد بدأت



مداد الحصان  
في المثقب

- الحق يا (عبد الباقي) الواد سمير نائم تحت السلم .. واحنا دايختين  
عليه من المغرب . يا قلب أمه !!  
في الصباح لم أتذكر شيئاً مما حصلت . جاءت عمتي (فريدة) كعادتها  
مبكرة . وعلى الفور أجلسست امها على العنجرية ، مثلما تفعل كل يوم ،  
تسدللت أتلوكاً بالقرب منها لأنني لعلي أتبين حقيقة ما حصلت  
بالأمس .

هل اكتشفنا أنني اقتحمت حجرة الأسرار ، أو أنني فتحت  
(الخورستانة) وأبصرت كنز (الشمردل)؟ لكنني لم أتأكد أبداً .

• • •

. إذ كانت قائمة تتحرك في نشاط ، تأخذ ماءً ساخناً من الصفيحة فوق الوابور وتخلطه في ماجور كبير من النحاس مع ماء بارد .. ثم تصب على جسم ما لم أتبينه كانت تليّفه في نشاط وحنان .. كان البخار المتصاعد من الصفيحة ومن ماجور (الإنجاز) ومن الجسد الغامض يملأ فضاء الحجرة ويزيد غموض المنظر ، لم تعد الأجوة المليئة بالجبو布 في مكانها .. وغام وجه (الخورستانة) المربع وضاع في فراغ الحائط المضبب وانحنت (كمال) وهي تضحك تطارد الصابونة الهازبة في رغاوي الطشت فرأيت بين يديها .. جسداً هزيلاً يشع بياضه تحت ضوء المصباح يغطيه شعر طويل رمادي مهوش مبلول صبغت معظمها حمرة الخناء ، جسم نحيل من جلد وعظم له أطراف معروقة مقرفص فوق الكرسي ، عظامه ناتئة بارزة تحضنه ذراع (كمال) البضة الفتية التي تبحث عن الصابونة وهي تكمل غناءها في مرح:

—أمانة لو رحت للبندر تجib لي هدية .. يا ليل الله ..

تأملت المنظر المضبب ، ولاحظت عدم وجود الأساور الذهب في ذراع الجدة الرفيعة .. ولا الخзам في أنفها الواضح ، فضحتني شهقتي فالتفتت (كمال) ناحيتي غاضبة في عصبية كاد أن يسقط معها الجسد الهزيل الغريق في ماء الحموم .

— إمشي يا وله بلاش قلة أدب .. اقفل الباب ، ستك تاخد برد يا حمار ..

و لم أجد وقتاً إلا لأهرب في قفزة وحدة ، لأنقطع غلق البلح من جانب السلم وأصعد به وقد تملكتني شُكْ أُنني دخلت الحجرة المسحورة قبل الآن .

وقصر النهار وأصبحت أقضى معظم الوقت خارج البيت وإن ظل خيال وأحداث تلك الليلة لا يفارق خيالي .. كانت (كمال) نشيطة ولا تكتف عن الحركة تطرد الجميع بعيداً طول الوقت .. حتى أنها قل تواجدها في المكان .. الذي صار نظيفاً .. وذبحت العنزة أم قرن واحد ولم تعد البقرة تظهر في قاعة الفرن .. وارتفع صوت الغناء في الحجرة وفي الفناء وذات مساء كنت عائداً من الغيط بعد يوم قضيته مع أولاد عمي (عبد الحليم) - (محفوظ) وأبو كلام) - حملاً هدية من بلح (بنت عيشة) من نخلة زي العسل ترمي مبكرة أكلها اللذيد .. وكانت سعيداً لأنهما وعداني أن اصحابهما في الأسبوع القادم ، بعد أن يستأذنا أبي أن أحضر جمع أول قطفة من قطن (غيط السباخ) الذي رمى بشائره مبكراً هذا العام.

حين اقتربت من باب الوسط سمعت (نشيش) وابور المجاز في حجرة جدتي وسمعت (كمال) تضحك وهي تغني أغنية فرح طالما سمعتها في ليالي الحنة وبالذات عند حموم العرائس:

— “أحمد ويا أحمد ويا أبو الود يا غالى .. يا ليل الله ..  
أحمد على الكوبري شاور لي بمنديله .. يا ليل الله..”

كانت تغنى وتترد على نفسها في سعادة ومرح .. فتركت غلق البلح على أول السلم وتسحب نحو حجرة جدتي .. كان الباب موارباً .. وثمة بخار دافئ يملأ فراغ الغرفة .. دفعت الباب قليلاً ومددت رأسها في حذر وصمت .. صوت الوابور يأتي من ركن الغرفة التي تضيقها لمبة (نمرة عشرة) يلاعب ضوءها البخار الساخن . لم يكن سرير الجدة في مكانه .. كان قد أزيح إلى الركن البعيد ، وتم في وسط الحجرة طشت كبير في وسطه كرسي الحمام الذي تعثرت به ليتلها .. وكان جسم (كمال) شبه العاري تتح قميصها المبلول يحجب الروية عن بقية المنظر

ماتت جدتي بعدها أيام ..

وثار بين أعمامي وزوجاتهم وعماتي وأولادهم وبناتهم ، بل وبين كل من له علاقة بالأمر ومن ليس له علاقة .. جدل حاد وكلام كثير مختلط بصراحه وعوين .. واتهامات وشتائم وتلميحات . وكان عراك كبير.

لم يجدوا في (الخورستانية) شيئاً سوى بعض جنيهات ورقية و(كبشة ريالات فضة) ولم يكن هناك لا (قرن الحنتيت) ولا (طاسة الخضة)! والحاصل الذي كان متربعاً (لتمته) وجدوا به بعض أوان فارغة بعضها مكسور ، عشش فيها العنكبوت وطبعاً اختفت الأساور التي كان الجميع يراها ويسمعها تشخل في ذراع الجدة العظمي .

قيل أن (فريدة) رفضت ما حرضها عليه أولادها ودبروا لها ما تفعله . ولذا جاءت بنتها الكبيرة لتبادر - في صمت - ضمان نصيب اليتامي في ميراث تهدده سطوة الإخوة الذكور..

خمس البعض أنها تعمدت أن تحميها بالماء الساخن في البرد ، وأنها تركت باب الحوش مفتوحاً لتصاب في رئتها وتموت وهي الضعيفة الواهنة التي لا تتحمل !!

وظل الأمر لسنوات طويلة محل جدل . وخلف غالاً وقطيعة بين الجميع حتى الآن ..

لكن الواد صاحبي (فاروق النملة) ظل لسنوات يلاحقني مستظراً  
يغطيوني وهو يعايرني ضاحكاً:

- كل دي حركات يا آبا ، إنت وابوك اللي طلعتوا بالشحاليل  
والهبرة الكبيرة .

و كنت لا أحتمل هزاره وأغضبه فعلاً رغم تأكدي أنه لا يعنيه ، لكنه  
كان يرد علي مؤكداً ليفرسني أكثر:  
- أيهه ؟! اللي على راسه بطحة .. مش بأقول لكم .  
فكنت أخفى غيظي وأضحك لأجاري في سخريته ، لكن قبضة  
باردة كات تعصر قلبي دون أن أدرى لها سبباً كلما جاءت هذه السيرة .

•••

قبل حجة الوداع . وبينما كان الإخوة الآخرون أو بعضهم على الأقل يعارض في توريث أبناء الذين ماتوا من إخوتهم ، وكان أخوه عبد الكريم) قد توفى قبل وفاة أبيهم . تمسك أبي بشدة بضرورة حصول أولاده على نصيب والدهم ، وقاوم استصدار الآخرين لفتاوي ترفض ذلك شرعاً ..

وكان موقف أبي هذا من المواقف التي أعظمته فيها - وبسببه زادت محبتني له واعتزازي به . لا لأن (محفوظ) ابن عمي (عبد الكريم) كان صديقي وواحداً من أفراد شلة العفرة في البحر وفي أبو خشبة والغيط، ولا لأن (فتات) بنته كانت جميلة وكثيراً ما تخيلت جنية البحر على صورتها كلما جهزت نفسها لها كي تخطفني أو كلما حلمت بها تطير بي إلى مدينة النحاس . ومازالت حتى الآن أحفظ موألاً لا أعرف قائله يقول : عجبي على بنت بيضا وأسمها فتنات ..

كانت الأفدنة الثلاثة أقل من أنصبة الإخوة الآخرين .

ولم أعلم لماذا ؟ لكن يبدو أنهم وضعوا في الحساب (تعليم) أبي ودخله . ومصاريف تعليمه دونهم في الاعتبار ، لكن أبي لم يشك من ذلك أبداً بل واستنكر أن يذكره أحد به .

توزعت الأفدنة الثلاثة على عدة أماكن متفرقة متباينة وانقسمت إلى قطع في أحواض مختلفة لأن أبي تمسك بشدة أن تكون القطعة الأساسية ، المحاطة بالنخل الذي زرعه جدي وشتل بعضه أبي ، أن تكون ضمن نصيه ، مما أثار معارضة شديدة لأن الكل كان طاماً فيها - واللي يلعب الدحة ما يقولش أمه - ولذا توزع نصيه ، كانت منه قطعة في الشمال.

## لا يضركم كيدهم شيئاً . . .

○ خلص البيت بعد دفن جدتي ل(عبد البالقي) طبعاً . وزُرعت بقايا الترفة التي كان يمكن أن يكون مصيرها كمصير (قرن الحنتيت) وكل ما ظنوا أنه كان يملأ (الخورستانة) وسوية ملكية البيت فلم يكن أحد يود مشاركة أبي فيه .

لقد بنوا بيوتاً على وش البلد لا تفصل بينها وبين مقام جدهم (سيدي مجاهد) - الذي لم يكن قد صار مسجداً بعد - سوى (الخرابة) أو الجبانة القديمة التي اسمها (تل أبو خشبة) وقمينة الجبر ومنصل) أو مسرف دار (أحمد) .

كان نصيب أبي ثلاثة أفدنة بحث من تحirات جدتي وميلها غير العادلة بين أبنائها وبناتها . وكان جدي قد باع كل الأرض لجدتي (بيع وشرا)



وهكذا أصبح عالم مغامراتي الصغيرة الهائلة ، ممتدًا على مساحة يمتد براها - كما أوحت لي حচص وكتب الجغرافيا عبر حدود - قارات العالم - التي يقع غيط (السباخ) منها موقع القلب بالضبط ، مثلما تتوسط مصر خارطة أحلامي التي بدت لي تتسع وتختنق خطوط الطول والعرض .. ومتند إلى حيث بدأت تأسري مدن أتعرف عليها مثل (تانيس وبغداد والهند). وتخلب روحي جبال (الأوليمب) و(الواق الواق) والتلول ، وفي القلب من هذا العالم كان البيت الذي أصبح منذ ذلك التاريخ مملكة أبي وملكتنا ، تبدأ وتنتهي إليه الأيام ، والأحداث تولد وتحضر فيه لحين تتحقق أو تجهض الأحلام . والأوهام أيضًا ..

بعد الأربعين مباشرة شمر أبي عن ساعديه ليعيد تشكيل بيت الجد الذي صار بيته . انهمك في تجديده وصياغته حسب الحاجات التي كانت تتغير بايقاع متتسارع مع تغير ظروف الحياة ومطالبات المعيشة ..

كان بيت جدي من أقدم البيوت في الشارع الذي عرف في (ميتس سلسيل) من زمن قديم باسم حارة (الصياغ) لأن بها عدة بيوت يسكنها أحفاد صائغ قديم صارت مهنته علمًا عليه فتسمى بها أولاده تميزاً لهم عن أولاد الفلاحين في الحارة والبلد . وكان معظمهم يشتغل ببيع الذهب وبالرهونات والسمسرة .

أكدى لي عم (عوipضة شهاب) الفلاح ، في كراهية شديدة، أن جدهم كان (ربوياً) أرارياً لأنه كان (يهودياً) هاجر إلينا من حيث لا نعرف وأعلن إسلامه (وقبض ثمن تغيير دينه) لكنه لم يعمل بالزراعة أبداً .. وحين بارت تجارة الذهب وانقطعت صلاته وصلات أولاده بموطنه السابق انفرط عقدتهم، وتفرقوا بين أنشطة مختلفة من التجارة في الحبوب وبعض الأعمال

ضمن حوض يسمى (أرض الطير) بالقرب من البحر الصغير .. وأخرى في الجنوب البعيد، قبلي السكة الزراعية والسكة الحديد فيما يعرف بحوض (الخمس) .

كنت أكثر الناس فرحاً لهذا الذي جرى . إذ توزعت مساحات أنشطتي وملاعب طفولتي .. وتعددت الحجج التي أسوقها لتواجدي خارج البيت بين أركان الأرض وجهاتها الأربع ... ما بين البيت شرقاً و(أرض السbach) غرباً و(أرض الطير) شمالاً وجنوباً غيط (الخمس) .

كانت (أرض الطير) تعطيني فرصة للصياغة في حقول (الشهابية) المجاورة والاستحمام في البحر الصغير مع أولاد وبنات عمي (عبد الخليل) وأولاد عمي (محمد) وعمتي (فرحة) . وكانت أرض (السباخ) تسهل لي مغامرات السطو على الأشجار الكثيفة من الجوافة والتوت والجميز والبلح، والبلبطة مع عصابتي في البحر القديم للعلوم أو لصيد السمك ، والسطو على بستان (الزنورة) وعنبة (أبو مجاهد) ومطاردة (المسحور) الساكن في أعماق (الطبوشة) .. وكانت أرض (الخمس) تعيد الروابط المقطوعة مع أولاد وبنات عمي (عوض) وعمتي (فريدة) وتقدم سبيلاً للالتحاق بأصحابي من أبناء (عوipضة شهاب) حيث يقوم دواره الشهير على أول طريق (الخمس) المتند إلى الجنوب ، مخترقاً عالم الغموض إلى أرض مجھولة خالية من البشر لبعدها عن العمران . وكان الطريق إليها أحد طرق أهل بلدنا إلى (بلاد الشرق) التي ظل معناها غامضاً علي حتى كان وباء الكوليرا فقطع الطريق على العابرين ، لأن عبره انتقلت العدوى التي حملتها بلح وتمر بلاد الشرقية و(القررين) . حيث كانت معسكرات الإنجليز - الذين قيل إنهم دسوه للمصريين انتقاماً بعد الحرب .

وواجهته عن خمسة أمتار ، ثلاثة منها تشكل غرفة ذات شباك واحد نصفه الأعلى من ضلften زجاجهما مكسور على الدوام ، والأسفل المنفصل من ضلften خشبيتين يؤطرهما إطار حديدي يشبه شبابيك السجون . كان باب البيت المصمت يفتح على صالة ضيقة ممتدة طويلاً إلى العمق تنتهي بسلم خشبي شبه قائم يرتفع لثلاثة أدوار ، وينحني متتصقاً بنفسه ليسمع للمساحة المجاورة أن تكون غرفة بجوارها طرقه نحيفة تنتهي بكنيف . وكانت الأدوار الثلاثة منكمشة على نفسها كمزنوق جاهد طويلاً كي يقف منتصباً ليعلو البيوت المجاورة ، شاقاً بصدره طريقاً إلى السماء ومانحاً قفاه لنسيم الشمال ورياحه تصفعه في همة ونشاط دائم، مستمتعاً بانفساح الأفق خلفه حتى آخر الدنيا مجدداً الهواء في البيت المخنوق ومحولاً إياه إلى جنة في الصيف وثلاجة في الشتاء.

كان بيت جدي يحاول منافسة ذلك البيت المزنوق في الارتفاع، على الأقل ، في رأيي ، رغم أنه بنى على راحته فكانت وجهته المتعددة إلى أكثر من اثنى عشر متراً أو يزيد ترتفع جداً سميّاً من الطوب الأحمر و(القصرمل) ييرز فيه بابه الضخم المشغول التاج والشراعتين بالحديد الأسود، وإلى جواره الشبакان الطويلان . يوحى برسوخ خاص لم يتم طويلاً أمام همه والمدي ورغبته الدائمة في التحدث !

كان قد أقام السلم (الخاص) في حجرة الدجاج المكسوفة على غير رضا أمه. فعزل نصف الدار الداخلي الذي كانت تسكنه عن مدخل البيت. وكان قبل موتها قد استكمل بناء الدور الثاني فبلط السطح أمام المقدعين . وأحاطه بسور من الطوب الأحمر والجبس . وكان بدعة في حينها .. ثم عاد وأضاف إلى المقدعين القليلين المطلين على الحارة -

الربوية. وغادر بعضهم الحرارة وتزوجوا . وبعضهم رحل وعاد إلى حيث جاء أبوهم ، حتى نسى الناس أصولهم وصاروا يغضبون ويتشاجرون لو ذكرهم أحد بأصولهم سبّاً أو عايرهم بها ..

وفي مواجهة بيتنا كان أخوان شقيقان من تلك العائلة ، أحددهما اقترب من الزراعة فاشتغل سائقاً عند أغنى مالك في القرية وامتلك هو وأختاه مشتلاً للزهور وتربيبة شتلات الأشجار المثمرة على الجانب المقابل لجنينة (علي أبو حسن) منافس سيده اللددود على شاطئ البحر القديم تظلله أربع شجرات توت وجميز عمرات ، تشكل ركناً ساحراً من الخضراء الكثيفة على طريق يمتد من البحر الصغير إلى جوار ساقية (الأمير) حيث كان يحلو لنا شباباً أن نقضي ظهرية أيام الصيف في ظلها الرطب الساحر حيث تشتبك رياح الشمال الصيفية القادمة بعرض الأفق مع البحر وتلاعب أشجار الكافور والنخيل والغاب الرومي التي تصنع من الشاطئ المقابل سياجاً يمتد بطول (الجنينة) مهيناً لأشجارها المثمرة طقساً رائعاً يجعلها من أخصب أراضي (ميت سلسيل) ، غنية بما تنتجه من فواكه وخضروات تذكرني بقصة (الجنتين) المذكورة في القرآن ، وأهلتها لتعطي لصاحبها الشيخ (علي أبو حسن) مكانة متميزة بين أهل الناحية – الذين أطلقوا على هذه القطعة المسروقة من الجنة اسم (الساحل) وأحاطوها بالكثير من الخرافات والأساطير وحكايات الحيوان وعرائس الماء.. والعشق أيضاً .

في الحرارة كان هناك عدة بيوت لعائلات من (الصياغ) ولم يكن يفصلها عن بيت جدي سوى بيت (حسنة أم عبد الله) – الذي لا يزيد عرضه عن بضعة خطوات ، أقربها كان بيئاً عجيباً ضيقاً كثير الأخشاب يرتفع وحده عالياً نحيفاً يفصله عما يجاوره جدار أصم من الطوب لا تزيد

ولكم حزنت عندما اخترقى الباب الضخم ذو التاج الحديدي . والذى كنا نرتزنه في شم النسيم بأغصان الصفاصاف الخضراء وجريدة التخل والريحان ، واستبدل بالشباكين العمالقين شباكين أقل حجماً ، وبلطف الأرض كلها - صارت المساحة على يمين الداخل مندراً واسعة تصلح لاستقبال الضيوف وصار بها كتب بلهى بدلاً من المصاطب وامتدت الصالة أمامها، واسعة برحة مضيئة على عكس ما كانت أيام الجدة، يدعم سقفها قطوعان يقسمانها قبيل الكنيف، ويحجبان داخل الدار عن أعين الداخل ، لتنتهي بباب من ضلفتين حديثتين ، يفتح على الحوش الذي كان نصف مكشوف ، بعد أن أزيلت العريشة التي كانت تغطيه ليتدفق النور والهواء البحري حرّاً إلى عمق البيت .

وبعد إزالة السلم الخشبي ، أصبح أمام حجرة الفرن حوش كافٍ لتربية الدجاج والأرانب.. وصار للحاصل شباك بحري وأصبح بعد تجديده غرفة ، بينما صار الكنيف (الكريسي) محلاً للأدب أو (حمام) . كما كانت (الست) تحب أن تطلق عليه ، واحتفت إلى الأبد (جنية) الكنيف المرعوبة التي كان لا يحلو لها الظهور إلا عندما تسمع وقع أقدامي على السلم الخشبي وأنا نازل لألحق بالقطار إلى المدرسة حاماً حقيتي الخشبية الثقيلة والتي كنت عندما أراها أغمض عيني وأنا أتقدم في الظلام أتمتم بآية (الكريسي) و(قل هو الله أحد) كما علمتني خالي ، فأشلها وأجبرها على العودة إلى ظلام (الكنيسة) بينما أفتح الباب مغمض العينين و(أفلسعي) نحو المحطة دون أن أتبين ما أمامي .

وبعد اخترقها إلى الأبد أصبح البيت صالحًا لاستقبال غيري وغيري آمال .

رفع الإيريال القديم إلى سطح الدور الثاني فصار استقبال الراديو

وكان بينهما تراسينة من زجاج وخشب - غرفتين بحرفيتين ببلكونة (شكمه) أخرى بعرض الصالة التي توسطها باب من أربع ضلف زجاجية بمفصلات جاهزة حين يفتح في الصيف تصبح الشقة مصيفاً يرد الروح .. وبعد أن اكتمل الدور الثاني مد السلم نصف الخشبي صاعداً إلى السطح الجديد، ثم أعيدت صياغته ليصبح كله سلماً حجرياً من درجات مؤطرة بالخشب وبملطة بال بلاط الملون . وتحول الكشك البوص ، الذي كان في الماضي مخزن لخزين المست (أم سمير) ومكاناً لأزيار تنقية الماء ومناماً لمبيت الخادمة السمراء (التي جاء بها لخدمة المست ولغيظ من احتجوا على زواجه منها) ، صار مطبخاً واسعاً يشرح القلب بنافذة بحرية . جرى بياضه كاملاً بالجير من الداخل والخارج ، لكن بعضهم همس في أذنيه مشككاً في قدرة الجدران التي بني بها البيت القديم على التحمل ، صحيح أنها متينة ومبنية بذمة أهل زمان ، لكن الحياة الجديدة واستعمال الماء بإسراف كما تعودت (الست) ، ومد مجاري من الحمام في الدور الثاني إلى أسفل ، سوف يشكل خطراً على الجدران الخلفية التي بنيت بها قاعة (الأسرار) والفرن والحاصل - كلها بالطوب اللبن أو على الأقل بالطين المعرض للتآكل .

شمر أبي عن ساعديه وقرر إعادة تدعيم جدران الدور الأول لتحمل حداة الدور الثاني ، وقد كان ، وحسب أوامرها للعمال ، الذين كانوا يعملون حسب إرشاداته وتحت إشرافه ، تم تكحيل كل الجدران من الأرض للسقف بعد كشف كل الأحجار . ورغم رأي بعض البنائين بأن (القصرمل) والطين سيطردان الأسمنت . إلا أنه أشرف على ملأ المسافات التي عمقت لأقصى درجة بين الطوب وبعضه - بالأسمنت ثم أعاد تمحير كل الجدران من الداخل والخارج (يعلمها) ، ثم أعاد تبييضها بالجير الملون .

أصفى وأوضح .. وسُور السطح كله بالطوب الأحمر والجبس. وصارت هناك إمكانية لصناعة أكشاك صغيرة لتربيه الكتاكيت وللتمتع بشمس الشتاء حين تشرق .. وبليالي الصيف تحت نجوم صافية بعيداً عن أعين المتطفلين من فوق سطح بيت (الصياغ) وبيت (أبو سيد) القربيين.

اكتمل البيت .. صار الدور الأول مكاناً يتاح الفرصة لاستقبال الضيوف، وأصدقائي دون جرح ستر البيت .. بل صار على غير ما كان شوّق أكثر إغراء لأمي وأبي لقضاء أيام وليلات الشتاء فيه، لمن يطلب دفناً توفره الجدران السميكة، المبنية على الطريقة القديمة.

وأعادت هذه التجديدات نزناز الكلام والإشعارات أو هكذا خيل إلى . في الرغم من أن أولاد عمتي (فريدة) وبنتها البكرية بالذات اشتروا عدّة فدادين ، وأعادوا بناء بيتها وبيوتهم وظهرت عليهم دلائل اليسر بشكل واضح – إلا أن الولد (فاروق النملة) لم يكف عن إغاظتي أنا ومعاييرتي ضاحكاً...

– أهه! أنا جبت حاجة من عندي؟ أهي .. (الشخاليل) .. ظهرت يا عم .

ويبدو أنني كنت قد أصبحت مع الأيام أكثر عقلاناً مما كنت. أصبحت ناضجاً بعض الشيء لأتبين بعض الأمور التي تفرق بين مقتضيات الواقع وتخاريف الأوهام التي تفسح مجالاً للحسد وللقر . جعلتني أعتقد أن أشياء غير حقيقة لا تحدث تطمس معلم أشياء حقيقة حدثت وتجعلها أقل أهمية .

كان البيت قبل هذه التغيرات وبعدها قد استقبل أخي (سامي) الذي سقط من الدور الثالث في بيت حالي بالمنصورة وودعنا بعده أخي (صفاء) التي اخْتطفها الموت فجأة بحمى لم تمهد لها . لقد عمّدتني الأيام بما يكفي من أحزان .

• • •

## ما كان حديثاً يفترى

○ استيقظت من نومي المتقطع القلق مكتتبًا فرعاً .. لم أستطع تبيّن موقع قدمي. كادت خطوطي الأولى تسقط جسدي غير المتزن ، في هوة سحرية بلا قرار ، لو لا أن تعلقت بأكرة الباب ذي الضلفة الواحدة، التي نصفها الأعلى من الزجاج المصنفر الرمادي، والمعلق على مدخل البلكونة الضيقة ، فافتقدت براح بيتنا الخمسيني ! حيث كان الحائط النصفي في نفس المكان يشكل بالعرض ظهراً آمناً للكببة البلدي ذات المسائد والخشايا الثرية – المجلس المفضل للست (عليه) تدير من عليها شعون البيت – تتدأ أمام ناظرها الصالة العميقه الممتدة حتى البلكونة القبلية ..

تمرح النسمة الصيفية بحرية تكون معها الشقة



من الصياغ  
في المتنب

تختلط في المدى الكالح بصوت مياه مندفعة من صنابير مجهرولة على أرض صلبة، وبأصوات استنشاق ومضمضة وتكتيرات وتعويذات متبتلة متزوج باهات لذة غامضة تشد أذني إلى أكثر المناطق سواداً.

أحسست بحيرة من لا يستطيع التأكيد أن الأمر مختلف إلى هذه الدرجة وكان الخمس سنوات التي غبتها في السجن كانت أربعين تحاول هو تفاصيل كثيرة متداخلة غائمة تتضخم قليلاً حين تشق الصدر رائحة دخان قمائن الطوب المحروق . تلتهب باحتراق أعود القطن الجافة المحملة بعذارى دودة القطن وعرق البنات والأولاد ودماء أصابعهم التي نهشتها إبر (الأوشبر) الحادة الثلاثية الأطراف للوز القطن الجاف .

الصدفة دفعتني لحضور مؤتمر للديكة المتube . استمعت بإمعان فيه خطاب تاريخي لجحش متوتر يتوجه أن يصبح حماراً .. واقتحمت أذني مظاهرة فجائحة لفيلق من بط بلدي وأوز ثرثار، استيقظ قرفاً من النوم عندما دهست فيه قدمًا امرأة خرجت لتواها متحررة من جسد زوجها المرهق ، فانطلق السرب ساخطاً يبحث عن الذباب الذي لم يبدأ نهاره بعد ..

اضحت ملامح الأسود الباهت على شمالي ، فتبينت شبح امرأة نصف عارية متوجلة تدلق طشطاً من الماء ذي الرائحة النفاذة لصابون رخيص ، بين قدميَّ مباشرة فتصاعد منه نشيش الصابون الدافئ على الطين الجاف فلسخ حمضه أنفي ..

تراجع الغامق ليكشف وضوح شكل البيوت القديمة القزمية البائسة مقندة تحت أقدام أخرى حديثة عالية تبدو أشد بوئساً رغم الطوب الأحمر والجبس .

(ملكة) خاصة إذا ما فتح باب الوسط المكون من أربع ضلوف زجاجية، متعددة حتى السقف ، والذي يصبح متراً ثانياً إذا ما أغلق في وجه رياح الشتاء وبرد طوبة ، بينما لا يمنع زجاج التراسينة الملون الإطار رؤية انهمار المطر فوق سطوح لبيوت القش التي لا تحجب عن الرؤية قممأشجار الكافور على شاطئ البحر القديم..

قبل أن يرتفع بينهم بيت (النبراوي) وبيت (عبد الحليم أبو عوض) العالى اللذان يقطعان استرسال النظر إلى المدى البعيد... بعد أن تقزم البيت في شكله الجديد إلى دورين فقط !!

كان الرمادي ثقيلاً متداً حتى أنفي ، حاملاً رائحة تراب التلول المالح الذي لم يعد يلوح لعيوني ، ثمة ظلال أكثر كثافة تخيط بي ، وترسم ما يشبه بقايا قرية مصرية تحاول الخروج من أسر الطوب اللبن والسقوف المحمولة بالقش الريء وجدران الخزائن البوص المطلية بالطين المدهوك والحظائر القديمة الحميمة حيث يتشارك فيها البشر والماشية والدواجن .

قرية تحاول الإنفلات إلى عالم البناء بالطوب الأحمر والأسمدة والبيوت العالية والمجاري الطافية وأكوام الزبالات الحديثة المفعمة بزناخة رائحة البلاستيك المحروق ..

حولي كانت مساحات مربعة ومستديرة وكتل ضخمة حادة الخطوط غامضة تتجسد صادمة صامتة تتناثر في تحدٍ لتشكل إطاراً ثقيلاً من سواد ، خاللها وبينها تلوح بقع مضيئة ترسل مجهدة أشعة صفراء باهنة من مصابيح جاز أو فتائل سواريخ مرتعشة تحدد بصعوبة حدود أكوام القش والخطب فوق الأسطح وحول الجدران .

ثمة هممات دينية غامضة غطت على صيحات الديوك الأخيرة

ترتفع على زاويته ساريتان يمتد بينهما سلك الإریال النموذجي للراديو حسب مواصفات (محطة الشرق الأدنى) والتي حلّت محلها محطة (راديو لندن) فيما بعد .

اختفت (المندرة) التي كانت تشكل واجهة البيت بشباكيها العالين الذين يجاورهما الباب التاريخي المنحوت الراسخ ذي التاج الحديدي الذي يصنع حديدة نصف شمس تشكل مروحة أسطورية من نجوم وأقواس وعصافير وتهاويل ودوائر تمكنا أن نزرعه بأغصان الصفصاف وجريدة النخل الأخضر ، وأحياناً بزهور عباد شمس احتفالاً بقدوم شم النسيم . وكان بتركبيه وعلوه الفذ والفنى يساعدنا على حمايته من غارات أطفال الحواري الأخرى ، حيث يشتد الصراع من (أربعة أيوب) حتى (سبت النور) بين الحواري على إشعال النيران أمام أبواب البيوت . بعد تزيين قممها بالحضراء لتدور معارك صبيانية لحماية ما يخصنا والإغارة على ما يخص الحواري الأخرى ، في تنافس لا يولد حقداً ولكن يصنع بهجة إذا انتصرنا وبعزقنا نيرانهم وأسقطنا زينة أبوابهم ، ويختلف حسراً إن نجحوا في بعزة وإطفاء نيراننا وزيتنا .

وكانت النيران الأجمل والأكثر جدارة بالحماية ، تلك التي يطقطق لهبها في فرقات يصنعها بشدة الملح المحسن الذي نرشها به أو الذي يصنعه احتراق أعود القمح والشعير الحياة الجافة .

إذا ما أتي (سبت النور) وفات ، كفت حرب النيران المرحة هذه التي يتفاخر ويتباهي من ظلت نيرانهم مشتعلة إلى النهاية أو من بقيت بساتين خضرتهم حية فوق هامات أبوابهم .. تدور فرق من المتصرفين والمغلوبين معًا لفقد نتائج الحرب المرحة والتعليق الساخر . والكل يحضر البصل الأخضر لصباح (شم النسيم) ستنلقي به مبكراً إلى البحر (الترعة أو

انطفأت دوائر ومربعات بؤر النور الباهت ، وانقضى الرمادي الممتوج ببرقة دغمية السحر عن ظلال أشجار وقمم حزم القش الممتدة حتى الأفق تخللها بقايا من أسوار البوص المدهوك بالطين كدمن لزمن قديم ..

استندت إلى سور الشرفة الضيقة المطلية بالجير والملح الملون والتي حلّت محل التراسينة القديمة في بيتنا الخمسيني التي كانت تطل على الخلدية البحريّة لبيتنا ، فهالني مدى ما صنع أبي وما جرى به الزمان على بيتنا خلال تلك السنوات الخمس التي غبتها في السجن لأعود بعدها لبيت جديد دفت فيه مع القديم كل الذكريات التي غمرت في السجن قلبي وعقلني تقاوم النسيان والموت . البيت الجديد لم يأتني في الحلم بعد ذلك أبداً وظللت أحلامي تدور حول البيت القديم ، دهاليزه واركانه وروائحه وعفاريته وجنياته .

اختفى السلم العجيب الذي كان يمتد ليفتح على باب ضيق في أقصى الجنوب الشرقي صاعداً للدور الثاني . وكان ينزل بزاوية قائمة عدة درجات إلى داخل وسط البيت . إلى تلك الغرفة في وسط الدور الأول والتي عثر على فيها ذات مرة نائماً صباح ليلة اقتحمت فيها غرفة ستى (أم العز) بحثاً عن سر (الخرستانة) و(قرن الحتيت) والتي كانت فيه العفاريت تتجسد لي في صورة أرانب بيضاء وسوداء ورمادية وأنا في طريقي إلى مدرسة (الجمالية) زمان . بينما كان أمام الدور الثاني يمتد في بسطة تسلمه إلى الصعود إلى الدور الثالث وقد اختلف شكله وضاق عرض درجاته مثلما يضيق الدور الثالث نفسه ليصبح نصف دور من غرفتين بحريتين ودورة مياه .. وسطح يشغل نصف البيت الجنوبي .. يحيط به سور عال

أبي من الجمعية . فشن حرباً على هذا التصرف وعلى إقراره من مجلس الإدارة . وعجبت لفضح وتشنيع والدي على من بقوا في المجلس بعد طرد الوفدين منه .

حاولت أن أسأل أبي عن سر سكوته على ذلك وهو في المجلس ..  
ولكنه نهرني مؤكداً أنني لن أفهم - ولم أفهم !!

ولكن ظل (للمدرسة) نفوذها كمركز جذب واهتمام أهل البلد عندما اشتري أبي (ثاني أو ثالث) راديو يشتغل بالبطارية السائلة في (ميت سلسيل) .. كنت أعرف أن العمدة يملك واحداً وكان الآخر في بيت (أحمد بيه القصبي) لأن سائقه الذي يسكن في البيت المواجه ليتنا علق عندما رأى الراديو معروضاً في الشباك .. قائلاً :  
- لا .. راديو البيه قد ده مرتين ..

ولكن هذ لم ينل من فخري أن في بيتنا راديو .. خاصة عندما كنت أعود في الساعة الرابعة من ماكينة الطحين محضناً البطارية على حمار (فتحي القشلان) جارنا الذي يسكن في أول الشارع وقد حصنت نفسي من ماء النار ومن حرارة البطارية - التي تكون قد ظلت تشحن منذ الصباح أو منذ تدور الماكينة - بشوال من الجوت القديم .. حتى ابتدع أبي عربة خاصة لحملها على عجل . سافرنا خصيصاً للمنصورة ليحضره من النوع الذي يدور (برولمان البلي) من مخازن الخردة التي بهرني تنوع الأشياء الموجودة بها . وكان شارع (دابر البندر) يزخر بالعشرات التي تمتلئ بآلاف الأشياء المستعملة القادرة على موصلة الخدمة .

تبدأ الإذاعة المصرية في الخامسة مساء ، وأنواعي أنا تجهيز الراديو

البحر الصغير) ونحن نغطس معه ليزيح الماء البكر خمول عام مضى عن أجسادنا . كما أحترقت النيران السابقة البراغيث في بيوننا العام قادم .. لم يعد ذلك الباب الجميل موجوداً .. وترقررت في عيني دموع حقيقة عندما سألتني ساخراً عن إصرار أبي الدائم على إعادة صياغته :  
- إيه الل عمله أبوك في بيتك يا وله وانت غائب !

لم يكن اختفاء الباب العالي الجميل وحده الذي حز في نفسي ولكن (المدرسة) ذات نفسها اختفت ، وهي التي شهدت أياماً لها تاريخ منذ كان عمري أربع سنوات وأقل ..

فكم وقفت قصيراً على أرض الشباك الشرقي .. أناول أهل البلد كوبونات الجاز وإيصالات استلام الزيت والسكر ، التي كان أبي يحررها ويناولها لي لأسلمهها بالاسم لمستحقيها من أعضاء الجمعية الزراعية التي كانت أيضاً توزع التموين حسب مقتضيات الحرب .. كنت صغيراً لدرجة أنه كان يثير عجب الفلاحين والفالحات ، أبني - الذي لا تصل هامتي إلى نصف الشباك العلوي المفتوح - أناول كل واحد ماله دون أن أخطئ ..

تصل إلى مهمات ودعوات العجائز الأميات والنساء المتعبات والرجال الذين لا يقرؤون وتعليقاتهم .

- محفض ، ربنا يحميه .. بيعرف يقرأ ..  
- ربنا يخليله لابوه .. شوفي يا اختي عارف كوبون الجاز من وصل الزيت .

كان كثيرون منهم يستبدلون كوبونات المواد التموينية بالمقابل المادي .. ولم أكن أعرف أن هذا مخالف للقانون .. إلا بعد أن خرج

كانت عملية انتراع الجزء الذي شغلته درجات السلم (المبتكر) لفتح مدخل مستقل للدور الثاني من المندرة عملية هندسية صعبة .

- هو فيه حاجة هندسية تصعب على أبوك .. وهي دي أول مرة عملها .. مش هو اللي بنى الدور الأول بعد بناء الثاني . والآخياله .؟  
كان خيال أبي في أمور البيت حاضرًا نشطًا .. عدل وغير فيه منذ كان بيتأعادًا جدرانه من الطوب النّي - جدرانه سميكه يتكون من نفس تلك (المندرة) ذات الشباكين وأمامها الحوش الممتد حتى الحائط البحري لغرفة الفرن وغرفة الدواجن والأرانب . وبين الاثنين ذلك الكيف المخيف الذي كانت ستي لا تدخله إلا بعد قراءة آية الكرسي لطرد عفاريته ، وحجرة الخزین التي كانت منامة جدي قبل أن يذهب للحج ولا يعود .. وفي مواجهتها الحجرة الغامضة التي ظلت مستقرًا لجدي (الساحرة) التي حولت المرأة المدّاحة إلى بقرة والتي دفعني فضولي إلى التسلل في نص الليل ذات مرة لأكتشف سر (الخورستانة) وكنز الشمردل .. وقرن الحنtie !!

وعندما تزوج أبي بنى لنفسه شقة كاملة بالطوب الأحمر والجبس مكونة في البداية من حجرين وصاله ، ولها تلك البلكونة البحرية ل تستقبل بنت المعلم (يوسف النجار) أقصد يوسف الخميسي البندرية ، وهيا لها مع السطوح الممتد أمام الشقة سكناً يليق بها ويحقق شروط أبيها للرضا به كابن فلاحين رغم تعليمه وأفنديه !

وما أن ولد له الطفل الأول بعد البنت البكرية حتى شمر عن ساعديه . وكم كان يعشق أن يعمل بيديه قبل مخه حتى مع من يستجلبهم للبناء من المتخصصين واستطاع أن يدحض حجتهم ويقنعهم بإعادة صياغة الدور الأول (البيت القديم) بتكيحـل جدرانه إلى أبعد مدى بالأسمـنـت وتمـحـيرـه

للإرسـال من الشـبـاكـ الشـرـقـيـ لأنـهـ الأـقـرـبـ إـلـىـ نـصـفـ شـارـعـناـ حـيـثـ يـسـكـنـ (فتـحـيـ)ـ الـذـيـ يـسـهـمـ فـيـ شـحـنـ بـطـارـيـةـ بـحـمـارـهـ يـوـمـيـاـ ،ـ كـمـاـ أـنـ الشـبـاكـ يـوـاجـهـ تـقـرـيـبـاـ مـسـتـعـمـرـةـ (دارـ جـبـرـ)ـ أـكـثـرـ مـنـاطـقـ شـارـعـناـ اـزـدـحـامـاـ بـالـسـكـانـ وـبـالـأـطـفـالـ ،ـ الـذـيـنـ يـتـزـاحـمـونـ عـلـىـ مـصـطـبـتـهـمـ فـيـ شـغـفـ لـسـمـاعـ (بابـاـ شـارـوـ)ـ وـإـشـارـتـهـ لـلـذـيـذـةـ ..ـ وـإـلـىـ أـغـنـيـاتـ (صـفـصـفـ نـوـنـوـ قـدـ القـطـةـ مـاشـيـ يـتـدـقـلـجـ زـيـ الـبـطـةـ)ـ أـوـ (عـيـدـ مـيـلـادـ أـبـوـ فـصـادـةـ)ـ ،ـ وـعـوـفـ الـأـصـيلـ ،ـ وـعـلـيـ بـابـاـ وـالـأـرـبعـينـ حـرـامـيـ)ـ ..ـ وـحـتـةـ جـبـنـةـ قـدـيـمـةـ تـبـقـىـ الـأـكـلـةـ عـظـيمـةـ)ـ وـ(حـبـةـ فـولـ حرـاتـيـ تـبـقـىـ الـأـكـلـةـ ذـوـاتـيـ !!ـ)ـ .ـ

هـذـاـ غـيـرـ (عبدـ الـوهـابـ وـأمـ كـلـثـومـ)ـ ..ـ وـ(طلـبـ وـشـهـرـزادـ وـشـافـيـةـ أـحـمدـ وـالـشـيـخـ رـفـعـتـ وـالـفـشـنـيـ)ـ ..ـ يـاـاـاهـ عـالـمـ منـ الـخـيـالـ خـطـفـتـيـ دـوـائـرـ لـتـقـاطـعـ مـعـ عـالـمـ خـالـتـيـ (الـسـيـدـةـ أـمـ يـوسـفـ)ـ وـعـوـالـمـ كـتـابـ مـدـرـسـ الرـسـمـ الـعـقـرـيـ عـنـ تـلـكـ الـآـلـهـةـ الـتـيـ تـلـقـ الصـوـاعـقـ وـتـغـوصـ فـيـ الـبـحـارـ..ـ وـأـلـفـ لـيـلـةـ وـلـيـلـةـ ..ـ

وـكـنـتـ أـنـاـ ،ـ وـقـدـ صـارـ مـنـ مـهـمـاتـيـ الـأـسـاسـيـةـ صـيـانـةـ بـطـارـيـةـ وـالـتـحـكـمـ فـيـ موـاعـدـ الـإـرـسـالـ ،ـ أـشـعـرـ وـأـنـاـ فـيـ مـوـقـعـيـ الـمـتـمـيزـ فـيـ الشـبـاكـ الشـرـقـيـ بـجـوارـ ذـلـكـ الـبـابـ الـعـالـيـ الـجـمـيلـ كـأـنـيـ مـنـ يـصـنـعـ كـلـ هـذـهـ الـأـحـدـاثـ وـالـأـحـادـيثـ ،ـ وـأـعـطـانـيـ هـذـاـ هـالـةـ مـنـ التـمـيـزـ وـالـجـذـبـ بـالـضـبـطـ مـثـلـمـاـ عـدـتـ ذـاتـ يـوـمـ مـنـ الـمـنـصـورـةـ وـمـعـيـ أـوـلـ (كـرـةـ كـفـرـ)ـ تـلـمـسـ أـرـضـ شـارـعـناـ ..ـ تـزـاحـمـ أـقـدـامـ كـلـ أـلـاـدـ شـارـعـناـ وـتـوـابـعـهـ عـلـىـ ضـرـبـهـاـ فـيـ حـرـفـةـ وـغـشـوـمـيـ !ـ

ثـمـ اـنـتـشـرـتـ الرـادـيوـهـاتـ وـخـاصـةـ فـيـ المـقـاهـيـ وـفـيـ بـيـوتـ كـثـيرـةـ وـلـمـ تـعـدـ كـثـيرـاتـ مـنـ صـدـيقـاتـ أـمـيـ يـسـهـرـنـ فـيـ بـيـتـنـاـ لـسـمـاعـ اـجـدـيدـ .ـ صـارـتـ الـإـذـاعـةـ بـعـدـ (يـاـ مـجـاهـدـ فـيـ سـبـيلـ اللـهـ)ـ ..ـ مـشـاعـاـ فـيـ مـعـظـمـ الـبـيـوتـ أـوـ الـدـكـاكـينـ ..ـ

## ولا تبع أهواهم ..

○ نصحي (إرنست همنجواي) وهو كاتب كبير جداً من تعرفت على كتاباتهم في صبای المبكر ، أن أتوقف عن التفكير فيما أكتب .. حتى لا أفقد حميمية الشيء الذي أكتب عنه .. قال إن لم تفعل فتحتماً لن تستطيع الاستمرار أو استئناف الكتابة في اليوم التالي .. ولكنني لم أتعلم ذلك منه أبداً .. رغم تحذيره لي لأنّي أفكّر فيما أكتب عنه ، ابتداءً من اللحظة التي أتوقف فيها عن الكتابة إلى وقت استئنافها في اليوم التالي .. مؤكداً أن هذه هي الطريقة الوحيدة لإتاحة الفرصة لكي يشتغل عليه شعوري الداخلي .. بينما أستطيع أنا أن أستأنف حياتي وأستمتع في حرية بالحياة حولي .. وأراقب الناس والدنيا وأعود عندئذ لما توقفت



من الداخل والخارج ليتحمل البناء فوقه وليتمكنه من استقبال نظم المياه الحديثة .. حتى أنه أعاد صياغة الكنيف المربع (الكرسي) .. وصارت المندرة كالعروسة بعد أن دهنت محارتها بالزيت . وكان هذا جديداً على (ميتسيل) .. وزين السقف بوردة ضخمة من الجبس المصوب تتدلى من وسطه تماماً - وسط المندرة - تلك اللمة ذات الشريط الأسطواني والزجاجة الطويلة ذات الكرش .. التي تهبط بسلسلة حديدية دقيقة لتعمر بالجاذب وتُغسل زجاجتها ثم ترفع مرة أخرى مضيئة مبهراً تجعل من ليل المندرة نهاراً ساطعاً يستقبل (بابا عبد الباقي) فيها أصدقاؤه من المدرسین والموظفين والأعيان في مكان لائق لا يوجد مثله إلا في قليل من بيوت القرية كلها ..

وبعد وفاة جدتي الساحرة صاحبة الخورستانة وقرن الحنتيت واستكمال صياغة الدور الأول كله بنفس الطرق الهندسية التقليدية والمعقدة التي دعم خلالها السقف الشاسع بدعائم من الخشب الفلاري (كان يطلق على بعضها (ضرط) لأنه سميك وغليظ ونادر !).

ولم يكف أبي عن التغيير والتعديل في البيت . كانت الأفكار تفاجئه فيعيد التعديل والتغيير . ولما انتزع جزء من المندرة ليخلّي مساحة للسلم النازل إلى المدخل الشرقي الخاص بالأدوار العليا ببناء جدار قال أنه سيساهم في تحمل ما سيجد فوقه من حمول . لم تعد تلك اللمة القمرية تتوسط المندرة ، بل أزيحت إلى الطرف الشرقي ولكن أحداً لم يلاحظ ذلك ولم يؤثر هذا على مركزها كأهم مكان في البيت الذي صار إلى أدوار ثلاثة مع الأيام .

• • •

التي أفاجأ أنها تتلذّذ وتعقد مجرد أن يلامس سن القلم وجه الورق ..  
كل مرة يحدث هذا ويكرر بنفس الحدة ..

كل مرة أجده عاجزاً عن جملة الوصل التي عليها أن تصل ما أنتويه  
بما انتهيت منه .. فتتعاوني فكرة أني لست أصلاً بكاتب .. وينفسح مجال  
واسع لفكرة الشك في قيمة ما كتب وفي أهمية ما أكتب بعد كل ما كتب  
.. رغم امتلاء البئر حتى حافتها بآلاف فكرة وألف خاطرة - وكأنني أبدأ  
كل مرة من جديد .

ذلك أنتي كما حذرني من البداية السيد (إرنست) .. واصلت التفكير  
فيما أكتب بكل الطرق ومن كافة زوايا الرؤية . وكأنني أعاود اكتشاف  
الشيء الذي أكتب عنه فأجده عاجزاً عن الاستمرار حين تتحقق العودة ..  
مهما حاولت إقناع قلبي أن هذه الأمور ليست أكثر من وجهات نظر ..  
وأن لكل شيخ طريقة .. وعلىَّ أن أبحث عن طريقي لإقناع قلبي بالكف  
عن الخوف من ملامسة الورق واستئناف الكتابة .. وغالباً ما أفشل رغم  
امتلاء البئر للحفافي ..

وأخيراً .. أقنعت نفسي أو ظهرت بإقناعها أن هذه سمة من سمات  
طريقتي الخاصة في الكتابة وعلىَّ ألا أحارُّ فيها بل يجب التأكيد عليها  
والتعامل معها واكتشاف قوانينها .. كميزة تعيني دائماً إلى نقطة بداية  
جديدة .. وأن أبحث لنفسي عن حجج أخرى لتبرير متابعي مع استئناف  
الكتابه كل مرة .. مثل تلك الفكرة الطائشة التي تتملّكي إلى حد فظيع  
أني أهرب من الكتابة ومن إتمام روایاتي لقناعة خفية أو لخوف مقنع أني  
ساموت عند الانتهاء منها !  
أو تلك الفكرة البلياء التي تسسيطر على نفسي وتشوش تفكيري ..

عنه وأستانف الكتابة .. هكذا ببساطة؟ . ويبدو أن عدم قدرتي على  
الالتزام بنصيحة (همنجواي) تلك وراء ما يصيبني من عجز وإحباط كلما  
عدت لاستئناف الكتابة .. فأنا لم أتوقف عن الحديث أو التفكير فيما  
كتبت أبداً .. أعيد قراءته ومراجعته وأقترح سبلاً للتقدم به إلى الأمام ونقد  
الطريقة التي سارت بها طريقي في سرد الأحداث .. كنت أحاول جاهداً  
ألا أفكر فيما كتبت أو فيما كتبت عنه وألا أذكره إلا حين أستانف الكتابة،  
دون جدوى .. فكنت ألجأ للقراءة أو للاندماج في تفاصيل حياتي الملة  
كرجل صار فوق السبعين ويعيش وحده .. فأقوم بغسل المواتين المتراكمة  
في المطبخ أو أجمع غسيلاً لم يحن وقت غسله وأحضره في العسالة .. أو  
ألتّهم شيئاً حتى ولو كان من المحرمات .. ولكن هذا لم يمكنني أبداً من  
استئناف الكتابة بسهولة عند النقطة التي توقفت عندها ..

(همنجواي) يفعلها كما يقول ببساطة .. وكان هذا يزيد إحباطي  
ويؤكد لي أني لست بكاتب أصلاً .. خاصة وأنني أحاول أن أفعل  
( غالباً ) مثله .. حيث يؤكّد أنه تعلم ألا يتزحزح البئر - بئر كتابته لآخره  
.. وألا يتراكم قاعاً صفصفاً .. بل كان يتوقف دائماً وفي قعر البئر شيء  
ما يدعوه لاستكماله .. فعلاً كما أحارُّ أن أفعل . فلم يحدث أبداً أن  
كتبت في موضوع أو حادث .. أو فكرة واستنزفتها لآخر قطرة - يؤكّد  
(همنجواي) لي (أن هذا يسمح للبئر أن تمتلئ مرة أخرى من الينابيع التي  
ترفدها !)

وهذا بالتأكيد صحيح لأنَّه لا يمكن لشيء أن يشكّل في قدرات من  
كان في قامة (همنجواي) ! ولكن لماذا أعجز دائماً عن الاستمرار في  
بساطة في شد الخيط حين أعود إليه .. وتشدّني ألف مصيبة ومصيبة بعيداً  
عن طرفه الواضح الذي تركته .. ولم أكف عن التفكير في حل عقدة .

لکنه لا يناسبني . ولذا عفواً يا صديقي ..  
لقد ظلت لثلاثة أيام أحavel الهرب من حكاية المندرة التي لم يعد  
لها وجود في بيتنا رغم كل ما كان لها من حضور طوال سنوات طفولتي  
وصبائي حتى عودتي من السجن لأجد البيت الذي عشته وأفته صار  
بيتاً آخر .. أدهشني ضيقه وتقرمه مع أنهبني على نفس مساحة البيت  
القديم..

وفجأة اكتشفت أو تذكرت أن تلك (المندرة) التي تصدرت على  
الدوام واجهة بيت جدي القبلية وشغلت معظم مساحة البيت على (حارة  
الصياغ) .. لم تكن دائمًا مندرة .. أو لم تكن دائمًا تلك المندرة المدهونة  
بالزبرت والتي سمحت مساحتها البرحة أن يقتطع رباعها لتكون السلم ذو  
المدخل المنفصل للصعود إلى الدور الثاني والثالث دون المرور في صالة  
الدور الأول حيث منطقة نفوذ ستي (أم العز) .

اكتشفت بعد تفحص صفحة ظهرت فجأة من بين ركام أوراق  
الذاكرة الصفراء .. أنها لم تكن كذلك في سنوات الحرب وما قبلها  
.. واستطعت بعد طول تفكير وتذكر ومتابعة فيما كتبته مع الاعتذار  
لصديقي (همنجواي) .. أن أتذكر أنها لم تكن كما وصفت بل كانت  
مجرد (حوش) .. بل وكان يطلق عليها نفس الكلمة (الحوش) الذي كان  
يمتد ليشغل مساحتها ومساحة الدهلizi أو الحوش القديم المتند من الباب  
الأصلي للبيت حتى مجلس الوسط ، حيث كانت تقع ستي (أم العز) طول  
النهار ما بين غرفة (الخربستانة) و(الحضير) الذي يزخر بخيرات البيت  
والغيط ، كحارس فرعوني قديم .

في جدوى الكتابة أصلًا . وماذا ستضيف إلى ركام ما كتب عن نفس  
الموضوعات التي تأخذ بخناقي وتطالبني بالاستمرار في تجسيدها .. إن  
كنت قد فعلت أصلًا .. أو أن ما أفعله ينتمي بأية وشيعة لما كان يفعله  
(همنجواي) أو لما يفكر فيه وما ينصح به ..

قررت الاعتذار فوراً لصديقي (همنجواي) .. لقد حاولت أن أتبع  
نصحه وحاولت ألا أفكر فيما كتبت أو فيما سأكتب .. لكنه يطاردني  
(ما أكتب عنه) باستمرار ليل نهار . مرعوب دائمًا ألا يكون ما كتب هو  
بالضبط ما قصدت .. أنا أقلب صفحات ذاكرتي التي صارت كمخبط  
قديم تأثرت أوراقه حتى بليت والتتصقت وكادت تتهراً من طول الإهمال  
ومخالف الزمن .. لا تعطيني نفسها بسهولة .. وأجتهد في تفسير ما يتاح  
لي من شذرات وعبارات تكون أحياناً ذات مدلول .. أو تكون ملغزة أو  
غامضة .. وقد تقتصر على بعض حروف أو نثائر من مزق صور حالت  
ألوانها .. فكيف لا أفكر طول الوقت في دفعها إلى بؤرة الوضوح ..  
خاصة مع التزامي ألا أؤلف أحداثاً أو أحمن حوادث .. أو أبتكر أو أبتدع  
على طريقة المؤلفين .. أني أكتب عمما رأيت وعشت وأطعم أن أصنع ما  
يتاح لي صورة ما أقرب ما تكون إلى حقيقة ما حدث لي أو ما صنعته بيدي  
وقلبي ولساني !

كنت أحاوّل أن أقنع نفسي أن (همنجواي) لم يضع قواعد على  
المؤلفين الالتزام بها ، بل هو يقترح ما يراه مناسباً له ويظنه يناسب  
الآخرين ..

وكان هذا (الخوش) الذي اقتطعت منه مساحة دكان على يسار الداخل لها باب يشبه أبواب دكاكين السوق يليه ذلك الكنيف المفرع ثم الحضير ويقطع منه قبل (باب ومجلس الوسط) على اليمين حجرة ظلت مكاناً لخزين أدوات زراعية : أيدي فوس ونورج وكواريك وقفف وأيضاً تستخدم ل التربية الأرانب والدواجن طوال ما قبل الحرب حتى حولها أبي إلى بئر للسلم الجديد الذي ابتدعه للصعود إلى الدور الثاني حيث تزوج .. وكان الصعود إلى المقعدين يتم قبلها من عمق (الخوش) بالعبور أمام مجلس (الساحرة) عبر سلم خطر من خشب الشجر . فابتدع أبي هذا السلم الحجري ليتجنب زوجته المرور الحرج أمام مجلس أمه التي لا تكف عن التعليق على كل شاردة وواردة !

•••

## انظروا إلى ثمرة

○ كان الخوش في مواسم الحصاد المختلفة يتحول إلى ساحة لعب لأطفال العيلة كلهم سكان البيت وسكان بيوت (الخرابة) التي كانت في وجود جدى مازالت بيتنا واحداً وزربية واحدة أمام تلال بقايا المقابر المعروفة بخرابه (أبو خشبة) مباشرة حيث يعطيهم الجوار مساحة كافية لربط البهائم بعد العودة من الحقول .. ورعايتها أمام أم أعينهم ..... كان جدي بيست طبعاً في حجرة (الخورستانة) في بيت الحرارة الذي كانت غرف الدور الأول فيه سداح مداح لأعمامى . ولما فعلت عوامل الزمن والتراويخ فعلها ، قسم بيته (الخرابة) إلى عدة بيوت .

عمتي (فرحة) سكنت الجزء الاقصى قبل بيته



من الم Kirby  
في المثقب

ضجيجا . يتقافرون ويتشاجرون حول الكبار المشغولين بالمحصول ...  
شتوى كان أو صيفي ... فإذا ما جن الليل أحضروا (كلوبا) برتبة يحيل  
ليل الحرارة والحوش إلى نهار ، فلا ينقطع النشاط والعمل والصرخ ..  
والبكاء طبعا .

في موسم القطن تعلق الأكياس من مسامها . ويدخل فيها أطول  
الموجودين من أبناء أعمامي ، ليديك ويكبس القطن الذي يصب اليه وعليه.  
فيجعل الكيس الواحد يتسع لما كان يملاً شنفين أو ثلث من فصوص  
القطن . ويصبح صلباً مذكوكا .. فيهئ لنا نحن الصغار مسرحاً نتفاوض  
عليه أو نترافق ، دون أن ينهرنا أحد...

وفي موسم الغلة أو القمح تعبأ الزكايب التي كانت في العادة أقل  
طولاً من الأكياس ونسيجها أمن وأثقل ... لترص داخل الحوش كذلك  
في موسم الأرز .. لكن شكاير الأرز كانت للأطفال أقل حجماً ...  
ولكن ذلك لم يغير من علاقتنا بها .. وકأنهم يملأونها ويرصونها خصيصاً  
لكي نلعب ونتفاوض عليها في حرية ...

وحين يخف العمل في انتظار المرسل من الحقل .. أو بعد الانتهاء من  
الكبس والتبيئة ويحلو للكبار الجلوس المريح .. لتناول الطعام أو شرب  
المعسل ، هم ومن يساعدهم من الأقارب أو الجيران أو المزارعين ... ننتشر  
نحن الصغار حولهم وبينهم مثيرين أكبر قدر من الإزعاج .

وكان أمي في هذه المواسم تحاول جاهدة أن تذيب الجليد بينها وأبي  
وبين ستى (أم العز) ... فأدوار الشاي تتواتي من فوق للست وللعاملين  
، في أ��واب نظيفة مع الماء الساقع في القلل المريحة والممعطرة ، ووجبات  
الغذاء والعشاء في صوانى لامعة وأطباق مغسولة ... والكل يشيد بها

عمي (عبد الكريم) المجاور لدار (الأزرق) .. وعم (محمد) تزوج في الجزء  
الاقرب ، على ناصية شارع (ابوسيد) وفي الوسط تزوج عم (عوض)  
برأى أمه ومشورتها التي اختارت له زوجته الجميلة من عائلة (أبودهينة)  
الذين لعائلة (عوض) بهم نسب ولها بهم قرابة ...

-ناس متربين على ايدينا وعارفين اصلهم وفصلهم .  
كان هذا بعض ما وتر العلاقة بين أبي وأمه حين تزوج على غير  
رغبتها من غريبة .. ومن بلد ثانية :  
- هو عشان ما اتعلم يقوم لما يشطح ينطح ..؟!

المهم أن كل ذلك قديم ، قبل أن أوجد أنا أو أخي (آمال) .. وحتى  
قبل ان يموت جدي . الذي تهم جدتي والدى أنه هو الذي شجع أبوه  
على الحج مرة ثانية في ذلك العام النحس وكانت هي تعارض سفره ...  
لكن جدي أصر ، وأيده والدى أو نزل على رغبته الحادثة في زيارة النبي ...  
تلك الزيارة التي لم يعد منها .. وبدلًا من أن تعرف (أم العز) ان هذا قضاء  
الله وقدره ، أضافه الى سلسله ذنوب أبي . فاشتعلت بينهما النيران حتى  
وفاتها بأمر الله على ما اعتقد ، لا بسبب الحمام الساخن الذي فرضته  
عليها بنت عمتي (فريدة) ... التي نهرتني عندما فتحت الباب عليهمما  
وشاهدتها عارية والأسوار الذهبية لم تزل في ذراعها النحيل :  
(لأنني سأتسبب في موتها من البرد) ... كما حدث غالبا !

كان الحوش قبل هذه الأحداث المأساوية - (موت الجدة وموت الجد)  
وقبل إنتهاء الحرب العالمية وأثنائها وقبل أن يتحول إلى مندرة - في موسم  
الحصاد ساحة عيد يموج بالحركة ، التي يزيدها هرج العيال صبيان وبنات

(عبد الحليم) يقرأ ويكتب ، وكثيراً ما كانا يتناقشان في حدة أثناء هدوء الحركة والكف عن العمل . حول الحرب و مجريات الأمور كما يريانها .. كان (ماهر) معجباً بـ (روميل) ويرى أن الانجليز خدعوه ولم يواجهوه مواجهة الرجال .. بينما كان (عبد الرحمن) يتبنى وجهات نظر رواد دكان (محمود شطا) الوفديين ، ويوكل على هزيمة الامان المؤكدة على كل الجبهات خاصة في روسيا .

كان مهرجان كبس القطن هذا بالنسبة لي شيئاً غير عادي ... فوسط كل هذه الحركة والنشاط والهرج والمرج . كنت أحياناً أسرح في صمت يثير دهشة كل من يراني ، فيزجرني متسائلاً أو غاضبًا أو مناكفاً (فيه ايه ؟) ولم أكن أعرف فيه ايه ؟ ولكنني كنت أرى أشياء .. فالكلوب الساطع يلقى ضوءه على ساحة الحركة ، على الأطفال والأكياس المنفعلة بفضل حركة من بداخلها .. لكنه يصنع على الجدران ظلالاً عجيبة ، تتحول فيها الأشكال الطبيعية إلى تهاويل غير عادية ، تشدني مع حركة الكبس ولئن الغلقان والتحام الأجساد بالأكياس تضييف لها ظلال الأضواء المتبقية من لبات الصاروخ المدخنة . وحركة الدخول والخروج ... ناهيك عن الانكسارات يميناً وشمالاً مع تغير اتجاهات الجدران ، والاقتراب والابتعاد عن مصادر الضوء ...

طبعاً لم أكن أيامها أفهم ما أحاوِل تفسيره الأن ... ولكنني كنت أسير بهذا الخليط المدهش من حركه الظل ، وتحولاتها مع الضوء . أقارنها بما رأى العين من أشياء هي ذات نفسها الأشياء الحقيقة التي تخدم حركتها أمامي ، أكبر من الكيس ومن بداخله ... تغريني أن أصنع بكتفي أشكالاً تزيد الظلال المهولة تهويلاً .. مما يجعلني انفجر من الضحك

ويذوقها ، لكن ستي كانت تتلقى ذلك بلوية خفيفة من فمه الخالي من الإسنان معبرة عن استياء لا حل له . فرضها مستحيل .

- ياشيخه حرام عليكي هي مطلعه روحها لراحة الكل وانتي مش عاجبك؟ ... عايزها تعمل ايه اكتر من كده؟ .. عايزها تنزل تكبس القطن برجلها مع الرجال !

قال لها ماهر ابن عمي محمد وهو يتناول طبقاً به قطعتي كنافة ..

- خدي دوقي دول . أهي مرضيتش تنسف الكنافة قوي عشان تعجبك .. خدي هوّ احنا بنشف الكنافة إلا في رمضان .. وإن كان . تناولت منه الطبق .. والتهمت نصف القطعة السايحة في السمن والعسل ومضغتها كمن تختبرها ..

- هه ... إيه رأيك ؟ عمرك دقيقها دي قبل كده ؟

- طب روح ... والنبي (أنهام) مرات (عوض) بعت لي من كام يوم طبق عجوة بالسمن لا يعلا عليه .

فأخذ (ماهر) الطبق بسخرية من يدها وبه القطعة المتبقية ليلتهمها هو.. وهو يقول :

- اه انهام؟! طيب ! بس عجوة ياستي؟ عجوة ايه قدام الكنافه دي .. ياللا .. فعلًا خليكي في العجوة .

ومضى غاضباً يضرب كفاف بـ كفاف ويلوك الكنافة اللذيذة وهو يقول :

- ما هي دي مرات ابنك ودية مرات ابنك .. ياسبحان الله ... الحمد لله إن أمي لا بتجيب عجوة ولا بتعمل كنافة . كافية خيرها شرها ومش داخلة الحرب .

كان (ماهر) متعلماً ووسيماً وكان مثل (عبد الرحمن) ابن عمى

ليبدأ للمندرة تاريخ آخر ، كنت فيه الفتى الأول .. وكان له تأثير كبير على مجريات حياتي بعد الحرب ... (شاركتني أنت فيه - يا صديقي وتوأمِي - بشكل مباشر في أحيان قليلة . وبشكل غير مباشر في معظم الأحيان !) مما جعل للمندرة هذا الوجود الذي خلف غيابه لـ ألمًا كبيراً ... فهى لم تكن مجرد مكان بل كانت حياة كاملة ممتدة مليئة بالاحلام والرؤى والأحداث والشاعر ... لدرجه اننى بعد عودتى كرهت هذا البيت الذى رأيته قد تقزّم ... مع انه اقيم على نفس المساحة ولكن فرق كبير بين مكان - أي مكان - وبين مكان زاخر بكل هذه المشاعر والأحداث التي لا يمكن أن أكف عن التفكير فيها واستعادتها .

• • •

أحيانا .. أو يملأني رعب حقيقي ، حين ينفلت الظل من بين أصابعِي ليصبح عفاريت وجنيات تترافق على الجدران . ولا تلتفت نظر أحد غيري وكأنني وحدي المقصود بتجسدها .. مما كان يدخلني في فترات صمت تثير دهشة الجميع واستغرابهم (الواد ده مجنون؟!) أو كنت انفجر في الضحك بلا سبب .. مما كان يضعني في خانه (قلة الأدب) . في ذلك الحوش سمعت لأول مرة بأسماء مثل (هيروهيتوكو) و(تشرتسل) - و(ستالين) - و(تيتو) . وعلمت بالقنبلة الذرية التي أركعت اليابانيين ..

واهتز كياني يوم قالوا إن الإمبراطور - الذي يعتبره اليابانيون (ابن الشمس) وانه .. (إله يعبدونه مثل ربنا) اضطر مهزومًا أن يصبح بشراً ... وأن يتحدث إلى مواطنه وإلى العالم لأول مرة في التاريخ عن طريق ميكروفون الإذاعة ، ليعلن استسلام بلاده وهزيمتها .. لتنتهي الحرب .

وتبقى ستي في مكانها بعد وفاة جدي ... ويخلو الحوش من ليالي العمل الجماعي تلك التي جمعت الأخوة وأبنائهم وبناتهم على محصول واحد .. إذ توزعت أرض جدي بينهم ، وكل إلتهى في حاله .

واستمراراً في سياسة الانحياز التي إتبعتها ستي منذ زواج أبي على غير رغبتها .. كلفت عمي (عوض) بزراعة أرضها .. ولم يكن أبي يهتم بذلك ... فأرضه نفسها يزرعها له أولاد اخته (فرحة) (الصديق وتوفيق وحلمي) والتي كانت قد فقدت عائلتها في نفس العام الذي مات فيه جدي ...

لكن أبي شمر عن ساعديه بعد أن تحول الحوش إلى مندرة . أقام الجدار بعد الباب الكبير ليغلق الحوش ويلط أرضه والمساحة التي أمامه .

## ومتاع إلى حين

تاريجيه يعجز فهمك القاصر عن بلوغ حدودها او الالام باسرارها ودواجهها . إنتهى الصراع الطبقي ولم يعد مفكروا قبيلتك حريصين على ذكره منذ أعلن (السادات) إلغاءه واحتلال السلام الاجتماعي محله. واستبدلوا (خطوه للأمام وخطوتين للخلف ) بنهاية التاريخ و(ماركس ولينين) (يفوكوياما وهننجتون) .. مجرد انهيار حائط (برلين).!!

ضاع إبنك في زحام موسكو . يوم بيعت أصول الاتحاد السوفيتى العظيم (للأوليغار - شيئاً ... وكف (تاكي) عن مص أثداء البقرة الاشتراكية المخلوب ، وضاع في غيام الاممية الجديدة (تاركوفسكي وأوفتشنكو وبوندراتشكوك) ...

لم يعد هناك حجة لاخفاء حقيقة النقابات العمالية المصرية وجوهر الاتحاد العام للعمال في مصر باعتبارها أجهزة أمنية . وساحت الألوان والأقعة وتشققت الدهانات الفاقعة ، وسقطت عن الوجه القبيح لنظام يولييو . بالظبط كما أرادها (يليسين وجوربا تشوف والسادات وبارك وتاتشر) .

إنتقل عباقره التحليل الماركسي وحمامة المادة التاريخية وفقهاء فلسفة الصدفة الى غيام صنعته الليبرالية المتوجحة وأصبح النقد الثقافي إمتداداً طبيعياً لديهم عن (جرامشي) .

وانت ؟ ! اه تلوك ذكريات طفو لتلك وعدايات (سجنك) الانفرادي متعللاً بكتابه (هوامش على سيرتك الذاتية) متحججاً بأنك تقدم إجابة لسؤال أولادك - لماذا ؟ ... وهم لن يقرؤوها في الغالب . وستأخذهم نفس الظروف التي تعذبك الان بعيداً ... ليجدوا إجاباتهم بطريقتهم ... لأنهم حتى لو فهموا . فلن يغفروالك .. ولن تكسب سوى ان تكون

○ أصبح النوم عزيزاً اذا زارني خطبني حتى اظن انني لن اعود . وسرعان ما يلقى بي على شط ذى صخور مدبية ... تحرقنى الاسئلة وتحرقنى الاجابات غير المؤكدة .. هل تمادي ؟ ... لدرجه اننى ابحث عنمن ألقى عليه وزر ما كان لحد الأن . أم أن الوضاع التى تكشفت عنها الأحداث - كانت ستكون أرحم او أجمل او أكثر راحة .... لو تريشت قليلاً وأخذت نفسى فلم أبالغ ؟

كل الذين تصورت اننى اناضل من أجلهم وأدفع عمرى لجعل حياتهم أجمل وأفضل ، هزمنى وقهرتى ظروفهم أكثر !

لم تعد هناك طبقه عاملة . بيع القطاع العام ووهبت المصانع الكبرى هدايا وعطايا فى صفقة



الفلاحين فنون السمسرة والتجارة المحرمة .. ومسحت بأسستيكة الحاجة المتنامية كل ما بذكرة العواجيز العجزة من أمثال ومواويل . ودفت في حمى المسلسلات الحديثة جثث حواديت الشطار وليلى المنافق الدافئة وعطر الجدات .

وها أنت مازلت على أنانيك ... تظن أن التعلق بحال الوهم /  
الحلم القديم الداية مازال يجدى في ايقاظ المشاعر القديمة وأحياء جثة العمر الذى لن يجد (إن أراد) شبرا واحدا من الزراعية لم يلوث طهارته الأسمنت ، لتدفن فيه .

نظرت الغطاء وقامت من الفراش هاربا مختنق الأنفاس من البكاء  
ردا على نظرة الشاب الطيب المنكوش الشعر الذى همس دون صوت  
(صاحبك مات !!)

إرتقىت على جسد المخرج الشاب الممدد الذى كنت تحدثه من ثوان  
لتقنعه بضرورة الضغط على سائق الاوتوبوس ليوصل (جرروب التصوير)  
المneath ولو ألى العمار . فهو مجرى على ذلك بحكم التعاقد ... وليس من حقه أن يتركهم تائدين في مستنقعات (التلول) ... ويدهب ليقطط رزقه  
دون وجه حق ... فيسقطون من الاجهاد تحت ثقل أدوات التصوير وقطع  
الديكور ومعدات تجهيز المشاهد كل هذه المسافة .. وتحاول أن تعطيه حبة  
ملبس سكر ملونة كانت في جيبيك من تلك الحبات (الكرملة دروبس)  
التي كان الحاج (سيد الصياد) يتحفك وآخواتك بها صغاري .. كلما رأكم  
تقرقشون الغول الناشف ! .. وانت تتفاقرون فرحا بزيارتة على نفس هذه  
الزراعية الترابية التي التقيت عليها المخرج الشاب الواعد . الذي سيموت

نشرت غسيلك نظيفاً أو قذرًا أمام العيون . وهم لن يصدقو أنه لاذنب لك فيما حدث  
صاحت بك (فيروز) الصغيرة بعد أن عرضت أمامها كتاباً مصوراً  
عن القاهرة :

- معقول يا بابا ، دي القاهرة ؟! أمال ليه خليتوها وسخة للدرجة  
دي ؟!

كيف لكل هذا الذى تفاخر به سنوات عمرك الضائعة لم يشر شيئا ملمسا .. يستطيع أن تبرر بأن أنانيك - نعم أنانيك حيالهم - وانحائزك للأخرين ولما تسميه الوطن والقادحين وهل هما السبب الرئيسي فيما صارت عليه الحال - حالهم هم، الذى لم يشغل ألا جزءا صغيرا من اهتمامك بحال الدنيا الذى أصبح رغم كل شيء الى ما هو عليه !!.

صار النوم عزيزاً قلقا ... أحلامه كوابيس ... زوارك خلالها إما مفترسين أو متاعيس .. ومازلت مصرًا على إكمال ما بدأت رغم انعدام كل الدوافع ، التي كانت تفجر خيالك وتعينه على إعادة رسم صور الصبا ومعايشة جنون الشباب ..

(ميت سلسيل) لم تعد ميت سلسيلك ، كهرباء السد العالى أفسدت ليالي الخيال البكر ، وطاردت حوريات القمر ، وجنيات الظلمة الحانية فضحت سذاجة الرعشة المسروقة تحت (أيكة الياسمين) وبراءة سحر أشعار العشق الأولى ... في جرن (دار أحمد) و (سطوح دار عوض)  
ومقابر (أبي خشبة) وسيبل (سيدي مجاهد) .. طاردتها محلات الأنباري والفالديو وإغراءات بور سعيد الحرة التي أزالت بكاره العذاري . وعلمت

ليشتري الأصوات على وعد أن يسلم للصوت نصف الجنية الآخر بعد النجاح ... وراح الجنية المقسم على الاثنين . ولكن كله يهون أمام نجاح الوفد ... بعد ست سنين من الاضطهاد والطرد من الحكومة وفصل رجاله وإبطال افعاله ... كانت الفرحة غامرة وشاملة خرجت الناس للشوارع حتى النساء وبنات الأسر ... إما خرجن للمصاطب أو صعدن أعلى السطوح يزغرن ... بينما صمت الهزيمة يلف بيوت (واطى البلد) ... واستهوى الأمر الذين انبع صوتهم من الهاتف طوال الأسابيع الماضية (يحيى النحاس باشا) ... و(يحيى الوفد ولو فيها رفده) التي حورها (السيد الغرباوي) إلى يحيى الوفد وما فيهاش رفده !!

حتى العيال وصغار السن استهواهم اللعبه فمضى أعلاهم صوتا يقود أقرانه في مظاهرات فرعية صغيرة . وإن تفوقت مظاهرة الوفاد (خالد بن هانم) فنمط وكبرت لأنه كان يتذكر هتفات مضحكة مثل (روح لأمك يا بو حفني) و (الله حي الله حي غصب عنه الوفد جاي) ... وخدمنها كثيرون أنه يقصد الملك فلعلق (الشيخ موسى) قائلا :

– مش غصب عنه ياروح أمك ... ما باس إيده ، ،

لكن المشاحرات البسيطة لم تمنع ان تلتجم كل تلك المظاهرات في تجمع واحد قاده الهيئة الكبار الذين انضم اليهم (محمد السقا) بطولة الفارع ليقود الجميع نحو السرادق الذي أقيم أمام بيت (كامل اندى عبد ربه) لاستقبال النائب المنتصر هذا المساء ..

وأمام قهوه (أبو راشد) ، التي كانت المقر الرئيسي للمرشح الوفدي . والذي يدير حملة التأييد منها طلبة البلد الذين احتشدوا وكأنهم في اجازة الصيف ... ووقفت المظاهرة تحبي الطلبة الذين كان دورهم ملحوظا

الآن بين يديك ... رغم أنك كنت سعيدا حين التقى صدفة إذ كنت سترجوه أن يأخذ ابنك مساعدًا له في مرحلة قادمة .  
أجلت الحديث اليه في هذا الشأن الشخصى إلى وقت مناسب ... لأن الصدقة التي انعقدت بينكما بعد نقاش حاد حول فيلمه الجديد الذى شاهدته يتحدث عنه على القناه الاولى قبل أن تتم – اكتشفتما معًا منذ اللحظة الأولى وفي نفس الوقت – أنها صداقه قلبية رغم فارق السن الكبير ... لكنه وفجأه يسقط من الاجهاد منهكا . فتحاول إقناعه بوضع حبة الكراملة (الدروب) في فمه لتعطيه بعض الطاقة يستعيد بها قواه ... لكنه يتسم شاكرًا ويتلوكا . حتى يكتشف الشاب المنكوش الشعر الحقيقة ويعلن موته دون صوت . ويتجمع بقية (الجروب) الخزين معك حوله على نفس هذه الزراعية التي تمتذغرى من (ميت سلسيل) إلى مالا نهاية ... نفس الزراعية التي كنتم تحتشدون فوقها في عربات النقل لتأخذكم رجالا وصبية إلى قرية (برمبال القديمة) وانتم تهتفون بقوه وحماس (المصطفى النحاس) :

– يحيى الوفد ولو فيها رفده .

خلف (السيد الغرباوي) أو (محمد أبو زاكي) أو ضمن حشد الطلبة مع (حسين عبد ربه) أو (السيد راشد) وبحياة مصر والشعب المصرى وحياة (محمد سويلم) مرشح الوفد في انتخابات (٥٠) عن دائرة تكم الوفدية . التي هزم فيها بفضل قريتنا باكتساح مرشح الأقلية (أبو الحفني) الذى جرسه أهل البلد متظاهرين وهو يحملون نعشًا خاليا يدورون به في جنازة صاحبة هاتفين بنفس الحماس يلوحون بأنصار أوراق الجنية

– إطلع يابتا ع الجنية .... جنيهك عمل لك ايه ؟  
وكان (أبو الحفني) قد وزع تلك الجنيهات مقطوعة إلى نصفين

افندى) ليكونوا طلائع الاحتفال ... لكنهم بعد طول وقوف انتهزوا فرصة ذهابه ليقضى حاجته فجرروا بلا اتفاق وانطلقوا هاربين ... لم يبق منهم سوى البنت (أم ابراهيم) العرجا ... و(أم هاشم) أم خرشوم (ذلك بسبب التهاب مزمن في الأنف يجعل الأربنه والمنطقه الوسطى من الشفة العليا شديدة الاحمرار والرطوبة) زادهما الرعب من عقاب الشيخ . ولما عاد الشيخ (شحاته) بعد قضاء حاجته . وجد الزراعية خالية إلا منها وبعض الصبيان والرجال يضحكون . وهم يجibون ساخرين على سؤاله المدهش (الولاد والبنات راحوا فين ؟) - فلسعوك ياشيخ (محسن !!) . مقلدين لهجته في نطق اسم بلدته - (ميت محسن) !

كان الشيخ (شحاته) قصير القامة احد كتفيه أعلى من الآخر بشكل لافت ... عليهم يلوح رأس اكبر من أن يناسب المسافة بين كتفيه ... علاوة على حول ملحوظ يظهره جحود عينه اليسرى الواضح ... وكان أحد أربعة من المدرسين الذين نفوا من مركز (ميت غمر) إلى قريتنا منذ ما يقرب من العام إبان حملة (عبد الهادي) ضد (الإخوان) وكان من قريه (ميت محسن) بكسر الميم والسين والتي كان ينطقها بفخر يجعلها مثار سخرية وتقليل لا يرضيه .

كنت أظن أن اسمه الحقيقي (شحاته بقحة) لأنه جاء إلى قريتنا يحمل بقحة في ضعف حجمه ... فيها كل ما يملك من ملابس وأدوات وأثاث ... أحضره إلى منزلنا يوم وصوله الشيخ (علي سعود) الذي كان قد استقر في المدرسة المطلة على الشارع من بيتنا ... حتى يجد له مكانا يستقر فيه ... ولكنني لم أر محتويات البقحة إلا عندنا صحبته تاني يوم إلى البيت الذي استأجره له عم (أحمد شطا) فراش المدرسة بناء على توصية (الشيخ علي)

.. وبينما وصلت طلائع مظاهرة الكبار إلى السرادق ممتدة عبر الزراعية - نفس الزراعية بحوار جسر قطار وجه بحرى (الذى لملاحظ وجوده فى الحلم) الذى قضى المخرج السينمائى الشاب نحبه فيه . من المستشفى حتى مكتب (أبو مقبل) الذى كان مقراً لدعایة (أبو الحفنى) وإن أغلق أبوابه ، كانت مظاهرة الشباب الصغير والأطفال التي يقودها (الولد ابن هانم) قد التحقت بالظاهرة الكبيرة وقد ابتكر نكتة أضحك الجميع وأجبرت مظاهرة الكبار على التناهى عن الزراعية لتفسح الطريق لها نحو بيت (كامل افندى) ... لقد أحضر الأولاد جحشا صغيراً زينوه بأغصان الشجر وحملوه على خشبتين تحت بطنه وألبسوه طربوشًا وهم يزفونه بابتکار هتافات لم ترد بخلد أحد :

- كان (عبد الهادي) فين لما (الحفنى) وقع انكسر
- يحيى الوفد مع (النحاس) و(الحفنى) قلع اللباس

وهنا تدخل بعض العقلاء وحرروا الجحش من أيدي الصغار وفرقوهم ... منعاً لطولة اللسان .. وانطلق الجحش يحرى وهو يقمص ويرفص ووراءه العيال تشيعهم ضحكات الجميع وحاول ابن هانم (أن يتحجج ويتألمض) ... لكن (مصطفى الرفتاوى) طوق رقبته بذراعه ... وضربه قليلاً بحنية بصفته جاره الحميم وأدخله في زمرة الطلبة ... حيث انشغل معهم في كتابة لافتات الترحيب بالنائب الحبيب ....

صبيان وبنات المدرسه الالزامي الذين تعب في تدريسيهم على النشيد الملكي وعلى نشيد خاص بالمناسبه الشيخ (شحاته بقة) . تعوا من الغناء ومن الوقفة . وأظن أنهم جاعوا طبعاً ... فالشيخ قد أزمهم بالوقوف في صفين متقابلين منذ الصباح على حافتي الزراعية قبيل بيت (كامل

داخل البيت الذى لم يكن يعرف الزغاريد لسنين . ولعلت لتعيظ الذين نفوه من بلده بدل أن يعتقلوه خطورته على الأمان العام .

الشيخ (شحاته بقة) أو (البوجة) لم يكن سهلا فقد مضى وسط تجمعات أهل البلد الذين كانوا يتواجدون زرارات إلى المساحة أمام بيت (كامل أفندي) باحثاً عن الصبيان والبنات (المتمردين والمتمردات) حتى جمعهم مرة أخرى واحداً واحدة ، وأعادهم تحت تهديد عصاه (الرنزخت) إلى حيث كانوا على حافتي الزراعية . باكين شاكين متسلمين لكنهم سرعان ما كتموا النفس ، وانتظموا في التدريب مرة أخرى لينشدوا .. النشيد الملكي والنسيم الذي ألهه ولحنها خصيصاً لاستقبال (يسين باشا سراج الدين) الذي سيأتي على رأس المحفلين بنائب الوفد ومرشحه (محمد سويم) .

• • •

... وكان مقعداً من البوص المطلى بالطين فوق السطح ... في بيت تملكه أرملة قريبة له تتاجر في مستلزمات النساء ولها بنت وولد يعاني من الكساح ... اقنعوا بان تخلى له المقعد ، وتكتفى وأولادها بغرفة الفرن التي في الدور الأول ، خلف السلم الخشب العريض الذي يواجه الداخل مباشرة وكان للخمسين قرش التي سيدفعها فعل السحر ... فوافقت ان يشاركها واطفالها في الكنيف الكائن تحت السلم ... ولكن (الشيخ شحاته) الذي لا يملك من ظهر الدنيا سوى تلك (البوجة) التي ظنتها إسمه والتي بها القبطان البديل والغياريين .. وكمية من الكتب الكبيرة المغلفة أجبرني على احترامه ... !

كانت الكتب مصفوفة وملفوقة في قماش من تيل الزكايب ... تبين انه مكون من كيسين من أكياس القطن موصولين طوليا ... ما ان أخرج الكتب منه ونفضه ... حتى طلب مني ومن عم (أحمد شطا) أن ندبر له غمراين قش رز نضيف حشا بهما الكيس ... ثم خاطبه بمهارة فصار مرتبة رائعة استقرت على أرض المقعد ، بعد أن طلب منا أن نشعها دهساً وضرباً بجريدة نخل وجذناه على السطح . وكان يعرف أنه أدهشنا بابتخاره هذا فكان يدفعنا للعمل في مرح يضاعفه منظره المضحك . بطريقة تجعلنا نبتلع سخريتنا من إسمه وشكله ونتعاطف معه في حب ....

واعتقد أنها نفس الطريقة التي تعامل بها مع الأرملة صاحبة البيت فلم يلبث أن تزوجها أو هي تزوجته في حفل زفاف حضره كل تلاميذه وكل مدرسي القرية من أهلها والمغربين .... وكانت زفة (الشيخ بقة) والأرملة الملهمة زفة ظلت حديث القرية لشهور ، حيث كانت الطرق موحلة والسماء لا تكف عن المطر فأجبرت الجميع على زحام حميم

عائلات البلد ومن بلد النائب في ناقلتين محملتين بطهير وذبائح وزكائب أرز ولوبيه وسكر ودقيق وبصل وكافة مستلزمات صنوف الطعام وأنواع الحلوى التي يتحدث بذكرها الركبان . إذ ظلت كتيبة الطباخين والسفرجية المحترفين يقدمون مثل هذه المائدة وأكثر في سراية (أبو سليم) الثلاثية الأدوار في (برمبال القديمة) حيث كانت الموائد في أدوارها الثلاثية تستقبل أهل الدائرة كل يوم من بعد صلاة الظهر حتى حصة طويلة من الليل جماعات ووفود بعد جماعات ووفود .. وهماهم يختتمون ذلك بالليلة الكبيرة في احتفال (ميت سلسيل) الذي خطط له ألا يكون أقل دسامة أو روعة باعتباره ذروة العطاء وسدرة الأبهة ..

– النهارده عيد ياولاد تأكلوا بكم اللي ملوش ايدين يستلف  
– اللي نفسه في حاجه يطلبها من سيادة النائب نفسه .. أمآل ؟  
عبارات تشجيعية يطلقها السفرجية والمتطوعون من الجمهور المتحمس بتداولون المجاملات مع الطلبات . ويحملون الفارغ ويعودون بالملآن ، في فرح وينظفون مكان من يترك المائدة وهو شبعان تستقبل جائعاً غيره .. وكان الطعام يطلب المزيد من الأفواه والبطون .. كانت هناك منافسات . وحدثت مشادات متحمسه كما ظهر الكثير من فراغة العين لكن الموقف كان مسيطرًا عليه بقدسية المناسبة .. كان الغفر والعساكر متذمرين مع الفلاحين والمدرسين والطلبة والحرفيين والتجار وكلهم تحت تأثير الفرحة بفوز حزبهم يتسامرون ويتبادلون النكات وياكلون كما يقول المثل في (قطة محلولة) وكأنه آخر زادهم . وبعد انتهاء الطعام ورفع الفوارغ .. رفعت الموائد الخشبية وتشارك الجميع في رص الكراسي واقامت المنصة التي سيعلوها الضيوف

## فاستبقوا الخيرات ..

○ في الجرن أمام بيت (كامل أفندي) أقيمت خيمة كبيرة للإحتفال فرشت بالقش وقبل أن ترصف الكراسي – كانت هناك ثلات (سفرات) بطول الجرن .. تنتظر الطعام الذي كان يعد في الدوار المجاور .. طعام وعزومة لكل الناس .. توحى الروائح والدخان المتتصاعد من الدوار بما سيكون عليه الأمر الذي جعل (الشيخ شحاته) يشحن جوقة العيال المتعين ويعدهم بمكان مضمون على المائدة إن هم أحسنوا الأداء وشرفوه أمام (الباشا) والأكابر الضيوف).

وكان العيال قد لاحظوا كما لاحظنا طول الثلاث أيام السابقة مدى الإستعدادات للوليمة من حجم وتنوع الإمدادات التي جاءت من بيوت



والتقط الأطفال الكلمة التي أضحكـت الجميع ... فصار اسم الرجل  
بعدها (الشيخ شحاته ماسترو) فكانت أر حم كثيـراً من (بـقـجة) .  
قال كامل أفندي متـهـزاً فـرـصة الضـحـكـ الذي فـرـطـ الطـابـورـ قال :  
- البـاشـاـ مـبـسـوـطـ منـكـمـ يـاـوـلـادـ حـيـدـيـ لـكـلـ وـاحـدـ منـكـمـ (تـعـرـيفـ)  
بسـ يـاـلـاـ يـاـشـيـخـ شـحـاتـهـ خـدـهـمـ جـوـهـ وـغـدـيـهـمـ كـوـيـسـ دـانـتـ هـلـكـتـهـمـ منـ  
الـصـبـحـ .

وتهـلـلـ الـأـوـلـادـ وزـاطـواـ فـرـحـاـ وـهـمـ يـدـفـعـونـ بـالـشـيـخـ وـسـطـهـمـ وـهـمـ  
يـهـتـفـونـ (ماـسـتـرـوـ) (ماـسـتـرـوـ) غـارـقاـ فـيـ زـحـامـهـمـ الـذـىـ اـبـلـعـهـ إـلـأـعـمـةـ ،ـ الـتـىـ  
بدـتـ كـبـقـجةـ عـائـمـةـ فـوـقـ الـرـوـسـ الـهـائـجـةـ كـقـارـبـ صـغـيرـ مـنـفـعـلـ .

جـمـيـعـ مـنـ كـانـواـ عـلـىـ المـنـصـةـ خـطـبـواـ وـتـكـلـمـواـ وـصـاحـواـ وـزـعـقـواـ وـاحـدـ  
إـلـآـخـرـ .. كلـ الـذـينـ كـانـواـ عـلـىـ الـبـرـانـدـةـ وـكـلـ الضـيـوـفـ ... لـكـنـ (مـحـمـودـ  
شـطاـ) اـشـعـلـ حـمـاسـ الـجـمـيـعـ عـنـدـمـاـ تـحدـثـ عـنـ دـورـ الـطـلـبـةـ فـيـ الـإـنـتـخـابـاتـ  
وـكـيـفـ كـانـ النـادـيـ دـيـنـاـمـوـ الـمـعـرـكـةـ الـاـنـتـخـابـيـةـ وـدـعـاـ الـجـمـيـعـ لـتـبـرـعـ لـلـنـادـيـ  
.. وـطـالـبـ بـإـعادـةـ مـبـنـىـ جـمـعـيـةـ الـاـخـوـنـ الـمـسـلـمـيـنـ وـنـقـلـ النـادـيـ إـلـيـهـ فـقـدـ  
أـقـيمـ بـجـهـوـدـ وـتـبـرـعـاتـ أـهـلـ الـقـرـيـةـ تـطـوـعـاـ .ـ وـالـذـيـ إـسـتـوـلـىـ عـلـيـهـ الـعـمـدـةـ دـوـنـ  
وـجـهـ حـقـ لـيـجـعـلـهـ حـجـرـةـ لـتـلـيفـوـنـ وـمـقـرـاـ لـلـغـفـرـ .ـ وـاعـرـضـ الـعـمـدـهـ عـلـىـ  
ذـلـكـ وـكـادـتـ الـمـشـادـهـ تـنـقـلـ إـلـىـ شـجـارـ وـمـرـكـةـ ..ـ لـكـنـ النـائـبـ أـعـلـنـ أـنـهـ  
سيـتـبـرـعـ لـلـنـادـيـ بـخـمـسـيـنـ جـنـيـهـاـ كـامـلـهـ وـصـفـقـ الـخـاضـرـونـ وـهـتـفـواـ فـقـالـ :  
- خـلـونـاـ نـفـرـحـ الـنـهـارـدـهـ وـسـيـوـاـ كـلـ حـاجـهـ لـوقـتـهـاـ ..ـ فـالـطـلـبـةـ وـالـنـادـيـ  
سـاكـنـيـنـ جـوـهـ قـلـبـهـ

فـجـأـةـ ..ـ أـحـسـسـتـ بـغـصـهـ عـنـدـمـاـ لـاحـظـتـ أـنـ أـبـيـ لـيـسـ عـلـىـ المـنـصـةـ  
وـسـطـ كـلـ هـذـهـ الـعـمـ وـالـطـرـاـبـيـشـ ..ـ كـمـ أـنـهـ لـمـ يـخـطـبـ مـثـلـهـ وـأـحـسـسـتـ

(الأـكـابـرـ) الـذـينـ كـانـواـ قـدـ أـكـلـوـاـ فـيـ اـمـاـكـنـ آـخـرـ دـاخـلـ بـيـوـتـ عـيـلـةـ (عـبـدـ  
رـبـهـ) وـغـيرـهـاـ وـالـحـقـيـقـةـ أـنـهـمـ أـكـلـوـاـ مـنـ نـفـسـ الطـعـامـ الـذـىـ صـنـعـهـ نـفـسـ  
(الـطـابـخـيـنـ) وـبـنـفـسـ الـجـوـدـةـ وـالـتـنـوـعـ وـلـكـنـ بـطـقـوـسـ أـخـرـ تـلـيقـ بـيـدـلـاتـ  
وـبـطـرـاـبـيـشـ وـجـرـاـفـيـتـاـتـ وـعـمـ (الأـكـابـرـ) وـفـيـهـ (بـشـوـاتـ) وـ(بـكـوـاتـ)  
حـقـيـقـيـنـ وـ(أـفـنـدـيـةـ) وـ(ضـيـوـفـ رـسـمـيـةـ) .

بعد صلاة العشاء .. ....

كانـ هـنـاكـ كـلـامـ كـثـيرـ يـرـدـمـ الـبـحـرـ الصـغـيرـ وـالـقـدـيمـ وـ(تـرـعـةـ السـلـطـانـ)  
أـيـضـاـ وـيـفـيـضـ لـيـغـطـيـ مـسـاحـاتـ الـمـقـولـ الـمـجاـوـرـةـ .ـ كـانـ الـاـيـدـىـ تـلـهـبـ  
مـنـ التـصـفـيـقـ كـلـمـاـ ذـكـرـ إـسـمـ (الـنـحـاسـ باـشاـ) وـكـانـ الـاـرـضـ تـرـجـفـ .ـ  
وـتـكـلـمـ كـلـ الـذـينـ عـلـىـ الـمـنـصـةـ وـكـلـ الـذـينـ كـانـواـ ضـيـوـفـ (كـامـلـ أـفـنـدـيـ)  
يـوـمـ أـعـطـانـيـ (حـسـينـ) كـتـابـ (الـمـعـدـبـوـنـ فـيـ الـأـرـضـ) ..ـ وـأـيـضـاـ الضـيـوـفـ  
الـذـينـ لـمـ أـرـ مـعـظـمـهـمـ مـنـ قـبـلـ وـالـذـينـ أـعـتـرـضـ طـرـيـقـهـمـ عـلـىـ الـزـرـاعـيـةـ  
الـشـيـخـ (شـحـاتـهـ بـقـةـ) وـعـيـالـهـ وـأـجـبـهـمـ عـلـىـ سـمـاعـ أـغـانـيـهـ وـاـنـشـيـدـهـ تـرـحـيـبـاـ  
بـالـضـيـوـفـ وـخـاصـةـ (الـبـاشـاـ يـاـسـينـ) الـذـىـ كـانـ اـبـتـسـامـتـهـ تـكـادـ تـصلـ مـنـ  
الـمـسـتـشـفـىـ حـتـىـ سـرـايـاـ (كـامـلـ أـفـنـدـيـ) عـنـدـمـاـ ذـكـرـ الـأـوـلـادـ وـالـبـنـاتـ إـسـمـهـ فـيـ  
بـدـاـيـةـ غـنـائـهـمـ رـغـمـ أـنـهـمـ ذـكـرـوـهـ بـلـ أـلـقـابـ :ـ

ثـمـ تـبـعـهـاـ بـنـشـيـدـ /ـ اـسـلـمـيـ يـاـ مـصـرـ أـنـيـ فـداـ ..ـ لـيـ يـدـيـ إـنـ مـدـتـ الدـنـيـاـ  
يـداـ أـبـدـاـلـنـ تـسـتـكـيـنـيـ أـبـدـاـ ..ـ اـنـيـ اـرـجـوـ مـعـ الـيـوـمـ غـدـاـ ..

وـكـانـ اـبـتـسـامـةـ الـضـيـفـ الـكـبـيرـ تـجـعـلـ الـأـوـلـادـ يـصـرـخـونـ مـنـ أـعـمـاـقـ  
قـلـوبـهـ ..ـ وـلـكـنـ (الـشـيـخـ مـجـاهـدـ أـبـوـ دـسوـقـيـ) قـاطـعـهـمـ بـعـدـ النـشـيـدـ مـتـضـاحـكـاـ:

- أـيـوـهـ فـعـلـاـ (إـنـيـ اـرـجـوـ الـغـدـاـ ..ـ وـالـغـدـاـ جـاهـزـ) ..ـ وـالـلـهـ بـرـاوـةـ عـلـيـكـ  
يـاـشـيـخـ شـحـاتـهـ ..ـ دـانـتـ طـلـعـتـ مـاسـتـرـوـ جـامـدـ .

ساعتها و كانك تخرج لسانك لي ساخرا و تهمس في إذني تغيظنى :  
– عييك إنك مش عارف ان كل برغوت على قد دمه !

## في ستة أيام

○ الخمسون جنيها التي تبرع بها النائب الوفدى المنتصر والخمسون الأخرى التي تبرع بها عده (أفنديه) من أهل البلد والضيوف أثبتت ما تعنيه – حكمة – (كل برغوت على قد دمه) .. دفعت إلى عروق نادى (إتحاد الطلبة) نبضا جديدا فقد كانت تعنى ثروة حينها .. فأنعقدت بعد عده ايام جمعية عمومية للنادى حضرها كل الطلبة تقريبا وقد غمرتهم موجة الحماس التى إجتاحت جامعات مصر ومدارسها الثانوية إستشارا بحكومة (مصطفى النحاس) وأيضا بتولى (طه حسين) وزارة المعارف .. وبات ضروريا تغيير إسم النادى من (إتحاد الطلبة) إلى نادى (الاتحاد) خاصة وأن كثيرون من الذين تبرعوا ومعظمهم من الخريجين أو

أحس دائما أن طيفك يخالينى كلما تعثرت فى الكتابة .. وكلما ازداد شكى فى فائدة ما اكتب لأى إنسان أولى واعتنت ذلك لدرجة أنه عندما تلوح لي ولو فكره مهوشة غير واضحة المعالم للتقدم بالأحداث إلى الأمم تشدنى الذكريات بسببك إلى الخلف . وأنني أدور فى دائرة مغلقة وأن الخطيط الدرامي والتقدم فى بناء الرواية سيتعثر أو أن رغبتي فى الاستمرار أصحابها الوهن . ولكثره تكرار ذلك الموقف . تطور رد فعلى تجاهه إلى رغبة عارمة فى الاستسلام وتمزيق الورق . ثم أبدأ إلى إعادة القراءة للتأكد من أن ما كتب كان على الأقل له ما يبرره تعلقا بأمل الاستمرار .. أو فى النهاية بحثا عن طرائق جديدة تبلور فكرتى عن البحث عن الذات .. أو عن التحسن بالذكريات ضد كل ما يحيط بي من تفاهة وما ينقل روحي من عجز ..

وتعودت أن أستسلم للحالة ولا أصارعها .. حتى تمر بسلام لأننى غالبا ما أعود صاغرا الإكمال ما كتبت حتى وإن انبت كثيرا ما بين السطر الأخير الذى توقفت به والسطر الاول الذى سيتجسد كشارة بارقة أو رعدة كهربا يحدثها تدفق تيار الذكريات فى كابلات الذاكرة الهرمة ، أو ومضات الحلم الذى يقطعه دائما فزوعى من حقيقة أنه لم يعد هناك أمامى وقت ولم أعد أملك شرف الاختيار حتى ولو غلبنى فى معظم الأحيان نومى المعدب المتقطع .

• • •



ظهورها لتصنع سورا طبيعيا لا منفذ منه إليها ، إلا مدخلها من ناحية شارع السوق ، حيث ترك لها (الطنطاوية) مدخلًا عريضاً ذات سقف . أقيمت فوقه مقاعد (غرف علوية) تمثل امتداد بيت (محمد الطنطاوي) العالى ذو الأدوار الثلاثة وبين البيت الذى يقيم فيه إخوته مع عائلات أخرى فقيرة من أقاربهم . تراكم فى تركيبة معقدة من الحجرات والمرات والدهاليز المتداخلة . يعطى معظمها ظهره للساحة إلا فيما ندر ...

في وسط الساحة ينتصب (صارى مركب) هائل الارتفاع يقال أنه يشبه الصارى الذى قاتل به (سيدي أبو خشبة) الصليبيين حتى هزمهم .. وكان يقام لتخليده مولد سنوى فيما مضى من الأزمان . ثم أتت عليه وألقت به إلى النسيان هموم الحياة ، إلى جانب عجزه كولي من أولياء الله الصالحين ان يظهر معجزة ما أو يحقق أملاً في شفاء مريض ما او العثور على طفل تائه . حتى نسى الناس الولى الصالح مكتفين بأرتباط إسمه بأعلى تلة فى ركام مقابر الخراب .. واكتفوا باطلاق اسم (الصارى) على الساحة . لكنه ظل - كلما أكل السوس خشب القديم واقرب خطر سقوطه - كان الولى فيما يزعمون يقوم بزيارة بعض من كبراء العائلات من سلالات الأشراف . ويدركهم في المنام بضرورة إستبدال الصارى الآيل للسقوط بصارى آخر حديد بنفس مواصفاته القديمة ..  
وكان الجميع يسارعون إلى تحديد الصارى ، واقامة المولد خوفاً من إنقاومة أو زعله .

لكن السنوات كانت تراكم سحابات النسيان إلى أن تحدث زيارة لليلية أخرى . فيهreu (المختار) منهم إلى تحديد ذكرى البطل الذى هزم جيوش الصليبيين بشراع مركب . هذا ما أكدته لى (خلت مقبولة) تلك التى (لو تذكرون) وشت بي لدى أمى ، عن سرقتي الفول الحراثي أنا

الأفنديه اصحاب الوظائف أو المدرسين . وتمت إنتخبات جديدة فازت فيها بعض الشخصيات المهمة من خارج الطلبة .  
وابتدأ (حسين) فى إخراج أول مسرحية وهى (الضحية البريئة) وهي (ميлю - دراما) عاطفية عن فتاة عذراء تحب ابن عمها الطالب فى الحقوق . وتدهى ضحية مؤامرة دبرها عاشق شاب من الأعيان الفاسدين من فعلوا فى الدراسة .. ويقوم حبيبها حديث التخرج بمهمة الدفاع عن والدها القاتل ... بعد ثبوت عذرية الضحية التى قتلها الجهل والغل والدناءة ...

وقام (مأمون مجاهد) بدور أم القتيلة بينما قمت أنا بأداء صوت روحها الهائمة تحاول إثبات براءتها واقناع حبيبها الذى كان متربداً فى الدفاع عن والدها . ومن تحت خشبة المسرح طاف صوتى الصبي محلقاً يشير الشجن والحزن يستدر دموع النساء والرجال ... المزدحمين فى ساحة (الصارى) التى ضجّت بالبكاء وأيضاً بالزغاريد التي أطلقتها النساء المحتشدات فوق اسطح البيوت التي تحيط بالساحة . كان شيئاً جديداً ..  
وراءها، والمئات يفترشون الأرض أمام منصة أقيمت من أعماد الخشب المستعاره من شادر (السيد مطاوع) والمصوفة فوق البراميل الجاز الفارغة من عند (حسن موافي) ، يحيطها إطار من شقق الفراشة إستؤجرت من (الجمالية) .. وصنعت لها ستارة من ملاءات سراير بيضاء استعيرت من بيوت بعض الطلبة والأكابر والعرسان الجدد ..

الساحة تقع تقريباً فى منتصف علو البلد بالقرب من مطلع شارع السوق الذى يبدأ من جرن (دار أحمد) حتى ترعة (الجوابر) ، وكانت خلف بيت (الطنطاوي) . وكان بيته ذات مدخلين بباب يفتح على شارع السوق وآخر خلفى على الساحة . التي يعطيها ما يحيط بها من بيوت

ربه) إلى نجوم يعاملون بكل إحترام وتبجيل .. وصار كثير من الأولاد والبنات الذي هم في سن يطاردونني بكلمات المونولوج الذي ألقاها بانفعال من تحت خشبة المسرح نيابة عن روح الضحية البريئة .

(أنا بريئة يعادل (اسم ابن عمها وحببها المحامي) أو عى تصدق اللي بيقولوه عليه .. أنا ماحبيتش غيرك .. ظلموني بكدهم وجنوا على أبيها وأخواتي قبل ما يجنوا عليه .. أنا بريئة وطاهرة يعادل ..). تلك الكلمات التي أبكت الرجال قبل النساء .. و كنت في البداية أغضب وأزعجت في الذين يصرخون بها على ثم أصبحت أبتسם لها .. بل وأحزن إذا امتنعوا عن ملاحقتي بها .. بل وكنت أحياناً أحرضهم على استعادتها ..

العجب أن (حمادة المصري) أصبح يغامر كل شهر تقريباً فيصدع إلى قمة الصارى ليستبدل العلم الأخضر ذا النجوم الثلاثة بآخر جديد .. ولم يكن يقوم بهذه المخاطرة قبلها .. إلا من السنة للسنة قبيل رمضان ، ليعلق راية ملونة بأي لون كان .

أعطى نجاح البدعة المسرحية دفعة هائلة لنشاط النادى فى مختلف المجالات كما دفعت مكانته ومكانة أعضائه عند أهل القرية فأنضم إلى عضويته عدد الشخصيات المؤثرة كانت المائة جنيه الأولى من التبرعات قد مكنت النادى من شراء ملابس لفريق كورة القدم وصنعت منضده لنس الطاولة حسب الأصول . و اشتريت ملابس ومضارب للراكت ولكرة السلة .. وكنا قد طبعنا للمسرحية تذكرة باهظة الثمن اعتبرناها نوعاً من الضريبة التصاعدية - نرسل وفوداً بها إلى الآثرياء - طبعنا من فئة الخمسين قرشاً عدداً أكبر . أما باقى التذكرة فكانت بخمسة قروش . وطبعنا منها أكثر من مائتى تذكرة ولذلك كان الإيراد طيباً غطى تكاليف

وصديقى (فاروق النملة) يوم كذبتها فصدمت . واعتذررت بأنها لابد كانت تلبس عيونها القديمة !!

لكن أبي يؤكّد أنه لم يشهد منذ جاء إلى الدنيا أحداً يجدد هذا الصارى أو يقيم ذلك المولد .. واكمل هذا الرأى أن القرية في سعيها لتقييم مولد (سيدي مجاهد) بعد قرار الحكومة الملكية بإعادة إقامة المولد . لم يفكر أحد من أهلها في مولد (سيدي أبو خشبة) أو يذكر إسمه . وحتى عندما إجتمعت عائلات البلد وقسمت فيما بينها تلال (الخرابة) بما فيها تلة (أبو خشبة) نفسه . وقامت رجالاً ونساء وحميراً وجمالاً ، بنقل تراب المقابر القديمة (الكافر) الخصب (كل عائلة إلى أرضها) لتخليو تلك المساحة الشاسعة تمهدًا لبيعها وتخفيص ثمنها لبناء المدرسة الإبتدائية (إياها) والتي ضاق بتلاميذها بيت (الشيخ علي) ..

كل هذا هو الذي سمح لنا ولناديها أن ندخل بدعة المسرح إلى تلك الساحة ، خاصة وأن من يفترضون (إن كل بدعة ضلاله) كانوا في حالة ضعف شديد يصل إلى حد التلاشى أو الكمون ، بعد أن عصفت بهم وبـ جوالتهم سنوات إرهاب (عبد الهادي) . وإن لم يصب رذاؤها أحد من أعضائها في قريتنا ، اللهم إلا ما كان من نقل أبي ونفيه إلى (عزبة البرج) رغم أنه كان قد استقال من عضويتها علينا ..

رفعت (بدعة) المسرح التي أدخلتها الطلبة إلى ساحة الصارى مكانة الساحة واعادتها لذاكرة القرية بقوّة وصار أهل علو البلد يؤرخون لأحداث كثيرة من حوادث أيامهم . موقعها من قبل ومن بعد ليلة المسرحية . وتحول أبطال المسرحية (احمد صبرى بكر) و(الدسوقي النادى) و(أمون مجاهد) و(محمد عبد ربه) وطبعاً مخرجها ومؤلفها (حسين عبد

كانت حالة من الفرح . زاد معها عدد الصحف التى يحضرها قطار العاشرة وتضاعف .. وأصدر النادى مجلة حائط باسم (الفجر) كان يرسمها (مأمون مجاهد) ويحررها طلبة النادى من صار بعضهم فى الجامعة . وهرب (حسين عبد ربه) سراً ليتحقق بالغدائيين فى القنال ، على أن يلحق به (مصطفى الزفطاوى) و(محمود الفلسطينى) الذى قام بتدريب من يتوق للتطوع - بعد أن عاد من رحلته الطويلة - منذ اختطفته السلطة إبان الحرب الأولى ورأى فيها من العجائب ما تشيب له الصبابا - حرب وغربة وسجن في جزيرة الشيطان . و מגامرات في (بلاد الأمازون) مما أجبر خالى (الخميسى) أن يمتنع عن أغاظتى بعزف سيمفونية المأمة ويفكر عن وصف أهل (ميت سلسيل) بالغم الأبيض .

• • •

العرض وإقامة المسرح والإضاءة والصوت .. بل وتحقق منها فائض أضيف إلى ميزانية النادى ، مما مكنا من إستئجار شقة في الدور الأول لمسكن من ثلاثة أدوار ملكا لأحد أفراد أسرة (مطاوع) أمامه مساحة واسعة كانت تستوعب بعض إمتدادات ساحة العيد أيام دار (همام) .

لكن أهم التطورات التي حدثت بعد المسرحية كان انضمام عدد من جوالة الأخوان السابقين إلى عضوية النادى ومنهم (بكر ضيف) أحد قادة الطابور المذكور في أحداث مولد (سيدي مجاهد) ... وكان لاعب كرة ممتاز . سرعان ما صارت له جماهيرية شديدة إذ كان هدافا ساعد على تحقيق إنتصارات كبيرة لفريق النادى في الدوري ، الذى صار حدثا تاريخياً وهاما في حياة القرية وحياة القرى المجاورة من (البصراء) حتى (منية النصر) . وكانت الصدارة فيه دائمًا لصراع شديد ومنافسة قوية بين نادينا والنادى الذى أسسه التائب المنتصر في قريته (برمبال القديمة) .

وتواكب هذا الرخم الرياضي والفنى وتواكب مع ما احتاج البلاد كلها من مد شعبي أحدهته انتخابات الوفد وما قامت به حكومته من إعلان مجانية التعليم وأنه كالماء والهواء والإفراج عن المعتقلين السياسيين ، وتوج بإلغاء معاهدة ٣٦ وما صاحب ذلك من فورة حماس ضد الاحتلال .. واستعاد الوفد سمعته التي نال منها قبوله الوزارة على أسنة الحراب الإنجليزية . وما خلفه الكتاب الأسود ، وانشقاق (مكرم عبيد) منذ عدة سنوات .. وارتفع بناء المدرسة الجديدة وكان التلاميذ يخرجون من الفصول إلى حيث يجري البناء الجديد ، فى جرن كان بركة مجاورة للطريق الزراعي فى مواجهة ميدان المحطة .. يساعدون فى نقل الطوب أو مناولة المونة للبنائين ..

حين وضعت السماعة ووجدتني في حركة طفولية أفرك يدي فرحاً لأن البيع جاء في موعده تماماً ليساهم بشكل كبير في تكاليف علاج زوجتي وليحل بشكل ما مشكلة تكاليف طبع الجزء الأول من هذه المذكرات ، الذي أكتمل في رواية منذ أسابيع . توافت بعدها عن إضافة سطر واحد لبقية الأجزاء مما جعلني أظن أنني لن أكتب سطراً آخر ، عجزاً أو يأساً أو بسبب الإحساس القاتل بعدم جدوا الكتابة ، والشك الكبير في فائدتها لأحد وسط هذا المهرجان الدموي من القتل والذبح والاغتيال المتبادل ، المحتملة طقوسه في المنطقة والذي تحيل تفاصيل أحداثة اليومية عملية الكتابة مراً وعلقماً وشوّكاً في العروق .

أجد نفسي غاضباً طوال الوقت ، غاضباً على نفسي ومنها ، غاضباً على الناس ، وغاضباً من أصدقائي ، وأكثر غضاً من الوطن الذي أراه راضياً بالإهانة والمهانة ، عاجزاً عن رفض ما يحدث له ، متخططاً في فهمه قاصرًا عن الوعي به والاحتجاج عليه .

غضبي يمسك بخناقى ، يجبرنى كلما أمسكت بالقلم على كتابة ما يملأه على أشعاراً وأزجالاً مستفزة أشبه بصراخ الاحتجاج ، وسباب اللوعة . كصكات شماريخ من خشب الأثيل على كل الرؤوس ، بما فيها رأسى ورأس من خلفونى . وحدى أعنانى حمّى غضبى ، كأنى آكل لحمي الحي . وهو أمر يعجزني ويحول بيني وبين كتابة الفرح ، وها هو وقد غمرنى شعور جاد بالجريمة ، يدفعنى إلى الموافقة على بيع البيت الأحلام والطفولة والمرح .

أقنعت نفسي أن طباعة ذلك الجزء من السيرة – الرواية التي أنهيت منها – سوف يريحنى قليلاً وسينفتح رد الفعل الذى أتوقعه حيالها قليلاً

## وما تخفي صدورهم

فرعت حين ضبطت نفسى متلبساً (بالكذب الفنى) إذ غمرنى للحظة شعور سعيد من الراحة حين هاتقنى أخي الأصغر(دكتور هشام) يخبرنى أن هناك مشترى تقدم لشراء بيتنا (بيت جدى) بيت التاريخ والسيرة ، بسعر معقول !!  
قال ...  
– (عادل) موافق ، هو الذى أرسل إليه المشترى

ضبطتني فرحاً أعده أن أبدل جهدي لإقناع أخي나 الرابع (د.جمال) باليبيع وأن أسعى للحصول منه على توكيلاً ببيع نصيبه لإنقاذ الأمر بسرعة ولا ننتظر حضوره من (اليمن) ، هكذا بهذه البساطة .  
كأننى أتخلص من ثوب قديم .



الغفران السادس والسماحة الريفية – كان يرمي عظامها الواهنة ، ويصلب عودها المتهاوى كى تمضى مستندة إلى عكاكيز من التعالى ، وعوائق المسافات الطويلة بين كل من الشرقية واليمن والساحل الشمالى والمنصورة ودمياط الجديدة وبين ميت سلسيل .

– أفرعتك الهوة التى وجدتها تفصل بينك وبين أخوتك وبين كل واحد منهم الآخر ، ظننت أن بيع البيت سوف يكون علاجاً لذلك !؟  
– اكتشفتها اليوم فقط يا فالح ، من دقيقة كنت تقول أنك كنت تراقب تطورها وإيقاعها البطئ !  
– كيف فجأه إذا حدث الاكتشاف الرهيب ؟ (هشام) يلاحقك للحصول على التوكيل !؟ وجدت نفسك تسأل في تشكيك – هو مستعجل بيء !؟

(جمال) بدّل وغيره عدة مرات ، وافق ثم اعترض وجاملك مظهراً بأنه يمكن أن يساهم في طبع الرواية ، ويظل البيت على حاله ، لكنك رفضت وضغطت في الاتجاه المعاكس مستخدماً (هشام) وحاجته الماسة للنقود ، لتعطية رغبتك أنت فى البيع إلى أن وافق وعمل التوكيل فعلاً. لكنه قبل أن يرسله لك أقترح أن يشتري البيت شراكة مع (هشام) و(هشام) رفض بدوره. وقال تعبيراً تعجبت له أن هذا لو حدث سيكون (جمال) أكثر منه قوة في هذه الشراكة . دهشت وصرخت غاضباً (هي حرب ؟) ده أكيد كلام حد تاني !! أستنكر (هشام) ذلك ثم عاد وأقترح أن يشتري هو البيت كله ، وبالسعر القديم الذى أشتري به نصيب البنات من قبل .

من غضبى وأعود متعافياً فرحاً لاستكمال الأجزاء الباقيه . ورحت أدور بها على كل فرص وإمكانيات النشر المتاحة ، فلم أصل إلا لفرصة طبعها على حسابى كالعادة رغم ما فى ذلك لأن – فى ظروف مرض زوجتي – من إرهاق على كل المستويات .

يبدو لي أن ذلك كان سبب فرحي ، فنصبى من ثمن بيع البيت سيحل جانباً كبيراً من المشكلة . ويخفف من أزمتى المالية ، من ثم أعود إلى استكمال الأجزاء الأخرى من هذه (السيرة) التى اعتبرها مشروع حياتى الأخير . وجواهرة التاج ودرة الإنتاج الأدبى فى آخر مشوارى الطويل المتخم بالعذابات والإحباطات منذ أطاحت بي حرفه الأدب الذى هوّته التي لا قاع لها .

ارتخت لهذا التفسير لكننى ما أن شرعت في جهود الاتصال بأخي (جمال) ، اطلب منه توكيلاً لإجراء البيع على وجه السرعة ، حتى وجدتني فى دوامة من أفعال وردود أفعال المواقف الصغيرة التى رسّمت صورة شديدة التعبير عما وصل إليه حالى وحال الدنيا والعلاقات الإنسانية من تدهور مثير للإحباط والغضب أكثر .

وتتأكدت أن طبع الرواية – لو حدث – لن يجدي في بعث أي درجة من الفرحة تكون كافية لتعيدنى إلى الكتابة مرة أخرى .  
اكتشفت أن علاقاتنا – إخوتي وأنا – وكانت أرصد تحولاتها لسنوات ، خلال عديد من الحوادث الصغيرة والمواقف المتناقضة، والخلافات التافهة وكانت أعترها عادية مثل غيرها تحدث بين غيرنا من الأخوة والأصدقاء .

اكتشفت أنها تتدحر وتتفكك بايقاع مطرد هابط باستمرار ، وإن كان قليل من التظاهر المتبادل وبعض التجاوز غير المقصود ، وكثير من

حضرية ، وهذا حقهم . والبيت أصبح عبئا عليه دوننا فقد كان مضطراً أن يعود للبلد كل مدة ، يراجع المотор ويتبع مشاكل الأرض . وازداد عبء البيت مع الأيام ، فالسقف بدأ ينهار وأصبح البيت فيه خطاً أو مثيراً للخوف خاصة لدى البناء ، وزاد من عبئه مشاكل زوجته وبناته مع الجiran وأبنائهم بعد الهجرة إلى المدينة وممارسة الحياة الحضرية . إذ تغيروا وصاروا ينفرون من اللعب معهم والاختلاط بهم ، وأثار ذلك حفيظة بعضهم وبعضهم ، وطفحت بينهم الذكريات القديمة غير المرحية والإحن الموروثة من أيام الآباء ، حركتها مشاعر الغيرة الطبيعية مختلطة بأوهام الصعود الاجتماعي .

قلت له : الحقيقة مش فاهم سر عودتك للتمسك ببيت سلسل ، كنت أتصور أنك أول واحد يفرح . خاصة وانت ادرى الناس بحال البيت وإحتمالات صموده ، ارتبك ، وزاد ارتباكه حين طلبت منه بحزم ان يوقف إجراءات البيع ، ويتحجج للمشتري بعدم الحصول على التوكيل من (د. جمال) والانتظار حتى يأتي في الأجازة .

صرخ متحجاً لوهلة ، ثم تردد وتراجع قائلاً ، الناس ها تأكل وشه . وأنه لا يضمن (جمال) لأنه سيرجع في كلامه كالعادة ، ثم دخل في محاولة لإغرائي بالسعر الذي يعرضه المشتري . وألمح أنه لن يوافق على البيع لأن من كان بأقل من ذلك .

أحسست أن هناك أمر ما أخفاه عنى فسألته في حزم :

– أنت أخذت فلوس من المشتري ده ؟

تردد ثم تلجلج قائلاً :

– أصل ...

و هنا انفجر غضبي . لأنني لم اتصور أنه قرر ونفذ بالفعل ، ثم

الفكرة بالتأكيد ليست فكرته – فهو لا يتقن اللوع – على رأي إحدى أخواتك ، لكن (جمال) رفض .  
عاد (جمال) وكلمني من اليمن طالباً شراء البيت كله . مما حيرني وأغضبني حين قال (أنه أولى على كل حال من الغريب) ، ثم عاد وطلب أن نتهاون في السعر بعض الشيء ، طالباً أن يدفع شيئاً مقدماً ، وأن يؤجل الباقى إلى يوليو القادم ، وطبعاً كان لابد أن يشور (هشام) ويطالب هو الآخر بكل فلوسه مرة واحدة . وترك الجميع غارقاً في محاولات تبيان الدوافع وراء كل هذه الانقلابات ، خاصة عندما عاد(هشام) يقول – طب ما اشتري أنا بالتسهيلات دي !  
فكرة أخرى غريبة عليه وعلى طبيعته المسالمه .. وهمس البعض (يشتريه بالرخيص وتنانى يوم يبيعه بالسعر المعروض) . حاولت استبعاد كل هذه الشكوك والسفاسف ونفيها عنه .

ولما سألت (هشام) وحاليته كى يرضى بشراء (جمال) للبيت والانتظار عليه والتساهيل معه ، تشكك من ناحيته فى موقفى وحاصرنى وجادلنى كأنه يبحث عن (مصلحة لي فى الأمر) . وأغضبني هذا جداً حتى قلت له أنتى سوف أكون آخر واحد يطلب نصبيه ، بعد أن يسدد (جمال) للجميع ، لم يقنعه هذا . عاتبه في رفق مذكرة إيه أنا كنت دائماً أقف في صفه و كنت منذ البداية الذى نصحه بعدم شراء أنصبة البناء ، فقد كان مستقراً وكان يسكن البيت فعلاً ، ووعدته ساعتها بان أضمن له بآلا يطالب أحد بإخراجه وأن يعتبر البيت بيته لكنه أصر على الشراء !  
أيامها كان يتبع مشاكل الأرض مقيناً به ، لكن الظروف تغيرت . فقد قرر الهجرة إلى دمياط الجديدة ، تنفيذاً لرغبة زوجته وبناته في حياة

انتهت المكالمة لكن دهشتي لم تنته ، وجدت نفسي وجهاً لوجه أمام الحقيقة العارية التي كدرتني وأشعلت نيران غضبي من نفسي ، من الطريقة التي ييدو معها تصاريـي كأنـي أشوش على ما تجسـد أمـامـي في مرآة فاضحة ، صورة لي ، ما أن دقـتـ فيها حتى انـكـرـتها . أفرـعـتـي صـورـةـ ذلكـ الذـيـ يـيدـوـ طـيـباـ أمـامـيـ مـتـظـاهـراـ بالـحـكـمـةـ وـالـفـهـمـ ، مـتـسلـلـاـ بـالـسـماـحةـ الـرـيفـيـةـ وـبـالـإـشـارـ وـالـحـبـ ، ليـتـمـكـنـ طـوـالـ الـوقـتـ مـنـ إـخـفـاءـ كـلـ هـذـاـ الـقـدـرـ منـ الإـثـرـةـ ، وـالـأـنـانـيـةـ وـقـلـةـ الـوعـىـ بلـ ...ـ وـالـكـذـبـ .

– لم تعد روحـيـ تحـتمـلـ هـذـاـ الـقـدـرـ مـنـ الـكـذـبـ الـفـنـيـ ..ـ فـكـيفـ أـعـاـوـدـ وـأـوـاصـلـ الـكـتـابـةـ؟ـ صـحـيـحـ أـمـأـحـمـلـهـ مـنـ عـاطـفـةـ وـذـكـرـيـاتـ لـمـ تـكـنـ تـعـلـقـ بـالـبـيـتـ الـذـيـ تـنـحـدـثـ عـنـ بـيـعـهـ فـلـسـتـ أـحـمـلـ لـهـ الـكـثـيرـ مـنـ الـعـواـطـفـ ..ـ بـلـ وـكـثـيرـاـ مـاـ أـنـسـىـ صـورـتـةـ وـاجـدـنـىـ دـائـمـاـ أـتـحدـثـ عـنـ ذـلـكـ الـبـيـتـ الـقـدـيمـ ..ـ الـذـيـ ضـاعـ مـنـ كـأـحـدـ التـنـائـجـ الـفـادـحةـ غـيـرـ الـمـاـشـرـةـ لـتـصـدـعـ الـحـلـفـ الـوـطـنـىـ فـيـ نـهاـيـةـ الـخـمـسـيـنـاتـ !!

• • •

تـلاـعـبـ بـىـ لـأـحـصـلـ عـلـىـ توـكـيلـ (ـجـمـالـ)ـ وـمـوـافـقـتـهـ عـلـىـ الـبـيـعـ .ـ وـلـمـ اـسـتـطـعـ فـيـ حـمـقـةـ غـضـبـيـ أـنـ أـنـطـقـ فـاغـلـقـتـ الـحـطـ ،ـ بـخـبـاـ أـنـ أـسـمـعـهـ مـالـاـ يـرـضـاهـ .ـ صـدـمـتـ بـالـفـعـلـ .

أـنـصـلـ (ـعـادـلـ)ـ بـعـدـ يـوـمـيـنـ وـبـطـرـيقـتـهـ الـتـىـ يـغـلـفـهـاـ بـالـكـثـيرـ مـنـ الـخـنـانـ وـالـوـدـاعـةـ سـأـلـيـ .

– لـمـاـ شـتـمـتـ (ـهـشـامـ)ـ وـهـوـ لـمـ يـقـصـدـ ..ـ قـاطـعـتـهـ بـحـدـهـ ..

– أـنـاـ مـاـ شـتـمـتـهـوـشـ .ـ أـنـاـ قـفـلـتـ السـكـةـ عـلـشـانـ مـاـ أـعـنـشـ اللـيـ جـابـوهـ ...ـ أـنـاـ عـلـىـ الـآـخـرـ مـشـ هـاـكـونـ لـعـبـةـ فـىـ إـيـدـ حـدـ مـهـمـاـ كـنـتـ أـحـبـهـ .ـ أـعـمـلـوـاـ إـلـىـ اـنـتـوـ عـاـوزـيـنـهـ ..ـ إـخـطـوـاـ دـمـاغـكـمـ فـىـ الـحـيـطـ مـعـ بـعـضـ أـنـاـ لـاـ عـنـدـيـ وـقـتـ وـلـاـ دـمـاغـ لـلـمـهـاـتـرـاتـ دـيـةـ ،ـ وـتـبـيـعـ الـبـيـتـ مـاـ تـبـعـهـوـشـ ،ـ تـحـرـقـوـهـ تـهـدوـهـ ،ـ لـوـ عـاـيـزـيـنـ مـنـيـ تـنـازـلـ عـنـ حـقـيـقـيـ فـيـهـ حـبـعـتـهـ لـكـمـ وـبـقـىـ يـاسـيـدـيـ بـجـمـلـةـ – زـيـهـ زـىـ شـقـةـ (ـالـشـنـاوـيـ)ـ !

لـمـ أـكـنـ أـرـيدـ بـجـمـلـتـيـ الـأـخـيـرـةـ هـذـهـ إـثـارـةـ مـوـاجـعـ قـدـيـمـةـ أوـ الضـغـطـ عـلـىـ جـرـحـ قـدـيـمـ ..ـ كـنـتـ قـدـ تـخـطـيـتـ أـثـارـ تـعـقـيـدـاتـهـ وـتـجـاهـلـتـهـ بـرـمـتـهـ وـبـكـلـ ماـ عـاصـرـهـ مـنـ تـبـاسـ أـحـزـنـيـ ،ـ وـمـاـ أـحـاطـ بـهـ مـنـ سـوءـ فـهـمـ وـنـوـاـيـاـ غـيـرـ طـيـةـ .ـ تـدارـكـتـ الـأـمـرـ وـاعـتـذرـتـ لـهـ بـسـرـعـةـ عـمـاـ قـلـتـهـ مـتـحـجـجـاـ بـمـدىـ غـضـبـيـ وـحـمـقـىـ الـلـذـينـ جـعـلـانـىـ غـيـرـ صـالـحـ لـلـمـنـاقـشـةـ .

وـعـلـىـ عـكـسـ مـاـ تـوـقـعـتـ ،ـ كـانـ رـدـ فـعـلـ (ـعـادـلـ)ـ بـاهـتاـ ،ـ إـذـ تـجـاهـلـ مـاـ فـيـ قـوـلـيـ مـنـ تـلـمـيـحـ ،ـ وـأـخـذـ يـهـوـنـ عـلـىـ الـأـمـرـ وـيـعـتـذرـ لـيـ عـنـ (ـهـشـامـ)ـ ،ـ وـيـعـهـدـ بـالـحـدـيـثـ مـعـ لـإـقـنـاعـهـ بـأـحـقـيـةـ (ـجـمـالـ)ـ فـيـ شـرـاءـ الـبـيـتـ .

وهشاشة الطقم الذي انكسر عدة مرات في فمك . وما بالك وحكاية (البروستاتا) وسلس البول ؟ مواعيل مقدرة كلها تؤكد أن العد التنازلي قد بدأ ولا مفر ..

(نجلاء) بعد سبع سنوات من عملية الصدر الشمالي دخلت في مرحلة عودة الإصابة وإنشار المرض في الحاجز الحاجز ومسلسل عمليات البذل والحقن الكيماوي . إلى أن رقدت في المعهد أخيراً تقاوم إنزال الستار في شجاعة تحسد عليها !!

هكذا الدنيا .. فماذا ستنتظرك لتعاود الكتابة .. بينما تلا حقك الأحداث وتضطرك لنفريغ طاقتك الشعرية في تعليقات ساخرة تهاجمك ولا ترحمك ولا تسمح لك بتوفير طاقتك للعودة إلى هوامش السيرة .. تتخاذل قرارات . وسرعان ما تناقضها وتصمم بإصرار وشدة . ثم تتراخي .. ولا حل إلا أن تستسلم فعليك أن تمارس أمور الحياة المادية بنفسك ..

ذات يوم لم تذهب للجمعية العمومية لاتحاد الكتاب وفضلت أن تتحامل لتقوم بمسح المطبخ والحمام بعد أن سادت القذارة والبعق أرضية السيراميك .. وغسلت الملابس والمواعين فإذا بك تكتب تعليقين في (رباعتين) واحدة عن (ولي عهد مصر) وواحدة أخرى عن (الشعراء المخرين) .. متحدياً فكرة إلا جدوى من الكتابة ، وألا أحد يقرأ .. ولا أحد يسمع وأنك لن تطولها .. ولن يمكنك هذا النظام وهذه السلطة من حلمك بمشاهدة نهاية هذا الهول الذي يأخذ بخناق مصر ويعصر قلبك ويحرسرك على كل ما مضى وكأنه كان الفردوس !

هل هي الإشارات التي ذكر (اسماعيل) أنها تأتي إلى الإنسان كى تعلنه بالنهاية قبل موعدها بأربعين يوماً؟ .. تلح على كل ليلة تقريباً .. أرى

## حتى طال عليهم العمر

○ هل أنت تقترب من المشهد الأخير !؟  
ياللهول كل من تذكر هذا أمامه يزعط فيك  
ويقول اللهم أخزيك يا شيطان .؟  
ليه ياجدعان .. الموت علينا حق ، وكل حى لموت مهما  
طال الوقت .. وماتصدقوش إن أنا باقول له اهلا  
وسهلا .. على الأقل أنا لسه ماخلصتش (مذكراتي)  
أو هوامش (ذكرياتي) وسيرتي (العطرة) !!

تقوم من السرير حذرا من أى حركة عنيفة  
لرجلك الشمال .. يا يسارى !! وأنت لا تنام إلا  
وقربة الماء الساخنة تحت ركبتك .. وتمنى الانتهاء  
من موال (اليوريك أسيد) والخشونة لكي تبدأ  
مشوار عينيك والمية البيضا التى تجاهدك بعد عدة  
صفحات ... وتقاوم قلقك على تأكل أسنانك



لا يفوّت فرصة لانتهاء حرمة . أو تجاوز حد أو لأشباع طاقة النهم والاستحواز التي تدور عند أمثاله ، من يعتبرون أنفسهم بكل جدية أصحاب هذا البلد ومبوعي العناية الإلهية لغزو نساء وبنات وخيرات الأرض مثله مثل معظم كوادر (نظام بوليو) الذين تربوا وترعرعوا في ظل سلطة (هيئة التحرير) و(الاتحاد القومي) و(الاتحاد الإشتراكي) و(التنظيم الطليعي) و(أجهزة الأمن العديدة) حتى آمنوا بكل ثقة أنهم أصحاب وحكام هذا البلد المiskin . لا يكفي لحظة عن التفاخر بسرد مغامراته التي لا يتسع لإنجازها عمر عشرة أشخاص سواء من ناحية استيعاب ز منها .. أو لاحتمال تبعاتها وأن كنت أسرخ من نفسي لأنني أصدقه .

كان تكرار الحلم وإلحاحه على كلما غفوت ، يملأ أنفي برائحة الموت .. ويزيد من إحساسى بعدم جدوا إكمال الرواية التي تتتابع كفيلم فى رأسى أحاداث فصولها صورا وجمل حوار متھالكة . ولا أستطيع نقلها إلى الورق محبطا مكتئبا تعاودنى فكرة أن لا جدواى لما يكتب أصلا فلا أحد سيقرأ ، ولا أحد سيهتم .

ها هو العالم يمضي مندفعا يلهث نحو مصير لم نتوقعه في صيانا وفي طريق لم تصوره قناعتنا القديمة ، ولم تخيله أحلامنا المجهضة .. يعجز القلم وينتشل بعد أن قُصف سنه متھرا ، ولا يجرؤ على ملامسة الورق . تموت الكلمات والحمل الملحة قبل أن تتجسد حية ساخرة من (إسماعيل) وتخاريف توقعاته .. ومنى .

المؤكد أن للموت إشارات أخرى .. أحسستها اليوم وأنا في طريقى لمعرض الكتاب الذى لم يعودوا يدعونى إلى حفل إفتتاحه ، منذ تخطيط متتجاوزا (العرف والقواعد) لأتحدث بفجاجة إلى رئيس الجمهورية عن

(حسين عبد ربه) وأرى (أبي) أركب معهما قطار الدلتا وأحياناً أقوده بنفسي عبر الجسر العابر أمام بيت خالى (السيدة) فى (الكافر الجديد) لكنه يبدو فى مدينة حديثة . وإن كنت شاهدت القهوة التى تبدو مدفونة فى ركام من الرطوبة والكلسل . وأرى شجرة التوت ، والبربخ الأسمى العتيق ، تندفع من تحته مياه الترعة نحو ظلال الغاب الذى يدو كثيفا على غير الحقيقة .

أرى ( رسميه) فوق حصيرتها تتبع خلق الله عبر افتتاح زاوية الباب القديم على رحابة الزراعية والجسر وجرن (الهوارية) الخالي المحاط بالسور المتهدم والقطار الذى لا أستطيع عذراته يكاد يطير نحو الشرق هابطا منزلقا عبر قرى (الجمالية) و(البصراط) إلى البحيرة مباشرة يكاد يلمس سطح الماء .

وأبي يضحك وهو يوقع بالقلم الكوبيا على فخذى توقيعه المعد حتى يضمن ألا أنزل إلى البحر الصغير خشية الأصابة بالبلهارسيا .. وأرى (حسين) يعود إلى شقة (السكاكيني) مهزوما . ومياه المطر تغرقه ممسكا بياقة جاكته التي لم تلمسها المطرة . تعساً لأن (زينات) أخلفت موعدها معه عمدا لتغيظه ، فظل يدور حول بيتها فى (مصر الجديدة) تحت المطر دون أن تعطيه الفرصة ليراهـا.

أبدوا منتاشيا وانا أقبل البنت (مدينة) فى حماية ساتر طبيعى من ياسمين المستشفى الزفر . كلهم زوارى من الموتى فما بالي؟ هل أحاروـل اللھاق بهم وما بالهم يلحوـن علىـ؟ كل ليلة بشـكل جـديد فى أماكن عـديدة وطـرق مـختلفـة؟.. هل هو الموت الذى كـنتم به توـعدـون؟ هل هـى النـهاـيةـ التـىـ تـاتـيـکـمـ بـغـتـةـ وـاـنـتـمـ لـاـ تـشـعـرـونـ؟... يقولـهاـ (إـسمـاعـيلـ) بـإـيمـانـ شـدـيدـ مـرـعـبـ يـلـيقـ بـرـجـلـ (فـلـاتـيـ) أـصـلـيـ

بفعالية (ثورية) في هدمه الأول . كلما أحس أن هناك من يواصل البحث في دوافع مرتكبي الحرمة أو الأخذ بالأسباب ، التي تدينهم . عاتبت نفسي على تهورى وأرجعت تعب ساقى من المشى وبطء خطواتى إلى حالي النفسية التي أكتنأها إنزلاقى لهذا السلوك الهمجي . الذي لم يعد يليق ببني وإلى ذلك الشلل المرتكب الذي أصاب المدينة بالجنون لنقل موقف الاوتوبوس العام لمسافة نصف كيلو . وأستدعي نزول نصف مليون من جنود الأمن العام لتنظيم سير المواطنين فوق الأرصفة في المسارات الجديدة . ورفضت بشدة فكرة اعتبار ذلك أيضاً من الاشارات الإلهية . وأرجعتها لسياسة التحديث والتغيير التي كلف بها الرئيس المبارك حكومته القديمة في دورة برلمانية جديدة .

ألم أقل لكم ؟؟ ها أنذا قد نسيت (إسماعيل) في غمرة إسترالي وخروجي الدائم عن الموضوع الذي حذرتك منه قبيل شهور عديدة يوم بدأت كتابة روايتي .. وذلك الاسترال المعيب الذي يجعلنى لا أفرق بين الأحداث الهامة التي تدفع الدراما إلى الأمام أو التي تجعل الحكى مؤثراً ، وبين تلك الأحداث والتفاصيل غير الهامة غير الدرامية ، وذلك الحكى الثرثار الذى ينشغل بأمور عابرة لا قيمة لها .. تجعلنى أشك في جدوى وقيمة ما أكتب . خاصة عندما ذكر شخصية مثل (إسماعيل) التي عبرت بالصدفة البحثة أفق حياتى ، بل وأذكرها بإلحاح وبطريقة توحى بأن لها دور فاعل أو ذو قيمة في مجريات الأمور – باعتباره عالماً ببوطن الأمور فخوراً بكونه عميلاً قديماً أو عاماً في أعني جهاز أمني في البلد – ثم أنساها وكأنى – وهذا غير منطقي وغير صحيح – لا أهتم بها وينشلاتها ...

إنتخابات الجزائر التي أجهضها العسكر فيما بعد . وأظهرت بجاحتى وأنا أقدم له نفسى وسط القطيع متطاوساً بانى (شاعر يسارى) . اليوم أذهب إلى المعرض بالمواصلات العادلة لأنناك من صدور آخر كتبى . سرت عبر شوارع وميادين مدينة جنت لأن موقف السيارات العامة تقل من ميدان (رمسيس) إلى موقف (أحمد حلمي) على بعد أقل من كيلومتر . وكان هذا الأمر التافه أن يسفر عن كارثة .

فقد تكدس الناس على الأرصفة المحاصرة بجنود الأمن العام وارتباك السائقون وعجزوا عن تحديد مساراتهم بالضبط . جنت العربات وهى تدور حول نفسها وحول البيوت في مسارات جديدة مجھولة . تشير صرخات الهلع والغضب وتبعث على القرف والشك في حدود تكريم الله للإنسان الغشوم الظلوم الذى أصر على حمل الأمانه . وتعيد إلى ذهنى بإلحاح اصرار (إسماعيل) على إثبات إيمانه العميق بالإله المتocom الجبار الذى تسع رحمته خطايا العالمين . فيعمد إلى إرسال إشاراته بقرب زيارة (عزاليل) لقبضهم إليه قبل أربعين يوماً حتى يجدوا فرصة للتوبة . ويسعون للنجاة من غضبه وعداب سعيرة وناره الموقدة ، وهم غارقون في أثامهم اللذيدة ..

كدت أتعثر حين شعرت بتعب ساقى من المشى على غير العادة .. وبطريقة لم أحسها من قبل . ولم أجد كتابي في المعرض . تذكرت أننى بالأمس كدت قد تطاولت غاضباً على الناقد (إبراهيم فتحي) أحد الزعماء القدامى الهاشميين للحركة الشيوعية ، حين تطاول دون مبرر على قيمتى لمجرد أننى قاطعته في ندوة أدبية ، وهو يمارس هو اته الجديدة في تشويه قناعاتنا القديمة ويواصل تخريب واعادة هدم أنقاض المعبد الذى ساهم

ها هي نسبة الحموضة في جوفى ترتفع ، وحرقان عينى يبدأ فى إقناعي بإلقاء القلم لعدم جدوى الاستمرار فى كتابة قصة لم تعد تهم أحدا كما كنت اتخيل وانا ابرر إقدامى على ذلك منذ سنوات . مؤملا أن أنتهى منها قبل أن تبدأ إشارات النهاية تلاحقنى بإصرار وتحاصرنى بأفكار وتخاريف (إسماعيل) المزعومة – التي لا أومن بها .

• • •

## وَتُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ..

○ تطاردني ذئاب آلية وأنا أعبر مملكة (القللي) قاصداً شارع رمسيس .. كلاب حقيقة معدنية تشبه تلك التي كانت أفزعني وأناأشاهد (حرب النجوم) .. لكن (الحمار الحصان) الذي كان يجر عربتي البدائية نفر في وجهها فعوت وفرت . وجذبني بال ترام الذي سأعبر فيه النفق إلى شيئا ، كان خالياً مكوناً من عربتين . هناك ولد في الخامسة عشر أو أقل قليلاً يتقاfer في شقاوة ومرح بين العربتين .. نظرت إليه مخذراً عدة مرات فأخرج لسانه وهو يتقاfer .. ثم يقفز إلى العربة الأولى معانداً . تباھلته وأدرت رأسي . فجأة سمعته يصرخ وهو يسقط بين العربتين . ثم رأيته فزعاً يلوح لسائقت الترام الذي أطل مرعوباً من الصرخة ليرى معي رجل الولد اليمنى تقطر دماً في يده وهو يزعق هلعاً

محتجًا :



في المثقب

قائماً صاخباً مزدحماً إلى ما بعد منتصف الليل .. وأن البلد ظلت بعده ساهرة حتى الصباح في السرادق وعلى جسر السكة الحديد وأمام المحطة وفي القهاوي .. وعلى المصاطب . وداخل البيوت تعزف سيمونية (الغم الأبيض) . وخفمت وكتبت محتهداً كلاماً كثيراً يكفي لردم البحر فيما يمكن أن يقوله الخطباء وكان معظمهم من (حكماء) البراندة البحريية بالإضافة إلى الأستاذ يوسف وأحمد عبده حسنين الذين كانوا عضوين في الطليعة الوفدية . كذلك كنت متأكداً أنه كلما ذكر إسم (مصطفى النحاس) ولابد حدث ذلك ألف مرة (تقريراً) تلتهب الأيدي لذكره بالتصدق في كل مرة .

كعادة المصريين من عهد الفراعين !

كنت قد رحلت في نفس الأسبوع للألتتحق بمدرسة دمياط الثانوية بعد أن حصلت على الشهادة الابتدائية ، حيث انتقل إليها (طه) ابن خالي كأسطى لورشة التجارة – وكان يشرف على حجرة الأشغال في مدرسة (ميتس سلسيل) منذ إفتتاحها . واطمئن أبي حين ذهب لتقديم أوراقي . إذ وجده قد استأجر شقة من حجرة واحدة بربحة وصالحة في بيت قريب من المدرسة . كانت الشقة الوحيدة في الدور الأرضي ولها مدخل مستقل حيث يشغل مساحة البيت خلفها مخزن أدوات وكتب مدرسية . إذ كان صاحب البيت هو (ال الحاج نصار) صاحب المكتبة الدمياطية المشهورة وكان صديقاً لوالدي ..

غمري إحساس جارف أن الدنيا تفرد لي ذراعيها لتأخذني إلى المدينة بأفاقها الحرة وتضعني برفق على شاطئ المسؤولية .. وعلىّ أن أثبت للجميع أنني قدّها وقدّود . فها أنا أصبح مستقلّاً تماماً ومتحرّراً من رقابة لا تخلو من الصرامة – في مدينة كبيرة ومدرسة عريقة ناظرها رجل لإسمه

– لا .. ما ينفعش كده قول للأسطى وحياة اللي ماتوا الك.. هات ورا يا عام يا سوق ..

قلت لنفسي .. لابد أنه يأنب نفسه على شقاوته ويظن إمكانية عودة الزمن به ولو لدققتين اثنتين ليعيد لصق رجله إلى جسده الملقى على الأسفلت .. ووجدتني أتساءل .. هل صحيح لو عاد الزمن – فرضاً – هل كان سيؤجل قفترته الأخيرة القاتلة الفاشلة .. ليحتفظ برجله في مكانها ويسمع نصحيتي ؟ لكن الإجابة لم تأتني أبداً !

وجدتني على رصيف النفق نفسه في زمن آخر . وكان ابني الذي بلغ الرابعة يتقاوز بجواري مرحاً وقد أسلمني يده .. وفجأة جذبني بشدة متورّاً منفلاً يلفت انتباهي في دهشة مشيراً إلى رجل ربعة القوام (الحقيقة) . كان نصف رجل أو قل جذع رجل بلا ساقين) يمضي على ما فوق ركبتيه بحيوية ونشاط وذراعيه تخدفان في الهواء وتدفعانه للأمام . وصاح (أشرف) :

– بابا . شايف ؟ الراجل رجليه اتبروا من كتر المشي . يا عيني . بص !.

وجدتني أضحك بصوت عال .. فأيقظني ضحكي من النوم . ساعتها كان القلم في يدي .. وأسقطته الضحكة . فقمت أبحث عنه وأنا عرقان رغم شبّاك البلكونة المفتوح نصف فتحة يدفع بيّار هواء بارد يلسعني وقد كشف الغطاء عنّي !.

تذكريت أنني نمت بعد أن توقفت عن الكتابة لوعي في أسر تفاصيل الاحتفال الوفدي انتصار نائينا .. والكتابة تغريني بما عاهدت نفسي عليه إلا أقوم بتأليف ما لا أذكره من أحداث وكنت عرفت أن الاحتفال ظل

ولما عاد (الخضري) معلنا فقداني في السكة الجديدة .. لم يتروى  
خالي ولم يتضرر نتيجة البحث عنني .. بل أسرع إلى التليفون وطلب من  
الخواجة (سبيرو) أن يسأل (عبد الباقي أفندي) إن كان فلذة كبده قد عاد  
إليهم من عدمه ؟!

وكانما انفجرت قبلة أخرى في البيت حين جاءهم مندوب (الخواجة  
سبيرو) يعلن لهم بضياعي في زحام المدينة المزدحمة اللعينة والتي اخطفت  
(أخوه سامي) من قبل وقتله بوحشية على أسفلتها اللعين !!  
ولما أسرع أبي إلى المحطة ليطلب خالي من التليفون الوحيد المتاح ..  
ليسأل ويستفسر .. كان خالي قد غادر المحطة فلم يشف الاتصال غليله  
فاستشاط غضباً :

– طبعاً ما هو ما يخلقش عيال .. على قلبه مراوح .. ح يهمه إيه ؟.  
لو ضاع مني ابني الثاني ؟!  
ولم يكن أمامه ما يفعله سوى أن يعود ليلاقي بهمه ومخاوفه وغيظه  
على رأس أمي واحتوي الصغار . الذين انهاروا تحت وطأة انهيار أمي  
واعلانها الخداد العام .. رغم أن غيرها لا يعرفون حتى بوجود الضحية  
الأخرى (سامي) .. ولا بقصة موته شهيد منصورة خالي عديم الأولاد !

وطبعاً عندما وصلت رسالتني إلى خالي بعد أن ركبت قطار البضاعة  
عائداً لم يتوانى البتة عن أن يبلغها إلى (الخواجة سبيرو) الذي لحسن الحظ  
لا يترك المحطة إلا بعد وصول (قطار البضاعة) .. وليلتها ظل أبي معه في  
المحطة ساهراً وقد زال غضبه وحل محله قلق انتظاري مع وصول القطار  
بالسلامة . والذي لم يمنعه من أن يشارك (الخواجة) مرحة المعروف عنه  
في التعامل الساخر مع مثل هذه المواقف التي يعتبر الاهتمام بها (من باب

صدقى رائع لدى رجال وزارة المعارف على إتساع القطر وهو الأستاذ  
(الهاكع) – تقدم لطلابها وجبة غذاء ساخنة وتزخر بالمدرسین الفطاحل  
في كافة المواد . ومجهزة بالملعب والورش والمكتبة ، والمعامل .. وأكثر من  
ذلك سأسكن في بيت قريب منها ملاصق لدار سينما (دمياط الجديدة) !!  
فأنا لم أرعوى ولم أرتدع من فشلي في تحقيق أملبي في روؤية (السايحة)  
الفاتنات) مكتفياً بالحصول على تلك المجموعة الملونة من صور النجوم  
ومناظر الأفلام الساحرة والتي أخذتأتملها في قطار البضاعة في شغف  
وحب طوال الرحلة إلى القرية والتي استغرقت وقتاً طويلاً حتى أشرفنا  
على (ميت سلسيل) بعد العشا بكل عشا .. وأنا غافل عما يكون قد  
حدث على الضفة الأخرى من النهر ...

فقد اتصل خالي عقب تسليمي (للخضري) بناظر محطة (ميت  
سلسيل) (الخواجة سبيرو) وطلب منه أن يطمئن (عبد الباقي أفندي) أن  
فلذة كبده الغالي قد وصل إليهم في المنصورة بالسلامة ... وكأنه فجر  
قبلة عن بعد في بيتنا .. فلم يكن لديهم أية فكرة عن هذه السفرية العجيبة  
المفاجئة ولا عن أسبابها .. وصرخت أمي هلعاً ولم تجد سبيلاً لهربى من  
البيت هكذا .. وفجأة !! إلا تلك العلاقة التي بالغت في تخيلها .. والتي  
ظننت أن أبي (رنها) لي بسبب وشایة بلغت أبي عن علاقة غير سوية بيني  
وين بنى تدعى (عزيزة) وأنني أرافقها حتى في حقلها حيث (تستعبدني)  
في إنجاز كافة أعمال الحقل وخدمة البهائم !!  
ورغم إصرار أبي وانكاره لكل ذلك بل ودفعه عنني ضد الوشایة  
التي إختلقتها بعضهم لغرضهم من تفوقي الدراسي إلا أن قلبه (أكله) بسبب  
لجموئي هارباً لبيت خالي في المنصورة دون سبب !

مواكبًا لعودة جيشنا المهزوم متتصرًا من حصار (الفالوجا) بفيلم أثار حماس الجميع وفتنني وهو فيلم (فتاة من فلسطين) .. وغنى المركز كله كبارًا وصغارًا خلف (سعاد محمد) (يا مجاهد في سبيل الله .. دا ليوم اللي بتمناه) !

وكأنما قطعت اشتراكًا أسبوعيًّا في سينما المنزلة .. ولم أسمح لنفسي أو لم يسمح قلبي لي أن أتخلف عن أي فيلم يعلن عنه في (الأسبوع القادم) أو (قريًّا) .. خاصة قد كانت السينما تعرض حلقة من حلقات المغامرات مثل ( فلاش جوردون ) وكانت أوفق ذهابي إلى السينما مع مواعيد القطارات التي كانت لحسن الحظ متوافقة مع مواعيد الحفلات والعروض في البداية . لكن الأمور لم تسر منضبطة فيما بعد ولكنني لم أغير عادتي .. وكم كنت أتحايل لأعود من المنزلة تارة في عربة من عربات نقل السمك أو عربة كارو شاردة . وكثيرًا ما اضطررت في أحيان عدة أن أعود ماشيًّا على قدمي حتى في الليلي التي لا يطلع لها قمر ..

• • •

هيافة من لا يدركون مثله المعنى الحقيقي للحياة .. ترك ما لا نعلم أمانة في يد الإله !! ) لكنه لم ينس أن يجعل أبي يرسل رسالة للبيت لكي لا تظل اليران مشتعلة هناك وليهدي النفوس ما دمنا قد عرفنا نهاية (نكتة) المحسوس !

تلقاني أبي وأنا أغادر القطار بهدوء أقلقني . ولكنني عرفت أن الخواجة استحلبه بال المسيح وبريم وآل عمران ألا يؤذيني .. لكنني أحسست في قبضته كأنه تأبط شرًا ! .. ولم ينطق بكلمة حتى دفعني أمامه داخل البيت وقلبي في قدمي .. ومرت لحظات اللقاء على خير وكأنني عائد من المدرسة . وفردت يدي للكل بالصور الملونة أدعوههم للفرجة عليها :

— شوفوا .. أنا جيت لكو إيه من عند سينما ركس ؟!

كنت قد ارتكبت حماقات كثيرة - غير (نكتة) ضياعي في زحام المنصورة ، استجابة للعفريت الذي تلبسني واصطفاني لعشق السينما منذ شاهدت (نور الهدى) و (أسمهان) في سينما (الهمبراء) وزادت لوعتي بفشلني في رؤية (السابحات الفاتنات) ! فأخذت أسأل وأطقس حول مواعيد حفلات (عدن) و(ركس) ومواعيد القطارات إلى ومن (المنصورة) ولكنني فشلت في تكرار تلك المغامرة . حتى افتحت سينما (المنزلة) ودارت عربة بميكروفون ومزينة بصور ملونة تبشر فلاحي المركز بيده عروض أعظم أفلام النجوم المصرية والعالمية وتأكد على عرضها في توقيت واحد مع عرضها في سينما (ستوديو مصر) أكبر دور العرض المصرية في القاهرة .

وكأنما استجابت السماء لدعواتي . وكان افتتاح السينما العزيزة

على ذلك أنك هربت من تسجيل خطب النخبة الوفدية في حفل جرن (عبد ربه) لأنك أصلاً لم تكن تدرى أيامها ما حدث للوفد في سنواته الأخيرة ومحاولاته التقرب للسراي وتقبيل زعيمه ليد الملك وحرصه على التمسك بالسلطة حتى لو خضع (لسراج الدين وزينب !) وتخلى عن شبابه في (الطليعة الوفدية) وعن أمل الناس فيه لتحقيق الحرية وإنصاف الفقراء . وانعكاس ذلك كله على خطب المتصرين !!

التحداك أن تنكر أن ما سمعته في ليلة الاحتفال تلك وما وصل إليك من حديث جمع عمال التراحيل من عزبة الغجر الذين أكلوا حتى بشموا ليتلتها أرزاً ولحماً شهياً وهم متkickين على أرائك مصفوفة .. ثم عادوا يفترشون بعدها التراب الرطب الناعم بجوار سور المستشفى حيث لا تصل إليهم إلا خيالات الإنارة الباهرة في السرادق ! ولا تميز آذانهم إلا أصداء موج الكلام العارم من مكبر الصوت الزاعق ! وهم يثرثرون في سعادة شبع نادراً ما يحسون بها وهو يعلقون ساخرين :

- يا عم أhee كلام ابن عم حديث ، هو احنا حنشوف حد منهم .
- هو الكلام عليه جمرك .. يا عم صلي وانسى !
- يا عجل دانت لسه ملي (بحولتك) هبر محمرة من خيراتهم ..
- من حقهم يدوشونا يا سيدي وآدينا بنتسلى ..
- على قولك يا ريتهم يدوشونا كل ليلة بس يعشونا ..

لم تكن صيحاتهم الساخرة هي التي خللت الأمر عليك ولكن الذي خلط الأمر على سمعك وبصرك هو دورانك حول ذاتك .. لأن جمعهم ذكرك بجمع آخر من رجال وبنات تراحيل (العزبة) يتظرون من يأتي إليهم ليدفع يومياتهم ، في ليلة أخرى ، من زمن لاحق ، في نفس

## ليس للإنسان إلا ما سعى

○ هأنت تعود لارتكاب نفس الخطأ الفني وتنأى عن أصول السرد إلى نقاط باهتة مبهمة لتبرر خلطك بين الأحداث . تشكك القارئ في منطقية توالي الأزمان . وتراكم الخبرة ونمو الدراما .. لأنك مصر على أن تضع نفسك في مركزها وكأن كل شيء يدور حول ذاتك .. فتغيرنا معك في تفاصيل عارضة وتأفة وتصنع من الحبة قبة . وتحكي عن أمور عادية مر بها معظم من كانوا في سنك . ولكنهم لم يدعوا أن فشل (بعضهم) في رؤية فيلم غير مجرى حياتهم .. ولا أن (ابنها هم) بعيون برسيمية لفتاة تراحيل مغيرة بتراب الطرقات وقشر الأرض ستصبح قصة كونية تحدد لهم مسار التاريخ وتدفعهم لكتابية الشعر في المستقبل !. وليس أدل



(المصور) و(الاثنين والدنيا) ثم دخلت (الكوكب) بعد ما ضحكت من إصابتكم بإدمان السينما .. لا .. لا ..

لابد أن هذا له أسباب تخشى أن تذكرها فثبتت جهلك بما يجري في الدنيا أو ثبتت وعدم إدراكك للعلاقة بين تأثيرات ما جرى للعالم عبر نصف قرن أو يزيد وبين تناقضات ذاتك !؟ أو خشية أن تظهر قدراتك المتواضعة على الحكي وأصول السرد الروائي فتكتفى أن تعلق عجزك أن تكون روائياً مشهوراً على الحصار المزعوم حولك وال الحرب المشرعة ضدك ولا تعرف بقلة وتواضع موهبتك !؟

هل لديك أقوال أخرى - أقصد تبريرات أخرى !؟

ما أشد سعادتي بغضبك هذه يا صديقي وما أجمل جرأتك وصراحتك ! واعترف أنها جاءت في الوقت المناسب .. تماماً وأنا في هذه الحالة من التشفف والمراجعة . ولا أقول الإحباط بعد مرور عام على (ثورة ٢٥ يناير) والتي فاجأتني بالضبط مثلما فاجأتك بل وكما فاجأت من دعوا إليها وكل من بشر بها لكن .. ليس هذا موضوعنا .. ففرحي الكبري تعود لسبب آخر .. لقد أعطتني غضبك دوافعاً أكثر جدية لكي أستمر في إكمال هذه الرواية .. بعد تلسك بكرة المخيوط الدرامية في يدي !! وعجز ذاكرتي عن استيعاب المقوله التي تؤكد أن من ينشد (الحقيقة) فليبحث عنها في الذاكرة .. هذا لو كانت هناك حقيقة (حقيقية) يمكن أن تستوعبها أية ذاكرة !

- حلمك علي ، فأنا كنت أنتظر صوتك ليشحد ذاكرتي ويعيني على الاختيار الأجدع والأفعى للاستمرار .

المكان .. وانت تدور حولهم وتقترب منهم متسللاً .. كطائر مفترس تحاول جذب أنظار فريستك (مديحة) التي خطفت فؤادك كي تستجيب لنداء عشقك الساذج وتلحق بك بعيداً تحت ظلال الياسمينة ذاتها والتي تعطي السور ذاته ، ذات ليلة من ز من آخر ، لتسليم شفتيها البكر لشفيتك المعطشتين لتحقق ذاتك وتطفئ غليل نزاولك !.

أنت تمضى في تفاصيل ما يجري عندما يكون ما حدث له صلة مباشرة بالصورة التي ترسمها لنفسك ولن تسمح بذكر أي شيء يخدش حياءك من تلك الصورة ..

لقد كتبت في بداية ذلك اللغو أنك ولدت والدنيا على موعد مع مأساة الحرب العالمية الثانية بل وذكرت اجتياح (هتلر) لأوروبا وأنه تنبؤ بما سيحدث لك أو ما سيحدث للعالم بسيبك .. وظننت معها أنك سترتبط بين سيرتك المأساوية (كما أوحى بها كلماتك) وبين ما مر بالعالم من مأسى كبرى فإذا بك تذكر مذبحة (الكوليرا) فقط عندما توهم أبوك أنها ستحق به .. وكيف أنقذته بإحضارك عدة حبات ليمون من جنينة (عبد ربه) .. لم تذكر كم من البيوت رأيتها وقد أصبحت خاوية على عروشها، إذ خلت من سكانها بكمالهم ولم تذكر منظر جنازات دفن الضحايا الجماعية .. ولا حال من كانت تداهمهم الإصابة أثناءها فيتحولون من مسيعين إلى مشيعين ببساطة الفرق بين الكسرة والفتحة !.

ولم تهز (حرب كوربا) شعرة (أقصد رعشة) من قلمك . رغم ماراح ضحيتها من فيالق جيش الجاموس (ذا بفلو آرمي) وأنت الذي كنت تقرأ الصحيفة مع جماعة (دكان محمود شطا) الوفدية وتدخل بيتك مجالات

الشاهد أو الخلاصة أو حاصل الكلام .. كما يقولون في الحوادث  
الأكثر صدقًا وبساطة والأعمق حكمة وأقل تعقيدًا . فقد أرحت ضميري  
كي استكمل حكاياتي وأن أملم الخيوط الملبة المعقدة كما هي لاستجدي  
الذاكرة المرهقة . واحايل القلم المرتعش . وأقاوم كل ما يحيط بي من  
إحباط وارتباك . واتبع حكمة السحرة القدماء وخبرتهم .. لأذكر ما  
أكرهه لكي أحبه .. وأنادي النائي فأقربه .. وأسمى المتمرد لأسيطر عليه! .  
فاغضب وارفض وتمرد .. فأنت مني أقرب من حبل الوريد . وانت  
على لسانى وتحت سن قلمى ، رهن إشارتي وبك قد تكتمل روایتی !!

1

وغضبك هذه يا صديقي ، فيما يلي سوف تساعدني على فك  
وتسليك خيوط بكرة الدراما .. التي تعقدت بين أصابعـي . لأسباب لا  
أستطيع حصرها .. فيها ما يتعلـق بما جرى لـلـدـنـا بـسـبـب انفراـط عـقد الـاتـحاد  
الـسوـفيـتي بـفضل أـجهـزـه وأـجـهـزـة أـعـدـائـه الـأـمـنـية ..  
أـو بـسـبـب جـهـلـ أو اـنـهـازـيـةـ أو حتـى خـيـانـةـ أـصـدـقـائـاـنـاـ المشـتـرـكـينـ التـيـ  
أـوـصـلـتـهـمـ إـلـى قـرـارـهـمـ بـذـبحـكـ فـيـ (ـالـعـامـ الـخـامـسـ وـالـسـتـينـ!)ـ أـوـ تـسـلـيمـكـ  
عـلـى طـبـقـ مـنـ عـبـودـيـتـهـمـ التـارـيـخـيـةـ كـأـبـنـاءـ شـبـهـ شـرـعـيـنـ لـلـزـواـجـ غـيرـ الشـرـعيـ  
بـيـنـ الـيـمـينـ الـيـسـارـيـ وـالـأـمـنـ التـقـدمـيـ !

في البداية لو تذكر .. أعني في بداية هذه الرواية .. كدت أسميك  
بأسماء أصدقائي .. أصدقاء الحارة والشارع والمحقول في ميت سلسيل  
الذين علموني العوم في البحر الصغير وكيفية صيد طائر الخضير .. والشهر  
في مقابر (أبو خشبة) في ليالي القرية المظلمة أو تحت ضوء القمر والذين  
شاركتهم صيد السمك أو قتل الوطاويط .. وسرقة الجنانين المسيحية  
بالأشواك أو اقتحام مخادع البائسات من الحرير . وملاءعة العفاريت .  
ثم أيضاً لو تذكر (أو أعددت قراءة الصفحات الأولى) فضلت أن  
أقدمك لقرائي المظلوم على أنك كنت دائمًا (جبريلي) وأنا (أحمدك)  
أو (حضرك) . و كنت (فرجيلي) وأنا (دانتيك) .. أو (ابن عبد ربه)  
وأنا (سميرك) .. أو أنك (ابن عبد الباقي) وأنا (توأمك) .. أو أنا كما  
اعتقد جدودك وأجدادي مثل (الكا - والبا) ولكن لأنك تقليدي الذكاء  
والموهبة أو لأنك لا تثق في ذكاء قرائي ومربيديك فضلت أن تغضب فتفسد  
الفكرة.. يا صديقي ..

دعوك لذلك الاجتماع الذي لم يحضره كثرون أهم منك وأكثر مكانة في التنظيم منك .. فلم يعرف عنك سوى الصمت على الأقل عما حدث بل والإيحاء بالموافقة بعد أن بلغك موافقة لجنة الدقهلية أصدقائك ومطالبهم به . قلت للبعض بعد أن انضم مسئولي لجنة القاهرة واحداً بعد الآخر إلى التنظيم الطليعي .. وبعد سلسلة من الاجتماعات التي لا قيمة لها – أنك اكتشفت أن نشاطنا في الجامعة يصب فقط في صالح تنظيم الشباب الذي يقوده زكريا محيي الدين .. حتى من نجدهم للاشتراكية يذهبون إليه بسبب منهجنا الدعائي المكبل بمحظورات ازعاج الخليف وترهتنا التنظيمي بل وأعلنت اقتتاعك بعث استمرار تنظيمنا بلا استراتيجية متمايزة وبلا رؤية مستقلة وتباينت بأن مصيرنا هو التلاشي .. لأن رؤانا على ما يبدو توافقت مع النوايا الخفية للذوبان في نسيج وأحضان الخليف الذي يبدو بأنه يفرد جناحيه لنا ملوحاً بريشة إغواء . وشوكة تهديد ناعم .

كان هذا موقفك يومها . فلم تبالغ الآن في الهرب من تحمل المسؤولية التي تلقيها على عاتقي وحدني دون رحمة !!  
يا أيها الكاتب الجهد ألا ترى في ذلك تناقضاً مع ما رسمته لشخصيتك طوال عمرك .. ألم تأخذ مني (بردعة) تحملها كل نواقص شخصيتك وخطيائك ونوازعك السرية والشريرة !!  
أنا لا أريد أن (أشخصن) – (حلو التعبير ده .؟ حداثي مش كده؟)  
– لا أريد أن أفعل ذلك ولكنني مضطر أن أذكر بقولك ردًا على بعض من سألك من الصحفيين أو مقدمي البرامج التليفزيونية – عن السر وراء حصارك وتجاهلك كشاعر وكاتب أطفال ومسرحي !! (وهل تشعر أن هناك من يضطهدك .؟) – فأخذتكم العزة بنفسك وصرخت فيهم – من

## ما هي إلا أسماء سميت بها . . .

○ أفحمنتي يا ابن عبد الباقي ..؟ أغلقت سبل الدفاع أمامي يا للهول !!! ها أنذا أقف عاجزاً عن الرد .. (واحسرتاه على يوسف) .. هل ارتحت الأن وأرحت ضميرك الثوري .. أم ترك أوغلت في التمادي كعادتك .. وباعترافك وإقرارك أنك تهدم ما تبنيه وتحمل غيرك – أيا كان – مسؤولية ما هدمت !

تهول وتبالغ في أخطاء غيرك وتنسى خططياك ..

تنصل من مسؤولياتك – حتى البسيطة منها – وتكلش بأبرة للعنور علي من يتتحمل عبء ذلك – عداك .. لن أدخل معك في جدل صبياني فقد كنت مشاركاً في تلك الواقعة الجريمة .. رغم عدم



يصلح أن يقوم أعضاؤه مرغمين أو حتى بمحض إرادتهم بإعلان وفاته وانتهاء شكله التنظيمي المستقل من أجل عيون عدوهم الطبقي أو لأجل خاطر أصدقائهم الإشتراكيين في قمة السلطة أو في خدمتها وعلى جلدتها كالحراشف طافحين..

لست وأهما كذلك الذي يتصوره الذين معن في السماء يومئون في أي ملة أو دين .. لا يا توأم روحي ، فأنا حين طلبت منك - حين بدأت كتابة هذه الرواية - أن تسمح لي بالحديث عنك كنت (فكرة) نعم فكرة .. لجأت إليها كحيلة درامية أو حيلة فنية لتعزيق الصراع وتجسيد الأحداث التي تهرب من الذاكرة ولتكون (معادلاً موضوعياً) يساعدني على مد خطوط الدراما وحائطاً أستند إليه كلما إدھمت الخطوب أو تاهت الخطى لا أستطيع أن أنهى هذه الرواية التي لا تبدو لها نهاية واضحة . وقد طالت الحقب واختلطت المصائر .. وضعفت القدرة على التذكر .. فلا تغضب مني وتهجرني وأنا في أشد حالات الحاجة إليك بجانبي والموت يقترب لامني وحدي ولكن من الوطن نفسه - جبنا المشترك . ولكنني أرجوك ألا تفهمي خطأ .. فأنا لا أريد بهذا الإيضاح الذي يكشف خططى الفنية أن أتنصل من مسؤوليتي عن كل كلمة ذكرتها في حرقك أو في صفك - ضدك أو معك - لا فهذا أمر آخر . ففي كل المواقف الذي تجسست فيها على أي صورة أبدعتك ستظل أنت (جريبي وفيرجيلي وخضري وتوامي) كنت ومازلت وأرجو أن تظل ، لنخوض سوياً ما بقى لي من أيام ولنحاول سوياً أن نفهم ما أحاط بي وبك من بلايا و ما كدر حياتك وحياتي من أوهام ونكشف معاً ما ظل غامضاً من خفايا .. !

الذي يستطيع أن يضطهدني ؟ أنا أضطهد بلد ! - وأضفت مفاخرًا أن أكثر من حارب وحاصر وأضطهد ابن عبد الباقي هو ابن عبد الباقي نفسه ! ياللهول والحق أقول أنني يومها أكترت فيك هذا . فقد بدا لي اعترافاً قريباً من الحقيقة .. ظنت أنك سيقودك إلى تصور أقرب للواقع وللحقيقة وللصدق عن نفسك ولكنني اكتشفت أن به شوائب من التمادي ومن الغرور !

وبدت فيه قدرتك على كتمان ما تعانيه حتى عن أقرب الناس إليك وانفلات لسانك الجارح . الذي لا يصرعيبة في سلوك قريب أو بعيد . عدو أو صديق - إلا وفضحها - عيني عينك وجهها لوجه حتى صرت ما أنت عليه . حتى عند أكثر مريديك وأصدقائك .. قفناً برياً شرساً لا يمكن من يألفه أن يداعبه تقرأه إليه أو يربت عليه تشجيعاً له دون أن يتحمل وخر أشواكه .. وربما أنيابه أيضا !!

سامحني يا توأم روحي واغفر لي . فأنا لا أريد أن يصل بنا هذا المجد إلى حد الخصم أو القطيعة فأفقدك بعد هذا العمر الطويل من الأحداث والشخصيات وأجد نفسي وحيداً مرة أخرى كما حدث في مرات كثيرة من قبل - إفقدتك إلى جانبي فلم أجده .. واضطررت إلى اختراعك وخلق وشائع وعلاقات بك تعيد إلى ثقتي بنفسي وأشعر معها بإنسانيني وأشم عطر موهبي التي لا تفتح أزهارها إلا وسط الآخرين وتحت دفء شمس الصداقة ..

نعم يا صديقي لا أريد ان افقده .. فأنت أكبر أن تكون شخصاً بعينه بشرياً تطبق عليه القوانين التي تحكم مصائر البشر العاديين .. أو كياناً

انطوان) أنت؟ ومن غيرك؟ ..

قد تكون (صلاح أبو العز) الذي شاركتي في مداعبة (عزيزة) وقد تكون (حسن العربي) الذي صاحبني في ظلام القرية نطارد العفاريت أو تكون (مأمون الزفناوي) أو (ياسين عابدين) أو (فاروق التملة) أو حتى (حسين عبد ربه) الذين فتح كل منهم باباً إلى خبرة أو طاقة لمعرفة ... ولكنهم جمعياً مهدوا إلى الطريق إلى (ماركس) والمادية الجدلية . فصنعوا مني ذلك البائس الذي اعتنق الماركسية وأمن بأن (ماركس) ترك للبشرية منهجاً لو أحسنوا فهمه وتفعيله لما ضل ثوار أبداً !!

ولذلك تجذبني تماذيت في تأنيثك لأنني واصلت عمري واجترار ذكرياتي إلى ذلك التاريخ المشئوم الذي أغراك فيه أصدقاؤك الاشتراكيون (!!) وحاصروك مع الظروف لكي تنهي وجودك . ظناً منهم أو وهما منك أنكم معاً بذلك ستبنون مصر وستخرجون بها من هوة الاستبداد والتخلُّف فضعتم معًا وضيعتمنا .. وبدمتم طاقات الوطن الخمسين عاماً .. وانفجرت أمامي مأساتك ومؤسسة الوطن بشكل فاضح واضح .. عندما نضج الصراع الطبقي الذي تجاهلوه .. وتنامي الوعي العام بفعل قوة الدفع الذاتي لظروف العالم وتتوحش الرأسمالية .. وخضوع الوطن الذي قاوم الاستعمار طويلاً وتصدى لإملاقات الإمبريالية الجديدة التي أسقطت التجربة السوفيتية .. وتعرض شعبنا لأبشع صور القهر والفاقة والإذلال .. فكانت ثورة (٢٥ يناير) التي طالت أكفها السماء وأسقطت الطاغية ولكنها عجزت عن قطف ثمار انتصارها لأن الجماهير تلفت تبحث عنك قلم تجذك . لأنك رضيت أن تتحرر ذات يوم .. متخلياً عن مسئولياتك التاريخية يا صديقي .

فأمنت أول من كدر براءة طفولتي حين قرأت على كتاب الأساطير فألقيت بي كرخ (السنديباد) فوق جبل (الأوليمب).. لأصحاب - أنا التلميذ الصغير الريفي - (زيوس وابولو وبوسيدون وهيرا وأفروdist وعوليس وأخيل) وكل شعبيهم من الساتير وعرائس الماء .. وأنت هو نفسه الذي وضعني على خشبة المسرح مشمولاً بقدسية (الأمين) لأصبح بصوتي الضعيف أهزر جبال (مكة) وبيوت قرية (الحملالية) وكفار (قريش) وتجهار سوق الثلاثاء ..

- إيتوني بشوب ..

فتسلل دموع النساء وترتحف أطراف الآباء .. وأنت من دفعني لسرقة مفاتيح دولاب خالي المشلول الشيخ لأسير وحدي في غابات وممالك (ابن المقفع وبيدها) وأخوض بحار (القزويني) وأطير فوق بساط الريح إلى جزر المرجان وجبل المغнетيس وأدخل كهف (ملكة الحياة) مع (حاسب كريم الدين) ولأسرق ثياب الجنيات الطيور وأنزل مع (جودر) تحت طبقات الأرض لأحضر الخاتم ..

وأنت من دفع ابن عبد ربه أن يعطيني كتاب (المعدبون في الأرض) فاكتشفت جهلي بمن هم حولي وأفسدت علي كوني الابن الأكبر أو البكر لأب مهم .. ودفعتك بي إلى عوالم (ارسكيين كالدويل) و(وموم) و(جوركي) و(رأيت) و(شكسبيه) و(جراهام جرين) و(فروست) .. وفتحت عيني وقلبي (لنجيب محفوظ) و(إدريس) و(ديماس) و(طاغور) .. أغويتني في المدينة بأضواء السينما فأدمنت وهج (السابحات الفاتنات) وفروسية العصور الوسطى .. ورعاة البقر وقطعت سهول آسيا خلف (حاجي بابا) وغابات فرنسا وراء (دارتبان) و(آتونس) لأتسلق الباستيل وأحرر دكتور (مانيت) وأضع في حواري وحانات (سان

أعرف .. ستعاود غضبك مني ولكنني لا أريد !

فقط أريد أن أذكرك بأنني لم أعقد ذراعي علي صدري وجلست  
أبكيك وأنوح على حالي يوم رحلت .. نعم حدث ولكن لأيام - ولكنني  
لم أكف أبداً عن التغنى بعما ترثه والدعوة إلى جمع أسلائلك والدعاء من أجل  
إعادة نفح الروح فيك ولكنني رغم هذه الدواوين الشعرية والإبداعات  
التي دارت كالشهب في فلكك تناديك وتبشر بقيامك... كنت وحيدا .  
حتى في الفترة التي عرفت فيها تلك الفتاة التي سأحكي لك عنها والتي  
تعرفت عليها إبان فترة الحداد التي أعقبت إنتحارك ..

فاسمح لي في محاولة للتحفيف من التوتر بيننا والواقع المعاش يكتبني  
ويضخ اليأس والإحباط في عروقي لأنني أرى الثورة المضادة تعاد جمع  
قوها وتعيد ترتيب علاقتها التابعة لقوى السيطرة في العالم .. ويدخل  
الشوار في متأهات التخبط لغياب قيادة الكيان الوعي والمنظم الذي كان  
يمكن أن يجنبها الكثير من العثر .. ويجمعها في مواجهة أعدائها ويصنع  
معها وبها الانتصار .. الحديث يجري إلى المزيد من الحسرة علي غيابك  
فدعني أقص عليك ما يعني يومها من الانتحار لألحق بك ...

• • •

## وأشرق الأرض . . .

○ قفزت - هي - في خفة إلى عربة  
الأوتوبوس بعد تحركها ، فاختلط توازنها .. شهق  
هو - واندفع من فوق كرسيه إليها .. لكنها كانت قد  
استعادت توازنها وصعدت منحنية لتجنب ذراعه  
الممدود. وان قالت دون أن تلتفت إليه متوجهة إلى  
(كرسي خمسة) في آخر العربة ..  
- مرسيه ..

تملى بعيونه الوجه الجميل الدقيق التقاطع ،  
غرق في العينين الواسعتين ، وهو يعود شبه محبوط إلى  
مقعده - دون كلمة . خطف قبله النمش الخفيف  
على الوجه النظيف النضر ، ذكره بنمش ريفي  
سحره في صباح .  
بعد قليل لسعتها حرارة المотор ، فانتفضت ،



- يعني .. ! كان من مدة مفروض أبقى معيد .. لكن ظروفي بقى ، أنا طالب في البكالوريس لسه ..

- أنا بقى لي ستين في الكلية واعرف كل الطلبة تقريباً .. لكن حضرتك؟!

- لا والله .. صدقيني .. أنا طالب في بكالوريوس زراعة عين شمس فعلاً.

كان الرجل العجوز يمد رأسه لدرجة تكاد تنحشر بينهما وهو يتبع الحديث دون أي رد فعل . قالت :

- مش تحتاجة تحلف .. لكن ليه ماكتنش بتظهر في الكلية .. ظروف إيه اللي منعتك؟..

قال وهو يبتسم في سعادة لأن الحوار لم يتر حتى الآن :  
- أصلني كنت في (بعثة) !

- بعثة؟! بعثة قبل التخرج؟ آه .. تكون؟

ضحكـت في براءة رائعة ضحـكة رائقة جعلـت أكثر رـكـاب الأـوتـوبـيس يـلوـون رـقاـبـهم يـتابـعونـ المـوقـفـ فيـ فـضـولـ ..

فوجـيـءـ بكلـ هـذـهـ العـيـونـ فأـحسـ بـعـضـ الـخـرـجـ .. لـكـنـهاـ لمـ تـهـمـ بـلـ أـكـمـلـ ضـحـكـتهاـ بـطـبـقـةـ أـقـلـ اـرـتـفـاعـاـ .. وـهـيـ تـقـرـبـ مـنـ بـرـأـسـهاـ الجـمـيلـ ..

. فـانـسـدـلـ شـعـرـهاـ وـلـامـسـ جـبـهـتـهـ .. سـحـرـتـهـ رـائـحتـهاـ وأـسـكـرـتـهـ ، وـالـبـرـيقـ الذيـ لـمـ يـعـيـنـهاـ دـوـخـهـ وـهـوـ يـتـابـعـهاـ بـحـبـتـيـ عـيـنـيـهـ - وـهـيـ تـهـمـسـ :

- أوـعـيـ تكونـ فيـ (بعثةـ) الـواـحـاتـ !!

فـوجـيـ . وـارـتـجـ عـلـيـهـ وـآـفـاقـ . وـلـمـ يـتـبـهـ إـلـىـ أنـ العـجـوزـ الذـيـ بـجـانـبـهـ قدـ قـامـ مـتـشـافـلاـ يـتـكـيـ بـيـدـ خـشـبـيـةـ عـلـىـ كـتـفـهـ مـبـتـعـداـ . دـارـتـ هـيـ وـجـلـسـ

وـقـامـ لـتـقـفـ أـمـامـهـ مـسـكـةـ بـالـعـمـودـ الرـأـسـيـ القـائـمـ بـجـوارـ الـكـرـسيـ المستـعـرـضـ الذـيـ يـجـلـسـ عـلـيـهـ ، بـجـوارـ رـجـلـ عـجـوزـ مـحـنـيـ الـظـهـرـ ، ظـلـ يـرـاقـبـ الـفـتـاةـ مـنـذـ صـعـودـهـاـ الـخـطـرـ بـعـيـنـيـنـ مـيـتـيـنـ مـنـ تـحـتـ حاجـبـيـنـ أـشـيـيـنـ كـثـيـرـيـنـ .

انتـفـضـ - هوـ - قـائـمـاـ بـدـعـوـهـاـ لـلـجـلوـسـ مـكـانـهـ ..

استـفـزـهـاـ عـرـضـهـ - قـالـتـ باـعـتـدـارـ رـافـضـةـ دـعـوـتـهـ :

- ليـهـ؟.. مـرـسيـهـ ..

بلـعـ رـيـقـهـ وـابـتـسـمـ مـنـدـهـشـاـ، وـمـدـ يـدـهـ فـيـ إـصـرـارـ ، تـنـاـولـ الـكـتـبـ مـنـ يـدـهـاـ دـوـنـ أـنـ يـتـرـكـ لـهـاـ فـرـصـةـ لـلـرـفـضـ . تـرـكـتـهـاـ لـهـ دـوـنـ أـيـ اـهـتمـامـ ..

وـضـعـ الـكـتـبـ فـوـقـ حـقـيـقـيـةـ الـيـدـ السـوـدـاءـ الـكـلـاـسـيـكـيـةـ التـيـ يـحـمـلـهـاـ ..

قرـأـ عـنـاوـيـنـ الـكـتـبـ ، فـهـزـ رـأـسـهـ وـهـوـ يـرـفـعـ عـيـنـيـهـ نـحـوـ الـوـجـهـ الجـمـيلـ الجـادـ ..

- يـاسـتـيـ اـتـفـضـيـ اـقـعـدـيـ .. دـاحـنـاـ زـمـاـيـلـ ..

رـفـعـ حاجـبـيـهاـ فـيـ دـهـشـةـ حـقـيـقـيـةـ؟..

- زـمـاـيـلـ؟.. إـزـايـ يـعـنـيـ؟

- أـيـوـةـ .. إـنـتـيـ مـشـ طـالـبـةـ فـيـ كـلـيـةـ الزـرـاعـةـ .. أـنـاـ كـمـانـ فـيـ كـلـيـةـ الزـرـاعـةـ .. يـقـيـ عـيـبـ - تـعـالـيـ اـتـفـضـلـيـ . اـحـناـ فـلـاحـينـ بـرـضـهـ .. وـ .. زـمـاـيـلـ ..

- مشـ مـمـكـنـ .. الأـدـعـيـ ماـ دـمـنـاـ زـمـاـيـلـ إـنـيـ ماـ اـخـدـشـ مـكـانـكـ ...  
لمـ يـجـدـ ماـ يـقـولـهـ .. اـسـتـطـرـدـتـ . بـعـدـ أـنـ تـأـمـلـتـ مـلـاحـمـهـ وـاسـتـنـجـتـ سـنـهـ .

- لـكـ أـنـاـ عـمـرـيـ ماـ شـفـتـكـ فـيـ كـلـيـةـ ..

- لاـ .. مـاـ هوـ أـصـلـ دـيـ أـولـ مـرـةـ أـرـوحـ كـلـيـةـ بـعـدـ ماـ اـتـنـقـلـتـ شـبـرـاـ ..

- غـرـيـبـةـ ! الـكـلـيـةـ بـقـىـ لـهـاـ كـذـاـ سـنـةـ فـيـ شـبـرـاـ .. إـنـتـ مـعـيـدـ؟

وبعدها الآخر مندهشاً في فضول . وحدها عيون طفلة كانت تلصق وجهها بالزجاج الخلفي للسيارة . ظلت تتسم وهي تتبع قفزاتهما المرحة - ييدو أنها كانت الوحيدة التي لم تلاحظ فارق السن بينهما - فلوحت لهما بكتفها الصغير سعيدة . توقف مندهشاً مرحًا ولفت نظرها للطفلة فصاحت في فرح أكثر منه غير مصدقة وقفزت وراء العربة تلوح لها وتشدّه معها في قمة السعادة ..

منذ دخالاً معاً باب (قصر محمد علي) الذي نقلت الكلية إليه من (قصر القبة) أثناء غيابه في (البعثة) .. لم يفترقا إلا ليلتقيا - طوال عشرين شهراً كاملة اعتبرت نفسها مسؤولة عنه .. ناقشت حرس الكلية محتاجة في حدة ، عندما سأله عن الكارنيه الذي لم يكن قد استخرجه بعد ، وعلى الفور صحبته إلى شؤون الطلبة وجعلتهم بكل اهتمام يبحثون عن خطاب الأمان الخاص بإعادة قيده وانحنت له في حركة مسرحية وهي تتعمد الجدية الباسمة وهي تسلمه الكارنيه بعد إعتماده بخاتم الكلية وتوقيع العميد .  
- الآن .. قم ، فأنت طالب !

كانت معروفة لكل الطلبة في الكلية تقريباً .. تحبي هذا وتنشير إلى تلك . وتعلق ضاحكة على أخرى وتداعب ثلاثة ، كانت رائعة ، أسلم لها قياده كطفل فأخذته جولة سياحية إلى المعامل والمدرجات والأقسام والمزرعة .. ثم صحبته إلى البو فيه .. وهناك جلست معه في أحد الأركان لاحظ احترام الجميع لسلوكها .

- أنا (جوزفين) . إسمي (جوزفين) .

- وإيه يعني .. وأنا (سمير) بس كانوا أح يسموني (محمد سمير) .

بسربعة إلى جواره في فرح . إنسماتها الغامرة احتوته وأعادته إلى حالة الخدر فلم يشعر بالوجوه التي مازلت تتبع الموقف في فضول . والأجساد التي صعدت وتراحمت حولهما من المحطة التي نزل فيها العجوز ، بينما واصلت الحديث ملتفته إليه من مكانها في حب استطلاع طفولي ، وهي تحرُك في مرح وتشدّه من كمّه تستحثه أن يجيب .

- هيّ الواحات؟! أكيد انت م اللي كانوا في الواحات ..!

تبه من غيبة السحر التي استولت على مشاعره .. وحينها استطاع أن يتمتم في دهشة حقيقة :

- انتي تعرفي الواحات؟ منين؟

وكانها تعرفه من سنين دفعته في صدره في حركة طفولية شقية وقالت :

- طبعاً! إيه؟ ابن خالي كان معاكم ، ولازم تعرفه؟

- اسمه إيه؟

- الدكتور (ف. ف.) .

قالتها ببساطة وضحكـت .

- مش ممكن ..

رد غير مصدق . وابتسم محرجاً . فلعلعت ضحكتها .

ولم يكن هناك من بُدأن يشار إليها بقهقة أعلى من شقشقتها الضاحكة وهو يتركها تأخذ يده وتسحبه وراءها في اتجاه الباب :

- محطتنا جت .. وصلنا! ياللا .

قفزت في خفة ريم بري . ووجد نفسه يقفز خلفها كالوعول الجبلي دون أن يلحظ نظرات العيون التي تابعت المشهد ، بعضها محتاجاً في تأفف

زيارة أخته إلى قسم الاقتصاد للحصول على جدول المحاضرات كي  
يتنظم في الدراسة - أول الأسبوع القادم ..

ركباً الأوتوبيس ، نزلا معاً في (القللي) . عرف أنها تسكن في شارع  
(السبtie) ، ودعها وهو يقول عندما لم يجد ما يقول أنه يعيش في حي  
(حدائق القبة) مع اثنين أحدهما كان فيبعثة .. لوحٌ له ، لوحٌ لها ،  
لم يُشبع بعد من ابتسامتها .. ظل واقفاً يتابعها وهي تشق طريقها طائرة لا  
تکاد تمس الأرض في رشاقة دون أن تلتفت إليه . حتى اختفت فجأة وراء  
سور (نفق شبرا) ..

أحس كأن الدنيا انخطفت منه فجأة . بالضبط مثلما حدث عندما  
دفع به إلى الزنزانة (٣٩) الدور الثان (سجن المقصورة) لأول مرة من (٥  
سنوات) بالتمام والكمال ، فداحمته نفس الرغبة العارمة في البكاء !! ..

لم يتظر حتى يأتي على العالم يوم الثلاثاء .. وجد نفسه - تاني يوم  
- واقفاً أمام مدرج أربعة في انتظار انتهاء محاضرة السنة الثانية الهامة التي  
قالت أنها ستحضرها صباح الأحد .

كان منظره ملفتاً ، شاب يبدو أكبر سنًا من كل الطلبة يقف بلا سبب  
فيما بين المدرجات . وشعر بهمسات تدور عنه بين بعض الطلبة ولاحظ  
إبتسامات ماكرة على وجوه بعض الفتيات من اللائي رأيه بالأمس معها .  
ولمح نظرات استنكار على وجوه بعض الفتيا ..

كان يبدو كتلميذ غر يقف أمام باب مدرسة للبنات حيث لا يجب أن  
يتلّكاً الصبيان .. ثم هلت - هي - فأشرقت .. بدت وسط زحام الطلبات  
والطلبة الهابطين على السلم العريض .. مختلفة ، مميزة واضحة .. ومرحة ..

سألته عن حياته وكيف يتعامل مع الديننا والناس بعد سنين المعتقل ؟  
وكيف يدبر أمره ؟ وأين يسكن ؟ ومع من ؟ وما عامل والده ؟  
اندفع يحكى مسحوراً بشخصيتها القوية المرحة المستقلة الودودة .  
كانت تعرف معظم الطلبة بالاسم ، تحاول وتأمر وتنهي عند اللزوم  
من يقترب منها ويقطع حديثه ، أعطته بكل إرادتها كل مشاعرها وقتها  
واهتمامها حتى عمره واحتواه .

يومها .. لم تذهب - هي - إلى أي من محاضرات السنة الثانية .. ولم  
يسجل - هو - اسمه في قسم الاقتصاد الزراعي ، كان يحكى مسحوراً  
وكان تسمع في شغف .. تتعكس كل المشاعر على صفحة وجهها .  
وفي عينيها تترافق ردود الفعل ، تتوالى الفصول .. تصفو السماء وتغييم  
ويغيب القمر .. ويصير بدراً .. تثور أمواج البحر وتهدأ وتصفووا مياه  
النهر وتتکدر . تسقط الأمطار وتندفع جماهير في شوارع المواجهات  
الدامية ، ترق الكلمات لتستقر شعرًا مليئًا بعذابات الوحدة والغربة .  
فتکاد تبكي .. ثم تصفووا في غنائية تفاصيل بشجن العشق وعذابات الشوق  
والحنين فتحملها على جناجين من نور إلى شواطئ حلم غامض .  
مرت ساعات لم يعودا يلتقطان لندائات زملاء لها يتعجبون حالها ،  
أو زملاء له يرجبون بعودته .

حل الليل وأضيئت أنوار الكافتريا .. كان لا بد من مغادرة الكلية ..  
كان لا بد من الفراق .. حين خرجا لم يتفقا على لقاء آخر .. كان اليوم  
نهار السبت يوم راحة الرب ، فقال لها أنه سيزور أخته عصر الثلاثاء في  
كلية البنات .. وكانت قد أخبرته أن عندها في الغد محاضرة هامة في  
مدرج أربعة .. وكانت تعرف أنه قد يحضر صباح الثلاثاء قبل الذهاب

الصمت والموت تجاهد كي تعود إلى الحياة . صحبته إلى (إيزافيتش) حيث عرفت أصدقاءه وتعرفت بزملائه . إصطحبها لبيت (نذير وشلبيه) وإلى حجرة (محمد جاد) وعبرًا معًا دهاليز التاريخ القديم وسراذيب العصور الوسيطة، طاردهما المالك في حواري الأزهر وحاصرهما (الروماني) في الكنيسة المعلقة . وصلت معه خلف (إخناتون) للشمس وغنت ورقصت مع فتيات التراحيل عندما زارت معه بيوت أقاربه وحين تعرفت إلى أمه وأخوته وعندما حكى لها عن أهل قريته فرداً فرداً .

ركبا معًا سفن السنديباد وهربا من الأسر يوم هاجم التتار دمشق . وطافت متأبطة ذراعه حواري قريته ليلاً ونهاراً لا ملل . فرحت من القلب وبكت بحرقة وهي تحاول زيارته مع أخيه في سجن (المنصورة) .. امتلأت بالغضب لاستسلام زملائه للتعذيب في (أبي زعبل) دون مقاومة ، ضحكت من القلب لحكاياته عن الشاويش (بوجلاني) وعم (حسن عطية) ، دق قلبه في صدرها مع إيقاعات أناشيد وقصص ثوار الغابات في (فنزويلا) و(البرازيل) و(فيتنام) ، هتفت من القلب مع عمال التعذيب في شيلي . ذابت من الوجد والحزن وهي تقرأ له أشعار (لوركا) بعد أن قدمها إليه على ضوء قمر جريح ، صعدت جبال (إسبانيا) مع الأنصار وهي تبكي .. إصطحبها وأخيه لمشاهدة فيلم (الحياة اللذيدة) (لفليني) وأعاد عليهما قراءة السيناريو أكثر من مرة ، فناقت لروية البحر .. أنفقا عمرًا على رمال الشاطئ في (الإسكندرية) وسارا حاففين على الكورنيش من (الأنفوشي للمتزه) .. صفت وهي تقفر فرحة لسعادته يوم قبل عضواً في (الحزب) لأول مرة .. وفاقت قلبها حزنًا عندما جاءها باكيا يغرق نفسه في أحضانها لأنهم (حلوا) نفس (الحزب) وبقلوب باردة .

كانت تتلفت - خمن أنها تبحث - هي - أيضًا عنه ، صدق حدسها ..  
قالت له وهي تعطيه يدها كأنهما على موعد ..

- كنت متأكدة إنك جاي .. وعشان كده النهاردة عزمتك على الغدا يا غلبان !

ورفعت لفة مستديرة في كيس من البلاستيك أمام وجهه ، دون تكليف . قائلة في اعتزاز ودلال :

- صنعة إيديه ، حتاكل صوابعك وراها . صحيح انت قلت لي إنك طباخ متاز .. لكن يا إبني هناك فرق .. ده من إيد (جوزفين) .. استطعتمت إذنها كلمة (يا إبني) التي خرجت من بين شفتيها حنونة ببساطة مذهلة - أخذت قلبه .. سارت به في حدائق الكلية . ومشاتلها كانها تقدم له حديقة قصرها الخاص الذي تعرف وتعشق كل شبر فيه .. يرحب بها كل من يراها من الجنائية وعمال المزرعة والمعدبين ثم ذهبا للكافيريا .. كان ركفهم خاليًا فجلست في مرح وقالت وكأنها تختضنه بعيونها :

- ياللا احكي انت بقى ..

وعاد يحكي وهو لا يتصور - للحظة - أنه سيكشف عن الحكى .. إلا بالموت . أكلًا ما أحضرت من طعام . حلقات من البيض المسلوق مؤطرة باللحم المتبل المفروم ، لم يهتم بمعرفة اسمه ولا طريقة صنعه مع إنها المرأة الأولى في حياته التي يذوقه أو يراه فيها . دعاها كي تأكل من صنع يديه - هو ، فصحبته إلى شقته بكل بساطة .

ظلا - ولعشرين شهرًا يقطعان شوارع القاهرة سيراً على الأقدام لا يكلان ولا يتعبان من المشي ولا من الكلام .. كأنما خمس سنوات من

كنت وديعة في حجره وهو يقص عليها حكايات سجنه ومخامرات صباح وحياته في الزنزانة (٣٦) في سجن (المصورة) ورحلته إلى الواحات) .. وليلي معتقل (القلعة)

وغنت له أغنية (أم كلثوم) (سهران لوحدي) التي كانت تتسرّب إليه خلال جدران القلعة القاسية من المقاهي الباهة الملامح في (الخليفة) .. وساندته بكل قوتها وشجعه على الإضراب من أجل الجرائد والإذاعة .. والخطابات وفتح الزنزانة ، إحتضنته وهو وحيد في عربة التراحيل يرتحف من البرد منكمشاً تحت لسع رياح الشتاء دون ملابس حقيقية .. وأيدت موقفه من طلاق أخته ، لكنها لم تسامحه أبداً .. لأنه ظل رافضاً الغوص خلف آلئ بحرها حفاظاً على بكارتها .. ولم يفهم سر نظرتها القاسية الغاضبة كلما كبلته سلاسل قيوده الأخلاقية. تمنعه من الوصول معها إلى سدرة المتنى .. مدعياً أنها ليست كالآخريات وأنه لا يرفض اتهامها له أنه أسير ماض لا وجود له أمام ما جرى للدنيا وللناس خلال خمس سنوات نفيه.

• • •

## وغر لكم الأماني . . .

○ كنْت في هذا الأمر - أتحداك أنت -  
نعم أنت بالذات . لأنك لم تكن ت يريد لهذه العلاقة  
أن تكتمل ، كنْت تريدها كغيرها.. عابرَة لا عمق  
لها .. غرت من إمكانية وصولي إلى قمة لا تعرفها  
.. نعم هل تذكر يوم جاءت إلي فجأة دون موعد  
، قلت أنها جاءت كي تنام معي وأنتي لم أفهم ..  
صرخت فيك لأنك ت يريد تلويث كل شيء تركتني  
غاضباً مؤكداً على غبائي .. وعدم فهمي رغم كل  
هذه السنين والتجارب لعواطف المرأة .. وسطوة  
رغبتها .. لمحت في عينيك اشتهاهها . يومها كان  
الأفضل لك أن تصرف .. حتى لا أقتلك .. طبعاً  
تذكرة !؟ لأنك لا تصدق أن علاقة كهذه صلة بحل  
(الحزب).. كنْت ت يريد أن أقتل الحلم عمداً ، وكنْت



عاشت وسطكم هي وأولادها سنين .. إيه الحكاية .. إيه الفرق ؟  
- دي حاجة ودي حاجة . عايز تجيب منها أولاد .. !?  
- سيدنا (محمد) جاب (إبراهيم) من (ماريا) ..  
- أنت مشنبي ..!

وهي نفسها قالت لك تحت تأثير لحظة نشوة خفية - كيف تحلم يوم تخرج من الكنيسة وسط الورد والزغاريد وأنت تحملها إلى البيت أو إلى السيارة .. ولما انتهت من حلمها قالت لك كأنها تعذر عن تماديها بعيداً إنها مستعدة أن تتزوجك في الحال وبالطريقة التي تريدها ..  
وأنت ؟ .. ماذا فعلت ؟ ..

رفضت طبعاً .. سقطت في بؤرة ضعفك القاتل ، وفتحت أبواب جحيم التبريرات - صحيحة وزائف ، حقيقة ومفتعلة - بحججة أبيها المريض بالقلب مرة .. ومراعاة لأخوتها الذين هاجروا واحداً بعد الآخر .. وخوفاً من تلك النظرة الفلقة في عينيها - من احتمالات سجنك التي يمكن أن تحدث في أي وقت.

لاتستتر خلف ذلك الطموح الخفي الذي كان يبرق في عينيها أحياناً والذي كانت تفشل في دفعه تحت ركام أخلاقي مفتعل . ولا تبرر خيبة أمملك بأحاديثك الرائعة وأحلامك المتبددة من (بكين) حتى (هافانا) .. والتي تحمل الفقراء على جناحين من شعر وحكايا ، حلم تظن أنه لن يموت - فليكن ما ت يريد .. خلّك غارقاً في غيامة وهمك لأنها لن تحتمل . سحرك لم يفعل مفعوله ، ولم ينجح في شق صدرها لانتزاع بذرة الشيطان ، فأنت لم تسمح لي بانتزاعها من صدرك - أنت أو علاقتك .

- أنت الذي لم تدرك كم تغيرت الدنيا خلال (٥) سنوات قضيتها في (بعثة) يا زميل .

لم تعرف أن الفتيات يحملن الآن في حقائبهن المدرسية شرائط تنظيم

أريد أن أثبت أن شيئاً مقدساً يجب أن يبقى بعيداً عن خسارة السياسة ودناءة الوصول على جثث الآخرين ، كنت أموت شوقاً للإكمال معها وفيها .. كنت عمداً أقاوم نفسي لأثبت أن شيئاً جميلاً يمكن أن يبقى في حياتي دون أن تدنسه خطيئة المساومة أو يكون رخيضاً معرضًا للبيع والشراء .. ولم تفهم أنت مشاعري لأنك تحسب كل شيء بحسابات عملية وواقعية وتقييس العواطف بشرط المصالح المقسم لوحدات قياس التكتيك والاستراتيجية .

إسمع .. لا أريد أن تشوه ما أتصوره عن ذكرياتي معها .. أترك لي شيئاً أعيشه كما أردت وكما عشت قبل أن تفسد كعادتك كل شيء .  
نعم كم كان هذا جميلاً ورائعاً .. أنت لم تعره اهتماماً في البداية واعتبرته عطشاً لممارسة مشاعر (الميلودrama) بسبب سنوات الحرمان الطويلة خلف القضبان .. تحديتك في البداية ثم رجوتك أن تفهم وأن تعطينا فرصة ..  
أن تحس بي وتشعر بحاجتي إليها . لكن بروتك حيال علاقتي بها كان يخيفني . و كنت أقسمت أنني سأحمي هذه العلاقة منك ومن منطقك العقلي المادي السخيف ، الذي حاصرتني به . كنت تقول بخفة وأنت تقيم جدراناً من الغل .

- لن يقبلك القبط فارفع علمك فوق قلعتها . ولن يسامحها المسلمون فلا تتركها تباهي بضعفك وتزهو بك عليهم . أملك نفسها قالتها لك - نكتة طريفة أي نعم - لكن قاسية واضحة تفهم واقع الحياة .

- لن أشرب من يديها كوبية ميه ..  
- ليه يا أمي ؟ .. انتي كنت صديقة لمدام (إيزيس) التي كانت تسكن بيتنا وفي بيتنا لسنوات . وأرضعت ابنتها وكانت تؤكلينها وتشارببنها .

## الأسرة .

لم تكن حريصاً على عذريتها حفاظاً على شرفها المزعوم . بل كان حرصك على ما تظنه عذرية أنت .

كانت بينكما (٥) سنوات فقط لكنها كانت بمثابة حقب طويلة جداً . تقاد تبلغ في طولها قرناً من الزمان .. قدر المسافة التي تفصل ما بين (لفيشاوي) وديسكو (المريديان) .. ما بين حكايات (أم يوسف) و(ساتيروكون فليني) .. ما بين خطابات (جيفارا) .. وقراراً (حل الحزب) ، ولم تفهم .. ترتكب عاماً ونصف . بل أكثر تمارس حالة المراهقة التي حرمت السجن منها قبل أن ظهر في الصورة لاضع مرآة أمام وجهك . أنت تحيي ظهوري وكان لا بد أن ظهر ولو رغمًا عن أنفك ، فما زلت لا تفهم ولن تفهم إبني توأم روحك (.. كالكـا .. والبا ..)  
إذا كنت مازالت تعتقد في أصولك الروحية .. على كل حال أنا لست عدوك .. أنا صديقك وقرينك .. قرین المرء لا يعاديه ..  
وتوأمه .. لا يؤذيه ..

على كل حال . كي تكمل لديك الصورة وتظهر لك براءتي ..  
إذهب في الثالثة بعد الظهر غداً إلى (جروبي) .. لن يحتاج الأمر لقرنفلة  
تشبّكها في عروتك ولا لمجلة (روزاليوسف) هو سوف يتعرّف عليك  
لأنه يبحث عنك .. وطلب مني أن أذهب له لقاء معك .. وسوف يعطيك  
دليل براءتي من دمها .. وبراءتك أنت أيضاً .. لو كنت ماتزال مهتماً . أن  
تعرف لماذا تسربت من بين يديك شيئاً فشيئاً .. وتبخرت أمام عينيك ..  
حملها (عفريت) الواقع بعيداً عن أشواك زهر أحلامك المهزومة ..



فِي سُرُكِ الْيَوْمِ حَدِيدٌ . . .

○ ليست هذه مذكرات يا سمير .. ولا خطابات .. فأنا لم أكن أجرو على كتابة مذكراتي بانتظام بسبب اضطراب حياتي .. ولم أكن أفكري في مراسلتكم بعد وداعنا الدامي .. أعترف .. أنك الوحيد الذي أحبني من عرفتهم من الرجال .. لا تغضب .. ولا تنفعن تقبل الأمر كظاهرة للفحص والتحليل كما علمتني دائمًا وحسب ما تقول أفكارك وكنت أصدقها وأصدقك ..

(من الضروري استبعاد عواطفنا إذا كنا نريد الوصول إلى قرار سليم..) وعمرك ما فعلتها .. كانت عواطفك دائمًا هي عينك التي ترى بها كل شيء .. ولو كنت تدري أني عرفت كثيرين غيرك ..

لي (ولماذا لا تكون أقرب كنيسة).. عرفت أن الهوة تزداد بيننا والمسافات الطويلة صارت أطول.. لكنني كنت أحبك ومازلت .. كنت أحبك على طريقي .. أنت الوحيد الذي (قدسني) واتخذ مني ملاكه الحارس .. كنت الوحيد الذي أحبني بحق .. وكانت أهون .. وأنت تقدمني لأملك الطيبة .. التي أحسست بمرارة قبالتها رغم ابتسامتها التي ذابت في رقتها وحضنها الدافئ الذي عوضني كثيراً.

كنت أبكي أحياناً وأنا في أحضان الآخرين .. وعاقبني الرب .. عقاباً صارماً ..

هل تذكر يوم التقينا في (باب الحديد) بالصدفة .. وكدت ان تختضنني وسط زحام الخلق ..

عرفت يومها أنك في أزمة مع زوجتك وأنكما على وشك الطلاق.. هل تعرف إلى أين كنت ذاهبة .. كنت ذاهبة لأكفر عن عقاب الرب .. عند طبيب الأمراض التنسالية .. !!

تواعدنا يومها على أن نلتقي ونذهب إلى القناطر .. لكي نستعيد ذكرى أحلى رحلة لنا حين كنا نلتهم العالم كفاكهـة محـرمة .. وتركتك وأنا متـأكـدة أنك لن تأتي .. فأنا أعرفك أكثر مما تعرف نفسك ..

لقد حـكـيـت لـزـوـجـتـكـ كـأـحـمـقـ عنـ كـلـ مـغـامـرـاتـكـ قـبـلـ الزـوـاجـ .. هـلـ هـنـاكـ مـنـ يـفـعـلـ ذـلـكـ ؟ـ إـلـاـ رـيفـيـ أـحـمـقـ .. كـنـتـ تـرـيـدـ انـ تـبـدـأـ مـعـهـاـ صـفـحةـ جـدـيـدـةـ .. كـنـتـ تـتـصـورـ أـنـكـ (تـطـبـ فيـ بـحـرـ النـيـلـ لـتـتـطـهـرـ مـنـ الـمـاضـيـ)ـ .ـ الـحـيـاةـ لـيـسـ شـعـراـ يـاـ شـاعـرـ .. وـهـيـ لـمـ تـفـهـمـ .. طـبـعاـ .. وجـاءـتـ إـلـيـ .. تـصـورـ جاءـتـ إـلـىـ شـقـتـنـاـ وـلـاـ أـعـرـفـ كـيـفـ استـدـلـتـ عـلـيـهاـ .. لـابـدـ أـنـكـ وـصـفتـ لـهـاـ .. حـتـىـ أـدـقـ التـفـاصـيلـ .. يـاـ مـغـفـلـ .. جـاءـتـ لـتـأـكـدـ أـنـيـ لـمـ أـعـدـ عـلـىـ

لـقـتـلـتـنـيـ .. نـعـمـ يـاـ حـيـبـ القـلـبـ عـرـفـ آـخـرـينـ حتـىـ وـأـنـاـ أـعـبـرـ مـعـكـ الـقـرـونـ بـحـثـاـ عـنـ ذـاتـيـ .. أـجـاهـدـ لـعـرـفـةـ هـوـيـتـيـ .. وـأـعـرـفـ مـنـ أـنـاـ .. كـانـ عـنـدـيـ أـمـلـ أـنـ تـقـوـدـنـيـ أـنـتـ إـلـىـ نـفـسـيـ .. كـنـتـ الـوـحـيدـ الـذـيـ أـحـبـنـيـ .. كـنـتـ الـوـحـيدـ (الـجـبـانـ)ـ الـذـيـ أـصـرـ أـلـاـ يـفـضـ بـكـارـتـيـ .. رـغـمـ كـلـ الإـشـارـاتـ لـمـ تـفـهـمـ .. وـعـذـرـتـكـ لـأـنـ الـمـسـافـاتـ بـيـنـنـاـ كـانـتـ بـطـولـ هـذـاـ التـارـيـخـ السـحـيقـ مـنـ الـقـهـرـ وـالـإـنـتـهـاـكـاتـ .. وـبـاتـسـاعـ الـهـوـةـ بـيـنـ أـحـلـامـكـ .. وـظـرـوفـ حـيـاتـيـ .. لـمـ أـحـكـ لـكـ التـفـاصـيلـ فـبـعـضـهـاـ كـفـيلـ بـتـدـمـيرـكـ لوـ وـقـعـتـ هـذـهـ الـأـورـاقـ فـيـ يـدـكـ وـكـنـتـ لـاـ تـزالـ صـادـماـ تـخـوـضـ حـرـبـكـ الشـرـسـةـ ضـدـ طـواـحـيـنـ الـهـوـاءـ وـطـوـاغـيـتـ مـصـرـ ..

كـثـيـرـونـ .. نـعـمـ .. عـرـفـ الـوـغـدـ وـالـنـدـلـ وـالـطـاغـيـةـ وـالـفـسـلـ وـالـأـمـعـةـ .. عـرـفـ -ـ الرـجـلـ الـخـرـتـيـتـ وـالـرـجـلـ الـخـنـزـيرـ .. وـالـرـجـلـ الـكـذـبـةـ .. بـعـضـهـمـ كـانـواـ مـنـ أـصـدـقـائـكـ .. لـاـ تـنـفـعـلـ .. فـكـلـ مـنـ قـدـمـتـنـيـ إـلـيـهـمـ مـنـ زـمـلـائـكـ أـصـدـقـاءـ الـقـهـوـةـ رـاوـدـنـيـ عـنـ نـفـسـيـ .. أـكـثـرـهـمـ إـلـحـاحـاـ كـانـ (ـالـقـبـطـيـ)ـ الـذـيـ تـصـوـرـ أـنـ مـهـمـةـ إـبـاعـدـيـ عـنـكـ مـهـمـةـ دـيـنـيـ مـقـدـسـةـ حتـىـ لـاـ أـصـبـحـ فـرـيـسـةـ (ـالـغـرـوـ إـلـسـلـامـيـ)ـ .. قـلـيلـوـنـ هـمـ الـذـينـ حـفـظـوـاـ غـيـتـكـ مـنـهـمـ زـوـجـ (ـشـلـبـيـ)ـ وـ(ـمـحـمـدـ جـادـ)ـ وـبـلـدـيـاتـكـ الـذـيـ فـهـمـنـيـ يـوـمـ فـاجـأـتـكـ فـيـ شـقـتـكـ بـحـجـةـ حاجـتـيـ لـشـرـحـ بـعـضـ الـمـوـادـ الـتـيـ سـأـمـتـحـنـ فـيـهـاـ فـيـ الـيـوـمـ التـالـيـ .. كـانـ ذـكـيـاـ فـعـرـفـ أـنـيـ جـئـتـ بـسـبـبـ مـلـفـ .. فـاسـتـأـذـنـ وـتـرـكـنـاـ وـحـدـنـاـ.

أـنـاـ وـصـفـتـكـ يـوـمـهـاـ بـالـجـبـانـ وـنـحـنـ عـلـىـ قـمـةـ (ـالـأـوـلـيمـبـ)ـ لـأـنـ رـيفـيـتـكـ غـلـبـتـكـ .. كـانـ يـوـمـهـاـ يـوـمـاـ فـارـقاـ فـيـ الـعـلـاقـةـ بـيـنـنـاـ .. فـقـدـ رـفـضـتـ أـيـضـاـ أـنـ تـنـزـوـجـ عـلـىـ الـفـورـ عـنـ أـقـرـبـ مـأـذـونـ .. وـلـمـ اـسـتـعـضـ فـكـاهـتـكـ عـنـدـمـاـ قـلـتـ

على أن أكون لطيفة مع شركائه .. وموليه في كل مكان .. كان ثمناً فادحاً لحياة باذخة .. وكان عقاباً شديداً كعقاب امرأة (لوط) .. لأنني لم أحافظ عليك ، تركتك لضعفك وأوهامك .. كي تدفن نفسك في أحضان حاربة أو امرأة ريفية لا تستحقك .. ولم يكن بإمكانني استعادتك حتى في صورة ذكرى .. ولم يعد للحياة طعم .. ولذا سأعود إلى (مصر) .. وأطلب مغفرة (ايرافيتش) و(ريش) .. و(الفيشاوي) .. و(أتوبيس ١٣٢) .. و(صوبة الظل) في قصر (محمد علي) .. و(القنطر الخيرية) .. و(казينو الشجرة) .. (شارع شبرا) .. و("٨" ش محمد مسعود) و(محطة القلل) و(سينما راديو) .. وإن أمكن سأطلب غفران (الزنزانة "٣٩") الدور الثاني سجن (المنصورة) .. و(زنزانة "٦" بالقلعة) و(مزرعة المحارق) .. و(عنبر ألف في العزب) . لعل الجميع يغفرون لي خطئتي ، إنني لم أحاربك من أجل حبي .. وتركتك تنتحر على طريقتك .. وإن لم يغفروالي .. فسوف أجده لنفسي طريقة أسرع للإنتحار طلباً للغفران !

كان الذي سلمني الأوراق .. هو نفسه ذلك (القطبي) الذي كان يحارب من أجل انقاذهما من الواقع في حمأة حبي الريفي .. أعطاها لي وفي عيونه نظرة تشف قاسية .. ولم أكن أعرف علاقته بك يا صديقي لأنني فوجئت به يتقدم مني ويسلمني الأوراق .. ويمضي دون كلمة .. لمحت قسوتك الفجة في نظرة عيونه عندما إلتفت ليتأكد إنني ما زلت واقفاً مسمراً مذهولاً من المفاجأة .. لأنني حتى تلك اللحظة لم استوعب مدى اتساع وتشعب صلاتك وطول ذراعك .. وخيل إلى أنه يقهقه في تشفٍ وهو يدور ليختفي عن ناظري .

•••

علاقة بك .. وحزنت لسذاجتها . لكنني حزنت أكثر وأشفقت عليك..!  
لم أكن في (بيروت) عندما ذهبت إليها من صديقك المغنى الذي لم أتعرف عليه ولكنني سمعت الشريط الذي سجلتموه هناك أيامها . ويبدو أن جزءاً من (عقاب الرب) هو ألا أكون في (لبنان) وأنت فيها . فقد كان يمكن أن ينقذني لقاونا في تلك الظروف النادرة .. كنت في (البرازيل) مع زوجي (الماروني) .. أنت تعرفه ذلك (اللبناني) زميلنا في الكلية .. كنت تسميه (البيرقة) .. وكانت أضحك من القلب .. وأقول أنك غيران منه لأنه على طرف نقىض معك .. في كل شيء .. ستعجب لأنني تزوجته هو دون كل الحيوانات والحشرات التي عرفها .. كنت أمعن في الانتقام من نفسي لأنني ضيعتك ..

لو كنت يومها في (بيروت) لتغير وجه الدنيا .. كنت يومها ستتصبح طرق النجاة الأخير .. كنت سارقتي في حضنك فوق منصة (عروش البحر) .. أو فوق جبل (أميون) أمام تمثال (فرج الله الحلو) وأمام كل تلك الجحافل التي كنت تحفل بها بإزاحة الستار عن التمثال وإغراقه في الورد .. وأصرخ فيهم لأعلن لهم أنك حبيبي .. ولكنني لم أعرف - إلا عندما عدت - أنك كنت طائر (العيد الخمسين) المغرد .. وأنك حررت (لبنان) من (طرابلس) إلى (صيدا) ومن (بيروت) إلى (بعبلبك) .. تغنى لـ (نيرودا) و(فرح الله) و(شهدي) .. وللعمال .. وللحربية والسلام .. وكل ما شدني إليك وأذابك في دمي الفاسد .. كانت علاقتي بالبيرقة قد وصلت إلى حد السفاله .. كان (عقاب الرب) شديداً .. فأنا التي لم أقم علاقة إلا مع من أرحب .. وبإرادتي الحررة .. وكانت أعتبر حرفي الجنسية جزءاً لا يتجزأ من حرفي كإنسانة .. أنا التي لم أحظ بعلاقة معك ، يا من أحبت ، أجرت

(بيروت) ، ولم تنهدم فوق رأسني صدفة إحدى بنايات (الفكهاني) .. أو (كورنيش المزرعة) .. ولم تنفجر في توقيت مضبوط مع خطواتي سيارة مفخخة عند (رأس بيروت) أو عبر (كاركاس) إلى (الحمرا) .. ولم أتعفن في أحد سجون (سوريا البعث).. أو (ليبيا العقيد) .. وأنني نجوت في اللحظة المناسبة ولم يجرني السيل في (بوخارست) ولم يقتلني على سبيل الخطأ .. العسس الغاضب المتوتر في بحرة (دمشق) أو في حواري المنطقه الصناعية أو (باب توما) ..

كل إنسان يولد مرة .. وقد يموت ألف مرة ، لكنني ولدت مرات كثيرة .. ومازالت حيا في انتظار الموت للمرة الأخيرة ، فوق فراشي .. بعد هذا الرحيل الطويل في المكان والزمان ، في الأسر وفي الحرية .. ومازالت أرافق تحولات نفسي التزقة كسحابة مرحة ، تدفع بها ريح البحر نحو ذراعي طفل جنون ، طموح ، سريع البكاء ، مشحون بالعواطف المشبوبة ، يجلس متطلعاً إلى المجرة على حافة قرية (ميت سلسيل) الغربية قبلة (سيدي مجاهد) بالقرب من (مسرف) البلهارسيا .. المزدحم بالضفادع والذي لم تقصصه الطائرات الإسرائيلية بعد ، وأن وضعيته في حسبان خططها للمستقبل - لعجزها عن تفسير ما يزدحم به عقله من أفكار . وهو يجلس ساكناً يتأمل الشمس الغاربة .. يرافق عفاريت الدنيا وهي تلعب في بحيرات الضوء الذهبية بين ظلال تيجان النخيل حول قبة الشيخ (مجاهد) .. أو حول صخرة (بيروت) . يتابع في انبعاث رقص جنيات الماء وعرائس الحواديت ، في غابات (موسكو) و (صوفيا)

و (غوطة دمشق) و (سراديب كريتر) .. قبل أن يغص قلبه بالهم الحقيقي لصراع الطبقات ، وتسلط القوى العاشمة وسحقها للشعر عبر

## إن الإنسان لفي خسر ..

○ أيتها الأسماك الحرة المسكينة .. خذيني صديقاً لك . فقد رحل عني معظم الأصدقاء .. أعاهدك أن أطلق سراح كل من يلقي به سوء الحظ منك في براثن شيكتي ، أو تلتقطه صنارتني .. فأنا أعرف مشاعر من تشق الخطايف سقف حلقه . وذقت مرارة السقوط في قبضة الشباك على اختلاف أنواعها .. فكوني صديقة لي ، بعد أن هجرني الأصدقاء الذين يخيل لي أحياناً - أن معظمهم لم يكونوا أبداً - كما صورتهم لي أوهامي .. أنا الذي لم أعد نفسي الشخص .. أنا الذي لم يكن يتباhe أي شك فيمن هو - أنا الذي كنته وما سأكونه .. رغم أنني أقنعت نفسي كثيراً ، وعلى مدد متفاوتة الطول . وبسبب ظروف مختلفة ، أنني ولدت من جديد مرات ومرات .. فلم أصب برصاصة طائشة في حواري الجامعة العربية



مداد الصبا  
فؤاد المصيبي

الليل أيضًا من سالف وقديم الزمان .  
 بيروي عطش المفترى والكذاب وابن الحرام .. ويستقي الطيب  
 والنوري البasha والوالى .. والفلح الكلح ، المكفى على سن المحرات  
 علشان يتكون مهدود على عتب الأبواب . وييل ريق الأغراط اللي سقوه  
 وسقوا بلاده الويل . وسرقوه وسرقوه منه حلاوة الليل .. وخطوات الخيل  
 . بيرويهم همه وجيوشهم وهو يحمد رباه على بق المية اللي بيبقى له .  
 ماليش أي حق ألومه أو أعاته .. لأنه مقدر له يخضر نفس الأرض  
 اللي قادره تشيل أولادها وتشيل اللي دابحهم .. وتحاجي على بناتها ..  
 زي ما بتداري على اللي فضحهم .. وعشان متحملة خطوط النكدي الظالم  
 أبو دم تقيل . والعاشق قلب المواوبل ..  
 الليل طول عمره سبيل ، ونبيل .. قبل ما تتفريح ميت سلسيل .

أنا وأنت اللي رضينا نلهم قلب أولاده في الصحراء تحت نابا لم  
 الغدر ، وندوسهم بالدبابات عينك في صهد (بؤونة) .. وسمحنا  
 للقتلة يشربوا منه ، ويقعدهوا في ضل شطوطه .. ويقتلوا شبابه ويعروا بناته  
 في سلسلة جهنمية طويلة ومتدة منذ عرف العسكر الطريق إلى العرش  
 واستنشقوا عطر السلطة فقرروا يأكلوا تمر نحيلة ، ويمسحوا أيديهم  
 الغرقانة في دم أولاده - في غض نحيلة ..

تنكر؟!.. أنا وأنت ياما هديننا حيله .. وسممنا - بذلنا وخيانتنا  
 للعيش والملح - مواعيله !

• • •

الكرة الأرضية ، من حقول الأرز في (فيتنام) حتى منازل الأزهار في  
 (شيلى) و(الأندلس) ..  
 وقبل أن يجد نفسه عاجزاً تماماً عن لوم الشمس (الأم الأزلية الأبدية)  
 على ظلم الإنسان. لأخيه الإنسان وكيف كان يستطيع؟، وهي تدفع في  
 صباحات الشتاء وأمسياته الباردة الإنسان الشقيان وقاهره المرتاح في  
 لحد واحد . تخرج كل يوم وتسطع فوق شق الحارة الغرقانة في بر크 الفقر  
 . في نفس الوقت الذي تبرق فيه وتلمع وتلعل فوق جدران القصور  
 البلورية وأشجار السلطان.. دون أن تهتز منها شعرة ضوء ..

ما ذنبها؟ .. إذا كان قد رأى العالم مقلوب الأوضاع . ووجد أن  
 الحلم الإنساني معطوب .. والتاريخ مكتوب بالطريقة التي تجبر الجميع  
 على فهمه بالمقلوب .. القادر قادر - ويلقي التبرير الرسمي الدائم لخطف  
 اللقمة من بق الغلبة .. الشمس ليست (الأم المتحدة) ولا (الولايات  
 المتحدة) لتوزع ضوءها المقدس بأكثر من ميزان .. أو بطريقة غير عادلة  
 بين العمال وأصحاب الأموال ..

كان سيجد القدرة على لومها بالتأكيد - إن أتيحت له الفرصة - لو  
 أنها طلعت فرحة تغنى طلعت يا محلا نورها وهي توقد وتفتح شبابيك  
 القصر ثم عادت فانقلبت وضررت بوز وهي تدق أبواب بيوت الفقراء  
 وتوقد رصفان حارة شق التعبان .

الشمس صريحة واضحة .. عارفة أن الحق حق . وبتطلع من ملايين  
 الأيام والسنين، توزع ضوءها بالحق وبالعدل .. هو وحده الإنسان من  
 يعطيها المبر ، ويزودها بالحجج والبراهين ليعدمها روح العدل .. أول ما  
 تطل بوجهها في مرأيتها .. وتدلله على منبع قوتها .. فتعطيه فرصة أن يتحكم  
 فيها ..